

الإسلام مرض ضد العرب

شكيب أرسلان

والدعوة إلى القومية الإسلامية

تأليف

وليام كليفلاند

ترجمة

محمد هيثم نشواني



مَنْشُورُ الْعِلَاقِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأُولِيَّةِ



الإسلام ضد الغرب

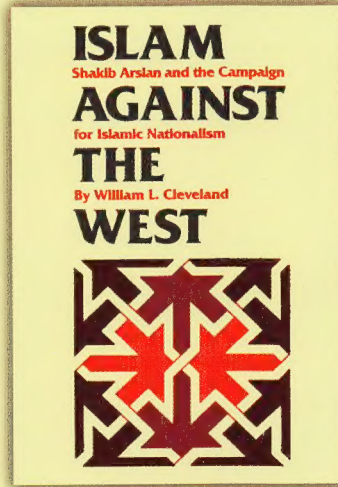
"الكتاب، رغم صغر حجمه، فيه تاريخ ثقافي وسياسي لمرحلة من أخطر المراحل في المشهد الإسلامي عند مفصل تاريخي حاسم في عالم السياسة والأفكار والتاريخ العالمي... يرى المؤلف، كما في عنوان الكتاب وفي معظم نصّه، أن شكيب أرسلان قد أسّس لموقف إسلامي، أو شارك مع المؤسّسين من أمثال الأفغاني في صياغة الموقف الإسلامي من الغرب ...

من يقرأ هذا الكتاب فسيبدأه برأي أو موقف أو خالي الذهن، ولكنه لن يخرج إلا معظماً لهذا النموذج للمثقف المسلم الرائد. ومهما مال كليفلاند أحياناً مع قومه، فإنه حقّاً حاول الإنصاف، وأنجز عملاً ريادياً، وأعطى القارئ فكرة عن مؤسّس للموقف من الغزاة".

محمد الأحمري

"إحاطة المؤلف بالسياق التاريخي لحياة أرسلان شاملة، وأحكامه عن أرسلان والآخرين وإن بدت مترفقة لكنها حصيفة. أما أسلوبه فناصع وثاقب في أن".

ألبرت حوراني



السعر:

43 ريالاً قطرياً - 12 دولاراً

ISBN: 978-9927-103-98-8



9 789927 103988

منتدى الحلق العربي والدولية



هاتف: +974 44080451 فاكس: +974 44080470 صندوق بريد: 12231

الموقع الإلكتروني: fairforum.org البريد الإلكتروني: info@fairforum.org

العنوان: مبنى رقم 28، المؤسسة العامة للثقافي (كتارا)، الدوحة، قطر

الإسلام ضد الغرب
شكيب أرسلان والدعوة إلى القومية الإسلامية



الإسلام ضد الغرب

شكيب أرسلان والدعوة إلى القومية الإسلامية

تأليف

وليام كليفلاند

ترجمة

محمد هيثم نشواتي

مَنْبَذُ الْعُلَاقِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأُولِيَّةِ



Original published as: *Islam against the West: Shakib Arslan and the Campaign for Islamic Nationalism*. By: William Cleveland. Copyright ©1985 by the University of Texas Press. All rights reserved.

عنوان الكتاب: الإسلام ضد الغرب:
شكيب أرسلان والدعوة إلى القومية الإسلامية

تأليف: وليام كليفلاند

ترجمة: محمد هيثم نشواتي

368 صفحة - 17 × 24 سم.

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: 2017/86

الرقم الدولي (ردمك): 978-9927-103-98-8 ISBN:

جميع الحقوق محفوظة لمنتدى العلاقات العربية والدولية.

الطبعة الأولى 2017.

الإهداء

إلى

G. H. K. C.: B.A., M.A., a.b.d., LLB

المحتويات

توطئة: أمة وحده - محمد الأحمرى	9
ملاحظة حول المصادر	19
شكر وتقدير	25
مقدمة	29
الفصل الأول: تشكيل الجنتلمان العربي - العثماني	45
الفصل الثاني: الحرب والمنفى	85
الفصل الثالث: تبني القضية العربية	111
الفصل الرابع: المدافع عن القومية الإسلامية: المشرق العربي	143
الفصل الخامس: معلم جيل: شمال أفريقيا	179
الفصل السادس: سلامة التقليد	215
الفصل السابع: نحو المحور	243
الفصل الثامن: الخاتمة	281
شكيب أرسلان: التسلسل الزمني	287
الهوامش	291
نُبتُ المراجع المختارة	343
الفهرس	361

توطئة

أمة وحده

يا صائدا مهج العباد بمكة والصيد في البلد الحرام حرام

حين ألقى الشاب الشاعر عبد الله بالخير قصيدته التي منها البيت السابق في استقبال أمير البيان شكيب أرسلان في مدرسته في مكة، كانت شهرة شكيب تسبقه إلى كل مكان في عالمه. ورغم تحركه في الغالب فردا فقد كان مالى الدنيا وشاغل الناس؛ فالأدباء والمؤرخون والسياسيون يقرؤون كتبه ومقالاته، ويتابعون رحلاته وتقييداته وتعريفاته. وحين قابله جمال الدين الأفغاني انفعول وتعجب لقبسات وعيه وصواب رؤيته، إلى حد جعله يكور قبضة يده ويرفع صوته قائلاً: «أنا أهني أرض الإسلام التي أنبتك» (*).

لقد حرصت منذ زمن على إتاحة ترجمة هذا الكتاب باللغة العربية؛ فهو مختلف عن الكتب السابقة التي صدرت عن شكيب أرسلان، والتي كانت تصف كثيراً من جهده ومشاركاته المهمة في أحداث زمنه، أو تلك التي تتحدث عن بيانه وعلمه وتكامل شخصيته الفذة، وتلك جهود مشكورة قدمته لأمته خير تقديم.

يختلف هذا الكتاب في جانب مهم، وهو وضع شكيب أرسلان في سياق فكري وسياسي أوضح. فالمؤلف يراه المؤسس للموقف الإسلامي من الغرب؛ فقد تولى توعية

(*) أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، 2، ص 298.

معاصريه بالغرب وأطماعه، ولم يواصل خط الأفغاني بطريقة أكثر وضوحاً ودراية فقط، بل استخدم وسائل زمنه أكثر مما فعل سابقوه ولاحقوه، ودلف إلى الحلبة العسكرية، ولو نادراً، مجيشاً مُجَنِّداً وحتى مشاركا. وكان له بدن لا يستقر في مكان، وقلم لا يكل عن الكتابة والنشر؛ مما جعل الإحصاء والإحاطة بأعماله باللغتين العربية والفرنسية مما يصعب حصره.

وليس المهم كمية المكتوب هنا، إذ كان أرسلان أشبه بمؤسسة عظيمة متحركة، سياسياً وتعليمياً ودبلوماسياً، في الدفاع عن العالم الإسلامي، والحرص على توجيه مثقفيه وناشطيه من طنجة إلى سومطرة، ومن موسكو إلى مدن أمريكا الصغيرة، وكان يصنع رأياً وموقفا دائماً، ويهز الشباب المسلم في كل قطر.

ولد شكيب في عصر من أقسى العصور وأكثرها تحولات وخيبات وهزائم ومقاومات. فهو الشاب المسلم العثماني الذي اغترف من العلوم بحظ واسع منذ يفاعته، وشبع من الثقافة العربية والأدب والشعر والسياسة واللغات المتداولة، وتلمذ ولقي وصادق وحاور وخاصم صناديد زمنه من أنصار وأعداء وتلاميذ، فمن الأفغاني وعبدو ورشيد رضا إلى جمال باشا الجزار إلى عباس حلمي وفيصل بن الحسين ومصالي الحاج وبورقية وقادة المغرب وساسة أوروبا، وحتى رأس الصهيونية بن جوريون لقيه قبل النكبة.

وفي الزمن الصعب كون لنفسه ولعاصريه موقفاً سار عليه، وربما عدّله أحيانا بحسب مقتضى الوقت، ولكنه بقي رغم التحولات صاحب رؤية ثابتة يتوجه للعمل ويوجه من خلالها. وقد ورّث الأجيال كثيراً من المواقف والأفكار، وكان معاصروه من محبين وكارهين يعلمون مدى إخلاصه وصدقه وحرصه على قضية الإسلام المغدور في زمنه بالمحتلين؛ فكان يعلم الجاهلين ويستبعد المنافقين ويوقظ الغافين والغافلين، وكان لا يدين المسلمين ولا يهجوهم بمقدار ما يسعى لأن يعوا، وكان دائب الاندفاع والإنجاز.

هذا الكتاب ليس كتاب امتداح أو ترويج؛ فشكيب شبع من مدح المادحين، ولا كتاب هجاء؛ فمثله، في جهوده، لا بد أن يهجي وبضراوة، بل أهمية الكتاب تكمن في دور عظيم لثقافت في صناعة موقف حضاري بقي رغم عشرات السنين مؤثراً وهادياً لمن عاصره ولمن بعده. وإذا كان الأفغاني قد تعجب منه وهناً عالم الإسلام به، فإن شكيبا عاش ليفعل ويفكر ويؤثر كما لم يخطر ببال الأفغاني، وتهيأت له من الوسائل أضعاف ما تهيأ لسابقه من رجالات الوعي والتنوير الإسلامي.

ربما كان تطوير أو تأسيس شكيب للموقف الإسلامي المضاد للغرب يحسب ضده، في زمن كانت الحاجة تلح على مثله أن يسعى إلى دمج العالم الإسلامي في عصر التطور والصناعة والمعرفة، فقد أيد كل أسباب القوة، ولكن له عذر كبير في صناعة الموقف المعادي للغرب، وهو أنه وجد المتغربين في زمانه، وخاصة في تركيا عاصمة القوة وخلافة المسلمين، قد انقضوا على الإسلام وعلى كل رموزه من اللباس إلى الحرف العربي إلى الموقف من جنس العرب إلى رابطة الإسلام، أو ما سمي آنذاك بـ«الجامعة الإسلامية»، وعادوا بأثر تفرنسهم يعادون كل شيء إسلامي وعربي، ووجد المتغربين مندمجين في سياسة المحتلين الفرنسيين والإيطاليين والإنجليز، ومن يتحدث في التاريخ يختلف تماماً عما يعاصر ويعاني ويصنع الموقف السياسي.

بدأ موقف أرسلان بمحاولة إصلاح الخلافة، ولما شهد هدمها على أيدي المتغربين لم يكذب يصدق، وكان يشهد القوى المسيحية وهي تحتل وتسيطر وتقتل وتتهب العالم الإسلامي، فكان التنذير والمعلم للتوعية، بدءاً بالمقال والخطبة والزيارة، وانتهاءً بنشاطه في تأسيس مؤسسات إسلامية، منها «جمعية العبادة الإسلامية» في برلين عام 1924، التي تهدف إلى تأسيس دور عبادة للمسلمين في ألمانيا، وجهوده في تجنيد الرجال لحرب المحتلين الإيطاليين في ليبيا، ومناصرة الثوار ودعاة التحرر في المغرب والجزائر وتونس. لقد تمتع بكمال شخصية وتكامل نادر بين اللغة والأدب والسياسة والدبلوماسية،

والنشر والكتابة المستمرة، والاهتمام الإسلامي العام بكل جوانبه. وهذا ما جعل مقر إقامته في جنيف كما وصفه المؤرخ جوليان: «الحبل السري للعالم الإسلامي» (*).

لم يقف إرساله عند دور الكتابة والزيارة والحديث؛ بل كون جيشا ليساعد في إنقاذ ما أمكنه. وهو جيش كونه بنفسه، وجمع تمويله من الناس، وذهب به يريد بلوغ ليبيا، وألبس جنوده اللباس المدني حتى لا يلاحظهم الإنجليز في مصر، وتمكن من ذلك. ومرة أخرى كون أفرادا لحماية السويس، ولم ينفذ هذا الجيش مهمته. ولكن جمال باشا رغب في أن يستعمل هذا الجيش في الدفاع عن الدردنيل. وفي الحرب العالمية الأولى شارك في قوة المتطوعين المدافعين عن الساحل اللبناني السوري.

وقد وضعته فرنسا إلى جانب بعض الطلاب العرب تحت المراقبة، بحجة أنه متآمر قوي ومؤثر. وكانت فرنسا تراه يضرها على العصب الحساس، وتتهمه زمن احتلالها سوريا بأنه لما كان في برلين حاول تجنيد ضباط ألمان لقيادة المقاومة، أو كما تسميهم فرنسا بـ«المتمردين»، كعادة المحتل في وصف كل من يقاومه بالتمرد.

سر الاختلاف عليه

من كان في تميزه وتأثيره الكبير فلا شك سوف تختلف الأنظار في تقييمه، فدعاة الجامعة الإسلامية اتفقوا معه في مرحلة حرصه الأول على الجامعة الإسلامية، عندما كانت أملا جامعا وحاميا للأمة من الاحتلال الغربي. وعندما تراجع عبد الحميد ليعيد المشروطة أو «الانتخابات النيابية لمجلس المبعوثان»، تحمس شكيب وكتب كتيباً عن الموضوع. كرهه القوميون لموقفه الإسلامي الجارف والصريح، وفي زمنه لم تكن قد تميزت المواقف والانتماءات الأيديولوجية الرسمية والشعبية، غير أنه كان ذا أثر بالغ في سياق زمنه، وكان يعمل مع الجميع.

كغيره، ما كان يملك أن يفعل شيئاً كبيراً عند اشتعال الحرب الأولى غير البحث عن إغاثة وتواصل دولي مع المنظمات التي يمكن أن تخفف المجاعة عن الشام، وبلغ من تحميله كل أذى من قبل خصومه أن اتهموه بدور في المجاعة التي أصابت لبنان أثناء الحرب، مما جعل كليفلاند يدافع عنه لعدم صحة تلك التهم.

أهمية الكتاب

كتبت مؤلفات شهيرة وكثيرة عن شكيب أرسلان، وكتب هو أيضاً مذكراته، غير أن هذا الكتاب له أهمية وخطورة ليست فقط مستقاة من عنوان الكتاب اللافت وربما المستفز كما وضعه المؤلف، إنما في المحتوى وفيما يمكن أن تخرج به من هذا النص المهم في تاريخنا الفكري والسياسي.

فالكتاب، رغم صغر حجمه، فيه تاريخ ثقافي وسياسي لمرحلة من أخطر المراحل في المشهد الإسلامي عند مفصل تاريخي حاسم في عالم السياسة والأفكار والتاريخ العالمي. كذلك يرى المؤلف، كما في عنوان الكتاب وفي معظم نصه، أن شكيبا أسس لموقف إسلامي، أو شارك مع المؤسسين من أمثال الأفغاني في صياغة وتأسيس الموقف الإسلامي من الغرب. وهو تأسيس قام على التناقض والتنافر، بل المواجهة الثقافية والسياسية والعسكرية مع الاستعمار، ومع الأفكار والتميزات والتحيزات ضد المسلمين. وتستنتج من عمل المؤلف الذكي والشامل أن تأسيس هذا الموقف الشهير لهذا الموقف قد أصبح متوارثاً وعميقاً ومنتشراً عبر تلاميذ ومثلي لأفكاره، ورصيداً ثقافياً هائلاً وضعه الرجل وأنصاره عبر العالم الإسلامي.

وقد رصد الغرب مبكراً هذه الشخصية، وراقبوا دورها في صناعة الرأي العام، بل لاحقوا وتبعوا مبادراته المتنوعة، سواء كانت تشكيلاته العسكرية التي قامت بالمشاركة في الحرب ضد الإيطاليين في ليبيا، أو دوره ضد الفرنسيين في سوريا والمغرب الكبير.

وهذا التقييم التاريخي لموقف شكيب صحيح إلى حد كبير، وإن كانت صياغة عنوان المؤلف استفزازية، غير أنه كان دقيقا في كثير من توصيفه، وشرح موقف شكيب من العالم الاستعماري الغربي في زمنه. أما تجريم هذا الموقف أو تأييده فيجب أن يقيم في سياقه الواقعي، لا الرؤية البعيدة جدا عن ذلك الزمن وتلك التحديات. وكيف يمكن أن ينظر مؤرخ للفكر وللسياسة مطالبا من الضحايا بأن عليهم أن يسلموا بلادهم للغزاة وللقنلة، وأن يبادلوا جرائمهم، من إبادة وقتل، بالتسامح والحد الآخر؟ وكيف يمكن لعادل أن يطالب ضحايا العنف والإرهاب والإبادة الجماعية لعالم العرب والمسلمين بالتسامح والقبول والبحث عن مكونات حضارية عند الغازي القاتل؟ إن من يؤرخ الآن لذلك الحدث، ويطلب من المقيمين بكل صنوف القهر التسامح مع الاستعباد والاحتلال واغتصاب الأرض والإنسان، والعنصرية والقسر على ترك الدين واللغة وتسليم كل شيء أو الموت، مجرد وارث للخوف القديم، ويجدد موقف الخائفين التابعين في عصورنا وأجيالنا المرعوبة.

هذا لا يعني أنه كان متطرفا أو معاديا لنصارى العرب أو أي مكون من مكونات عالم الإسلام، كيف وهو نفسه مزيج من عناصر عرقية مختلفة، فقد ترفع عن أي عنصرية دينية أو عرقية وعمل لمصالح عالمه بوعمي وفقه عميق للإسلام وتاريخه. كان يرى الفرنسيين والإرساليات التبشيرية الغربية التي درس هو في بعضها تصنع التبعية لحكوماتها وتمزق المجتمعات الشرقية؛ فقام بما يضاد ذلك، وعمل على تحسين وضع المسيحيين والموارنة على وجه الخصوص، لينهي لجوء فئات من الشعب إلى الأجانب ويرفع الظلم عنهم؛ لأنه ظلم ولأنه يمهد الطريق للمحتلين أو يبرر لهم، كما فعل حين ألح على عودة البطريك حويك للجليل بعدما نقله جمال باشا إلى دمشق، لما في هذا من جور عليه وضغينة يسببها للموارنة ضد المسلمين والعثمانيين. وكان حريصا على الوئام الداخلي في المجتمع بشتى الطوائف، ويكن تقديرا للقيادات المسيحية المعادية للاحتلال مثل ميشيل لطف الله، الذي عمل بعض الزمن تحت تأثيره وتوجيهه، كما أشار كليفلاند

هنا، وكما كتب ذلك رشيد رضا في مذكرات سفره حين كان نائباً لميشيل لطف الله، وأثنى على كرمه وشممه وموقفه المحتلين(*).

وقد ساعدت وساطته في التخفيف من بعض العقوبات التي ارتكبتها جمال باشا في الشام من قرارات نفي لمن اعتبرهم عملاء للفرنسيين من أمثال بعض الوجهاء، كخليل الخوري والد أول رئيس للبنان بشارة الخوري، وقد ذكر دور تلك الوساطة ابنه بشارة في مذكراته. وقد توسط حتى لخصومه، مع أن شخصاً كبيراً مثله يحرص على المصالح العامة قد يساء تفسير كل تصرفاته. ثم إنه كتب وقال مبكراً منذ عام 1915 كما نقل كليفلاند: «إن سياسة جمال باشا في سوريا كانت من أعظم المصائب على الدولة العثمانية وعلى الأمة الإسلامية.. إن سياسة الشدة هذه غير موافقة لمصلحة الدولة، وإنني خائف من عواقبها». وطلب من أنور باشا الإفراج عن المعتقلين، ومنهم بعض أعدائه، وقال: «ولكنني لست في باب الصداقة والعداوة، بل في مصلحة الدولة والملة فقط».

ضد المحتلين وفي حماهم

لم يتغير الواقع الذي يعانيه المسلمون منذ أكثر من قرن، وهكذا نرى أرسلان يؤسس لفكر وسياسة إسلامية مضادة للاحتلال الغربي، ويسافر إلى الغرب ويعيش زمن تأثيره في سويسرا، ويراقبونه ولا يخرجونه؛ ذلك لأن مستوى الحرية التي يتمتع بها مواطنو الغرب تسمح بوجود شيء منها للقادمين من المستعمرات من الغرباء، ليتمتعوا ببعض حقوق الإنسان المسلم بها في بلادهم، وإن كان هذا قد تغير في زماننا بسبب وسائل الاتصال وإحكام التضييق على المسلمين، فالتطور والتقنية يعملان اليوم في أكثر من اتجاه، وأصبح نقد الاحتلال صعباً، ويربط بمواقف بعيدة ومخيفة لإسكات كل الأصوات.

ولعل هذا الموقف المنقول عنه يبين بكل وضوح من هو، فقد تحدث في حفل شاي على شرفه في برلين بقوله: «نحن ليس في صدورنا غل خاص بالفرنسيين، ولا للإنكليز

(*) انظر رحلات الإمام محمد رشيد رضا، جمعها وحققها الدكتور يوسف إيبش.

لو لم يحتلوا بلادنا، وما نحب الألمان إلا على شرط أن لا يأتوا ما أتاه أولئك من الطمع في ملكنا، فإنهم إذا طمعوا يوماً في استعمار بلادنا كانوا في نظرنا أعداء مثل غيرهم» (*).

وقد كشف المؤلف هنا طرائق الغرب في المتابعة والمراقبة والتسجيل على أرسلان، فقد كان مراقباً من عدة أجهزة حكومية في أوروبا، وحين صدر قرار سويسرا بإيقاف التجسس على هاتف شقته في جنيف، في الحادي عشر من ديسمبر 1946، كان قد مات قبل ذلك بيومين في بيروت.

أعوام الحزن

رأى شكيب الخلافة تنهار بين يديه، والمستعمرين ينهشون البلاد وينفذون بكل وسيلة القمع البدني في المستعمرات والمحميات الخاضعة لهم، والبريطانيين يصبون اليهود في فلسطين صبا ليقتلوا أهلها منها؛ فكتب للذين خانوا وتحاذلوا من قومه يقول: «كلما عاتبهم الإنسان على خيانة اعتذروا بعدم إمكان المقاومة، أو باتقاء ظلم الأجنبي، أو بارتكاب أخف الضررين، وجميع أعذارهم لا تتكئ على شيء من الحق. ولقد كانوا قادرين أن يخدموا ملتهم بسيوفهم، فإن لم يستطيعوا فبأقلامهم، فإن لم يستطيعوا فبالستهم، فإن لم يستطيعوا فبقلوبهم» (**).

لقد قام أرسلان بدور المثقف المنذر الموجه المري، والمنغمس طوال وقته بقلمه وقلبه وعقله ويده ولسانه في المناقشة عن العالم الإسلامي، دون نظر للون ولا جنس ولا قومية، فقومه هم المسلمون والقومية عنده هي بلاد الإسلام، وأهله هم المسلمون من ألمانيا إلى البلقان إلى المغرب وفلسطين وسوريا والملايو وإفريقيا، نافح عنهم بالعربية وبالأعجمية الفرنسية، وكان يكتب بمعدل أكثر من مائة مقال في العام بأي من اللغات التي أجادها.

(*) انظر ص 140.

(**) شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون؟ ص 48.

من يقرأ هذا الكتاب فسيبدأه برأي أو موقف أو خاليّ الذهن، ولكنه لن يخرج إلا معظماً لهذا الأنموذج للمثقف المسلم الرائد. ومهما مال كليفلاند أحياناً مع قومه، فإنه حقاً حاول الإنصاف، وأنجز عملاً ريادياً، وأعطى القارئ فكرة عن مؤسس للموقف من الغزاة. ومن فهم زمن أرسلان فلن يخرج بغير ما خرج به المؤلف والمؤلف عنه. ومن حسن حظنا أن مؤلف الكتاب لا يبدو هنا مندمجاً مع الشعر والأدب، بل رصد الدور الفكري والسياسي الهائل لشكيب أرسلان. وما كان الطالب الشاعر بالخير الذي صاد أرسلان قلبه يخمن أن أمير البيان سوف يصيد أيضاً، بعد أكثر من نصف قرن، عقل كليفلاند المؤرخ المنصف الثقف القادم من بعيد.

محمد الأحمرى

ملاحظة حول المصادر

مختصرات

- (Archives Federales Suisses, Bern, E 4320, Arslan) AFS *
- المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن (E 4320)، أرسلان
- (Archivio Storico del Ministero degli Affari Esteri, Rome) ASMAE *
- الأرشيف التاريخي لوزارة الشؤون الخارجية، روما
- (Foreign Office Records, Public Record Office, London) FO *
- سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن
- (*La Nation Arabe*) LNA *
- لناسيون أراب (الأمة العربية)
- (Archives du Ministere des Affaires Etrangeres, Paris) MAE *
- محفوظات وزارة الشؤون الخارجية، باريس
- Microfilm Records of the German Foreign Office) NA *
- (.Recived by the U.S. Department of State, National Archives, Washington, DC
- سجلات شرائط الأفلام المجهرية (الميكرو فيلم) لوزارة الخارجية الألمانية المستلمة من قبل وزارة خارجية الولايات المتحدة، المحفوظات الوطنية في واشنطن العاصمة.
- (Shakib Arslan, al-Sayyid Rashid Rida aw Ikh' arab'in sanah) RR *
- شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا أو إخوان أربعين سنة.

حول النقل الحر في (النقحرة) للكلمات العربية

يعتمد الباحثون الفرنسيون والإنكليز أنظمة مختلفة من النقحرة العربية، وهذا يؤثر بصورة خاصة في دراسة تركيز على حياة مشرقى عربي ناشط في شمال أفريقيا الفرنسي. استخدم [شارل-آندريه] جوليان، مثلاً، اسم "لومير شكيب" (L'Emir Chekib)، في حين استخدم [ألبر] حوراني اسم "أمير شكيب" (Amir Shakib) إشارة إلى الشخص نفسه، ولم أحاول التوفيق بينهما. كذلك بقيت تهجئة أسماء أعلام مغربية معروفة وفق الأسلوب الفرنسي الذي اعتمده جون بي. هالستيد في كتاب إحياء أمة (Rebirth of a Nation). في حالات أخرى، قصرت استخدام علامات التشكيل على كتابة حرف العين (ayn') والمهمزين المتوسطة والمتطرفة.

وردت عناوين المقالات المكتوبة باللغة العربية مترجمة [إلى الإنكليزية] في الهوامش، ما يساعد المتخصص الراغب في الرجوع إلى المقالة في العثور عليها، ويوفر لغير المتخصص فهماً أفضل للموضوع. أما عناوين الكتب العربية فوردت بصيغة النقحرة، وتضمن المدخل إلى ثبث المراجع ترجمة كل عنوان.

ترك أرسلان لكاتب سيرته مصادر وفيرة، كونه شخصية عامة إلى أبعد الحدود، وكاتباً غزير الإنتاج كثيراً ما كان يكرر نفسه. تضمن نتاجه عشرين كتاباً، وديوان شعر، وحوالي ألفي مقال. وعلى الرغم من أن واحداً منها فقط كان سيرة ذاتية (غطت السنوات حتى عام 1923)، فإن أرسلان لم يكن يتورع قط عن الدعاية لذاته، وكرس أجزاء كبيرة من أعماله الأخرى لتغطية أنشطته الخاصة. لكنها اقتصر في كل الأحوال على الأنشطة التي رغب في إشهارها - إذ بقي أرسلان متحفظاً حيال حياته الشخصية، وترتيباته المالية، وعلاقاته المثيرة للجدل مع دول المحور.

جسرت هذه الفجوة جزئياً مصادرُ أرشيفية، حيث جذبت أنشطة أرسلان في أوروبا ومناوراته المتعلقة بسياسات الشرق الأوسط انتباه الحكومات الأوروبية، التي زحرت

ملفاتنا بتعليقات كشفت النقاب عن سيرة الرجل ومساره. لكن ينبغي استخدام المعلومات المدونة عنه في تلك الملفات بحذر؛ لأنها ليست كلها مستندة إلى معلومات مستقاة من مصادر أصلية، وتضخم أحياناً مدى نفوذ أرسلان وقدراته، ويكشف طابعها المثير المخاوف الأوروبية بقدر ما يكشف تطلعات أرسلان وطموحاته. تجدر الإشارة في هذا السياق إلى مجموعة استثنائية من المواد والمعلومات الأرشيفية. في معظم سنوات فترة ما بين الحربين [العالميتين الأولى والثانية]، كانت سويسرا قاعدة عمليات أرسلان. وقد أزعجت تشابكات علاقاته العديدة السلطات السويسرية، التي فضلت مراقبته عن كسبه، ثم أخضعته لرقابة لصيقة وفاعلة، فاستدعته للاستجواب أحياناً، وكتبت عنه تقارير تتسم بالدقة عموماً. لذلك اعتبرت الملفات السويسرية المترنة مصادر معلومات موثوقة عن أنشطة أرسلان الأوروبية، واستخدمتها في حل بعض المسائل المثيرة للجدل حول شؤونه الشخصية.

إلى جانب مجموعة أعماله الفكرية المنشورة، كان لدى أرسلان كم هائل من المراسلات. وعلى الرغم من أن مجموعة الرسائل الأصلية ليست في متناول الجمهور⁽¹⁾، فقد أقدمت وكالات استخبارات بريطانية وفرنسية وسويسرية وإيطالية مختلفة على اعتراض رسائله مراراً بحيث شكلت بحد ذاتها مجلداً صغيراً. أما اتصالاته مع أعضاء مسؤولين وشبه مسؤولين في السلك الدبلوماسي الألماني فقد حوتها الوثائق التي استولت عليها قوات الحلفاء. كما أدرج أرسلان نفسه الرسائل التي تلقاها من رشيد رضا في كتاب السيرة الذي ألفه عنه، واستنسخ أحمد الشرباصي في كتابه أمير البيان خمسا وخمسين رسالة بعث بها أرسلان إلى رضا وتغطي السنوات الممتدة بين عامي 1922 و1935.

لم تمر إسهامات شخصية بارزة إلى هذا الحد مثل أرسلان دون رصد وتسجيل. إذ أنشأ اثنان من كتاب السيرة العرب، أحمد الشرباصي من مصر وسامي الدهان من سوريا، صناعة نشر صغيرة اعتماداً على أرسلان⁽²⁾. وقد تطابقت تفسيراتي مع تأويلاتهم في بعض الحالات، إلا أننا اختلفنا في حالات كثيرة. ففي ممارسة الانتقائية المفروضة

على كل كتاب السيرة، اختاراً أن يتسترا على أكثر جوانب سيرة الأمير إثارة للجدل - علاقاته مع جمال باشا خلال الحرب العالمية الأولى، وصلاته بإيطاليا وألمانيا في أواخر الثلاثينيات. اعتبرت هذه المسائل المثيرة للجدل حيوية في تطور سمعته، وحاولت التأكيد على أهميتها. وفي حين أني لست أقل احتراماً منهما لأرسلان، فإن تقويمى لموقعه من حركة الإصلاح الإسلامي يمنحه درجة أصالة أدنى من تلك التي أسبغها عليه، إذ أكدا على أهمية التزامه بالخط السياسي العروبي فيما قللت من شأنه. كما نقصيا على نحو ملائم إسهامه في الأدب العربي الحديث، وهو موضوع لم أتطرق له قط. أخيراً، وانطلاقاً من حرصهما على تأكيد الدور الذي لعبه أرسلان في عالم المشرق العربي، أغفلا أنشطته في شمال أفريقيا. مع ذلك، وعلى الرغم من نقاط تركيزنا المتباينة أحياناً، فأنا مدين لهما بالفضل العلمي، وأعترف به لهما بامتنان.

تستخدم بعض المصادر التي ورد ذكرها كثيراً في هذه الدراسة السنوات الميلادية والهجرية على نحو متقطع في التأريخ. على سبيل المثال، في 1930/31 [لم يرد ذكر الشهر]، كفت مجلة الفتح عن إدراج التأريخ الميلادي وبدأت باستخدام التاريخ الهجري حصرياً. وعلى نحو مماثل، كانت مراسلات أرسلان المنشورة تستخدم أحياناً السنة الميلادية وتعتمد أحياناً أخرى السنة الهجرية للتأريخ. لذلك، بدل تحويل كل مرجع هجري، ذكرت التواريخ تبعاً لورودها في المصدر الأصلي، وأرفقت الجدول التالي الذي يتيح تحويلها عاماً للتواريخ الهجرية إلى التواريخ الميلادية الموافقة في الحقبة المرتبطة بالأحداث المذكورة في هذا الكتاب⁽³⁾.

السنة الهجرية	الفترة الموافقة من التاريخ الميلادي
1344	من 22 يوليو/ تموز 1925 إلى 11 يوليو/ تموز 1926
1345	من 12 يوليو/ تموز 1926 إلى 30 يونيو/ حزيران 1927
1346	من 1 يوليو/ تموز 1927 إلى 19 يوليو/ تموز 1928
1347	من 20 يوليو/ تموز 1928 إلى 8 يوليو/ تموز 1929
1348	من 9 يوليو/ تموز 1929 إلى 28 مايو/ أيار 1930
1349	من 29 مايو/ أيار 1930 إلى 18 مايو/ أيار 1931
1350	من 19 مايو/ أيار 1931 إلى 6 مايو/ أيار 1932
1351	من 7 مايو/ أيار 1932 إلى 25 أبريل/ نيسان 1933
1352	من 26 أبريل/ نيسان 1933 إلى 15 أبريل/ نيسان 1934
1353	من 16 أبريل/ نيسان 1934 إلى 4 أبريل/ نيسان 1935
1354	من 5 أبريل/ نيسان 1935 إلى 23 مارس/ آذار 1936
1355	من 24 مارس/ آذار 1936 إلى 13 مارس/ آذار 1937
1356	من 14 مارس/ آذار 1937 إلى 2 مارس/ آذار 1938
1357	من 3 مارس/ آذار 1938 إلى 20 فبراير/ شباط 1939
1358	من 21 فبراير/ شباط 1939 إلى 9 فبراير/ شباط 1940

شكر وتقدير

إن كل الأغلاط التي وردت بين دفتي هذا الكتاب والإغفالات المتعلقة به تقع تبعاتها على عاتق المؤلف. وقدر كبير من المزايا التي يمكن أن تحسب له يعود الفضل في تحقيقها إلى المساعدة الكريمة التي تلقيتها من عدد كبير من الأشخاص في محطات كثيرة من إعدادات الأبحاث المتعلقة به. وفي حين لا أستطيع ذكر أسمائهم جميعاً، فإنه لمن دواعي سروري أن أنوه بإسهامات أولئك الذين تكرموا بتكريس أوقاتهم وجهودهم على نحو مباشر للمساعدة في جعل هذا الكتاب يبصر النور.

كان زميلي جون سبانولو بالنسبة لي دليلاً هادياً موثقاً عبر متاهة لبنان المعقدة في القرن التاسع عشر ومزوداً سخياً بالوثائق. وتلقى كل من دونالد ريد وجيمس يانكوفسكي أسئلتني واستفساراتي بصدر رحب ووجه بشوش وأعاراني كتباً من مكتبتيهما الشخصيتين، أو حصلاً عليها من أجلي ونيابة عني من القاهرة. وجنّبي رودولف بيترز الوقوع في أغلاط عديدة عبر قراءته هذا الكتاب قراءة تدبر متأنية، وإدوارد إنغرام، على الرغم من عظيم أسفه لزوال الإمبراطورية البريطانية، أظهر قدرة على مراجعة الكتاب عندما كان مخطوطاً. وقد أفاد كتابي كثيراً من أسلوبه الصارم في تحريره وإعداده للنشر. كما أن هذا الكتاب مدين بفضل كبير للتعليقات والأسئلة، وقبل كل شيء، للتشجيع المستدام من قبل كل من إل. كارل براون وإدموند بيرك الثالث. وإني أعرب عن امتناني العميق لكل هؤلاء الذين أتيت على ذكر أسمائهم.

كما مد لي آخرون يد العون بطرق وأساليب شتى.

حيث زودني فرنسيس نيقوسيا بمواد بحثية عن العلاقات الألمانية العربية. وعمل ديفيد بارتينغتون من مكتبة كلية هارفارد على تلبية طلباتي من الكتب والمراجع على جناح السرعة. ودأب سيمون فريزر المسؤول عن قسم الإعارة في مكتبة تبادل الكتب على البحث بين الكتب، وواظب على تلبية طلباتي الغربية بكفاية ملحوظة. وأعرب عن شكري أيضاً إلى آيريس ألبينا، مساعدتي الممتازة في مجال الأبحاث. وأشكر جنيفر ألكسندر التي طبعت جزءاً من المخطوط وبرنيس فيرير التي طبعت المخطوط كاملاً، أكثر من مرة، مبدية قدراً من الصبر أكبر من ذاك الذي أستحقه.

وصاحبة إحدى أبرز الشخصيات التي عرفتها والأجدر بالذكر، مدام مي جنبلاط، تكرمت بإتاحة الفرصة لي لإجراء عدة مقابلات معها ساعدتني خلالها في فهم والدها. أعرب لها عن شكري لعمق تفكيرها وكرم اهتمامها وأرجو لها الخلاص من مآسي الحرب.

وأنا مدين بالشكر والعرفان لمديري دوائر المحفوظات وموظفيها جميعاً، المحفوظات التي أُنذ لي بالاطلاع عليها والإفادة منها، إلا أنني أخص بالذكر والشكر المحفوظات الاتحادية السويسرية في برن، ومديرها المساعد اللطيف دمث الأخلاق السيد دانيال بورجوا.

قد لا يتطلب العاملون في التاريخ في الأحوال الطبيعية معدات باهظة الثمن. أما نحن فيتعين علينا الوصول إلى مصادرنا. وغدت رحلتي البحثية ممكنة بفعل المنح التي قدمت لي من مجلس العلوم الاجتماعية وبحوث الإنسانية في كندا، ومجلس أبحاث العلوم الاجتماعية في نيويورك، ومن جامعة سايمون فريزر. وأنا أعرب، في هذا المقام، عن جزيل شكري وعميق امتناني للمساعدة التي قدمتها لي هذه المنظمات.

وأشير هنا إلى أن أجزاء من الفصل السادس سبق لها أن ظهرت في المجلة الدولية للدراسات التركية. وأعرب عن امتناني للمحررين العاملين في تلك المجلة لإذنه لي بإدراج تلك الأجزاء في الكتاب.

وزوجتي، جريتشين، وهي في خضم التغيير الذي طرأ على حياتها العملية وتطلب منها الكثير، تدبرت أمرها وتحملت أعباء محادثاتٍ معها ونقاشي الذي لا حدود له عن الأمير. ودأبت على تصحيح أغلاطي السلوبية، وأثبتت أنها مستعربة في الصميم.

ويليام إل. كليفلاند

إيغل هاربور، كولومبيا البريطانية

مُقَدِّمَةٌ

هذا الكتاب هو عن الجيل الأخير من العرب العثمانيين الذين كبروا واشتدت أعوادهم قبل العام 1914، المولودين تقريباً بين عامي 1870 و1890. تلقى أبناء هذا الجيل تدريباتهم وأسسوا حياتهم المهنية وخططوا لمستقبلهم في عالم الإمبراطورية العثمانية المتأخرة. وأرغموا بعد العام 1919 على إعادة تأسيس حياتهم في عالم لم يكن من اختيارهم. وفي حين واجهوا سني نضجهم مع مجموعة متنوعة من التجارب والخبرات الشخصية والاحتياجات والتوقعات، فقد كانوا ميالين إلى رؤية التنظيم السياسي والانتماء الثقافي من زاوية تكوينهم بوصفهم عثمانيين، وإلى النظر إلى تسوية حقبة ما بعد الحرب العالمية الأولى في الشرق الأوسط العربي بوصفها غير دائمة ولا ملائمة.

وتمثل هذا الاتجاه في حياة الأمير الدرزي اللبناني شكيب أرسلان (1869-1946) وفي كتاباته. يتمحور هذا الكتاب حوله بصفة أساسية، ويدرسه بوصفه رجل العهد العثماني الذي جلب لعصر الدول الوطنية الناشئة المبادئ النازمة للإمبراطورية الإسلامية العالمية. وبدلاً من أن تجعله رسالته أثراً دارساً منسياً وهو في العقدين السابع والثامن من عمره، جعلت منه قوة هائلة في السياسات الشرق أوسطية والشمال أفريقية، في الفكر العربي الإسلامي وفي أوساط الدبلوماسية العالمية. يبحث هذا الكتاب في هذه التطورات ويسعى إلى شرح أسباب حدوثها.

وإلى الحد الذي كان أرسلان عنده ممثلاً لأبناء جيله من العرب الذين تلقوا تدريباتهم في كنف الدولة العثمانية، تميّط دراسة حياته اللثام عن شيء من التعديلات التي كانت

مطلوبة، والمواقف التي اتخذت من قبل أولئك الذين طوروا أداءهم المهني، واستكملوا تدريبهم العملي في ظل النظام العثماني، إلا أنهم اضطروا إلى التلاؤم مع عالم ما بعد الحرب، عالم الدول العربية التي غدا بعضها منفصلاً عن بعض وباتت دولاً عربية محتلة. ولكن أرسلان برز لا بوصفه ممثلاً لجيله وللحقبة التي عاصرها، بل سعى مستعيناً بكل الوسائل التي أتاحت له إلى تشكيل الحقبة التي عايشها وإلى تأطيرها. وهو بفعله ذلك غداً رمزاً وقوة، وأضحت أهميته بالنسبة لتاريخ الشرق الأوسط وشمال أفريقيا الحديث تستند إلى تطلعاته الشخصية إضافة إلى ما كان قد كتبه وفعله على أرض الواقع. لقد صقل هو، إلى جانب آخرين، صورته. وكانوا يفعلون ذلك مستندين إلى أرضية صلبة؛ لأن واقع حياة أرسلان كان رائعاً بحد ذاته.

ومذ أن كان له من عمره سبعة عشر عاماً، حين نشر ديوانه الشعري الأول حتى ما قبل وفاته بوقت قصير كان دوماً مشهوراً ذائع الصيت، ورحبت دائرة نشاطاته مكاناً وامتدت زماناً. عين في عمل إداري لأول مرة في لبنان عام 1888، واختير رئيساً للمجمع العلمي العربي في دمشق عام 1938. وكان قد انتخب عضواً في البرلمان العثماني سنة 1913، واعترف به بوصفه المسؤول التنظيمي لحركة الاستقلال المغربية في ثلاثينيات القرن العشرين. أصبح مراسلاً لصحيفة الأهرام في تسعينيات القرن التاسع عشر، وأصدر العدد النهائي من مجلته واسمها: الأمة العربية وذلك باللغة الفرنسية، في جنيف عام 1938. وكان الضيف الشخصي للخديوي عباس حلمي الثاني في القاهرة عام 1912، وضيف موسوليني الشخصي في روما عام 1934. وفي كل الأعمال التي أداها، استقطب أرسلان الانتباه وأثار جدلاً ومارس تأثيراً.

استحوذت منحة دراسة لغة أجنبية غربية على جوانب معزولة من حياة أرسلان المعقدة وشبكة ارتباطاته. وقد صورته هشام شرابي بوصفه نموذجاً خاصاً للنشاط المسلم في حقبة ما قبل الحرب. وألقى كل من آلبرت حوراني ومجيد خدوري وويلفرد كانتويل سميث الضوء على إسهامه في الفكر الإصلاحي الإسلامي. وأبرز عدد من الباحثين الفرنسيين، منهم شارل أندريه وجوليان روجر لوتورنو، أهميته بوصفه مصدر

الإلهام والقوة التنظيمية المحرّضة للجماهير الشمال أفريقية، والمغربية منها، بخاصة، في ثلاثينيات القرن العشرين. ودرس كل من لو كاش هرتزو وبتش وروزاريا كارتارارو دوره بوصفه حلقة الوصل الرئيسة بين المحور والعرب⁽¹⁾. وأرسلان، وهو رجل الإنجازات المتنوعة وصاحب التأثير الذي لا جدال فيه، يستحق أن يكون موضوع دراسة تجمع خيوط حياته، وتسلط الضوء على الهدف من كتاباته وتربط بينها وبين عصره، وتشرح كيف تمكن من أن يتمتع بذلك النفوذ الواسع الذي حظي به. وما هذا الكتاب إلا خطوة في ذاك الاتجاه.

وعلى الرغم من أن تأثير أرسلان الدولي كان أكثر وضوحاً وجلّاءً فيما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، فقد كان بالفعل معروفاً ومشهوراً بحلول عام 1914. فالفكرُ التي أكسبته شهرته كانت قد تشكلت وتأطرت في كنف الوسط العثماني. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يركز اهتمامه في سيرة أرسلان ومسيرته عبر حقبة ما بين الحربين الأولى والثانية، فإنه (الكتاب) يحاجج في أنه في سبيل تقدير الرجل حق قدره لابد من فهم موقعه داخل المنظومة العثمانية، ورأيه في الإمبراطورية العثمانية بحسب تكوينها التي كانت عليه إبان السنوات التي أتيح له فيها خدمة تلك الإمبراطورية. وعبر دراسة أرسلان في هذا السياق، تُمكنُ أيضاً رؤية حيوية العقود العثمانية الختامية بالنسبة لأولئك الذين عاشوا تلك الحقبة بوصفهم عثمانيين ملتزمين بمبادئ الدولة العثمانية ومخلصين لها.

تربى أرسلان وترعرع في ظروف كان واضحاً تأكيدها على تفوق التقنيات العسكرية الأوروبية الغربية والتنظيم السياسي والتلاحم الاجتماعي الأوروبي الغربي. وعلى مدى السنوات الأربعين الأولى من عمره، كان التوسع الأوروبي في الديار الإسلامية متواصلاً تقريباً. وأعيد تنظيم وطنه من قبل الديبلوماسية الأوروبية في عام 1861. وكانت بريطانيا قد احتلت مصر سنة 1882، فيما كانت فرنسا ما تزال تحتل الجزائر وتحكمها منذ عام 1830، وجعلت من تونس سنة 1881 والمغرب عام 1912 محميتين خاضعتين لها. بينما شنت إيطاليا هجوماً مباشراً على طرابلس الغرب

في عام 1911. وشكلت روسيا تهديداً مستمراً في المضائق وعلى طول الحدود العثمانية الشرقية. وبالإضافة إلى ذلك، تشكلت دول جديدة في منطقة البلقان انبثقت من رحم أراضي الدولة العثمانية. وبالتحالف مع قوة أوروبية أو أخرى، عمدت هذه الدول إلى تقسيم أملاك الدولة العثمانية والمناطق التي كانت خاضعة لسلطانها.

أثارت عروض القوة المادية الأوروبية هذه طائفة من الردود من الدولة العثمانية ومن رعاياها. وفي مركز الدولة، ضغطت مجموعة ناشئة من موظفي الخدمة المدنية ذوي الفكر الإصلاحي في سبيل تبني نظام حكم على شاكلة أنظمة الحكم القائمة في أوروبا. وشكل وضع الدستور العثماني في عام 1876 موضع التنفيذ الفعلي ذروة جهود تلك المجموعة الرامية إلى تعزيز الإمبراطورية بهذه الطريقة. ولكن في غضون ثلاثة عشر شهراً من تاريخ إعلان الدستور وتبنيه، علق السلطان عبد الحميد الثاني العمل به، وحكم الإمبراطورية على مدى السنوات الثلاثين اللاحقة حكماً استبدادياً، أو لنقل بوصفه السلطان الخليفة الواعي لذاته.

داخل الولايات العربية التابعة للإمبراطورية، أكدت مجموعة من الظروف المحلية المختلفة والتنوع الطائفي الكبير، أن جهود عبد الحميد الرامية إلى تقيد تدفق الفكر والتأكيد على المعالم الإسلامية لنظام حكمه لن تستقبل استقبلاً متسقاً متاثلاً. وعلى الرغم من أن التصنيفات التخطيطية تجاوزت بالتعرض لخطر الإفراط في التبسيط، فمن المسلم به على وجه العموم أن النزعات السياسية التي كانت سائدة في أوساط العرب إبان عهد حكم عبد الحميد وخلفائه من تركيا الفتاة، كانت النزعة الإسلامية والنزعة العثمانية والشعور المتنامي بالتميز الثقافي للعرب.

والنزعة الأخيرة التي كان العرب على اختلاف أديانهم يتشاركونها، كانت أكثر وضوحاً وجلاءً في أوساط مسيحيي سوريا الكبرى⁽²⁾. وبدءاً من أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر، شجع جهد ثقافي مستدام بذلته البعثات التبشيرية الأمريكية والأوروبية تشكيل مجموعات من النخب الفكرية والثقافية المسيحية صغيرة الحجم،

لكنها كانت فاعلة وناشطة إضافة إلى تكوين طبقة مسيحية مهنية احترافية. وقد رآد أعضاء تلك المجموعات إعادة اكتشاف التراث الأدبي العربي الكلاسيكي، وشرعوا في تجريب أجناس أدبية جديدة، بخاصة الصحافة، حيث ساعدوا عبر مذهبهم العقلي الحماسي والواقعي في تشكيل عصر أطلق عليه اسم عصر النهضة أو اليقظة.

وفي توليفة تتساق مع مساعيهم الجمالية الفنية، اقترح بعض أبناء الطائفة المسيحية السورية إقامة رابطة سياسية مع فرنسا، بوصف ذلك وسيلة لتحررهم من الوضع الأقلوي الذي يكابدونه ضمن مجتمع إسلامي بات قمعياً أكثر من أي وقت مضى. وقد أدت هذه الآمال ببعض الكتّاب المسيحيين إلى الخط من قدر المؤسسات الإسلامية، وإلى تشكيل عقيدة علمانية عربية عدّت الإسلام مجرد عنصر واحد من عناصر عديدة تشكل مجتمعة التراث الثقافي العربي. وفي حمأة نشاط متزايد أعقب ثورة عام 1908 (ثورة تركيا الفتاة)، نظم دعاة هذا التوجه جمعيات سياسية ناقشت المزايا المحتملة من الانفصال السياسي عن الإمبراطورية العثمانية. وبالإشتراك مع المسلمين العرب، تقدم أعضاء هذه الجمعيات بمطالب ترمي إلى تحقيق مزيد من الاستقلال الثقافي عن اسطنبول.

وإن كان في وسع شخصيات بارزة معينة من داخل الوسط المسيحي السوري أن تنظر إلى أوروبا، لا على أنها تمثل تهديداً، بل بوصفها نموذجاً يحتذى وحليفاً محتملاً، فإن نظراءهم المسلمين لم يكونوا قادرين دوماً على التوصل إلى استنتاجات مماثلة⁽³⁾. ومع مطلع القرن العشرين، كانت ثمة حركة إسلامية إصلاحية نشطة قد تشكلت وقطعت شوطاً كبيراً في مسيرتها في الشرق الأوسط. وكان مركز تلك الحركة في القاهرة، ولكن كان لها أنصار في المدن العربية الكبرى التي كانت آنذاك خاضعة للإمبراطورية العثمانية. وبمعنى واسع، كانت الحركة ترمي إلى الحث على إحياء الإسلام سياسياً وفكرياً. وسميت حركة الدفاع عن النظرة إلى الذات التي تضررت، ذلك لأنها جاءت في معرض الرد على التهديد السياسي والثقافي المفروض على الأمة والذي تمثله أوروبا المسيحية. وقد

تجاوزت الحركة هذا الهدف وصولاً إلى محاولة تأكيد صحة التجربة التاريخية الإسلامية برمتها، ومحاولة إثبات جدارة الإسلام بوصفه أسلوب حياة وتقليداً ثقافياً⁽⁴⁾.

في الولايات السورية التي كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية، عملت حركة الإصلاح الإسلامية بالاشتراك مع الحركة العثمانية على إنتاج رؤية للخلافة العثمانية، بوصفها رمزاً حيوياً لاستقلال الإسلام عن أوروبا. و"العثمانية" مفهوم صعب التعريف، ولكنه كان في الأساس محاولة لإثارة مشاعر حب الوطن العثماني. وهي التي كان يمكن تبنيها من قبل الشعوب التي كانت خاضعة للإمبراطورية متعددة الجنسيات جميعها. ولكن أظهرت الثورات المتكررة في مقاطعات البلقان أن مثل هذه المشاعر يمكن، في أحسن الأحوال، أن تجتذب الشعوب المسلمة التي كانت خاضعة سابقاً للإمبراطورية إلى جانب العرب والأتراك. وإلى جانب ذلك، اجتذبت تلك المشاعر بما لا يدع مجالاً للشك شكيب أرسلان، الذي رأى في تلك العقيدة خدمة لمبادئه ولأسباب راحته المادية.

وفي سياق صعوده ليغدو سياسياً إمبراطورياً بارزاً، تمكن أرسلان من استغلال وضعه الأرستقراطي الوراثي وتيارات النهضة في آن معاً. وكان يُصَارُ أحياناً إلى تجاهل حقيقة أن العرب المسيحيين لم يكونوا وحدهم المستفيدين من النهضة. كما يوضح المثال المستمد من بيت أرسلان، حيث تمكنت أسر إسلامية عريقة أيضاً من الاستفادة من المؤسسات التعليمية والثقافية الجديدة، ومن الفرص المهنية والاحترافية التي أتاحت في تلك الحقبة⁽⁵⁾.

كان أبناء أسرة أرسلان أمراء دروزاً بالوراثة. وتعود جذورهم إلى منطقة الشوف في لبنان⁽⁶⁾. وكان شكيب وإخوته آمنين في مواضعهم بوصفهم وجهاء وأعياناً تقليديين، بيد أن الأسرة المخضرمة سياسياً أكدت على ضرورة التحاقهم بالمدارس الثانوية المسيحية المارونية. ونتيجة لذلك تمكنوا من المحافظة على هويتهم ومكانتهم الناجمة عن الحسب والنسب، ومن اكتساب المؤهلات التي مكنتهم من الحركة في مجتمع متغير.

فأرسلان، الذي حباه الله موهبة، وأسبغ عليه نعمة التميز بأن وهبه روحاً تواقاً للعلم والمعرفة، أصبح أحد أكثر شعراء العرب شهرة في مطلع القرن العشرين. وكان هناك وسائط أخرى للتعبير متاحة لأولئك الذين كانوا يرغبون في التعبير عن فكرهم بصورة مباشرة أكثر. وفي مثال آخر على قدرته على اغتنام الفرص الجديدة، احترف أرسلان حرفة الصحافة ونشر مقالاته في أكبر الصحف اليومية التي كانت تصدر في القاهرة، ومنها صحيفتا الأهرام والمؤيد، إلى جانب طائفة متنوعة من المجلات السورية. وفي الوقت ذاته، عكست المناصب العامة التي شغلها التوازن الدقيق الذي حققه أرسلان بين ما هو عرف تقليدي وما هو انتقالي، فقد شغل منصب حاكم منطقة الشوف، وكان إلى ذلك نائباً في البرلمان شأنه في ذلك شأن اثنين من أشقائه.

باختصار، رسخ أرسلان في سني عمره الخمسين الأولى موقفه بوصفه عضواً مؤالياً ومخلصاً للدولة ذات المرتكز الديني في عملية الإصلاح. وأقدم الأمير الإقطاعي، بحكم المولد، على إجراء التعديلات المتواضعة المطلوبة حفاظاً على مكانته خلال حقبة النهضة الفكرية والتجريب السياسي. وعرف، إلى ذلك، كيف يجري تعديلات أخرى. وعلى الرغم من أنه أفاد شخصياً من حكم عبد الحميد الذي استطال أمداً، فقد قبل "تركيا الفتاة"، ومنح حق الانضمام إلى دوائره الداخلية وحلقاتهم الضيقة في عام 1913. وبشتى السبل، حظي أرسلان بعطف القوى التي كانت سائدة في عصره وباستحسانها. وكان إخلاصه للنظام العثماني ناجماً، بطبيعة الحال، عن المزايا التي أسبغها عليه.

إلا أن أرسلان كان أكثر من مجرد سياسي لين العريكة أو شاعر بارع. إذ كان قبل كل شيء آخر مسلماً نشطاً، لكنه أحجم عن إجراء ضرب واحد من ضروب التكيف وهو ذاك المتمثل بالتنظيم القومي للمجتمع. وقد أطرت هذه الرؤية سلوكه على مدى نصف قرن كامل أمضاه من عمره بوصفه شخصية عامة وهو يعزز سمعته ويقيدها في آن معاً. وكان أرسلان ما يزال في سن المراهقة حين شرع بمد جسور ترمي إلى إقامة علاقة شخصية مستدامة مع المصلح المصري محمد عبده، كما التقى جمال الدين الأفغاني، الناشط الإسلامي الأكثر شهرة في عصره. إن استرشاد أرسلان بمحمد عبده، الذي

يحاكي الأفغاني مثلاً، واستجابته الذاتية لما يحيط به كرساه ظهيراً ونصيراً للتضامن الإسلامي وموالياً عنيداً للدولة العثمانية.

ومع بداية القرن العشرين، باتت هذه المعتقدات عرضة للهجوم. وأرسلان، وهو رجل المواقف في نظام وطيد، رأى مساره الذي اختطه في الحياة مهدداً بعدوان خارجي وانشقاق داخلي. وكان يرى أن العدوان الخارجي يجب أن يجابه، لا مجابهة تقليدية، بل عبر مقاومة تستند إلى القيم الأخلاقية والأواصر الجماهيرية المتينة، والقيادة الشجاعة التي ألهمت في الماضي إنجازات الإمبراطوريات الإسلامية العظيمة. وأما بالنسبة للنزعة الانفصالية العربية فلم تكن - حسب رأيه - بديلاً سياسياً بقدر ما كانت دعوة لانتحار المجتمع الإسلامي. ولم يكن عالم أرسلان عالماً يسمح بالتضحية به على مذبح النزعة الانفصالية المسيحية والارتباط التافه مع فرنسا.

وعندما لاح شبح الحرب وصار لزاماً على الإنسان أن يتخذ موقفاً، التزم أرسلان بنظام الحكم العثماني الذي كان قائماً، وفعل كل ما يمكن أن يفعله إنسان خدمةً لقضيته. فقد شارك في الحملة العثمانية للاستيلاء على قناة السويس سنة 1914م، وساعد بأساليب ما زالت مثيرة للجدل حاكم سوريا المشهّر جمال باشا بين عامي 1914 - 1916م. وشغل منصب مبعوث الحكومة العثمانية الخاص إلى برلين في عام 1917م، ومرة أخرى، أوكلت له مهام المنصب ذاته في برلين أيضاً في عام 1918م.

كانت هزيمة الإمبراطورية العثمانية وتفككها في الحرب العالمية الأولى بمنزلة ضربة رهيبية تلقاها أرسلان. وكانت تلك الهزيمة حدثاً تزامن مع سني نضجه، وغدا في تلك الآونة أسير تيارات التغيير المعاكسة التي اجتاحت الدولة التي كان موالياً لها، والمجتمع الذي بوأه منزلة رفيعة، ووسائل العيش المرفه الذي كان ينعم به - في الواقع، الزمن الذي منحه الشعور بالأمان كان قد ولى إلى غير رجعة. وبات هائماً على وجهه كأنه ريشة في مهب الريح. وإذا ما نظرنا إلى الرجل من منظور معين نجد أن ربع القرن الأخير من حياته كان قصة مسيرة كُبِّحت قبل اكتمالها، قصة رجل خبر في منفاه مرارة

العيش وحيداً. ومن جانب آخر، كانت قصته نموذجاً للصمود والمثابرة والطموح. فمن قاعدته في منفاه، مدفوعاً برفضه لأن يصير إنساناً قليل الشأن حامل الذكر، شرع بمزاولة عمل جديد. لقد غدا الأمير مديناً، والنائب في البرلمان متآمراً، والشاعر مولعاً بالجدل.

ولقد كان تأهيله لحقبة ما بعد الحرب صعباً. فارتبط ردحاً من الزمن بحركة إحياء العهد العثماني. وهو مسعى تعامل معه هذا الكتاب بوصفه منطوياً على جوهر أكثر من ذاك الذي يُقَرُّ ويُعْتَرَفُ به عادةً. ولكن أخذ أرسلان يدرك تدريجياً أن تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية، واحتلال مقاطعاتها العربية من قبل بريطانيا وفرنسا وإسقاط الخلافة كانت ظروفًا يتعين عليه أن يتكيف معها. وكذلك فعل، لا عبر قبوله بتلك الظروف، بل بحشد طاقاته كلها في جهود ترمي إلى إبطال مفاعيلها.

وبمساعدة رشيد رضا، تَأَتَّى بلباقة ودهاء لشغل منصب رئيس الوفد السوري الفلسطيني المفوض في عصبة الأمم في عام 1925 م. وانطلاقاً من هذه القاعدة الهشة، اتخذ لنفسه مساراً عملياً جديداً بوصفه داعية سياسياً عالمياً، وولج عمق القضايا السياسية والتيارات الفكرية الرئيسة في حقبة العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، إلى الحد الذي يجعل المرء إذا ما رغب في دراسته يتعين عليه تسليط الضوء على النزاعات والمسائل المثيرة للجدل جميعها في ذينك العقدين.

ويمكن تفسير التأثير واسع النطاق الذي تمخض عنه، جزئياً، بواسطة منفاه القسري. فشخصيات عصره العربية الإقليمية البارزة - سعد زغلول من مصر، على سبيل المثال - كانت معنية في المقام الأول بتحقيق الاستقلال للبلاد التي تنتمي إليها، مع حفاظها على مواقعها ضمن التراكيب السياسية الجديدة. غير أن أرسلان الذي حرم من قاعدته الإقليمية بفعل القيود الفرنسية والبريطانية التي فرضت عليه وحظرت دخوله إلى البلاد الخاضعة لانتدابها وإلى محمياتها، تمكن من التصدي لمهام النصير العالمي التي تجاوز فيها الاهتمامات المحلية، وانبرى للدفاع عن القضية العربية الإسلامية بأسرها.

وعلى الرغم من الصعوبات التي فرضتها عليه بريطانيا وفرنسا، فقد تمكن في أسلوب يحاكي طريقة الأفغاني من أن يجوب أصقاع العالم الإسلامي، من طنجة إلى صنعاء إلى بلغراد إلى القدس، وأن يستفيد من الاهتمام الذي كان يثيره دوماً وعلى نحو ثابت مطرد.

من الناس من يتفرون على مواهب طبيعية تتمثل في براعتهم في توليد دعاية كفيلة في وضعهم في قلب قضية حاسمة بصورة خاصة، وفي إقناع الآخرين بالاستجابة لمواقفهم. وقد كان أرسلان من هؤلاء. فحتى على الرغم من أنه لم يعيش قط بصورة دائمة في أي بلد عربي بعد عام 1917م، فإن شخصه - إلى جانب آرائه - استأثر بمثل هذا الاهتمام إلى الحد الذي جعله جزءاً لا يتجزأ من الصراع السوري اللبناني مع فرنسا، ولاعباً فاعلاً على صعيد المأساة الفلسطينية، ومعلقاً رائداً على التيار الإصلاحي الإسلامي المنبثق من مصر. وإلى جانب كل ذلك، لعب أرسلان - كما يؤكد هذا الكتاب - دوراً رئيساً في إرساء قواعد أرضية مشتركة بين نضالات العرب المشاركة وعرب شمال أفريقيا في سعيهم إلى تحقيق الاستقلال. وأصبح المعلم المرشد لمجموعة من القوميين المغاربة الشباب، وأظهره تنسيقه للاعتراضات الإسلامية الدولية على مرسوم الظهير البربري لعام 1930م، بوصفه شريكاً مرغوباً فيه للمسلمين العرب في كل المناطق، لا بوصفه عدواً خطيراً لحكام الانتداب الإمبرياليين الأوروبيين. وسرعان ما انخرط ضمن مجموعة من الشخصيات الجزائرية والتونسية الريادية، وتبنى قضاياهم، وأتى بها إلى معترك النضال العربي الإسلامي الشامل المناهض لقوى الإمبريالية الأوروبية. وأضحت إقامته في جنيف أرضية اختبار لاستراتيجيات المقاومة. وسواء أكان يستضيف الملك فيصل ملك العراق أم يسدي المشورة لمصالي الحاج من الجزائر، أم يتنازع مع ديفيد بن غوريون، أم يستقبل وفوداً سورية متنوعة، فقد حول في كل ذلك مقر إقامته في جنيف إلى مركز للحركة الإسلامية العالمية.

وعلى الرغم من أن دعوة أرسلان لاستقلال البلاد العربية المحتلة لم تكن فريدة في نوعها، فإن لهجة احتجاجه أضفت عليها أهمية خاصة. وربما كان هو على رأس شخصيات عصره المهمة والتميزة التي مثلت استمرارية رسالة جمال الدين الأفغاني

ذات المنشأ الإسلامي الداعية إلى مقاومة الدخيل الأجنبي. وبالنسبة لأرسلان، كانت الجامعة الإسلامية هي الوسيلة الوحيدة المشروعة المعول عليها في نيل الاستقلال، وتحاشى القومية السورية وحتى القومية العربية، في سبيل العقيدة الإسلامية الأكثر شمولية. ولم ينكر فوائد وجود حركات المقاومة المحلية، ولم يكن من السذاجة بمكان بحيث يدعو إلى قيام دولة إسلامية واحدة وفريدة. إلا أنه كان يصبر على أن التعاون المتبادل الذي كان ضرورياً لدحر القوى الإمبريالية، لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال وجود شعور مشترك بالواجب الإسلامي بكل ما تنطوي عليه كلمة واجب من مضامين ثقافية، وسياسية، وأخلاقية. وكان بطله لحقبة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية هو الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية، في حين كان ألد أعدائه الشريف حسين، وذلك بسبب قيادته الثورة العربية ضد الإمبراطورية الإسلامية العثمانية صاحبة الشرعية، وكان يعد عدوه الآخر مصطفى كمال أتاتورك وذلك بسبب علمته تركيا. كان أرسلان شديد العداء، وبخاصة، لأتاتورك لشعوره بأنه ينبغي عدم استغلال موضوع الاستقلال السياسي من أجل تقليد الغرب، بل ينبغي أن يعول عليه في مسألة السلامة الثقافية للأمة، كما ينبغي -والرأي لأرسلان- تأمين النظام والعدل بالعودة إلى المفاهيم الإسلامية المتعلقة بالدولة والمجتمع، والتي ينبغي التأكيد عليها في المقام الأول.

اكتسب أرسلان شعبية على نطاق واسع منبعا جماهير اعتنقت هذه الفكرة. وأحد مواضيع هذا الكتاب الرئيسة هو استكشاف تأثير أرسلان من خلال براعته في التعاطي مع الرموز الإسلامية. والأخطار التي حددها الأفغاني في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر لم تنته بالحرب العظمى، بل كانت في واقع الأمر تتفاقم بسببها. ولولا الإمبراطورية العثمانية، لكان النظام العربي الإسلامي أكثر عرضة للهيمنة الأوروبية من أي وقت مضى، ولولا مقام الخلافة لما تمكن المسلمون من العثور على رمز يوحدتهم ويلتفون حوله. وعلى الرغم من أنه جرى تبني النزعة القومية العلمانية العربية والثورات الإقليمية المطالبة بالاستقلال، وذلك من أجل التصدي للتعرض للهيمنة الإمبريالية

الغربية، فإن الإسلام النضالي كان هو العقيدة الأكثر ألفةً واتباعاً والأوسع قبولاً. كان أرسلا ن مؤيداً قديم العهد لهذا التوجه، وقادراً على تسييس الروابط الحيوية لهذه المشاعر الإسلامية واستعمالها بنجاح واضح في كل من شمال أفريقيا والمشرق العربي على حد سواء.

والمدى الذي وصل إليه توظيف الإسلام بوصفه أيديولوجية سياسية في حقبة ما بين الحربين جرى التغاضي عنه أحياناً؛ بسبب الطريقة التي عرض بها الفكر العربي الحديث من خلال الدراسات التي أجريت باللغة الإنجليزية. فقد عدت مؤلفات المؤرخين المؤثرين في ستينيات القرن العشرين القومية العلمانية بوصفها العقيدة، سواء أكانت بصيغتها الليبرالية أم بصيغتها الشمولية، الأيديولوجية المهيمنة في تلك الحقبة في منطقة الشرق الأوسط. وبناء على ذلك، ركز المؤرخون تفسيراتهم وتأويلاتهم عن الماضي على أعلام بارزين جسّدوا تلك العقيدة⁽⁷⁾. والعناصر العلمانية، إن لم نقل الليبرالية لهذا التركيز التاريخي بدت متوفرة ومتحققة في التجربتين الناصرية والبعثية من حركات الإصلاح الراديكالي، وتعززت بواسطة علماء اجتماع وجدوا في التجربتين المذكورتين إثباتاً لتأكيدات نظرية الحداثة، التي تقول إن التنمية الوطنية لا يمكن أن تتحقق ما لم تقترن بعلمانية متزايدة⁽⁸⁾.

أما الذين كانوا متشبهين بالتحاليم الإسلامية، وواظبوا على تمسكهم بها، فكانوا يُعدّون من قبل النخب السياسية الجديدة في المجتمع العربي، ومن قبل بعض المراقبين الغربيين، رجعيين أعداء للتقدم. ومثل هذا الاقتران بين التفسير التاريخي والتطورات المعاصرة حجب الميل إلى اعتماد التدابير السياسية ذات القاعدة الدينية التي كانت متبعة سابقاً⁽⁹⁾. وأرسلا ن، بالصلة القائمة بينه وبين الأفغاني، وبالتألف الذي كان قائماً بينه وبين جماعة الإخوان المسلمين، إلى جانب تفضيله وجود قيادة إسلامية قوية؛ قد يكون كل ذلك هو ما جعل منه الشخصية البارزة الأكثر تمثيلاً لعصرها من طه حسين أو محمد حسين هيكل، أو حتى المنظر العربي العلماني ساطع الحصري. ولو لم يحدث الانبعث الإسلامي من جديد في عقدي السبعينيات والثمانينيات، لواظب أرسلا ن على استحقاقه

لأن يكون موضوعاً تنبغي دراسته وذلك تبعاً لدوره الذي لعبه في عصره. وعلى أي حال، التأكيد العام المتجدد على الملامح الإسلامية للمجتمع العربي يعمق أهمية فهم آراء أبرز القوميين الإسلاميين في عصره، والاستجابات والردود التي أثارها.

ويحتمل أن يكون الباحثون الغربيون قد عمدوا أيضاً إلى تجاهل إرسال وبعض معاونيه؛ نظراً لأنهم لم يفتحوا آفاقاً جديدة. فيما سعى مؤرخو الفكر والثقافة، على النحو الذي ينبغي، إلى تحديد مفكري ذاك العصر المبدعين. ولكن أرباب الدعاية والنشر يتطلبون أيضاً البحث والاستقصاء. فهم المجسدون الفوريون للرأي العام، وهم لا يتجاوزون معاصريهم كثيراً ولا يتخلفون عنهم كثيراً. وبعض مؤرخي الفكر والثقافة ممن هم على شاكلة توماس بين يحاولون الحكم على الناس نسبةً إلى أمر جديد، فيما يسعى آخرون إلى تكريس دعمهم وادخاره إلى من يحكمون أنه الأنسب من الماضي. وكان إرسال أحد الذين يندرجون في قائمة الصنف الأخير. لقد تمكن من الثبات على مواقفه مع قدرته على التأقلم، وكتاباته الوافرة ومواجهاته الشخصية المباشرة مع النظام الإمبريالي الأوروبي، فقد كانت تعكس تطلعات قطاع واسع من المثقفين المسلمين العرب، ومكنته من أن يغدو المتحدث باسمهم في النضال النهائي لحشد قوى النظام القديم ضد القيم الأجنبية والسيطرة الخارجية.

وتجدر الإشارة، على أي حال، إلى أن إرسال كان أكثر من مجرد محرض وناشط دعائي؛ فقد كان مؤلفاً موطد الأركان في مجال التقاليد السلفية أو الإصلاحية. وبوصفه كاتباً لسيرة صديقيه رشيد رضا وأحمد شوقي، دعا إلى إحياء ذكرى الأزمنة التي شكلته وأنجبت رجالاً ذوي عقليات وبنية فكرية مشابهة لبنيته، وبوصفه مؤرخاً للفتوحات العربية في أوروبا أعاد إلى الذاكرة صور عظمة الماضي، وبوصفه معلقاً إصلاحياً أخبر المسلمين عن السبل الكفيلة بتمكينهم من تغيير ظروفهم الراهنة مع بقائهم مسلمين حقاً. وكتابه الذي تضمن نقداً قاسياً وعنوانه: لماذا تأخر المسلمون؟ طبع ثلاث مرات في حياته وأعيد طبعه في عام 1981 م. وشرحه الذي ورد في أربعة مجلدات لكتاب حاضر العالم الإسلامي للكاتب لوثرروب ستودارد، ما انفك إصداره يتجدد ويتواصل.

وأرسلان، باشتغاله على هذه الكتب إلى جانب مجلته التي كانت تصدر باللغة الفرنسية باسم: الأمة العربية، مع مقالاته التي نشرها في الصحافة العربية وكان يبلغ عديدها مئة مقال سنوياً أو نحو ذلك؛ يمكننا القول إنه كان الكاتب العربي الذي تعد كتاباته الأكثر قراءة وعلى أوسع نطاق في حقبة ما بين الحربين.

وفيما كان يحاول تدبر أمر شؤون المسلمين، سعى كذلك إلى معالجة مسائل التحالفات الأوروبية العربية. ولطالما حاول، في هذا الصدد، أن يلعب دور الوسيط بين دول المحور والعرب. وبوصفه المدافع الأبرز عن سياسات موسوليني المتعلقة بالعرب، جعل مسألة نزاهته محل شك وريبة، وهي مسألة ألفت بظلالها على سمعته في نهاية المطاف. وبعد، فإن هذه الأنشطة كانت جزءاً لا يتجزأ من سيرته وأعماله، وهي تلقي مزيداً من الضوء على أهميته في قضايا عصره.

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يركز اهتمامه على حياة أرسلان في سياق عصره أكثر من تركيزه على سيرته الذاتية الشخصية البحتة، فقد حاولت أن أفهم هذا الرجل فضلاً عن فهمي للاتجاهات التي كان يمثلها. فأرسلان الإنسان الطموح الفذ ذو الشخصية المتميزة الذي ذاع صيته، كرس وجوده بوصفه رجلاً شجاعاً مناوئاً للإمبريالية قولاً وعملاً. وهذا ما أدى بخصومه السياسيين إلى النظر إليه بوصفه شخصاً انتهازياً يسعى إلى تحقيق مصالحه الذاتية. وهو السبب ذاته الذي جعل مناصريه ومؤيديه يحيطونه بهالة من التقديس بوصفه أعظم مجاهدي عصره⁽¹⁰⁾. وحتى على الرغم من تركيزي على المجري العام لحياة أرسلان، فقد حاولت شرح دوافعه ورؤية توجهه الأيديولوجي بوصفه وثيق الصلة ومتساقاً مع أوجه أخرى من مقومات حياته.

لقد قارب هذا الكتاب موضوعه مقارنة تداخل فيها الزمان والمكان. وتجنباً لمجرد اقتفاء أثر مسيرة أرسلان الحافلة بالأعمال، فقد صممت مادة الكتاب على نحو مكثفي من إلقاء بعض الضوء على اهتماماته وبواعث قلقه الشاملة. عمدت الفصول الثلاثة الأولى من هذا الكتاب إلى البحث في حياة أرسلان حتى عام 1925 م. فيما عالج

الفصلان الرابع والخامس موضوعهما عبر ما يمكن وصفه بالمواضيع الجغرافية: فقد عكف الفصل الرابع على استكشاف دور أرسلان وكتاباتة عن المشرق العربي في حقبة الثلاثينيات من القرن العشرين، فيما تكرر الفصل الخامس للموضوع ذاته وفي الحقبة عينها، لكن في شمال أفريقيا. وأما الفصل السادس فقد أفردته للبحث في إسهام أرسلان في المجال الفكري لحقبة ما بين الحربين. واستعرضت عبر الفصل السابع حقبة ما بين الحربين كلها من خلال المبدأ الناظم للعلاقة بين أرسلان وكل من إيطاليا وألمانيا.

بدأت إعداد هذه الدراسة بانطباع يفيد بأن شكيب أرسلان صاحب شخصية فكرية إبداعية متميزة. وعبر مسيرتي في إجرائي بحثي هذا، عدلت هذا الموقف تعديلاً طفيفاً مستنتجاً أنه في حين كان أرسلان كاتباً متميزاً ومؤثراً بصورة واضحة، فقد كان أقل أهمية بوصفه مفكراً منه بوصفه ظاهرة. وحاله حال أقرانه، كان في بعض الأمور يتجاوز الحال التي يتبدى عليها، ويقصر عن بلوغها في أمور أخرى؛ حيث كانت فكرته مزيجاً من فكر مُرشدَيْهِ الأفغاني ومحمد عبده، فيما كانت قدرته على توجيه الأحداث أكثر محدودية مما كان يخشى خصومه الأوروبيون. ومع ذلك فقد كان صاحب شخصية بارزة ذات تأثير دولي أكبر مما نسب إليه، وأكثر نزاهة واستقامة مما عزا إليه منتقدوه، وأشد دهاء مما يعتقد مؤيدوه. وقد حدد أرسلان ملامح فترة انتقالية بإعلانه على جناح السرعة عن تمسكه وتشبثه بالمفاهيم الإسلامية للدولة والمجتمع، وهي المفاهيم التي اعتقد أنها كفيلة بوضعها كليهما (الدولة والمجتمع) على الطريق الصحيح. وميله نحو المقاومة وترويجها لها وتحريضه عليها منحه شعبية، ومكنه من أن يعين نفسه بنفسه وريثاً للأفغاني ليوصل مسيرة الفاعليات الإسلامية النشطة، وهي مسيرة أبعد ما تكون عن بلوغ غاية تكتفي بها وتتوقف عندها.

الفصل الأول

تشكيل الجنتلمان العربي – العثماني

بدا الأمير شكيب في صورة من يريد أن يكون عثمانياً أكثر من بني عثمان.

(1) الشرباصي

إن لم نقدر أن نحفظ صحارى طرابلس، لن نقدر أن نحفظ جنان الشام.

(2) أرسلان

لا يمكن تحديد القوى التي تشكل استشراف المرء للمجتمع بدقة. ويعد هذا التوصيف دقيقاً، بصورة خاصة، لدى التعامل مع التقليد الثقافي الذي يحبط تعابير المرء الاستبطنية المتعلقة بسيرته الذاتية لمصلحة الذكريات السياسية المقيدة. وعلى الرغم من ذلك، فإن المؤرخ الذي يسعى إلى فهم كيف ولماذا يمكن أن يقال كان لإنسان ما تأثير في عصره، يجب عليه أن يحاول تفسير البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها، وفيها تكوّن.

وفي حالة شكيب أرسلان، أوجه القصور المحتملة المتعلقة بالبيئة يمكن طرحها عبر الآتي: ولد الرجل في قرية من قرى منطقة الشوفيات في عام 1869 م. وكان ينتمي إلى الطائفة الدرزية، وكان أبوه موظفاً محلياً بسيطاً. بدا محيطه الريفي الضيق المحدود الطائفي مرجحاً لتقييد آفاق الشباب، عبر الحد من فرص تعليمهم وخياراتهم المرتبطة

بالمهن والأعمال. ولكن بدلاً من ذلك، في حالة أرسلان، تمخضت ظروف من هذا القبيل عن الاعتراف بأرسلان دولياً بوصفه المتحدث باسم الإسلام، وتمخض عنها جعله أديباً عربياً مشهوراً من فاس إلى بغداد ولقب بأمير البيان. ولما بلغ أوائل الستينات من عمره، بات صالونه الأدبي في جنيف محجاً يختلف إليه زوار مميزون وطموحون، وصارت آرائه في مسائل استراتيجية المقاومة والتعاليم القرآنية تُلتَمَسُ من المغرب إلى سومطرة. ورحلته من الشوف إلى جنيف مرت بمراحل، وبطبيعة الحال، تقرر وتحددت جزئياً بفعل الصدفة وظروف وعوامل خارجية. ولكن هذه الرحلة لم تعوق كلياً من قبل البيئة التي ولد فيها. فالدروز الريفيون، شأنهم شأن نظرائهم من المسيحيين الموارنة، اكتشفوا وجود إمكانية وقابلية جديدة للتحرك والانتقال في ظل العالم اللبناني العثماني - في أواخر القرن التاسع عشر - المستقر سياسياً والمزدهر اقتصادياً.

نجح أرسلان في أن يجمع في شخصه مزيجاً من مزايا كبيرة تتمثل في وضعه الأرستقراطي الموروث، إلى جانب الفرص التي أتاحتها له العالم المتغير من حوله، ليصبح عشية الحرب العالمية الأولى شاعراً وصحفيّاً ذائع الصيت وأحد كبار رجال السياسة في سوريا العثمانية إن لم يكن، بالضرورة، أكثرهم احتراماً. مسار الرجل هذا في البوتقة العثمانية جعل مساره الأوروبي الآخر والذي اشتهر عبره ومن خلاله مساراً يمكن إدراكه وفهمه ضمن السياق التاريخي. فالمساران مترابطان، وبينما تطور كل منهما في محيط مختلف جداً عن المحيط الذي تطور فيه المسار الآخر، ينبغي عدم النظر إلى كل منهما بوصفه شطراً معزولاً عن الآخر في تكوين حياة أرسلان الراشدة.

كان ثمة اكتمال لحياة أرسلان في فترة ما قبل الحرب يجب تقديره بحد ذاته. لكن يجب أيضاً إدراك حقيقة أن مسيرته الكاملة المرتبطة بالشأن العام في حقبة ما قبل عام 1914م، أرست أسس ظهوره وقواعد علو شأنه في حقبة ما بعد الحرب. لقد أوليت في هذا الفصل اهتماماً لتشكّل أرسلان بوصفه عثمانياً. ولكي نفهم مسألة ارتقائه وصولاً إلى المكانة الرفيعة التي تبوأها، يتعين علينا أن نأخذ في الحسبان السمات العامة للمجتمع السياسي اللبناني في أواخر القرن التاسع عشر.

حتى زمن تدخل القوى الخارجية في لبنان في القرن التاسع عشر، تمكنت المجموعات الطائفية المتنافسة في جبل لبنان من تدبر أمرها، ومن العيش معاً دون حدوث اضطرابات خطيرة على مدى قرون عديدة⁽³⁾. فقد تمكن الشيوخ الإقطاعيون الدروز (طائفة من طوائف المسلمين الشيعة) الأقوياء من التعايش مع الطائفة المسيحية المارونية استناداً إلى الأسس المشتركة في نمط الحياة، وانطلاقاً من كراهية الفريقين المشتركة للحكومة المركزية القومية. ومع غزو سوريا وجبل لبنان من قبل جيش محمد علي المصري، وفي ظل حكم ابنه إبراهيم النشيط والقوي بين عامي 1832 - 1840، اضطربت العلاقات النمطية العرفية بين الطوائف. وعلى الرغم من أن العداوات الطائفية الجديدة ظلت محجوبة ومكبوتة بصورة مؤقتة بفعل التمرد المشترك للفريقين ضد الهيمنة المصرية في عام 1840م، فقد ظل الزعماء الدروز يشعرون بمرارة ثقيلة الوطأة حيال ما كانوا يعدونه تآكلاً مطرداً لنفوذهم في الجبل. ولاستعادة ذلك النفوذ، أطلقوا في عام 1860م شرارة حرب أهلية عنيفة ألهمت قرى الجبل وأحياء دمشق، حيث قتل فيها مسيحيون بأعداد كبيرة. وعند هذه النقطة، آلت الأمور إلى تدويل المسألة اللبنانية تدويلاً كاملاً، حيث تدخلت سلطات أوروبية والسلطة العثمانية بفرض حل من الخارج. وكان حلاً حقق قدراً من الرخاء والاستقرار في آن معاً في المنطقة من عام 1861م وحتى زمن نشوب الحرب العالمية الأولى.

والتنظيمات الجديدة، التي استعادت اللغة الديبلوماسية الأوروبية، ووضعت لوائح وبروتوكولاتاً يقضي بإعادة تنظيم جبل لبنان، تمثل هدفها الرئيساني في حماية الموارد من الدروز وفي استعادة الطمأنينة والهدوء إلى الجبل⁽⁴⁾. وبالنسبة استمر تقسيم الإمبراطورية العثمانية وذلك بمنح جبل لبنان، إدارياً، وضعية الحكم الذاتي.

وبسبب تركة انعدام الثقة الجديدة بين الطوائف والجماعات الدينية، بات يُعدُّ تخليص إدارة نظام الحكم الجديد هذا من الضغوط الطائفية أمراً ضرورياً. وقد جرى ذلك باستخدام تعابير طائفية - حيث نصت اللوائح التنظيمية على وجوب حكم جبل لبنان من قبل متصرف أجنبي مسيحي عثماني غير لبناني، تعينه الدولة العثمانية بموافقة

الدول الأوروبية العظمى الست وهي: بريطانيا وبروسيا وروسيا والنمسا وإيطاليا وفرنسا، وهي الدول الموقعة على النظام الأساسي للوائح المنظمة لهذا الاتفاق. ونص الاتفاق على أنه يتعين على المتصرف أن يحافظ على النظام من خلال قوة أمنية لبنانية تتمتع باستقلال ذاتي، وأن يتلقى النصح والمشورة في مسائل الحكم من مجلس إداري يتألف من اثني عشر عضواً يمثلون الطوائف الدينية في المتصرفية. وانعكست هيمنة الموارد والدروز على المجلس عبر شغلهم أربعة مقاعد وثلاثة مقاعد فيه على التعاقب. وعلى الرغم من أن سلطات المتصرف كانت محدودة ومحددة، فقد كان له شيء من الاستقلالية في العمل تتمثل في قدرته على تعيين سبعة من حكام المناطق (كان يدعى أحدهم القائم مقام)، وهم يحكمون مناطق في الجبل تسمى أقضية (جمع قضاء). وكانت تحيزات المتصرف وأهواؤه، إضافة إلى شخصيته، تحدث فارقاً في أسلوب تفاعله مع بنية السلطة المحلية. وكون معظم المتصرفين من ذوي الكفايات العالية لا يعني أن عائلة درزية كبيرة وشهيرة مثل عائلة أرسلان تعاملت معهم جميعاً بوثام وانسجام على حد سواء.

وإن كان التنظيم الجديد قد حال دون إمكانية استمرار هيمنة الدروز، فقد بدا دينهم نفسه مقيداً للطائفة. إذ إن عقائده المعقدة وشديدة الاحتراس متشابكة مع المفاهيم الإسلامية الباكورة، وتوارىخ ظهورها ترجع إلى عهد الخليفة الفاطمي (السادس) الحاكم بأمر الله (996 - 1021 م). وعلى الرغم من أن هذا المعتقد الجديد اكتسب اسمه بانتسابه إلى أحد المبشرين الأوائل به وهو شخص يدعى الدرزي، فإن الدين يتمركز حول قداسة الحاكم، وحدانية الإله التي لا هوادة فيها، والإله الذي لا سبيل إلى معرفته، والاعتقاد المقدس بالعودة النهائية للحاكم الإلهي المقدس الموجود ولكن في حالة من "الاحتجاب المؤقت ليس إلا"⁽⁵⁾. وعندما أضحت معارضة هذه الفكرة من القوة بمكان في مصر، انتقلت الطائفة الصغيرة إلى سوريا، واجتذبت مريدين تحولوا عن دياناتهم إليها من المناطق الجبلية التي تعد حالياً جزءاً من وسط لبنان الجنوبي ومن مناطق سوريا الجنوبية الغربية. وفي عام 1031 م أغلقت الطائفة أبوابها في وجه المريدين

الجدد الراغبين في الانضمام إليها، وشرعت في إطلاق عملية ممارسة الطقوس السرية والتكافل الفطري الذي ميز الطائفة، وما زال، حتى يومنا هذا.

وغالباً ما يرى مراقبون خارجيون أن الدروز طائفة عشائرية وغير ودية، وأصبح تعبير ”دروز عنيدين“ عبارة مكررة يستعملها المؤرخون كثيراً⁽⁶⁾. وفي معرض دفاعهم عن دينهم وعن أراضيهم، حظي المقاتلون الدروز بسمعة مستحقة هم جديرون بها بوصفهم مقاتلين أشاوس أولي عزم وأصحاب عزيمة. وإلى ذلك اتصفوا أيضاً بأنهم ساسة يتمتعون بالمرونة، وفي حالة آل أرسلان تمكنوا أيضاً من إحراز مراتب النبالة والرفعة والشرف، جاعلين من ذلك التصنيف واسع النطاق للدروز بوصفهم فلاحي الجبال تصنيفاً يفتقر إلى الدقة. وفي تطور النظام الإقطاعي المميز لجبل لبنان، جرى الاعتراف بآل أرسلان بوصفهم الأسرة الأكثر عراقاً والأرفع مستوى بين عائلات الدروز، وغدوا أبناء إحدى ثلاث عائلات فقط في لبنان يحق لأبنائها الذكور أن يلقبوا بالأمراء، وهذا اللقب هو المكافئ تقريباً للقب ”الأمير“ الذي يكتسب وراثياً. وكان مقر قاعدة سلطتهم منطقة الشوف التي تتركز فيها تجمعات الدروز، وتقع على بعد عشرة أميال تقريباً إلى الجنوب من بيروت، حيث انخرطوا على مدى القرن التاسع عشر في منافسة لم تنقطع مع أسرة جنبلاط، أسرة درزية أخرى طموحة، منافسة تهدف إلى السيادة والهيمنة.

وبالنسبة لقادة أسرة أرسلان، لم يكن التضامن الطائفي بين الدروز يعني عزلة سياسية. وكان التنظيم الجديد قد وفر أكثر من مجرد حماية الموارد، حيث اعترف بمكانه الدروز ضمن المتصرفية، فأتاح بذلك الفرصة لعائلة طموحة من أجل تعزيز نفوذها السياسي وتوسيع دائرته. وقد نشط الأمراء من أبناء أسرة أرسلان في أعقاب الحرب الأهلية، فعززوا علاقاتهم مع الذين شغلوا منصب المتصرف في جبل لبنان، وأجروا اتصالات مهمة مع مركز السلطة العثمانية في اسطنبول. وخلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، كان العنصر المهيمن على الأسرة هو الأمير مصطفى، عم الأمير شكيب، الذي انعقدت بينه وبين قصر السلطان عبد الحميد الثاني صلات قوية وجيدة.

وبالإضافة إلى ذلك، منذ السنوات الأولى لتأسيس المتصرفية وحتى وقت استقالته في عام 1902م، كان مصطفى يشغل منصب قائمقام الشوف. وكان هو المهيمن على مسألة خلافة متصرف في الجبل وتعاقبهم طوعاً أو كرهاً، وضمن تعزيز قاعدة نفوذ آل أرسلان حتى سنة وفاته عام 1910م. وحتى الحدث المحتوم استعمل لتعزيز مكانة الأسرة، ومن ذلك أن طقوس جنازة مصطفى أجريت جرياً على التقليد الإسلامي السني، لا وفقاً للتقاليد الدرزية⁽⁷⁾. استفاد أقارب مصطفى من جهوده، فشغلوا وظائف ومناصب مسؤولين محليين، ومبعوثين أجانب، وعينوا نواباً في البرلمان الإمبراطوري، وكان منهم أدباء بارزون في السنوات التي شهدت آخر عهد الإمبراطورية العثمانية. لقد كانت أسرة آل أرسلان عائلة أرسقراطية طموحة بارزة وشهيرة، وكان أبنائها موهوبين بصورة عامة، وأمنت مكانة الأسرة لأبنائها الشباب شهرة ومكانة متميزة منذ نعومة أظفارهم، وأمن لهم طموح الأسرة كل الفرص لتعزيز تلك المكانة وذلك التميز.

وهكذا فإن المناخ السياسي الذي ترعرع فيه أرسلان، والذي خبر فيه مسؤولياته الأولى بوصفه رجلاً راشداً كان ينطوي على ميزة مضاعفة ثلاث مرات حيال الولاء للقائد والشعور بالواجب: أولاً، نحو الأسرة، ثانياً، حيال حماية مصالح الطائفة الدرزية (والتي كانت على الأغلب رديفاً لمصالح الأسرة) في المجال السياسي الأوسع نطاقاً في المتصرفية، وثالثاً، الولاء للإمبراطورية العثمانية بسياساتها الإمبراطورية وطموحاتها الإسلامية العالمية. والعاملان الأول والثاني من هذه العوامل استقطبا شكيماً بعض الوقت، إلا أن سياق السياسة الإمبراطورية الإسلامية الأوسع نطاقاً هو ما استرعى اهتمامه في نهاية المطاف، وهو ما حدد ولاءاته. ورحلة صعوده من الشوف إلى الدوائر الداخلية للمؤسسة العثمانية لم يكن متفرداً في إنجازها، فقد شق اثنان من إخوانه الثلاثة طريقهما انطلاقاً من خلفيتيهما الريفية وهويتيهما ليحققا شهرة لنفسيهما في المجتمع العربي العثماني. وعلى الرغم من أن ديناميات الأسرة لا يمكن أن تعرف على وجه اليقين، فإن تحرك الأخوين أرسلان خارج نطاق الدائرة الدرزية ربما يكون تلقى دعماً وتشجيعاً من والدهما، الأمير حمود، وهو رجل دمث الأخلاق لطيف بدا اهتمامه بالأدب أكثر من

اهتمامه بالمنصب الذي كان يشغله، بوصفه مدير ناحية في قضاء الشوف⁽⁸⁾. والأمير حمود خرق أعراف الدروز بزواجه بامرأة شركسية (وكذا فعل شكيب فيما بعد)، أنجبت له أربعة أولاد ذكور. وكان شكيب، وهو الثاني من حيث زمن الولادة، شديد التعلق بأمه التي كان لها تأثير قوي عليه عبر سني رشده. وإن كانت قوة شخصيتها تنسجم مع طبيعتها البدنية، حيث كانت امرأة رائعة لافتة للنظر: عندما كان لشكيب من عمره ستون عاماً سافرت من الشوف إلى السويس لتقضي معه سويكات قليلة، وعندما عاد إلى لبنان متوعداً هراً حيث كان قد بلغ السادسة والسبعين كانت حاضرة لاستقباله.

أما والد شكيب فقد ترك أمر توجيه مصائر الأسرة السياسية لأخيه القوي، الأمير مصطفى، وهو رجل لم يكن يسمح بأن يقبع أبناء أخيه الأربعة في منطقة الشوف. خطط مصطفى لتعليمهم، وعمل بما لا يدع مجالاً للشك على ضمان وجود وضع مؤاتٍ لهم في المتصرفية.

كما انعكس نجاح مصطفى على مجرى الحياة العملية لاثنتين من إخوان شكيب، أظهرت أنشطتهما إمكانية التحرك التي أتاحها لأبناء أرسلان نفوذهم ومكانتهم الرفيعة في المتصرفية: نسيب (1867-1927م)، أخو شكيب الأكبر والأقرب شخصياً إليه، أمضى معظم سني حياته راشداً في بيروت حيث انخرط في طائفة متنوعة من الأوساط الأدبية، وشارك بوصفه صحفياً في حركة الاحتجاجات العربية المناهضة لسياسات جمعية الاتحاد والترقي قبل الحرب العالمية الأولى. وعادل (1883-1954م)، أصغر أشقائه سناً، انتسب إلى جامعة اسطنبول، وأظهر موهبة واعدة عظيمة على صعيد الشعر، لكنه غدا أكثر شهرة بفضل نشاطه السياسي الذي امتد رديحاً طويلاً من الزمن شغل خلاله مناصب رسمية وأدى مهام غير رسمية، وعمل في كنف الدولة العثمانية حيث أوكلت له مهام قائمقام الشوف بين عامي (1914-1916م)، وعين نائباً في البرلمان العثماني بين عامي (1916-1918م). وانبرى للقتال ضمن صفوف الثورة السورية الوطنية التي قادها الدروز ضد الانتداب الفرنسي بين عامي (1925-1926م) وذلك

سعيًا لنيل الاستقلال. وأخيراً شغل منصب وزير بين عامي (1946 - 1949م) في أول حكومة تشكلت في سوريا المستقلة⁽⁹⁾.

يعود الفضل في اتساع نطاق عالم عادل الوظيفي باكراً إلى خبرات أخويه الأكبر سناً وتجاربهما؛ إذ تلقى شكيب ونسيب منذ بداية تدريبهما تعليمًا تجاوز حدود نطاق الدروز الضيق، وبدا مصمماً بحيث يفتح لهما آفاقاً أوسع. وقد تزامنت سنوات دراستهما مع الأعوام الأولى للنهضة العربية، ومكنهما مركزهما المرموق الناجم عن انحدرهما من إحدى الأسر العظيمة من جني ثمار التغييرات التعليمية الثقافية التي كانت تنفذ إلى سوريا والمتصرفية؛ حيث أدت البعثات التبشيرية التي أرسلتها منظمات بروتستانتية أمريكية وكاثوليكية أوروبية إلى تأسيس مدارس جديدة في الأوساط المسيحية في جبل لبنان. وشجع ظهور هذه المدارس التبشيرية الأجنبية الطوائف الدينية المحلية على توسيع نطاق الفرص التعليمية لأبنائها، ولبناتها أحياناً أيضاً؛ وذلك للحيلولة دون اضطرابهم إلى تلقي العلم على أيدي اللازمين الفرنسيين أو أتباع الكنيسة المشيخية الأمريكية أو القساوسة الأرثوذكس الروس. أحيا الموارنة معاهدهم العالي المتخصص في تعليم اللاهوت في عين ورقة عام (1834م)، وأسس المسلمون جامعة في بيروت سنة (1874م)، لتنافس الكلية البروتستانتية السورية التي أسست عام (1866م) والجامعة اليسوعية للقديس يوسف، وقدمت الحكومة العثمانية إعانات متزايدة للمدارس الإسلامية في الأقاليم السورية⁽¹⁰⁾.

وفي الوقت الذي بدأ شكيب فيه تعليمه، كان قادراً على الاستفادة من هذه الفرص الموسعة، وعلى المشاركة في التيارات الفكرية للنهضة العربية. واستناداً إلى المعاهد التعليمية التي التحق بها، كان تعليمه انتقائياً ومتعددًا طائفيًا. فعندما كان لشكيب من عمره ست سنوات، انتسب هو ونسيب إلى المدرسة الأمريكية في منطقة الشوف. ولم يكن هذا أمراً غير عادي كما يمكن أن يبدو. وبدءاً من منتصف ثلاثينيات القرن التاسع عشر، توصلت البعثة التبشيرية البروتستانتية الأمريكية إلى استنتاج يفيد بأن الدروز الذين كانوا في واقع الحال محشورين بين السلطات العثمانية السنية وبين الموارنة الأقوياء،

كانوا أتباع الطائفة غير المسيحية الأكثر رجحاناً للتحويل عن معتقداتهم واعتناق دين جديد (المسيحية). وأعدت خططاً عديدة لكن لم تصل أي منها إلى مرحلة التنفيذ، أي إلى مرحلة التمكن من الهيمنة على تعليم الدروز والتبشير بينهم بغية تنصيرهم، بل توقف نشاط هذه البعثة عبر السنين⁽¹¹⁾. وعلى الرغم من أن مدارس هذه البعثات كانت تحاول عادةً أن يقتصر تدريسها على استعمال اللغة واللهجة المحلية، فإن شكياً كان يستذكر الإنجليزية وبعض التراتيل الإنجليزية بوصفها جزءاً من منهاجه الدراسي⁽¹²⁾. غالباً ما كانت تستمر الدراسة في مدارس ريفية من هذا القبيل فصلاً واحداً، وقد درس شكيب في مدرسة هذا حالها سنة واحدة ثم انقطع عنها.

وفي عام (1879م)، فيما بدا أنه تحرك مركز تجهيز الشباب الأسرة لتسلم مراكز قيادية في لبنان المتغير، انتسب شكيب ونسيب إلى مدرسة الحكمة، وهي المدرسة الرائدة في بيروت. أسس المدرسة يوسف الدبس، مطران بيروت عام (1874م)، وكان يعول على المدرسة في أن تحقق نجاحاً وأن تصيب شهرة بوصفها مدرسة إعدادية مهمة، وقد تخرج فيها عدد من الشخصيات البارزة الأدبية والسياسية في لبنان الجديد. كانت السنوات السبع التي قضاها شكيب في مدرسة الحكمة ذات أهمية خاصة بالنسبة له، فعلى الصعيد الاجتماعي انتقل من بيئته الريفية الأصلية التي نشأ فيها إلى بيئة مدنية. وعلى الرغم من أنه عاد إلى مناطق الشوف في عام 1887م تنفيذاً لإملاءات سياسة العائلة، فقد تشكل في أجواء بيروت المتحررة، وظل رجلاً مديناً طوال حياته. وهو، إلى ذلك، اكتسب ذائقة الأجواء الأدبية التي يمكن أن تؤمنها الأجواء المدنية دون سواها. وبوصفه طفلاً ترعرع في حقبة شهدت النهضة العربية افتتن أرسلان بسحر النهضة الثقافية، وكتب لاحقاً عن السنوات التي قضاها في المدرسة في بيروت، وجاء فيما كتبه: "كنا أصبحنا يومئذ في المدرسة مغرمين بأخبار الكتاب والشعراء والأدباء، لا يهمننا شيء أكثر من هذا، فكنا نرى الدنيا كلها نظماً ونثراً⁽¹³⁾". كان يقرأ بنهم ويتقني الكتب انتقاءً. وأدرك المعلمون في مدرسة الحكمة حماسه ومواهبه الفكرية وقدرها، فاستجاب لتشجيعهم له بنضج فكري باكراً. وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره، ظهرت بعض مؤلفاته

في الصحافة الدورية المحلية، وعندما كان له من عمره سبعة عشر ربيعاً، نشر ديوانه الشعري الأول، وكان عنوانه الباكورة. وحتى في مرحلة مراهقته سعى للحصول على منتدى عام يصلح لأن يكون منبراً للمناظرات والنقاش، وشرع يبدو واثقاً بنفسه ثقة تجاور الغطرسة، وتلكم كانت الهيئة التي ميزته بوصفه رجلاً راشداً.

بالإضافة إلى تطويره مواهبه في الأدب العربي، شملت المناهج الدراسية في مدرسة الحكمة تدريباً مكثفاً باللغة الفرنسية، وهي اللغة التي استعملها أرسالن على نطاق واسع يسر وسهولة بقية حياته.

وبعد التأكد من أن إخوان أرسالن اكتسبوا خلفية عربية وفرنسية مناسبة في مدرستهم التمهيدية المسيحية، أرسلتهم الأسرة إلى معهد حكومي عثماني، اسمه مدرسة السلطانية؛ لكي يتمكنوا من تركيز دراساتهم على العلوم الإسلامية، وحتى يكتسبوا خلفية أكثر رسوخاً في اللغة التركية العثمانية. وبعد مضي سنة واحدة على التحاقه بهذه المدرسة الأخيرة، اكتمل تعليم شكيب أرسالن الرسمي. وكان آنذاك في الثامنة عشرة من عمره. ومن النواحي كلها، حصل على أفضل ما كان في جعبة عصر النهضة. فقد منحت سنواته السبع التي قضاها في المدرسة المارونية مدخلاً إلى الدوائر والأوساط الأدبية في كل من بيروت ودمشق، وميزته بوصفه رجل العصر الجديد. كما أهلتته الشهادة التي حصل عليها من مدرسة السلطانية التي كانت ترعاها الدولة، إلى جانب اللغة التركية العثمانية التي أتقنها تماماً، أهلتته لتولي مهام رسمية وغير رسمية في كنف الدولة التي كانت تتغير إلا أنها ظلت عثمانية.

كان يفتقر إلى شيء واحد هو التعليم الجامعي. وقد حرم منه بسبب مطالب سياسية فرضتها المتصرفية. وبناء على ذلك، في حين كان يعد جيد التعليم بمقاييس عصره، ربما كان مستاء لأن الفرصة لم تتح له لتحقيق إنجاز علمي أكاديمي كامل، وهو أمر من الواضح أنه كان مؤهلاً له. وبوصفه رجلاً ذا شخصية متميزة، عد أرسالن نفسه ندّاً يُعَدُّ أياً من الذين تخرجوا في الكلية البروتستانتية السورية (كلية الخدمة المدنية)،

وبرنامجه الذي ألزم نفسه به والمتمثل في التعلم ذاتياً مدى الحياة تعلماً انطوى على تبحر في المعرفة، وعاداته التي درج عليها في كتاباته اللاحقة التي اعتمد فيها أسلوب الاستشهاد الممزوج بالتباهي، ربما يكونان الوسيلة التي توسلها تعويضاً عن افتقاره لقدر أكبر من التعليم الرسمي الأرحب مدى.

على أي حال، ظل الرعاية والداعمون الأدبيون أجدى نفعاً على صعيد تأمين تطور شخصي. وأسعف الحظ أرسلان بأن التحق برجل ملهم سرعان ما غدا شخصاً مهماً. لقد حظي في آخر سنة من سني دراسته في بيروت برعاية محمد عبده، المصلح المصري، مدرساً. وأثر ذلك تأثيراً حاسماً في حياة أرسلان الفكرية. وآل التزامه بقيم محمد عبده ومثله العليا، على مدى السنوات الأربع اللاحقة، إلى انضمامه إلى حلقات عبده ومن ثم إلى الالتحاق في عام (1892م) بمقر إقامة جمال الدين الأفغاني في اسطنبول. وعلى الرغم من التقلبات التي طرأت على حياة أرسلان جميعها على مدى العقود اللاحقة، ظل راسخ الاعتقاد في أنه الوريث المخلص لرسالة الإصلاح الإسلامي والفاعلية السياسية اللتين تلقاهما مباشرة من اثنين من أعظم رموز عصره.

وبالنسبة لطلبة الشرق الأوسط الحديث، أصبح اسماً جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده رديفين تقريباً لإعادة توجيه الفكر الإسلامي. وثمة بحث موسع رأى فيهما نقطة تحول، وإن كانا يُعدّان الآن محافظين أكثر مما كان يُعتَقَدُ أصلاً، فما زال يعتقد أن لهما تأثيراً واسع النطاق. وكان الأفغاني (1838-1897م) ناشطاً سياسياً أكثر منه عالماً بالدين منهجياً⁽¹⁴⁾، رافضاً فرضية بعض الإصلاحيين القائلة إنه يمكن التصدي للتهديد الغربي عبر الفرنجة والتغريب فقط، ودعاً بدلاً من ذلك إلى إحياء الإسلام من الداخل إحياءً كفيلاً بإيجاد نفوذ سياسي إسلامي يرتكز إلى نواويس الإسلام وتعاليمه. وتجديد التوكيد على الوعي الذاتي، لا التقليد الأعمى، كفيل بتوفير القوة اللازمة لصدد الدخيل في العالمين المادي والثقافي على حد سواء. والأفغاني المعلم من جانب والمحرض من جانب آخر، تأمر على الحكام وعلى الراغبين في الإطاحة بهم على حد سواء. فراديكاليته الشعبوية الإسلامية واستعداده لمخاصمة البلاط السلطاني حفزا التقى والورع من جهة

وعدم الثقة من جهة أخرى في آن معاً، وطرّد في مراحل مختلفة من حياته من كل من أفغانستان، ومصر، والإمبراطورية العثمانية، وإيران. وعلى الرغم من أنه، كما أوضحت البروفسور كيدي، يكتنف تعاليم الأفغاني وطابعه الشخصي - ظاهرياً - شيء من الغموض، فلا شيء من هذا يشوب شخصيته في جوهرها. فالأفغاني رجل قوي نشيط بليغ وصاحب شخصية جذابة أسرة، ألهم الشبان المسلمين في البلاد كلها التي حل فيها وارتحل منها وحفزهم على مواصلة برنامجة النشاط. وبات وجوده في نطاق الذاكرة أكثر قدرة على الإلهام حتى من حضوره الشخصي؛ حيث اكتسبت سمعته بعد وفاته أبعاداً أسطورية، وظل - كما هو الآن - رمزاً مبجلاً بارزاً من ثلة أبطال المسلمين، بطلاً كافح ضد اعتداءات الغرب (على بلاد المسلمين) وانتهاكه لحرمايتها.

كان بين تلاميذ الأفغاني: محمد عبده (1849 - 1905 م) وهو مصري، ومن المسلم به أنه التلميذ الأكثر أهمية⁽¹⁵⁾. وبعد مرحلة باكورة من النشاط السياسي الذي تمخض عن نفيه نفيّاً مؤقتاً من مصر، التحق محمد عبده بالأفغاني في باريس وعاضده حيث عملاً على تحرير مجلة العروة الوثقى وإصدارها، وهي المجلة التي جرى تداولها على نطاق واسع وكان لها تأثير كبير في العالم العربي. ثم تبنى محمد عبده لاحقاً نهجاً في الإصلاح الإسلامي أكثر تحفظاً وتقييداً من ذاك الذي تبناه معلمه الأفغاني. فقد سعى من داخل بوتقة النظام القائم إلى تحقيق إصلاح عملي لمؤسسات الإسلام الثقافية والتعليمية، وإلى تنقيته روحياً؛ الأمر الذي كان كفيلاً - وفقاً لما رآه - بأن يؤدي إلى عقد مصالحة بين التفكير المستقل الاستنتاجي وبين الوحي الإلهي. وبذلك يمكن جعل مبادئ الدين الاجتماعية تتوافق مع المتطلبات المعاصرة للتغيير. وفي الوقت نفسه، بذل محمد عبده قصارى جهده لاجتناب التضحية بالجواهر الأساسية للخبرة الدينية التي أتاحته للإسلام أن يبقى ذا معنى ومغزى بالنسبة لمعتقيه.

أقر الأفغاني ومحمد عبده كلاهما بوجود ضعف في العالم الإسلامي في مواجهة الهيمنة المادية الأوروبية الغربية وحيال الثقة الغربية بالنفس على الصعيد الثقافي، ولم يتقبل أي منهما فكرة التفوق المتأصل للحضارة الغربية. وكانا يتوفران على شعور يتسم بوجوب

الإنصاف بين الناس، الأمر الذي اجتذب إليهما الشباب المسلمين من الخلفيات الأكثر تنوعاً. وكان تأثيرهما على شكيب أرسلان، الدرزي المتحدر من منطقة الشوف، تأثيراً مستداماً على الصعيدين الشخصي والفكري.

كان أرسلان منجذباً إليهما ومتأثراً بهما حتى قبل أن يلتقي بهما شخصياً. وبفضل موهبته التي جعلته يبرع في عقد صداقات مع الأشخاص الأقوياء والمؤثرين، تمكن من الاجتماع بكل منهما على حدة. فمحمد عبده، الذي كان منفياً من مصر، أقام في بيروت سنة (1886م) إلى سنة (1888م). وقد التقى أرسلان به في الكلية البروتستانتية السورية أواخر عام (1886م). ورواية أرسلان التي تحدث من خلالها عن اللقاء الأول الذي جمعها عززت أسطوره الخاصة، التي أكد فيها أن محمد عبده قال إنه تعرف إلى اسمه عبر قراءة قصائده من خلال الصحافة، ثم قال بعد ذلك للفتى اليافع الذي كان له من عمره سبعة عشر ربيعاً المنكب على الأدب والمستغرق فيه أيما استغراق: "أنت ستكون من أحسن الشعراء"⁽¹⁶⁾. وغدا حينذاك أرسلان من فوره تلميذاً لمحمد عبده.

وعندما بدأ محمد عبده التدريس في مدرسة السلطانية، شرع شكيب أرسلان وأخوه يتلمذان عنده. ولكن يعزى إلى التفاعل الذي انعقد بين شكيب ومحمد عبده خارج نطاق قاعة الصف المدرسي الفضل في ثناء شكيب على محمد عبده ومهمته التبشيرية، وذلك من خلال كتابته عنه بعد سنوات عديدة من لقائهما. وازطب أرسلان على الحديث عن الإثارة الفكرية التي كان ييشها في أوساط طلابه. فقد كانت مجموعات من الطلاب تتجمع الليلة تلو الليلة في مقر إقامة رئيس بلدية بيروت، وسُكنى محمد عبده، ولم يكن هذا المقر من الكبر بما يكفي، حيث وصفه شكيب بقوله: "أصبح منزله بصورة دائمة تقريباً غاصاً بالزائرين". وكان الذين يقصدون المقر يصغون مفتونين إلى مناقشات العلامة المصري لطائفة متنوعة من المواضيع المتعلقة بالإسلام وباللغة العربية⁽¹⁷⁾. اتخذ شكيب محمد عبده موجهاً فكرياً. وأظهرت قدرته على إنشاء علاقة وثيقة مع أحد المصريين الذين تخرجوا في الجامع الأزهر، كما أظهرت خبراته وتجاربه التعليمية والثقافية جميعها الانفتاح الخاص الذي تتحلى به أسرة أرسلان الدرزية. وجاء فيما قاله شكيب:

”وتعارف المرحوم والدنا مع الأستاذ المشار إليه وانهقدت بينهما مودة أكيدة، وصرنا نتردد إلى منزله فضلاً عن سماع دروسه، وكان هو يزورنا في بيتنا في الشويفات⁽¹⁸⁾“.

وبالنسبة لأرسلان، فقد أدى محمد عبده وظيفتين مهمتين في آن معاً، حيث كان مرشداً فكرياً وسع دائرة إدراكه للقوة السياسية الدافعة للإسلام إذا ما أصلح حاله، كما كان راعياً اجتماعياً عرفه إلى ذوي الشأن خارج نطاق جبل لبنان. وعلى الرغم من أنه قد يكون صور محمد عبده على نحو يظهره أعظم مما هو عليه في واقع الحال، فإن تأثير حضوره النهضوي في بيروت لا سبيل إلى إنكاره. يقول أرسلان عن محمد عبده: ”رأينا فيه عالماً لا كالعلماء الذين نعهدهم، بل عالماً جمع بين العلوم العقلية والنقلية إلى الأمد الأقصى، ونظر إلى جميع الأشياء نظر الفيلسوف الذي نظره يعلو على الأنظار المعتادة... وبالاختصار، رأينا في ذلك الرجل لا عالماً فقط، بل عالماً لم نعهد رؤية مثله من قبل⁽¹⁹⁾“. وأرسلان الذي كان متأثراً تأثراً عميقاً بتواصله مع محمد عبده، كرس باكورة نتاجه الشعري، الباكورة، لمحمد عبده ”العالم العامل، الفيلسوف الكامل، واسطة عقد الحكماء، ودرة تاج البلغاء⁽²⁰⁾“.

وفي عام (1888م)، سمح لمحمد عبده بالعودة إلى مصر وطلب من أرسلان أن يضطلع بالدور المتوقع منه بوصفه ابن أسرة أميرية. مات أبوه في عام (1887م). وعلى الرغم من أن شكياً كان له من العمر آنذاك ثمانية عشر عاماً فقط، فقد عين من قبل المتصرفية ليشغل منصب مدير ناحية الشويفات وهو المنصب الذي شغل بوفاة والده. شغل هذا المنصب زمناً يزيد عن السنتين قليلاً ثم استقال. وهنالك انطباع يتولد عند قارئ مذكراته يفيد بأنه لم يكن مستعداً للمكوث طويلاً في أداء الدور المتوخى منه وهو أن يتبوأ مقام أمير الدروز، وبأنه شعر بأنه مقيد في الشويفات. ويقول عن ذلك: ”كنت طامحاً إلى ما هو أعلى وأوسع⁽²¹⁾“. وعلى مدى الأشهر الثلاثين اللاحقة من أوائل عام (1890م) وحتى عام (1892م) أرضى هذه التطلعات عبر قيامه بسلسلة من الرحلات وسعت آفاق رؤيته للعالم، وعرفته إلى مجتمع القاهرة ومجتمع اسطنبول، وأقنعته بأن دور أرسلان التقليدي في منطقة الشويفات يتنافى والآفاق التي فتحت له.

وبدأ رحلته إلى القاهرة، واستقبل بحفاوة وتكريم يليقان بضيف محمد عبده واستمر ذلك على مدى شهرين. وتعرف إلى الحلقة المحيطة بمحمد عبده حيث لاقى قبولاً وترحاباً واضحاً في أوساطها. كان الانخراط في وسط نخبة مصر المثقفة تجربة مهمة بالنسبة لأرسلان. وكان مدركاً لأهمية الفرصة التي أتاحتها له محمد عبده وأفاد منها أيما فائدة. وعندما غادر القاهرة أواخر عام (1890م) كان قد قابل سعد زغلول في مناسبات عديدة، وكون صداقة مع أحمد زكي، ووافق على تكليفه بالكتابة في صحيفتي الأهرام والمؤيد. وبالإضافة إلى كل ذلك، قابل الخديوي توفيق حيث ألقى بين يديه قصيدة أطراه فيها⁽²²⁾ (*). وأطلق هذا النشاط العنان لنمط ميز سلوكك أرسلان على مدى حياته كلها. وإن أردنا تقويمه من خلال زيارته الأولى هذه إلى مصر، في وسعنا القول إنه أمير مثقف يتوفر على مقومات تحوله لأن يكون بحق رجلاً ذا قوة ونفوذ. اعتاد أرسلان في القاهرة على حضور الاحتفالات التي تقام على شرفه احتفاءً به وتكريماً له، وعلى طلب لقاء الملوك والرؤساء، ولم يصدر عنه ما يشي بأنه يمكن أن يتوقع من أصحاب الشأن والنفوذ مطلقاً ما هو أقل من حسن استقباله والترحيب به.

وأتبع نجاحاته التي حققها في القاهرة بإقامة دامت زهاء الستين في اسطنبول، حيث سعى جاهداً لتأكيد بقاء علاقة أسرته بالسلطات العثمانية علاقة ودية، وللنجاح في تحقيق طموحه الشخصي المتمثل في رغبته في أن يكافأ. وتفيد المعلومات القليلة المتاحة عن إقامته في اسطنبول أنه كانت لديه المقدرة على التحرك بيسر وسهولة بين الساسة المرموقين وبين المثقفين⁽²³⁾. وسعى، على وجه الخصوص، إلى عقد صداقة مع حسن فهمي، وزير المالية، ومع منيف باشا (1828 - 1910م)، الرجل الذي كان متقدماً في السن آنذاك لكن كان ذا موقع مؤثر حيث كان يشغل منصب وزير التربية والتعليم،

(*) من هذه الأبيات:

أذكر كلام قيل بعد التشهد
ومن لقي التوفيق للسير يحمد
على البعد نفس تلمس النجم باليد
لعمرك تذكى الشوق في قلب جلمد

وأذكر عليه وذكر محمد
عزيز حمدت الدهر عند لقائه
ولا غرو أن حنت لتقيل كفه
وشاقت له رب الرقائق طلعة

وكان هو الراعي البارز للثقافة والتعليم العثمانيين طوال زمن حياته المهنية المديدة. وقد تكون هاتان السنتان قد أتاحتا الفرصة أيضاً لأرسلان لعقد لقاء مع السلطان عبد الحميد مرة واحدة على الأقل.

وفي عام (1892م)، غادر أرسلان العاصمة العثمانية متوجهاً إلى أوروبا، في رحلة باتت إلزامية تقريباً بالنسبة للشباب المثقفين الذين كانوا يتطلعون إلى قيادة المجتمع العربي العثماني. لم يكن مفتوناً بالغرب كما لم تكن تملكه الرهبة منه. إذ كان قد تربى على عدم الثقة بالغرب. ولم يثر حديثه عن مراكز الثقافة الغربية - باريس ولندن كانتا وجهتيه الرئيسيتين - أي تعليقات عن النظم السياسية الأوروبية، ولم يحتو على وصف للمدن أو لهندستها المعمارية، كما لم يتضمن نقاشاً مقارناً للأخلاق أو السلوك أو العادات والأعراف. وبالنسبة لأرسلان كانت أوروبا تمثل تهديداً إمبريالياً، لا ثقافة تدعو إلى الإعجاب. وظل متشبهاً برأيه هذا على مدى السنوات الخمسين اللاحقة.

والملاحظات القليلة التي أبداها حيال هذه الرحلة كانت تتعلق بلقائه بالشاعر المصري أحمد شوقي، الذي عقد معه إحدى أعمق الصداقات في أوساط النخبة الثقافية⁽²⁴⁾. أعجب أرسلان بنتاج أحمد شوقي من الشعر، وسُرَّ سروراً عظيماً لأنه التقى بالشاعر في فندق باريسي. وافتتن كل منهما بصاحبه، وأصبحا - والتعبير لأرسلان - "كأنهما شقيقان". وفي كنف موهبتيهما الواعدتين اليافعتين في مطلع حياتهما العملية والمهنية، عقدا وفقاً لما كتبه شوقي: "وانعقدت بيننا الألفة بلا كلفة"⁽²⁵⁾ وتعهدها بالرعاية. وكانت تلك العلاقة إحدى العلاقات النادرة التي أمكنت استدامتها عبر المراسلات، والتي تعمقت على الرغم من ندرة اللقاءات التي جمعت بين الرجلين. وتميزت هذه الصداقة وبرزت بين صداقات أرسلان الكثيرة بوصفها صداقة شخصية جداً ونابضة بالحياة.

تزامنت عودة أرسلان من أوروبا إلى اسطنبول في عام (1892م) مع وصول جمال الدين الأفغاني إلى العاصمة العثمانية. وكان قد دعي من قبل السلطان عبد الحميد الذي

كان معجباً بتعاليم الأفغاني الإسلامية الشاملة، وراعياً في الإفادة منها في تعزيز ما كان يراه حقاً متمثلاً بادعاء الخلافة والمطالبة بها. وكانت سمعة الأفغاني محزناً بشكل خطورة ذائعة الصيت أيضاً. إلا أن عبد الحميد شعر أن شبكته الأمنية العريضة المتمثلة بسلك الشرطة قادرة على تحييد هذا الجانب غير المرغوب فيه من الرجل الشهير. وعلى الرغم من أن العلاقة بينهما سرعان ما توترت، بخاصة بعد ادعاء الأفغاني بوجود تواطؤ في اغتيال الحاكم الفارسي نصر الدين شاه في عام (1896م)، فإن الأشهر الأولى التي قضاها في اسطنبول كانت أشهراً مستحسنة⁽²⁶⁾.

في هذه الحقبة تحديداً نجح أرسلان في مقابلة هذا الزائر المتميز رفيع المقام. وحسب رواية أرسلان لما جرى في هذا اللقاء، طلب منه الأفغاني أن يصف ما رآه في أوروبا، فسرده له أرسلان حديثاً عن التجارب التي عاشها في أوروبا سرداً ببلاغة جعلت الأفغاني يتأثر إلى حد جعله يكور قبضة يده ويرفع صوته قائلاً: "أنا أنهى أرض الإسلام التي أنبتك"⁽²⁷⁾. ولم يدع أرسلان النسيان يلف ذاك اللقاء قط، وبذل قصارى جهده لضمان بقاءه مكوناً من مكونات صورته العامة. كانت ميوله الفطرية للترويج لذاته قوية، وحقق على هذا الصعيد القدر الذي كان يصبو إليه تقريباً من مجالسة الأفغاني التي لم تدم إلا أمداً قصيراً، كذلك أفاد من تبني الرجل، طوال حياته، للمثل العليا. وتأثر تأثراً صادقاً عميقاً باستحسان الأفغاني له، وأضحى لافتاً للنظر كيف أن حياته اللاحقة ضارعت حياة الرجل الذي دعاه: "الموقف الأعظم للشرق"⁽²⁸⁾.

كان للتجارب التي مر بها أرسلان والشخصيات التي التقى بها تأثير كبير عليه. وقد عدها كاتباً سيرته العرييان حاسمة. وعلى الرغم من أن بياناتهما تميل إلى الإشارة على نحو مكثف جداً إلى أحداث لاحقة أطرّت نظرة الشاب إلى العالم في عقد التسعينيات من القرن التاسع عشر، فمن المعقول القول إن أسفار أرسلان أقنعتة بالعمل من أجل إصلاح الإسلام والمحافظة على الإمبراطورية العثمانية. ويمكن أن تكون تلك الأسفار قد بينت له أيضاً أنه ينتمي إلى مجتمعي القاهرة واسطنبول، وجعلته يصمم على ألا يدع عودته إلى المتصرفية تخفض مستوى الدور الذي يمكن أن يؤديه بحيث يغدو مجرد

سياسي إقطاعي معزول. لقد أوتي قضية وأسلوب بيان بارعاً في اللغة العربية جعل من عرض قضيته أمراً مائعاً، واهتدى إلى أسلوب مكنه من المزج بين الأمرين، ومن جعل اسمه مطروقا بين الجماهير عبر الصحافة السياسية. ووفقاً لإحدى الروايات التي تسرد سيرته، كان الذي أقنع أرسلان في أن يصبح صحفياً هو محمد عبده الذي رسخ في ذهنه أنه، عبر كتابته نثراً، يمكن أن يكون أقوى تأثيراً منه شاعراً⁽²⁹⁾. وأياً كان مورد إلهامه فمما لا شك فيه أن المقالات التي كتبها أرسلان والتي تشي بتمكنه من فن الجدل وصلت إلى جمهور أوسع من الجمهور الذي استقطبه شعره. ولا ريب أيضاً في أنه منذ عقد التسعينيات من القرن التاسع عشر حتى أوائل عقد الأربعينيات من القرن العشرين كان واحداً من أغزر الصحفيين إنتاجاً في العالم العربي وأوفرهم إثماراً.

وعندما التحق أرسلان بركب الصحافة كانت مهنة جديدة نسبياً في العالم العربي العثماني. وكانت، إلى ذلك، تعاني أحوالاً من التقلب المستمر والتغير المتواصل؛ وذلك بسبب الرقابة التي فرضها السلطان عبد الحميد على المطبوعات، والتي كان من شأنها أن دفعت كثيراً من الصحفيين العرب الأوائل إلى مغادرة المقاطعات العثمانية والتوجه إلى مصر، حيث كانت تنتشر بسرعة الصحف اليومية والدوريات في أجواء صحفية متساهلة نسبياً أرسى قواعد اللورد كرومر. وكانت الصحافة المصرية في سنواتها الأولى مؤسسة مسيحية سورية إلى حد كبير. فمن بين الصحف المصرية اليومية الثلاث التي كانت تصدر باللغة العربية في الحقبة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، كانت صحيفتان هما المقطم (أسست أواخر عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر) والأهرام (أسست في عام 1876م) تخرران من قبل صحفيين سوريين مسيحيين، واستخدمتا بوصفهما لسان حال المصالح الفرنسية والبريطانية في مصر. وأما الصحيفة الثالثة واسمها المؤيد (أسست عام 1889م) فقد كانت تدار من قبل الشيخ علي يوسف، وهو مواطن مصري تخرج في الجامع الأزهر، وكان صاحب مواقف قومية وإسلامية قوية، وكان ذلك واضحاً من خلال منشوراته⁽³⁰⁾. وعلى الرغم من أن أرسلان كان ينشر مقالاته في صحيفة الأهرام وغيرها من المجلات التي كان يشرف على تحريرها

مسيحيون، فقد كان معجباً بآراء علي يوسف، وبنى سمعته الأدبية الخاصة بصورة رئيسة من خلال صفحات جريدة المؤيد.

ولم يكن نتاج أرسالان الأدبي مقتصرًا على الصحافة السياسية، ففي الوقت الذي كان مشاركاً فيه فكرياً مشاركة احترافية في أحداث عصره، واطب على نشر الشعر وعلى الانخراط في أنشطة مرتبطة بأرستقراطي مثقف يشتغل في شؤون ثقافية ومساع علمية هو خليق بها على سبيل الهواية⁽³¹⁾. فكان يسعى سعياً حثيثاً وي بذل جهداً كبيراً في تحقيق مخطوطات قديمة، حيث حقق مخطوطين اثنين ونشرهما وهو في العشرين من عمره وهما: الدرة اليتيمة لابن المقفع، والمختار من رسائل الصابي⁽³²⁾. وكذا أولى اهتماماً لشاتوبريان وترجم روايته مغامرات آخر أبناء بني سراج⁽³³⁾. وحتى في المحاولات غير الاحترافية هذه، يظهر إحساس أرسالان بالهدف جلياً - كانت قصة شاتوبريان مهمة بسبب تصويرها للحضور الإسلامي في الأندلس. والمخطوطان بلغتهما العربية والفصحى الرائعة أيداً رأي أرسالان القائل: "يجب أن يلتصق في كتب السلف، وينشد في منشئات الأولين من أهل هذا اللسان السابقين في حلبة البيان، بالاستكثار من حفظ تراكيهم وتحدي أساليبهم، ومحاكاة نغماتهم، والاحتذاء على أمثلتهم"⁽³⁴⁾. لقد عكست صحافة أرسالان اتهامات مماثلة. وبناء على ذلك، على الرغم من أنه لم يكن يتوجس من الإسهام في مجلة المقتطف التي كان محرورها علمانيين مسيحيين، فإن مقالاته الخاصة عاجلت مواضيع إسلامية أكثر تقليدية⁽³⁵⁾.

ومن خلال منشوراته المختلفة، كوّن أرسالان لنفسه شهرة أدبية قوية منذ السنوات الأولى للقرن العشرين. فإن كان أقل شهرةً من أحمد شوقي أو إبراهيم أو خليل مطران، فإنه يُعدُّ مع ذلك كاتباً رئيساً. فقد أعرب خليل مطران نفسه عن إعجابه بباكورة إنتاج أرسالان الشعري، ولقبه بسيد اللغة العربية⁽³⁶⁾. وجاء فيما كتبه ناقد وأديب لبناني آخر ذائع الصيت، وهو مارون عبود، أنه كان يشعر حين كان طالباً في المدرسة في مطلع القرن العشرين أن أرسالان متفوق على أحمد شوقي في مضمار كتابة الشعر. وكان واثقاً ثقةً أكيدة بأنه لو لم يحول أرسالان طاقاته نحو المعترك السياسي، لكان هو - لا

أحمد شوقي - من حظي بشرف اكتساب لقب "أمير الشعراء" ⁽³⁷⁾ في العالم العربي.. ولقب أمير البيان الذي أُسبِغَ على أرسلان يعكس التزامه الدقيق بقواعد اللغة العربية الفصيحة وفقاً للمعايير الأسلوبية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر. وكان هذا جزءاً لا يتجزأ من الحال التي كان عليها أرسلان قبل الحرب. في عصر النهضة، كانت المهومة الأدبية وحدها كفيلة بمد يد العون لتأمين الشهرة والتقدير. وأرسلان صاحب المكانة المرموقة اجتماعياً وسياسياً منذ ولادته بحكم الانتهاء عزز سمعته ومكانته كثيراً عبر إنجازاته الأدبية.

لقد صنفه أسلوبه وآراؤه تقليدياً أكثر منه إبداعياً. ووفقاً لما كانت عليه الحال في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، كان يتأرجح بين القديم والجديد تأرجحاً يفتقر إلى الاستقرار، ويرتدي ملابس أوروبية فاخرة لا تشوبها شائبة، وينشر مقالاته في مجلات علمية جديدة، وهذه وتلك كان يبدو مثقفاً غربي السمة والثقافة. لكنه لم يكن علمانياً ولا متغرباً (لم يتفرنج)، بل كان زعيماً درزياً شب ونضج في زمن شهد حراكاً استثنائياً في متصرفية جبل لبنان. ومُنحَ فرصة خاصة للقاء بعض الشخصيات الفكرية الرائدة في عصره، كما أتاحت له فرص السفر والترحال على نطاق واسع. وخلص إلى استنتاج مؤداه أنه لا يوجد انحراف في هذا العالم إذا ما ترك يمضي وفقاً للنظام الموضوع له. ولا شك في أنه أقر بوجود حاجة لتحقيق إصلاحات شريطة أن تؤدي إلى تعزيز المجتمع القائم. وتبنى مفاهيم الأفغاني الإسلامية الشاملة والالتزام الإصلاحية الذي استقاه من تعاليم محمد عبده. كانت هذه التعاليم وتلك المفاهيم راسخة في وجدانه وعمل على تحقيقها بشجاعة. وكان مدركاً في الوقت ذاته لمكانته بوصفه أميراً وللوجاهة التي تمنحه إياها هذه المكانة. وكان أكثر من مجرد زعيم إقطاعي للدروز، بيد أنه كان ذاك الزعيم كذلك.

وخلال السنوات الخمس والعشرين التي اتخذ أرسلان أثناءها من لبنان مقراً رئيساً لإقامته بعد عام (1892م)، عزز روابط العلاقات الإقطاعية القديمة التي كانت موئلاً لسلطته ونفوذه. وينبغي أن يؤخذ في الحسبان دوره بوصفه زعيماً للدروز من أجل

فهم سلوكه السياسي ومواقفه الاجتماعية. ولم يكن أرسلان يفتقر إلى الطموح المحلي. وبرهن على أنه بارع في التعايش مع الصراع الداخلي الذي كان يميز الحياة السياسية في المتصرفية. وعلى الرغم من أنه لم يشغل أي مناصب رسمية على مدى العقد الذي أعقب عام (1892م)، فثمة إشارات مرجعية عابرة في مذكراته تشير إلى أنه كان يجمع ما بين أنشطته الكتابية وما بين صالح أسرته السياسي. فعندما تسبب مظفر باشا متصرف جبل لبنان (1902-1907م) إبان فترة حكمه بحدوث أزمة صغيرة لعشيرة أرسلان، لم ينطو أرسلان - على نفسه متذرعاً بانشغاله بشؤون الدنيا، بل كان الصراع صراعه وشارك فيه بكل ما في الكلمة من معنى.

وكان سبب الأزمة عودة التنافس قديم العهد بين آل أرسلان وأسرة جنبلاط للهيمنة على منطقة الشوف. محترساً من نفوذ الأمير مصطفى ومكائده، عين المتصرف الجديد أحد أبناء أسرة جنبلاط "قائمقام" لمنطقة الشوف. وفي إجراء مقتضب يوحى بالهيمنة، خلف شكيب عمه بوصفه قائمقام واستمر ذلك بضعة أشهر من عام (1902م). لكن لم يحل هذا دون تحقيق المتصرف هدفه المتمثل بالإطاحة بأسرة مصطفى وبتجريدها من سلطتها، فأرغم شكيب على الاستقالة. وعندما تولت مجموعة جنبلاط زمام السلطة، شعر الأرسلانيون بأن وجودهم السياسي تعرض للتهديد، فكسوا طاقاتهم لاسترداد مركزهم المتمثل بالهيمنة على القائمقامية. وسنحت لهم الفرصة لتحقيق ذلك في ظل الظروف التي أوجدتها ثورة "تركيا الفتاة". ففي خريف عام (1908م)، كان الرجل الذي أوكلت إليه مهام القائمقام في رمزية توحى بهيمنة آل أرسلان على منطقة الشوف هو شكيب نفسه. والحدث الذي كان سبباً في إكسابه هذا التعيين موضع أدناه. إنثارته لذلك الحدث أظهرت أنه جدير بمشاركة عمه مصطفى بمزايا. وهو (شكيب) الأمير ذاته الذي غدا بعد سنوات متحرراً من النعرات المحلية، وبعيداً كل البعد عن معترك صراعات النفوذ الإقطاعية، علماً بأن آراءه في السياسة تشكلت في بيئة المتصرفية. واصطحب شكيب معه إلى معترك المواجهات المستقبلية التي خاض غمارها لاحقاً خصيصتين متمايزتين - الاحتكاك والاختلاف (مع الخصوم) والقدرة على البقاء

والاستمرار - وهما السمتان اللتان يمكن أن يكون قد اكتسبهما من المعارك السياسية في منطقة الشوف.



شاعر وصحفي وزعيم الدروز: أرسلان في عمر الخامسة والعشرين

وفي الوقت الذي كان يعد فيه الخطط مع أقربائه في جبل لبنان، كان اهتمامه منصباً أيضاً على العالم الأوسع المتمثل بالشؤون العثمانية، وهياً الأرضية التي كانت كفيلة بتمهيد السبيل أمامه للوصول إلى مركز السلطة الإمبراطورية.

وعندما دعا السلطان عبد الحميد جمال الدين الأفغاني إلى الإقامة في اسطنبول في عام (1892م)، كانت بادرته تلك أكثر من مجرد دعوة سلطانية لاستضافة رجل موقر كرس نفسه لخدمة الإسلام. فتقدير السلطان عبد الحميد الشديد لوضعه الدولي الذي

كان آخذاً بالضعف أكثر فأكثر، أدى به إلى تبني سياسة "الجامعة الإسلامية". وكان أحد العناصر الرئيسة في استراتيجيته يرمي إلى ربط مكتب السلطنة بالخلافة، وذلك لتعزيز الإمبراطورية العثمانية من الداخل عبر توحيد شعوبها الإسلامية المختلفة، لا سيما العرب والأتراك، وجعلها كتلة إسلامية صلبة⁽³⁸⁾. وأمل عبد الحميد من اتخاذ وضع خليفة المسلمين في أن يحظى بسلطة أخلاقية عند مسلمي الهند وشمال أفريقيا. وعبر لعبه على وتر المخاوف الفرنسية والإنجليزية من قدرته على الإفادة من سلطته الإسلامية، واستغلالها في إثارة المسلمين في البلاد الخاضعة لهيمنتها الإمبريالية، تعتمد إقحام "العمل الإسلامي الشامل" في الدبلوماسية الدولية. وإن كانت الوحدة الإسلامية الشاملة ضرباً من الخيال، إلا أنها تجدي فكرتها نفعاً في استقطاب الدعم من دائرة واسعة من المسلمين من داخل المقاطعات السياسية الخاضعة للسلطان ومن خارجها على حد سواء.

في مصر، تضافر الشعور الوطني مع النزعة الإصلاحية في النظر إلى الخلافة العثمانية بوصفها حليفاً لا يمكن الاستغناء عنه، ويمكن من خلاله وضع حد للاحتلال البريطاني. وانضم رجال مثل مصطفى كامل رئيس تحرير جريدة المؤيد وعلي يوسف صاحبها إلى المطالبين بالاستقلال المصري، ولكن كانوا ينظرون إلى المجتمع من منطلق إسلامي، وكانا يدعمان، في العلن، روابط مصر مع الخلافة الإسلامية العثمانية. وعبر أحمد شوقي، صديق أرسلان، عن تطلعات شريحة واسعة وكبيرة من أبناء الشعب المصري عندما خاطب الخليفة العثماني قائلاً له: "ومصر بحاجة إليك"⁽³⁹⁾. وقُضِلَ مفكرون مثقفون وساسة سوريون، سواء أكان ذلك انطلاقاً من مخاوف عقديّة مذهبية بالنسبة للإصلاح الإسلامي أو انطلاقاً من اعتبارات ملموسة أكثر تتعلق بالتضامن السياسي، تعزيز أواصر الروابط الإسلامية التي تتمثل في إحياء الخلافة. ويعد رجال مثل محمد كرد علي وعبد القادر المغربي ومرشدهما الروحي طاهر الجزائري نماذج من هذا القبيل⁽⁴⁰⁾. ولكن حتى بين غلاة دعاة دولة الخلافة الإسلامية العثمانية الشاملة، كان عدد قليل من الشخصيات العامة المعروفة بينهم في المقاطعات الغربية يرغبون، مع

بداية القرن العشرين، في أن يُعرفوا بوصفهم أصدقاء للأتراك. وكان شكيب أرسلان هو الاستثناء.

تبلورت آراء أرسلان السياسية والاجتماعية في الشطر الثاني من عهد حكم السلطان عبد الحميد. فقد عدل أرسلان آراءه لكنه لم يدها عبر زمن اشتغاله بالشأن العام الذي استمر زهاء خمسين عاماً، وكان متوافقاً توافقاً مثالياً مع السلطان الخليفة، وغداً أسفاً أشد الأسف وإلى الأبد بسبب زوال حكمه وتفكيك إمبراطوريته. وحاله حال السلطان عبد الحميد، كان أرسلان يرى أن المقاطعات الإسلامية التي مارست عليها الإمبراطورية العثمانية سلطة سياسية كانت تعاني خطر العزلة والاحتلال من قبل القوى الإمبريالية الغربية، كما هي الحال في الجزائر وتونس ومصر. وللحيلولة دون حدوث ذلك، كان لزاماً على الدولة العثمانية أن تعزز كيانها. ولم يكن هذا يعني تبني المفاهيم الأوروبية للدولة والمجتمع كلياً. بل على العكس، إنه يعني بعث الإسلام من جديد وتجديد التأكيد على ضرورة الجامعة الإسلامية، وتعزيز حكم الخليفة. وضم أرسلان صوته الشعري إلى صوت أحمد شوقي وأكد أن "الثناء المعبر عن الشكر والعرفان هو حق للخليفة فهو زينة الدين والدنيا"⁽⁴¹⁾ (*). لقد تلقى أرسلان تعليمه إبان عصر النهضة، لكنه ظل في منأى عن تأثير المشاعر الانفصالية العربية التي جاشت لدى آخرين، وزار باريس الجمهورية الثالثة ولندن غلادستون، لكنه لم يعثر على ما يشده إلى مبادئ الليبرالية الأوروبية. لقد عرف أرسلان الوجهة بوصفه درزياً، لكنه أحال مستقبله السياسي إلى مسألة إحياء الخلافة العثمانية. وفي خضم العملية المعقدة التي يكتسب من خلالها المرء معتقداته وحافز التعبير عنها، تجاهل أرسلان كل شيء لا يمكن أن يُعدَّ جزءاً من تراثه الحضاري الإسلامي. وجمع بين التزامه الصلب بهذا التراث وبين طموح عنيد للعب دور سياسي يرمي إلى صون هذا التراث والحفاظ عليه. وخلال العقد الأخير الصاخب من عمر الإمبراطورية العثمانية، منذ عام (1908م)

(*) البيت المقصود:

تزين الدنيا به والدين

إيتاء حق الشكر حق خليفة

الذي شهد قيام ثورة تركيا الفتاة حتى هدنة مودروس التي أبرمت عام (1918م)، سنحت الفرصة لأرسلان ليخدم قضيته. وكان ضباط الجيش الذين قادوا الثورة قد أملوا على السلطان مطالب متواضعة في عام (1908م)، إلا أنها تمخضت عن إثارة سلسلة من الأحداث أدت إلى الإطاحة بالسلطان عبد الحميد في عام (1909م)، وإلى توطيد أركان السلطة السياسية حول الثلاثي جمال وطلعت وأنور في عام (1913م)، وإلى التحالف المدمر مع ألمانيا في عام (1914م). وبعد استقبال حماسي، لم تتمكن عملية استعادة دستور عام (1876م) في عام (1908م) من إصلاح ذات البين بين شعوب الإمبراطورية وهيئة الحكم في اسطنبول، مركز الإمبراطورية، وباتت الضرورة تحتم على الحكومة طرح خيارات تتعلق بطبيعة الدولة العثمانية، والرموز التي يتعين على الدولة أن تسعى من خلالها إلى تعزيز ولاء رعاياها. وفي الوقت نفسه سعت الدول الطامحة، من خارج الإمبراطورية، كبيرها وصغيرها إلى الحصول على البلاد ومقاطعات وهيبة ومقام رفيع على حساب الباب العالي العثماني الذي كان آخذاً في الضعف. وبالنسبة للذين يشعرون بانتماء المواطنة إلى الدولة العثمانية مثل أرسلان، اقتضت هذه الظروف مجابهة سلسلة متواصلة من الأزمات. لقد نجح وسطح نجمه في خضم التحدي وبرز إبان زمن التداعي الأخير لأركان الإمبراطورية بوصفه رجلاً مفعماً بالحياة، وشديد الولاء العاطفي للإمبراطورية العثمانية. وشارك في كل المواجهات تقريباً - العسكرية والأيدولوجية والسياسية - التي واجهتها الإمبراطورية العثمانية في آخر سنوات عمرها. ولدى اقتفاء أثر أنشطته في هذه الحقبة، يمكن الحصول على تقدير أكثر اكتمالاً لولاءاته العثمانية وميوله السياسية الإسلامية.

وكان تدخله العام الأول في أعقاب ثورة "تركيا الفتاة" مباشرة يتعلق بحالة استعادة الدستور في جبل لبنان، والقضية التي تترتب على ذلك والمتعلقة بمكانة أسرته في منطقة الشوف. وعلى الرغم من أنه كان ملتزماً بالولاء للسلطنة، فقد بارك أرسلان نجاح جمعية تركيا الفتاة في إرغام السلطان عبد الحميد على استعادة الدستور. وكان أكثر شيء نال استحسانه في هذا التدبير الدعم الذي منحه لاعتقاده بأن الإصلاح ممكن في إطار

النظام التقليدي. وأمل أرسلان أيضاً أن يغدو نائباً في البرلمان المزمع التام عقده في اسطنبول. ولكن لم يلقَ طموح أرسلان ولا رؤيته للإصلاح تشجيعاً من متصرف جبل لبنان الجديد، يوسف فرانكو باشا (1907-1912م) الذي كانت أساليبه الإدارية ورؤيته السياسية متحفظة واستبدادية⁽⁴²⁾. وعلى الرغم من أن أسرة أرسلان استفادت فعلياً من تعيين فرانكو باشا، فقد انضم أبناؤها إلى قادة آخرين في المتصرفية للتعبير عن استيائهم من أسلوبه في الحكم. وكانت وسيلتهم التي توسلوا بها في احتجاجهم الدستور المستعاد. وفي شهر سبتمبر/ أيلول من عام (1908م)، اجتمع وفد من الوجهاء اللبنانيين في بيت الدين ومارسوا ضغطاً على يوسف، وطالبوه بإعلان تطبيق الدستور في المتصرفية وبإقالة الموظفين المعيّنين من قبله ممن لا شعبية لهم، ووفقاً لرواية أرسلان لحديث تلك الحادثة: عندما ظهر يوسف باشا الذي كانت ترتعد فرائصه خوفاً أمام الوفد ليقسم على الولاء للدستور، كان شكيب أرسلان هو الرجل الواقف أمامه ممثلاً للمتصرفية وصافح يده المرتجفة⁽⁴³⁾.

وفي أعقاب التدبير الحاسم الذي اتخذته شكيب في هذه الحادثة، عُيِّنَ من فوره قائم مقام لمنطقة الشوف. ويذكر في مذكراته، وهو على الأرجح صادق فيما ذهب إليه، أنه لم يكن يريد حقاً المنصب، بل كان هدفه الحقيقي تمثيل جبل لبنان في اسطنبول⁽⁴⁴⁾. ولكن ألح عمه عليه من أجل قبول المنصب، فوافق نزولاً عند رغبة عميد الأسرة. وشغل منصب قائم مقام منطقة الشوف زمناً يزيد على الستين قليلاً، ثم استقال من منصبه بسبب خلاف نشب بينه وبين المتصرف الذي لم يجد أن أرسلان، لأسباب يمكن تفهمها، كان مقبولاً على الإطلاق. ولم يُعَقَّبْ أرسلان في مذكراته على موضوع أدائه مهامه الرسمية، ولكن يتولد لدى المطلع على سيرته انطباع يوحي بأنه لم يكن مهتماً بصورة خاصة بالواجبات الإدارية اليومية، وعلاوة على ذلك كان مواظباً على البحث عن معترك أرحب فضاء من ذاك الذي أتاحه له دور أرسلان التقليدي في منطقة الشوف. وأوجدت ثورة جمعية تركيا الفتاة ظروفاً منحت ذاك الفضاء، ودفعت به من حيث كان زعيماً محلياً إلى حيث صار سياسياً إمبراطورياً وشخصية عامة.

وعندما أُطِيعَ أخيراً بالسلطان عبد الحميد في شهر أبريل / نيسان من عام (1909م)، دعم أرسلان نظام الحكم الجديد وساند جهوده الرامية إلى صد الغزو الأجنبي. ويحتمل أن يكون قد تملكه الأسف لرحيل عامل قوي، لكنه كان نافذ البصيرة بما يكفي ليرى أن السلطة على وشك أن تؤول إلى المؤسسة العسكرية، كما كان يمتلك من الشعور الوطني ما يكفي لجعله يدرك أن بقاء الدولة العثمانية في قيد الحياة يعتمد على نجاح الأداء العسكري. فإن كان أبدى بعض المجاملات السياسية، فقد أعرب أيضاً عن التزام شخصي مكثف بالقضية العثمانية وفقاً لنهج نظام حكم جمعية تركيا الفتاة في الدفاع عنها. وتجلّى التزامه وبدا أكثر وضوحاً في معرض رد فعله على الغزو الإيطالي لليبيا في شهر أكتوبر / تشرين الأول من عام (1911م) عندما توجه هو نفسه إلى ساحة المعركة. وعلى الرغم من أن استجابته هذه كانت مباشرة أكثر من معظم ردود الأفعال، فإنها لم تكن بمنأى عن تمثيل الأصدقاء التي خلفها الغزو الإيطالي في الأصقاع العربية الإسلامية جميعها. فقد شهدت تونس اضطرابات وأعمال شغب مفتوحة مناهضة للغزو الإيطالي. كما اجتاحت المجتمع في مصر، على الصُّعْدِ كافّة، موجة عارمة من المشاعر المؤيدة للعثمانيين. واشتدت المخاوف من إطلاق حملة أوروبية منمّهجة مناهضة للإسلام، ونجمت هذه المخاوف عن احتلال القوات الفرنسية فعلياً لمدينة فاس المغربية ربيع عام (1911م)، مكرسة بذلك المراحل النهائية من عملية إضافة المغرب العربي إلى نظام المحميات الدولي.

لقد تصرف أرسلان كما لو أن الغزو الإيطالي كان يستهدفه شخصياً. فاندفع، يملكه شعور آسر بضرورة التحرك الفوري، من جبل لبنان ليمضي عاماً محموراً بوصفه جندياً، وعامل إغاثة، وناشطاً دعائياً. وفي خطة بعيدة المنال ضعيفة الاحتمال، حالها حال أي تكتيك عسكري يفتقر إلى الخبرة وتعوزه البراعة، أقنع أرسلان القائد العثماني في دمشق بإرسال عدد من الضباط والجنود للخدمة في الجبهة الليبية. رافق أرسلان الضباط والجنود في طريقهم إلى ليبيا، وكان عليهم أن يمروا عبر مصر التي كانت تسيطر عليها القوات البريطانية متكرّين بأزياء بدوية. ولم يتمكن منظم هذه الحملة المريب أن

يمضي إلى ما هو أبعد من منطقة العريش، حيث اعتقل وأرسل في نهاية المطاف على متن قارب إلى يافا⁽⁴⁵⁾. وأرسلان الذي لم يردعه ما حصل له امتطى متن سفينة أخرى متوجهة من يافا إلى الاسكندرية، ومن ثم إلى القاهرة حيث أمضى فيها الأشهر الأولى من العام (1912م)، عمل أثناءها متطوعاً في خدمة جمعية الهلال الأحمر المصرية التي كانت حديثة العهد. وكما كانت الحال معه دوماً، وجد الوقت اللازم لعقد صداقات قوية سياسية الطابع تعهد بها بالرعاية فعمرت طويلاً، وتخلل زمن إقامته في مصر فترات طويلة من العداء الشخصي مع الخديوي عباس حلمي الثاني.

وعندما وصل في نهاية المطاف إلى حيث كانت تعسكر القوات العثمانية في طرابلس في شهر أبريل/ نيسان من عام (1912م)، كانت الحرب متوقفة تماماً. ومكث في المنطقة أكثر من شهرين بقليل، وكان من شأن الاتصالات التي أجراها مع الضباط العثمانيين هناك أن أبلت بلاء حسناً وعادت عليه بنفع كبير، حيث تولى الثلاثي المذكور آنفاً زمام السلطة في العام (1913م). وأصبح صديقاً حميماً، لا سيما، لأنور باشا في ذلك الوقت. وعلى الرغم من أن أرسلان يكبر أنور باشا بثلاثة عشر عاماً، فقد كان مفتوناً به أياً افتتان، وكان يرى في زعيم جمعية تركيا الفتاة الزئبقى الماكر هذا بطلاً إسلامياً أصيلاً.

لم يسهم أرسلان إسهاماً عسكرياً في الدفاع عن طرابلس، بيد أن وجوده في جبهة القتال أكسبه صيتاً طيباً أضيف إلى سمعته الحسنة وشهرته ومكانته المرموقة، وكذا فعلت مقالاته التي كرسها للشأن الليبي ونشرت ووزعت على نطاق واسع. كتب أرسلان، في الحقبة الواقعة بين شهر نوفمبر/ تشرين الثاني (1911م) ويونيو/ حزيران (1912م)، سلسلة من المقالات المثيرة نشرها في صحيفة المؤيد. وكشف فيها النقاب عن عمق التزامه بالإمبراطورية العثمانية وعن مرارة موقفه من الإمبريالية الأوروبية. ذاع صيت تلك المقالات وساعدت في توسيع قاعدة جمهور أرسلان ومعارفه الشخصية وصولاً إلى شمال أفريقيا. وأمكن ذلك من خلال الجهود التي بذلها رئيس تحرير صحيفة المؤيد، الشيخ علي يوسف، الذي كان يتصرف بوصفه أحد قادة منظمة إسلامية شاملة كانت تسمى الاتحاد المغربي. وجند علي يوسف طلاباً شمال أفريقياً في القاهرة

لصالح المنظمة، وعمل في العامين (1911 و1912م) على زيادة توزيع الصحيفة في المغرب⁽⁴⁶⁾. وكان أرسلان منخرطاً بالتأكيد في عمل منظمة الاتحاد المغربي، وقد تكون مقالاته التي كانت تنشر في صحيفة المؤيد هي التي أرست أسس الروابط الدائمة بينه وبين شمال أفريقيا. وتضمنت تلك المقالات دعوات إلى العمل وإلى الوحدة والمقاومة.

حدد أرسلان عبر تلك الروايات للمرة الأولى رؤيته وتعريفه للشعور الوطني مدعياً أن: "المسلم العثماني، شأنه شأن إخوانه المسيحيين واليهود لا يألو جهداً في الدفاع عن بلاده، وطن الآباء والأجداد..."⁽⁴⁷⁾. وكانت طرابلس تمثل بالنسبة إلى الإمبراطورية بأسرها وإلى أرسلان على الصعيد الفردي فرصة لاتخاذ تدابير حاسمة ضد الاعتداءات الأوروبية. ومثّل الغزو الإيطالي تحدياً لجوهر النظام الإسلامي العثماني، واقتضى الأمر، وجود رد فعل فاعل "يحفظ علينا هذا النزر الباقي من كرامتنا"⁽⁴⁸⁾. ويعني هذا استعداداً لتقديم أكبر التضحيات: "وبدلاً من أن ندافع عن أرواحنا في قضية الشرف، نفضل أن نموت بشرف"⁽⁴⁹⁾.

وتجاوزت المشاركة في النضال حدود الحاجة لاتخاذ تدابير من أجل النضال ذاته، حيث بات النضال يمارس باسم الدولة العثمانية ونسيج الإسلام المتناسك المنيع، الذي حكمت باسمه بوصفها السلطة السياسية الإسلامية الوحيدة الباقية على هذا الكوكب. والرموز التي وظفها أرسلان في تعريف هذه القضية كانت جلية واضحة لا لبس فيها: "... أناشدكم الله أيها العثمانيون، يا أبناء السلطنة المصونة ورعاياها، من أجل بقائكم واستمراركم على هذه الأرض ولكي تنزعوا النير من رقابكم... أناشدكم الله، يا أبناء الشرق، لكي تحافظوا على هذه الدولة الواحدة التي ينبغي ألا تزول... أناشدكم الله أيها المسلمون في مناطق الخلافة كافة أن تحافظوا على شعاع حياة الإسلام متوهجاً. والتضحية هي طريق الخلود"⁽⁵⁰⁾. وأعرب أرسلان عن دوره الشخصي بالصراحة والوضوح نفسيهما حين قال: "نحن نحب الإمبراطورية العثمانية، ولسوف نواظب على دعمنا لها بإخلاص ما بقيت السماء والأرض. وسوف ندافع عن وطننا راجين أن تعزز جهودنا ثقة الإسلام بنفسه وأن تستقطب الشهداء لقضيته"⁽⁵¹⁾. وكان الإسلام بالنسبة

إلى إرسال أساساً ومركزاً لتأييد السلطة السياسية العثمانية: فلا الحكم الرشيد، ولا مبادئ السلالة الحاكمة - ولا المبادئ الديمقراطية منها بالتأكيد - ولكن الاعتقاد بأنه ينبغي لخليفة الإسلام أن يحظى بالسلطة في المناطق والبلدان التي يعيش فيها المسلمون. وهذا منطلق إرسال في هذا الإطار. حاجج إرسال أيضاً في أن إخفاق اسطنبول في الرد، بكل ما في الإخلاص من معنى، على الغزو الإيطالي أضعف ولاء الأقاليم الأخرى الخاضعة للسلطة العثمانية، وشجع فعلياً أوروبا المتغترسة على ارتكاب مزيد من الأعمال العدائية. ومناهضة إرسال الشرسة للإمبريالية التي أعرب عنها في البداية عبر مقالات نشرت في صحيفة المؤيد، تردد صداها في كتاباته حتى آخر أيامه. وشن حملته المتواصلة ضد ما عدّه مؤامرة أوروبية تمثلت في التغاضي عن تفكيك الدولة العثمانية تدريجياً، وأسفرت لاحقاً عن تكوين نظام الانتداب. وانطوت خطابه على غضب عارم. ولا يقتصر أمر المطلاع على خطابه على استشعار حماس وطني حقيقي أصيل فيها، بل يشعر بالإحباط الشخصي الذي يعانيه رجل واثق بمواهبه الشخصية، وتبين له أنه ينعدم احتمال أن يكون جزءاً من سلطة آخذة في الانحسار وآيلة إلى زوال، وينظر إلى نخبته الحاكمة من قبل الأوروبيين بوصفها أخطأ مكانةً وأدنى درجةً. ولكن المرارة التي يشعر بها كلها من جراء ذلك لا تطفئ على المرارة التي تجرع علقمها من جراء عدم وجود قوات (للسلطنة) في طرابلس.

وأرغمت التهديدات التي تأتت من جبهات أخرى الحكومة العثمانية على التخلي عن طرابلس وعلى إبرام اتفاق سلام غير مؤات مع إيطاليا. وعندما سمع إرسال عن انسحاب محتمل للقوات العثمانية من ليبيا، سافر إلى اسطنبول ليرى إن كان في وسعه إقناع الحكومة (العثمانية) بمواصلة القتال في شمال أفريقيا. وشارك في النقاشات المعمقة التي انعقدت إبان اندلاع حرب البلقان الأولى في شهر أكتوبر/ تشرين أول (1912م). ومن جديد، انخرط إرسال في القضية منسقاً هذه المرة أنشطة الجمعيات الخيرية التابعة للهلال الأحمر المصري لمصلحة اللاجئين المسلمين الذين نزحوا من مناطق البلقان.

وفي شهر يناير/ كانون الثاني من العام (1913م)، وقع الانقلاب الذي أحكم قبضة أنور والاتحاديين على مقاليد الحكم في اسطنبول. دعم إرسال هذا النظام دعماً مطلقاً. وارتأى أن الاقتتال السياسي أسهم في خسارة طرابلس، ورحب بوجود حكومة قوية. كما خلص إلى استنتاج يفيد بأنه لكي يبقى الحكم قوياً ينبغي وجود برنامج يستوجب التعاون وتوحيد الجهود. ورأى أن هذه الطريقة كفيلة وحدها بالحفاظ على الإمبراطورية (العثمانية) في مواجهة الاحتلال الأوروبي الذي يسعى إلى تفتيتها. ونتيجة لمواقفه تلك غدا إرسال المتحدث الفعلي باسم نظام الحكم الجديد. ورأى في قادة جمعية الاتحاد والترقي مجموعة من الأفراد الملتزمين بالبرنامج السياسي الذي لطالما اعتنقه، وكان مستعداً لإعطائه دوراً محورياً على صعيد إقناع الآخرين بنفعه وجدواه. واكتشف قادة الجمعية بدورهم في إرسال رجلاً عربياً وطنياً بارزاً لا يرقى الشك إلى وطنيته، واستشعروا استعداداه لتأييد سياساتهم علناً وبقوة. ورأوا في جعل رجل له مكانة إرسال حليفاً لهم فرصة ينبغي عدم تفويتها، فعهدوا إليه بمهمة شرح أهدافهم لجمهير المجتمعات العربية.

وعلى مدى معظم العام (1913م) غدا إرسال مبعوثاً متنقلاً مروجاً "للعثمانية"، حيث زار كلاً من بيروت ودمشق والقدس. وتوجه إلى المدينة المنورة في صحبة داع آخر ذائع الصيت من الدعاة الموالين للإمبراطورية العثمانية المروجين لها هو عبد العزيز جاویش. وإعجاب إرسال المعلن بهذا الشخص يُعدُّ مؤشراً مهماً على توجهاته السياسية وعلى أسلوبه في العمل. فجاویش (1876 - 1929م) ذاع صيته بوصفه رئيس تحرير صحيفة اللواء، لسان حال الحزب الوطني المصري. كان جاویش قد نُفي إلى اسطنبول في العام (1911م) بسبب مقالاته المؤيدة للإسلام والمثيرة جداً التي نشرها إبان الحقبة التي شهدت توتراً بين المسلمين والأقباط في مصر. وكان منفي حافلاً بالنشاط حيث أضحى مقر إقامته في اسطنبول نادياً سياسياً فعلياً لمناصري الجامعة العثمانية-الإسلامية. وشأنه شأن إرسال، وجد نفسه في برلين في العام (1919م)، وعبر تعاون وثيق مع

الأمير، شرع يدعو إلى تأييد الكفاح الإسلامي، وكانت حالة من عدم اليقين تعصف بكيانه حيال استمرار ذاك الكفاح⁽⁵²⁾.

وانتهز أرسلان فرصة أسفاره عبر المقاطعات العربية لاستطلاع الرأي العام العربي، لتغييره عند الضرورة. وخاض غمار جولات من المناقشات والجدل السياسي مع انفصاليين عرب وحتى مع أكثر الداعين إلى لا مركزية الحكم (العثماني) اعتدالاً، منبهاً بشدة إلى مخاطر التقسيم وإلى أهمية الدولة العثمانية بالنسبة إلى العرب بوصفها ملاذاً يستظل بحماه.

وكان في ذلك الوقت ينشط عملاء خاصون تابعون للقوة الأمنية الشخصية لأنور باشا في معرض الحملة الدعائية المساندة للإسلام، وكانت تسمى تلك القوة "التشكيلات المحسوسة" [الاستخبارات]. وعلى الرغم من أنه لم يعثر على دليل على وجود صلة مباشرة بين أرسلان وهذه الأنشطة، فإن ارتباطه الوثيق مع أنور والتزامه بأيديولوجية مساندة للإسلام يوحيان بقوة بأن أسفاره في هذه الأشهر كانت جزءاً من برنامج حكومي منسق⁽⁵³⁾. وهكذا أصبح أرسلان وثيق الصلة بجمعية الاتحاد والترقي.



الجتلمان العربي العثماني: نائب عن منطقة حوران، في العام 1915.

وفي الوقت الذي مكنته علاقاته بالنظام الحاكم في اسطنبول من أن يغدو أحد أبرز الشخصيات العربية المؤثرة في عصره، فقد جعلته أيضاً ينظر إليه بوصفه محل اشتباه وريبة نوعاً ما.

تصميم إرسال على هدف واحد بعينه وإصراره عليه ووضوح السبيل إليه؛ كل ذلك كان سمة استثنائية في زمن كان يغلب على الناس فيه الارتباك الفكري والمراوغة السياسية. فبالنسبة لكثير من العرب كانت الإصلاحات الدستورية التي وعد بها أعضاء جمعية تركيا الفتاة تتلاشى في خضم قسوة تشديد مركزية الحكم والتمادي في

سياسة التتريك. وفي سبيل مكافحة هذه السياسات، تشكلت جمعيات عربية عديدة في اسطنبول والمقاطعات السورية وفي القاهرة وباريس⁽⁵⁴⁾. ويحتمل أن تكون مجموعة من المخططين العاملين في الخفاء قد أيدت برنامجاً يرمي إلى انفصال العرب عن الإمبراطورية العثمانية. ولكن الذين ناضلوا في هذا الاتجاه كان قليلاً عددهم، إذ كان جُلُّ تركيز المجتمعات العربية منصراً إلى إظهار الحاجة إلى اللامركزية في الحكم والإدارة، وإلى إحياء المكانة الرفيعة للثقافة العربية في الأقاليم العربية، بخاصة، تلك المتعلقة بالجانب اللغوي منها. وعلى الرغم من أن كل تكتل طائفي أو إقليمي يمكن أن يكون قد لون الرؤية الاستشرافية للمستقبل بلونه الخاص، لكن كان ثمة توافق في الآراء على نطاق واسع على صيغة تتيح استمرار الرابطة العربية، ضمن إطار الإمبراطورية العثمانية بوصفها صيغة مرغوباً فيها وممكنة.

ومن المهم أن ندرك أن الدولة العثمانية في أواخر عهدها كانت عوامل بقائها داخلية. ولا يمكن النظر إلى القرن الذي سبق الحرب العالمية الأولى بوصفه مجرد مقدمة للقومية العربية. فالقادة السياسيون لم يكونوا يعتزمون الانفصال عن اسطنبول، وكان العرب ما يزالون يخضعون بوصفهم ضباطاً في الجيش العثماني، ويلتحقون بالأكاديميات العليا في اسطنبول، ويتطلعون إلى شغل مناصب ضمن إطار السلطة الرسمية العثمانية، ومما لا شك فيه أنهم كانوا يأملون في تحقيق شكل من أشكال اللامركزية في الحكم والإدارة؛ الأمر الذي كان كفيلاً في إتاحة مجال أرحب لطموحاتهم ضمن المقاطعات العربية ذاتها. ومع ذلك فقد كانت أغلبية النخب العربية تسعى إلى البقاء داخل إطار دولة عثمانية قوية معززة، ولم تكن تسعى إلى الانفصال عنها⁽⁵⁵⁾.

وكان أرسلاّن يشكل استثناءً في خضم هذا الشعور العام بسبب دعمه الشديد لسياسات نظام جمعية تركيا الفتاة. وخلافاً للمتحدثين الرسميين الذين كانوا أكثر تناغماً من الناحية الأيديولوجية، لم ينطلق في كتاباته من منطلق عثماني أو إسلامي أو تركي أو عروبي، بل كانت رسالته عملية أكثر: إذا ما تجزأت الإمبراطورية (العثمانية) فإنها سوف تنهار في مواجهة أوروبا. وخلال جولته في العواصم العربية، أكد على الحاجة

إلى الجامعة العثمانية الإسلامية في مواجهة مخاطر التقسيم: "وفي جميع المدن التي زرتها كنت أتكلم في عدم مناسبة الانشقاق بين العرب والترك، ووجوب الاعتصام بالدولة، وأحذر من سياسة الأجانب الذين يريدون إلقاء الشقاق بين العرب والترك، ليستغلوا الشقاق لمنافعهم ويستولوا على البلاد ويحولوها إلى مستعمرات لهم⁽⁵⁶⁾". وراح أرسلان يسوق الحجج والبراهين على أن الاختلافات بين العرب والأتراك مختلفة أوهي نتاج التلاعب الإمبريالي. وجاء فيما كتبه إبان الحرب التي دارت في طرابلس (الغرب) أن عبارة "العرب والأتراك" عبارة جديدة محدثة، وأنه إذا ما أجازت الدولة العثمانية لنفسها أن تعرف من خلال هذين المكونين المجزأين بدلاً من أن تعرف بوصفها كلاً كاملاً فإن ذلك سيُعدُّ انتحاراً لها⁽⁵⁷⁾. فيما كان بعض (العرب) يرون في الاستقلال المحلي اعتناقاً من ظلم جمعية الاتحاد والترقي الجائر، فإن أرسلان كان يرى فيها دعوة إلى الاستعمار من أجل السيطرة على الولايات (العربية).

كان أرسلان يرى في المقترحات الداعية إلى تحقيق الحكم الذاتي أمراً نابعاً من الطموحات غير المدروسة لبعض الساسة العرب. وأكد على هذه المسألة بكل ما أوتي من قوة في سلسلة من المقالات الرائدة التي نشرها في صحيفة الرأي العام المؤيدة للاتحاديين في الأشهر الأولى من العام (1913م). وكشفت مقالاته - تلك التي كانت موجهة بصورة رئيسة إلى قيادة الجمعية التي كانت تدعو إلى لا مركزية الحكم والإدارة، وتتخذ من القاهرة مقراً لها وهي الجمعية الأكثر اعتدالاً، والتي كانت تحظى بتأييد على نطاق واسع من الأوساط الإصلاحية في حقبة ما قبل الحرب - النقاب عن طائفة كاملة من سمات الشخصية السياسية لأرسلان، وتضمنت شن هجمات شخصية شديدة على إصلاحيين عرب بارزين، كما تكشف عن تشبهه بشعوره الوطني في مواجهة اتهامات بالخيانة استهدفته، وحفلت بدفاعه عن الوحدة العثمانية بوصفها استجابة براغماتية ومبدئية في آن معاً تقتضيها المرحلة.

كما كان أرسلان يرى أن كل المحاولات العربية الرامية إلى إعادة تنظيم علاقات العرب مع اسطنبول، مهما كانت سلمية تُعدُّ خيانة. وعليه تمكن من كتابة مقالات تشير

إلى أن برنامج الجمعية المطالب بلا مركزية الحكم وتحقيق نوع من الحكم الذاتي في الأقاليم يعد بمثابة محاولة لتمزيق أوصال الوحدة العثمانية، وإخضاع "بلادنا" للحكم الأجنبي المباشر⁽⁵⁸⁾. وجاء في مقالاته: أولئك الذين سعوا إلى تقويض دعائم دولة تسترشد بأحكام الشريعة الإسلامية، والذين ابتهجوا نتيجة للانتكاسات التي حلت بها، والذين شجعوا انتشار الفتنة عبر الانشقاق هم مذنبون، ويتمثل ذنبهم بخداعهم أنفسهم؛ الأمر الذي يمكن أن يتمخض عنه كارثة لا توفر أحداً: "تعني اللامركزية الذهاب إلى الجحيم في رحلة سرمدية؛ والحزب الذي ينادي باللامركزية ويعتقد أنه يشيد بذلك قصرًا، هو في واقع الأمر يحفر قبره بيده⁽⁵⁹⁾".

وكان أرسلان يذم بالقدر ذاته محاولات أخرى تسعى إلى إظهار هموم وبواعث قلق عربية تحديداً. من ذلك انتقاده لخرافة العروبة، فقد ورد فيما كتبه عن مؤتمر باريس الذي انعقد في شهر يونيو/ حزيران من عام (1913م): "كنت ساخطاً على عقد هذا المؤتمر⁽⁶⁰⁾". وعلى الرغم من الاعتدال الذي اتسمت به قرارات ذاك المؤتمر، فقد عَدَّ أرسلان الاجتماع خيانة، وحث وجهاء سوريا من الطوائف كلها على إِمطار اسطنبول بسيل من برقيات الاحتجاج. وكان حماسه في مسعاه هذا شديداً إلى الحد الذي جعل قادة مسيحيين في دمشق يتهمونه بالتحريض على تدبير مخطط يرمي إلى تزوير تواقع تذيل برقيات وإلى تغيير نصوص برقيات مؤيدة للمؤتمر بعد توقيعها⁽⁶¹⁾.

وعلى الرغم من انهماكه الشديد، لم يكن أرسلان يتوفر على برنامج واضح للإصلاح. فبالنسبة له لم يكن ينبغي أن يدور الجدل حول الخيار بين نظام حكم دستوري وآخر استبدادي، وكان مستعداً لإخضاع اعتبارات الحرية السياسية إلى اعتبارات الوجود السياسي: "لم أنخدع بكلمات الإصلاح واللامركزية وبتعبيرات أخرى من هذا القبيل استعملها رجال فاسدون لجذب الجماهير، وجعلهم يغفلون عن الأخطار التي تهدد دولتهم ووطنهم ودينهم ووجودهم الدنيوي⁽⁶²⁾". وينبغي أن يتأجل سعي الكيانات المختلفة إلى الحصول على حقوق متساوية إلى حين انبعاث الإمبراطورية انبعاثاً يكتب له النجاح على أن تظل موحدة، وبعد أن تتخلص من أزماتها الراهنة.

وبينما كان أرسلان يغدو أكثر مجاهرةً برأيه دفاعاً عن سياسات جمعية الاتحاد والترقي، كانت معارضة الجماهير له تزداد اتساعاً. فقد أسف إصلاح من بيروت بسبب الاستلاب الذي ألم بالأمير وأدى به إلى الابتعاد عن "أصدقاء الأُمس"، وأقر أرسلان نفسه بذلك: "وكان الكثير من أصدقائي وإخواني مغتايين مني لاتخاذ تلك السياسة العثمانية⁽⁶³⁾". وكان أحد المستائين رشيد رضا، وهو القوة الرئيسة الفاعلة في الجمعية المطالبة بلامركزية الحكم والإدارة، والمتحدث الديني الأكثر وجهة وشهرة بين تلاميذ محمد عبده ومريديه. وعلى الرغم من برنامج رضا التحذيري من أن إسلاماً عربي المنحى والتوجه داخل بوتقة الدولة العثمانية يتوفر على كثير من القواسم المشتركة مع برنامج أرسلان، فإن رضا لم يكن قادراً على تقبل ارتباط أرسلان مع جمعية الاتحاد والترقي، ووجه له انتقاداً عبر مجلته الشهيرة المنار. وانتقاده، الذي غداً أوسع انتشاراً ولاقى رواجاً بين الإصلاحيين العرب، المستند إلى أن أرسلان لم يكن سوى شريك قليل الشأن لجمعية الاتحاد والترقي؛ ألحق قليلاً من الضرر به إذا ما قورن بمحاولات رضا تقويض مصداقية أرسلان في منطقة تقدره حق قدره. فالرجل الذي كان الولاء الإسلامي معيار انتمائه ومحك هويته، ندده به المتحدث القيادي الإسلامي البارز في عصره بوصفه ينتمي إلى طائفة [الدروز] التي لم تكن طائفة إسلامية بحق، وعليه فهو غير مؤهل لشغل موقع المدافع عن قضايا الدين⁽⁶⁴⁾. وعمد رضا إلى تعديل موقفه وآرائه في الرجل في وقت لاحق، لكن الأمير في ذلك الحين كان يتعرض لهجوم ثقيل الوطأة.

ولكن على الرغم من كل ذلك، لم تُثنِ مشاركة أصدقائه في جمعيات الإصلاح العربية ولا انتقادهم لمواقفه أرسلان عن الإصرار على هدفه. فهو يدافع في نهاية المطاف عن موقف أقره الأفغاني ووافق عليه. والرابطة الكفيلة بإبقاء العالم الخارجي بعيداً وبكف أذاه أتاحها الإسلام والخلافة الإسلامية، ولا يمكن إبقاؤها على قيد الحياة إلا بتأمين دعم موحد من كل رعايا الإمبراطورية (العثمانية). كان أرسلان يشعر كذلك بوجود ما يبرر الدور الذي يؤديه لا بوصفه شاعراً منفعلاً وسلياً، بل بوصفه ناشطاً يتقد حماساً على غرار الأفغاني. وكان مقتنعاً آنذاك، كما كان في الماضي، أن قضيته مشروعة

ومبنية على الحق. وشاطره مواقفه وآراءه تلك آخرون، إلا أن الذين جاهرُوا بآرائهم منهم بقدر ما فعل أرسلان كان قليلاً عددهم. وفي العام (1913م) بادرت الحكومة الاتحادية إلى عقد سلسلة من المؤتمرات عمدت خلالها إلى تمكين الرأي العربي من إيصال صوته، وإلى خطب ود العرب واسترضائهم ما أمكن. وحضر أرسلان تلك المؤتمرات لتحقيق غرض محدد واضح تمثل في الاعتراض على مؤتمر باريس، واغتنام تلك الفرصة للتعبير عن آرائه بقوة بلغت حداً جعل أحد المشاركين وهو أسعد داغر يتأثر ويعلق منوهاً بمكانة أرسلان الخاصة في أوساط الرأي العام العربي⁽⁶⁵⁾. وما أثار داغر كان شدة الحماس الذي اعترى أرسلان في مناهضته لناشطي الجمعيات العربية وتجذر دعمه للسياسات الاتحادية، وقلقله الصارخ من طموحات بريطانيا وفرنسا في الولايات والمقاطعات العربية. بالنسبة لداغر، كان أرسلان فريداً في نوعه من حيث قدرته على دعم المطالب العربية المناهضة بالإصلاح في الوقت الذي يدافع فيه عن تصلب الحكومة في تنفيذها. ولاحظ معلق آخر ببساطة أن أرسلان هو "أحد الزعماء العرب البارزين الذين عملوا على استمرار صداقتهم مع الأتراك"⁽⁶⁶⁾. وكان أرسلان يرى أن انتقاد الدولة يعني تقويض أركانها، المتمثلة في وجود سلطة مركزية قوية ومتناسكة، ويعارض الفوضى التي تنجم عن ضعف السلطة وانحلالها، كما يعارض قيام مقاطعات أو ولايات تتمتع بحكم ذاتي. ويحتمل أن يكون أرسلان، شأنه شأن كثيرين من مؤيدي الدولة العثمانية، قد شعر أن سياسات السلطان عبد الحميد أجدت نفعاً على النحو الذي ينبغي، وأنه لم ينجم عن التغيير إلا السخط والهزيمة.

وفي شهر أبريل/ نيسان من العام (1914م)، انتخب أرسلان نائباً في البرلمان العثماني ممثلاً لمنطقة حوران التي تقع إلى الجنوب من دمشق وأغلب أبنائها من الدروز. وعندما سافر إلى اسطنبول لمباشرة مهامه البرلمانية، كان تبنيه الشديد لقضية الجامعة العثمانية الإسلامية أهم محددات هويته وتوجهه. وكان توجهه هذا متساوفاً مع العالم الذي ترعرع فيه والذي عرف فيه، وهو على عتبة عامه الخامس والأربعين، بوصفه رجلاً كثير الإنجازات متنوعها، فقد شغل فيما مضى منصب قائم مقام منطقة الشوف،

وترجم للأديب الفرنسي شاتوبريان، وهو زعيم الدروز، وشاعر محترم، وصحفي نشرت مقالاته على نطاق واسع، وصديق حميم لأنور باشا وأحمد شوقي. وكان ينشط في خدمة الدولة وأحد المتطوعين المدنيين زمن الحرب، كما كان نائباً في البرلمان العثماني. وخلاصة القول وزبدة الكلام أنه كان تجسيدا مثالياً للجنتلمان العثماني العربي بكل معنى الكلمة في عصره. وإن كان لديه شيء من الهم وبواعث القلق حيال الدولة العثمانية، فقد كان يعتقد أن مجرى التاريخ، بدفع وتأيد من رجال مثله، كفيل بحل المسائل التي تمخضت عن ذلك الهم وتلك البواعث لمصلحة القيم التي رسختها الأعراف والتقاليد. واستناداً إلى إسهاماته الكثيرة في الدولة والمجتمع، حظي بمكانة محترمة ومشرفة وهو في منتصف العمر فيما كان يشرع بأداء خدمة أخرى للملكه. وفي الصراع القادم، راهن أرسلان بكل شيء في سبيل الحفاظ على الوضع الذي كان قائماً. ونتيجة لهذا الالتزام، لم يقتصر أمر الحرب على تحطيم عالمه، بل كان من شأنها أيضاً أن شوهدت سمعته وحولته إلى منفي مُترَحِّل.

الفصل الثاني

الحرب والمنفى

كنت في الصف المقاوم للملك حسين قبل الحرب وأيام الحرب، كما يعلم ذلك الجمهور، منتقداً سياسته في الخروج على دولة الخلافة، وأكثر من هذا في ثقته بالدولة البريطانية وعهودها.

أرسلان⁽¹⁾

وقد كان كثيرون من الناس يزعمون أن الأمير ليس له مبدأ أو مذهب في السياسة ثابت، وإنما يدهن للدولة ولكبراء رجالها لأجل المنفعة... وقد كنت أنا من هؤلاء المنكرين عليه تشييعه للاتحادين ودفاعه عنهم على علمي بما ذكرت من مذهبه السياسي في تفضيل الدولة على جميع الأجانب.

رشيد رضا⁽²⁾

في الثامن والعشرين من شهر أكتوبر/ تشرين الأول من العام (1914م)، دخلت الدولة العثمانية في الحرب العالمية، وتغير الشرق الأوسط تغيراً أبدياً. ومع أن المعارك التي دارت في أنحاء الشرق الأوسط كانت صغيرة وثانوية مقارنة بالمجازر التي كانت الجبهة الغربية مسرحاً لها، فقد كان للعواقب السياسية التي نجمت عن هزيمة العثمانيين تأثير كبير وشديد على الذين كانوا يعيشون في المناطق المختلفة التي كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية. وكذا فعلت الحرب ذاتها. فلم يقتصر أمرها على تعبئة أعداد هائلة من العسكريين، بل اتخذت أيضاً تدابير صارمة على صعيد الأمن الداخلي.

وعلى الرغم من أنه كان ينظر إلى الإمبراطورية العثمانية منذ عهد بعيد على أنها تحتضر عسكرياً، فقد استبسلت في الدفاع عن نفسها في مواجهة مغامرات أعدائها المتقلبة. حيث صدت القوات العثمانية غزو الدردنيل المذهل في العام (1915م)، وأسرت القسم الأكبر من جيش بريطاني كامل في معركة المارن في العام (1916م)، وحالت دون تحقيق أي هجوم بريطاني مهم، انطلاقاً من مصر، على أي من الأقاليم العربية على مدى الزمن الذي سبق هجوم الجنرال اللنبي الكبير الذي بدأ أواخر العام (1917م). وكان الجنود والضباط الذين شكلوا هذه القوة العسكرية العثمانية من العرب إلى جانب الأتراك، كما كان أحد الجنرالات الذين قادوا القوات العثمانية التي قاومت القوات العربية (قوات فيصل) المتجهة إلى دمشق في العام (1918م) هو ياسين الهاشمي وهو عربي من بغداد. ولكن، كما بات مُسلِّماً به الآن، "لو ظل معظم العرب مساندين موالين للخلافة والسلطنة"⁽³⁾، لكان بين السكان المدنيين في كل من سوريا وجبل لبنان نشطاء ينظرون إلى الحرب بوصفها فرصة مؤاتية للضغط من أجل إجراء تغييرات إدارية في علاقات العرب مع اسطنبول أو، كما هي الحال لدى بعض الجماعات المسيحية، لكانوا طالبوا بإحلال الحماية الفرنسية محل الحماية العثمانية. ومن أجل ضمان ألا تؤدي مواقف مجموعة صغيرة من المحرضين إلى تحريض الموالين من الرعايا العرب والذين يشكلون أغلبية، أرسلت جمعية الاتحاد والترقي أحد أعضاء الترويكا الحاكمة، وزير البحرية أحمد جمال باشا، ليشغل منصب القائد الأعلى للجيش العثماني الرابع الذي يتخذ من دمشق مقراً لقيادته، وليكون الحاكم المدني الفعلي للأقاليم السورية. وفي ظل إدارة جمال باشا، ألغيت الوضعية الخاصة لتصرفية جبل لبنان، وباتت المنطقة بأسرها تعامل معاملة المقاطعات العثمانية النظامية، مع استثناء مهم تتمثل في إعفاء سكان تلك المناطق من الخدمة العسكرية الإلزامية استمراراً لما كان الوضع عليه في السابق. ومنذ العام (1915م) حتى استدعائه في شهر يناير/ كانون الثاني من العام (1918م)، أثار الذعر في المناطق التي كانت خاضعة لسيطرته، وتسبب في خسارة الحكومة العثمانية لقطاعات

مهمة من الرأي العام العربي. وبوصفه عضواً مميزاً من أعضاء إحدى أبرز العائلات المؤيدة للعثمانيين، كان من الطبيعي أن يتأثر إرسال تأثراً شديداً بسياسات جمال باشا. وكما كان متوقفاً من تصرفاته إبان الغزو الإيطالي لطرابلس، أيد إرسال تحالف الإمبراطورية العثمانية مع ألمانيا، واشترآها في الحرب. ومن جهة نظر إرسال، الوقوف على الحياد، وهو الموقف الذي أيدته بعض أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، لن يحول دون إقدام الحلفاء على تقسيم الإمبراطورية خدمة لمصالحهم الخاصة⁽⁴⁾. ولا يمكن الحفاظ على الإمبراطورية وصون كرامة الإسلام والدفاع عنها إلا من خلال المشاركة المباشرة في الحرب. رحب إرسال بالصراع ودعم الخلافة والجيش التي دافعت عنها. وحذا حذوه معظم العرب من حيث المبدأ. لكن الذين اشتركوا فيها بصدق وإخلاص كان قليلاً عديدهم، وكذا كان عدد الذين وقفوا إلى جانب القيادة الاتحادية، بخاصة جمال باشا، ومن هؤلاء كان شكيب إرسال. وكان ارتباطه بالاتحاديين سبباً في جعله يرتبط في أذهان كثير من أبناء العرب بالنظام الأكثر إثارة للكرهية بين الأتراك.

نجم انخراط إرسال في قلب أحداث الحرب عن مكانة أسرته الخاصة وعن شخصيته المفعمة بالحياة والطاقة. وللإرسالين اتصالات عميقة الجذور وقديمة العهد في اسطنبول، ولم يذهب دعمهم لجمعية الاتحاد والترقي بعد العام (1912م) هباءً منثوراً بل قُدر حق قدره. فما إن وصل جمال باشا إلى سوريا في شهر ديسمبر/كانون الأول من عام (1914م) حتى أصبح شكيب وأخوه نسيب كلاهما نائبين في البرلمان العثماني، فيما عُين أخوهما الأصغر سنّاً، عادل، قائمقام لمنطقة الشوف، وغدا بعد ذلك بوقت قصير نائباً في البرلمان أيضاً. ويتوفر الإخلاص للوطن على امتيازات سياسية، وكذا الولاء للحكم العثماني له مزاياه. لقد أقر شكيب وإخوانه إلغاء جمال باشا للامتيازات الخاصة التي كانت ممنوحة للمتصرفية مفضلين، شأنهم شأن أسر درزية أخرى، المظلة المهلهلة للدولة الإسلامية العثمانية على تحويل منطقتهم (الشوف) إلى مقاطعة يهيمن عليها المسيحيون ويحيطون بها وتعاني قيوداً تفرضها الوصاية الأوروبية⁽⁵⁾. وفي هذا المثال، كان موقف إرسال المؤيد للعثمانيين تأييداً كبيراً ودوره

بوصفه زعيماً للدروز متكاملين. ولم يكن مستغرباً في تلك الحقبة أن يُدَانَ بعض الدروز بممارسة أنشطة مناوئة للعثمانيين إبان الحرب؛ لأن لدى الدروز أسباباً وجيهة تدعوهم إلى تمني النصر للعثمانيين.

وبسبب علاقاته الممتازة مع أنور باشا، حظي أرسلان بمكانة خاصة عند كبار رجال الدولة العثمانيين. وكانت مكانته تلك واضحة منذ اللحظة التي وصل فيها جمال باشا إلى سوريا. ووفقاً لما ذكره أرسلان فقد كان أحد أعضاء الوفد الذي كان في استقبال القائد العثماني، وعن ذلك يقول: ”عندما سلمت عليه قال لي إن أنور باشا تكلم له كثيراً عني وأراد بذلك تطيب خاطري⁽⁶⁾“. وكان أرسلان مسروراً بتقدير جمال باشا له، ووضع نفسه تحت تصرف القائد العثماني.

ورأى أرسلان في جمال باشا ”رجلاً يؤمن إيماناً راسخاً بمزايا القومية العثمانية المرتكزة إلى التضامن الإسلامي وبمستقبلها“. وآراؤه هذه تتكامل مع آراء أرسلان⁽⁷⁾. وغالباً ما كان يلقب أحمد جمال باشا (1872 - 1922م) بالسفاح من قبل جماعات دأبوا على النظر إليه من زاوية أحادية البعد، على الرغم من أن تقويمهم له بوصفه سفاحاً يعاني عيباً واعتلالاً عميقاً. وما يثير الاهتمام جداً في هذا السياق هو الأوصاف الأكثر تفصيلاً واكتمالاً التي وصف بها جورج أنطونيوس جمال باشا، والتي بين فيها اهتمام القائد العثماني المخلص والصادق بالخلافة الإسلامية، والتي وضح فيها كيف كانت سياساته المبدئية في الأقاليم العربية استرضائية وتوفيقية ومصممة على نحو يضمن الحفاظ على ولاء العرب للدولة العثمانية. ولكن معتقدات جمال باشا الدينية ومهاراته الإدارية تضافرت مع طموحه الجامح، فتمخضت عن دفعه إلى القيام بأعمال عسكرية الطابع متهورة إظهاراً لشجاعته. وعندما أخفق شعر بالخيبة تجاه أولئك الذين أعاقوا تنفيذ مخططاته الكبيرة، فاستهدفهم بعهد جديد من حكمه اتسم بالإرهاب.

رأى أرسلان أن توجه جمال باشا الديني كان ملائماً لرجل دولة عثماني، وشاطره توق القائد العارم لإنجاز شيء ما ليظهر بأسلوب قوي حيوية الهوية الإسلامية العثمانية.

وشارك وقد اكتنفه الحماس جمال باشا في مغامرته العسكرية الأولى التي تمثلت في إطلاق حملة للاستيلاء على قناة السويس بضربة سريعة خاطفة. وقد استحوذ على أرسلان وهو في ريعان شبابه انجذاب رومانسي إلى الصراع البطولي الملحمي. ولم يكبح تقويمه العسكري الرديء جماع استجابته المتهورة عندما جُوبِهَ باحتمال المبادرة إلى اتخاذ تدبير معين. وفي استذكار أنعش الحماس الذي اعتراه إبان زمن الحرب الطرابلسية، سعى أرسلان إلى حشد الرجال وتأمين الإمدادات من أجل الهجوم على القناة. ونتيجة لسعيه بين الدروز، جمع مئة وعشرين متطوعاً كان عازماً على سوقهم نحو قناة السويس. لكن بدلاً من أن يحظى بالمجد والفخار في مصر، عانى أسابيع مروعة في منطقة معان خائضاً في الصحراء ومنتظراً في نقطة عسكرية متقدمة ومعزولة تسمى منطقة النخل وهو يعاني ومن معه برداً قارساً، وفي نهاية المطاف قفل عائداً إلى سوريا دون القيام بأي عمل⁽⁸⁾. ولعل الحظ كان حليفه في ذلك.

وكانت قوات جمال باشا سيئة الإعداد والتجهيز، ولم يكن التخطيط لحملة ملائماً. ونتج عن ذلك صد هجومه صداماً محكماً. فما كان من القائد العثماني الذي تملكه الغضب إلا أن سعى إلى جعل بعض السكان المدنيين كبش فداء.

جعل أرسلان من نفسه وسيطاً على جناح السرعة بين جمال باشا وبين الجماهير العربية. وفي جبل لبنان المرتكز إلى قاعدة طائفية، كان متوقعاً من زعيم الدروز أن يدعم احتواء الطوائف المسيحية إبان الحقب التي عانت فيها الإمبراطورية العثمانية أزمات. وعلى كل حال بدا أن موقف أرسلان أثناء الحرب العالمية الأولى كان تصالحياً حيال الموارنة، بينما كانت السلطات العثمانية تنظر إلى الموارنة غالباً بوصفهم طابوراً خامساً محتملاً يتيحون الفرصة لدعم أي احتلال فرنسي محتمل. وعلى الرغم من أن أرسلان كان يعارض المشاعر الفرنكوفونية التي تملك كثيراً من القادة المسيحيين، فإنه كان يفضل التخفيف من حدة مخاوفهم لكي يكسب ولائهم للقضية العثمانية. وبطبيعة الحال، كان بعض تصرفاته منطلقاً من منطلق شخصي ومستنداً إلى تحالفات أسرية تراكتت وترسخت على مر السنين، إلا أن هدفه الرئيس كان يتمثل في الحفاظ على وحدة الدولة

العثمانية عبر ترسيخ الهدوء والاستقرار الداخلي في إحدى مقاطعاتها. وورد فيما كتبه عن ذلك لاحقاً: ”اعتدت أن أقول للدروز من كان له منكم صديق مسيحي كان يزوره مرة في الشهر يتعين عليه، في ظل الظروف الراهنة، أن يزوره مرة في الأسبوع. وإن كان أحدكم قادراً على أن يعمل عملاً إنسانياً خدمة لأبناء وطنه من المسيحيين، فالآن هو الوقت المناسب لفعل ذلك؛ لأن دعامة وجودنا الرئيسة تتمثل في التآلف والوئام. هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى، هذا السلوك كفيل بتحويل الأفعال المسيئة والمعيبة إلى أفعال لطيفة⁽⁹⁾“. في هذا السياق، كانت حججه مقنعة ومتسقة.

وعلى الرغم من سياسته ذات النوايا الحسنة حيال القومية العثمانية، فقد اكتشف أرسلان أن دور الوسيط يمكن أن يكون خطيراً. وبافتراض وجود درجة من المسؤولية العامة التي تلقى على عاتقه، بات أرسلان مقترناً بكل ما يثير السخط إبان سنوات الحرب. وبسبب مواقفه الداعمة بقوة للحكومة (العثمانية) قبل الحرب، وسهولة وصوله إلى جمال باشا واتصاله به، وبسبب قدرته على التصرف والتحرك بحرية متحرراً من القيود نسبياً، كان ينظر إلى أرسلان من قبل بعض المعنيين بالأمر بوصفه متعاوناً مع جمال باشا (العدو المحتل) في تنفيذ سياسته القومية، وهي تهمة لاحقت أرسلان على مدى ما تبقى من حياته. وبين القضايا المثيرة للجدل التي حامت جميعها حوله، كانت تلك المتعلقة بتعاونه مع جمال باشا هي الأشد صعوبةً والأكثر إقلاقاً لراحته. فكلما كان خصومه يرغبون في توجيه ضربة له، بصرف النظر عن ماهية القضية الحقيقية، كانوا يسيرون قضية أفعاله التي قام بها إبان الحرب العالمية الأولى. وكانت تظهر الشائعات التي تحوم حوله في الأوساط الأكثر تنوعاً واختلافاً: أشار تقرير صادر عن وزارة الخارجية البريطانية في العام (1922م) إلى أرسلان بوصفه ”الساعد الأيمن“ لجمال باشا على صعيد أعمال الاضطهاد التي حدثت في العام (1915م). وفي العام (1927م) اتهمته صحيفة إخبارية كانت تصدر باللغة العربية وتتخذ من نيويورك مقراً لها بإرسال مواطنيه إلى المشانق⁽¹⁰⁾.

مجبراً على الدفاع عن نفسه مراراً وتكراراً في مواجهة هذه الاتهامات الخطيرة، عمد أرسلان إلى كتابة مقال تلو آخر، وضمّن تلك المقالات توضيحات تفصيلية وتبريرات، ودعا بأسلوب بلاغي منمق عدداً من الشهود المطلعين على حقائق الأمور إلى تبرئته. ولكن على الرغم من الأدلة التي جمعها كلها ومؤيديه الذين حشدتهم للدفاع عنه على مر السنين، فإن الدور الذي لعبه من العام (1914م) إلى العام (1916م) لم يُعرف ولم يُصر إلى تحديده على وجه اليقين، وظل على مدى تلك الحقبة من حياته كما دعاه توما: "رجل المواقف الملتبسة"⁽¹¹⁾. حظيت أربعة من تلك المواقف باهتمام خاص إبان الحرب وبعد أن وضعت أوزارها على حد سواء، وتلك المواقف هي: معاملة البطريك الماروني، وترحيل عدة مئات من وجهاء العرب إلى القدس وإلى الأناضول، وإعدام زعماء عرب في كل من دمشق وبيروت في العامين (1915م) و(1916م)، وإخفاق جهود الإغاثة من المجاعة. وتحتاج هذه المواقف إلى دراسة وتمحيص لأنها تشكل جانباً ثابتاً من الجوانب التي أثرت في سمعة أرسلان. كما أن هذه المواقف سلطت الضوء على طبيعة السلطة التي تراكمت في يديه، وعلى الأسلوب الذي اختاره لاستعمالها والإفادة منها، وعلى القيود التي عاناها حتى من كان موالياً للعثمانيين من المدنيين العرب (أرسلان) في سوريا إبان نشوب الحرب. وبوصفه موالياً للحكم (العثماني) موثقاً به، حظي بمكانة مرموقة وأحيط بعطف ورعاية، وعمل مع جمال باشا لضمان جعل الظروف المحلية في خدمة أهداف الدولة (العثمانية) في الحرب. ولكن في الوقت نفسه سعى أيضاً بوصفه وجيهاً محلياً مسؤولاً إلى التخفيف من حدة وحشية الحاكم المعين من قبل الدولة. لقد كان وضعاً صعباً، وإنه لمن المشكوك فيه وجود شخصية عربية عامة في سوريا الكبرى بين العامين (1915م) و(1916م) أكثر إثارة للجدل من أرسلان.

وعقب وصول جمال باشا إلى دمشق مباشرة، تمثل أول تدبير اتخذه في استدعاء البطريك الماروني حويك ومتصرف جبل لبنان كليهما للإقامة في دمشق، حيث يمكن أن يصبحا تحت إشرافه المباشر. وكان ذلك بمثابة إهانة للبطريك، ويمكن أن يكون هو السبب الذي أدى إلى نفور الطائفة المارونية من القضية العثمانية. وانتهر أرسلان فرصة

أحد لقاءاته الأولى مع جمال باشا للإشارة إلى أن في وسع حويك أن يلبي متطلبات رعيته على نحو أفضل من خلال بقاءه في جبل لبنان. واقتنع جمال باشا بهذه المشورة، وأثنى الزعماء الموارنة على إرساله لصونه قدسية البطريك⁽¹²⁾.

والأمر الذي ينطوي على مفارقة شديدة هو أن هذه الحادثة أرسى أساساً لانتقاد موقف إرساله من البطريك. ففي الأشهر التي تلت ذلك تصلب جمال باشا في مواقفه وأجبر يوسف حويك على تقديم نفسه مرات عديدة إلى القائد العثماني. ولدى مقارنة هذا السلوك بالمعاملة المهذبة التي أولاها جمال باشا صاحب المكانة الدينية الأرفع مقاماً لدى الدروز، بما في ذلك الزيارة الشخصية التي قام بها إلى مقر إقامته مصحوباً بإرساله، شعر بعض الموارنة بأنه عمل فعلاً على الخط من قدر مقام البطريك⁽¹³⁾. وهذا اتهام لا سبيل إلى تأييده، غير أنه يعد نموذجاً يمثل التوترات الطائفية التي سادت في جبل لبنان، ويشير إلى المشاعر التي كان يكنها بعض أبناء جبل لبنان لأمير الدروز الذي أدت خدماته للقضية الإمبراطورية إلى فرط تعزيز نفوذه الإقليمي على نحو غير ملائم. وإن كان قادة المجموعات ذات المصالح المتباينة يشعرون بالقلق حيال نفوذ إرساله المتنامي في سوريا الكبرى فقد كانوا، على الرغم من ذلك، يقرون بالتزامه بالوئام الداخلي، وكان يُعدُّ من قبلهم صاحب تأثير معتدل على جمال باشا، وكانوا يناشدونه على نحو متزايد ليتوسط لهم لدى القائد العثماني ويحاوره من أجلهم.

وسرعان ما استدعي إرساله بعد إخفاق رحلته إلى السويس من قبل جمال باشا الذي طلب منه أن يجد من قوة جماعته المقاتلة عبر إرساله تعزيزات للدفاع عن مضيق الدردنيل. ومضيفاً ذلك إلى شعوره باضطراب الأمن، بدأ جمال باشا يتخذ تدابير أشد صرامة لضمان الاستقرار وولاء المقاطعة. ولأنه كان يفتقر إلى الحنكة السياسية، خلص جمال باشا إلى استنتاج يفيد بأن ترويع السكان باستعمال القوة كفيل بإسكاتهم، إن لم يضمن ولاءهم الصريح⁽¹⁴⁾. وكان أكثر التكتيكات التي يتبعها استعمالاً النفي إلى القدس أو إلى الأناضول على الأغلب. وبين تدشينه عهده الذي اتسم بالإرهاب في العام (1915م) واستدعائه في العام (1918م)، يحتمل أن يكون قد أدان ألف شخص

وحكم عليهم بالنفي إلى الأناضول، فيما يحتمل أن يكون عدد الذين نفاهم إلى القدس أقل من مئة شخص⁽¹⁵⁾. وكان يتوقع من إرسال، بسبب قدرته على الوصول إلى القائد والتواصل معه، من قبل الأسر المتضررة أن يتدخل لديه نيابة عنهم. وكما كانت الحال في قضية البطريك حويك، حقق إرسال نجاحاً مبدئياً بتوليده انطباعاً بأنه تمكن من إقناع جمال باشا بالأمور التي رغب فيها، ولكن عندما استمرت أعمال النفي اتهم بتجاهل محنة أبناء بلده.

واستهلت سياسة الأبعاد والنفي أوائل العام (1915م). وبطريقة مماثلة لتلك التي أمل منها أن يحكم رقابته على البطريك الماروني، أصدر جمال باشا أمره إلى عشرين رجلاً تقريباً من وجهاء جبل لبنان التي قضت بتأسيسهم كياناً لهم في دمشق أولاً ثم في القدس بعد ذلك. وكان أولئك الرجال في رأي جمال باشا فاسدين مفسدين تلطخت أيديهم وسمعتهم بإقامتهم علاقات وطيدة إما مع القناصل الفرنسيين أو الإنجليز قبل الحرب، وعليه يحتمل أن يكونوا خونة. وكان بينهم الماروني البارز خليل الخوري وقائم مقام قضاء جزين، سليم بك المعوشي. وانبرى إرسال للدفاع عنهم بكل ما أوتي من نفوذ وقدرة على التدخل (لدى القائد العثماني)، فأخبر جمال باشا أن أولئك الوجهاء لم يكونوا مجرد أصدقاء شخصيين له، بل كانوا إلى ذلك رفاقاً محترمين قديمي العهد لأسرة إرسال، وأن الاستمرار في نفيهم سيكون مصدر قلق وإزعاج لأفراد هذه الأسرة⁽¹⁶⁾. وقد أيد رواية إرسال المتضمنة ادعاء الدفاع عن الوجهاء ابن خليل الخوري وهو بشارة الخوري، أول رئيس للبنان، الذي دون في مذكراته عن "الجهد الذي بذله الأمير شكيب إرسال لدى جمال باشا لوضع حد لنفي (والذي) إبان الحرب⁽¹⁷⁾". وكان توسط الأمير ناجحاً وأسفر عن السماح للرجلين بالعودة إلى ديارهما في لبنان.

ومعضلة الرجل الذي استطاع أن يحقق مثل هذا النجاح مع الحاكم الذي دأب على الاحتكام إلى نزواته أصبحت واضحة من فورها. فإن كان إرسال قد تمكن من الإفراج عن رجلين، فَلَمْ يَحاول الإفراج عن مزيد من الرجال. غدا موقفه أكثر حرجاً وأشد صعوبة بممارسات جمال باشا المتمثلة بالتماس المشورة من إرسال حيال أفراد مختارين

كان ينظر في مسألة إطلاق سراحهم أو إنهاء نفيهم. وأصبح هذا الأمر معروفاً على وجه العموم، وامتدح أرسلان لتوسطه من قبل أولئك الذين أطلق سراحهم، وأدين من قبل أسر الذين ظلوا في المنفى. وأشار أحد الكتاب إلى أن ادعاء أرسلان بذله جهوداً كبيرة وأنه عمل بالقدر نفسه على تحرير جميع المنفيين قد لا يكون صحيحاً. ولفت النظر إلى أنه لم يكن من قبيل الصدفة مطلقاً أن يكون الدرزيان اللذان نفيًا نفيًا دائماً خَصَمَي شكيب السياسيين وهما توفيق مجيد أرسلان وفؤاد أرسلان⁽¹⁸⁾. في الواقع، في معرض جهوده التي بذلها في سبيل إطلاق سراح مزيد من المنفيين من منفيهم في القدس، طلب أرسلان من جمال باشا السماح بإطلاق سراح أحد معارضيه وتمكينه من العودة إلى موطنه، بحيث لا تبدو الأمور وكأنه (شكيب) يعمل نيابة عن أصدقائه الشخصيين أو السياسيين فقط⁽¹⁹⁾. حتى الوطنيون يتعين عليهم حماية أجنتهم السياسية.

عبر استعماله سلطته ونفوذه وتصرفه بهذه الطريقة، وعبر إفادته من مكانة عائلته بوصفها رافعة للحصول على عفو عن بعض الأشخاص، جعل أرسلان نفسه عرضة للاتهام بالمحاباة والتحيز. ولكن كما أشار هو نفسه لم يكن يتمتع بحرية كاملة فيما يقوم به بوصفه ممثلاً عن منطقته ووسيطاً لدى العثمانيين. فعلى الرغم من قدرته على الوصول إلى جمال باشا والتواصل معه، ومن أن ذلك أتاح له إمكانية التوسط والتدخل، فإنه لم يكن يتوفر على نفوذ يتيح له تجاوز قرارات القائد، كما أشار إلى أن التهديد باستياء أسرته كان ينبغي استعماله بقدر قليل وبحذر شديد. ولا يوجد دليل على أنه كان مسؤولاً عن اختيار أي شخص لبصار إلى نفيه، في الوقت الذي يوجد فيه قدر كبير من الدلائل التي تشير إلى قلقه على المنفيين واهتمامه بما يحقق لهم الخير. وعلى الرغم من ذلك كان يحوم حوله الشك بين أسر عديدة تعتقد أن أرسلان ربما توانى عن محاولة استصدار عفو عن الأشخاص الذين يهتمون بهم.

صار الاحتجاج على أرسلان جوهرياً أكثر وأشد وطأة مع تحول سياسات جمال باشا عن أحكام النفي إلى أحكام الإعدام. فقد كان جمال باشا في منتصف العام (1915م) حاكماً قمعياً شديد الإزعاج: كانت قواته قد أنهكت واستنزفت كما كانت المناطق

الخاضعة له تحييش اضطراباً وسخطاً. وكانت تنتهي إلى مسمعه دوماً شائعات تفيد بوجود حركات سرية، فقرر تشديد نهجه القمعي. وفي لفظة تصالحية رمى من خلالها إلى استمالة القادة العرب، اختار جمال باشا فيما مضى طمس أدلة احتوت عليها وثائق ضبطت في القنصلية الفرنسية في أسابيع الحرب الأولى⁽²⁰⁾. الآن ومع تزايد الضغوط عليه، أفرج عن الوثائق وأعلن أن الأشخاص الواردة أسماؤهم فيها مذنبون ووجه إليهم تهمة الخيانة العظمى. وجاء فيما كتبه عن ذلك أنه: "قرر اتخاذ تدابير قاسية ضد الخونة⁽²¹⁾". وتضمن هذا الإجراء شن حملة اعتقالات، والتحقيق مع المعتقلين واستجوابهم أمام محكمة عسكرية تشكلت في عاليا لهذا الغرض، وتنفيذ أحكام الإعدام شنقاً في أحد عشر شخصاً في بيروت في اليوم الحادي والعشرين من شهر أغسطس/ آب من العام (1915م)، وفي واحد وعشرين شخصاً آخرين في كل من بيروت ودمشق في اليوم السادس من شهر مايو/ أيار من العام (1916م)⁽²²⁾.

ولأن الإعدامات طالت أبرياء إلى جانب (المذنبين)، فقد أصبحت رمزاً للشهادة بالنسبة للسوريين العرب، ورمزاً لوحشية الاضطهاد العثماني. وبانتهاجه هذه السياسات الجائرة، أثار الحاكم العثماني مشاعر عارمة مناهضة للأتراك، وكانت من الحدة بمكان لم تكن لتبلغه لو ظل ضحايا جمال باشا على قيد الحياة. ومع الإعلان عن انطلاق الثورة العربية في شهر يونيو/ حزيران من العام (1916م)، شكل استشهاد الضحايا هالة وطنية وأصبح مرتبطاً بقضية النزعة الانفصالية العربية.

ويرى بعض المعنيين بالأمر أن الغضب الذي أوجته هذه الأفاعيل طاول الرجل، الذي بدا أن ارتباطه بجمال باشا وضعه في موقع يمكنه من الحيلولة دون تنفيذ أحكام الإعدام لو أراد ذلك. وأرسلان الذي استهدف بهذا الاتهام المسيء والمؤذي كان قد قطع أشواطاً بعيدة في الدفاع عن نفسه درءاً لأي اتهامات بالتواطؤ في قضية تنفيذ الإعدامات شنقاً، وتوضيحاً لعلاقاته مع جمال باشا في ذلك الوقت. إنها صورة خادعة لرجل وثيق الصلة بمركز السلطة لكن دون القدرة على التأثير في الأحداث.

وعندما حدثت عمليات إلقاء القبض على الأعيان، ظن أرسلان، شأنه شأن الآخرين، أنها مجرد عمليات احتجاز مؤقت تهدف إلى انتزاع معلومات. وأصابته الإعدامات التي نفذت في شهر أغسطس / آب بصدمة عنيفة، وانتابه قلق بشأن حياة عشرات الأعيان المعتقلين الذين رُجَّحَ بهم في سجن في عاليه أواخر العام (1915م) ومطلع العام (1916م). وزعم أنه جادل باشا بشأن أحكام الإعدام بإصرار إلى الحد الذي جعل جمال باشا في نهاية المطاف يهدد أرسلان بالإجهاز عليه، إذا ما حاول إيصال رسائل إلى طلعت في اسطنبول بشأن المخاطر المتأصلة في سياسات جمال باشا، وإذا ما أقدم على تحذير أنور باشا حيال الوضع المتدهور وذلك أثناء جولة الأخير التفتيشية في سوريا⁽²³⁾. وذكر أرسلان أن إخفاقه في تغيير سياسة جمال باشا لم تكن بسبب توافره عن بذل الجهود. لقد حاول، فيما يعتقد، أن يشي جمال باشا عن تنفيذ أحكام الإعدام بأقصى ما استطاع من قوة، وعندما أمر الحاكم بتنفيذ الأحكام كان عاجزاً عن فعل أي شيء.

أشار الذين يحاولون تشويه سمعة شكيب أرسلان إلى أنه لم يكن عاجزاً بالقدر الذي كان يوحي بأنه بلغه، واستشهدوا على ذلك بأنه في الحالات التي كانت أسرته تحديداً متورطة فيها، كان قادراً على التأثير في قرارات جمال باشا. فعادل، مثلاً، أصغر أشقائه سناً كان أقل احتراساً وحذراً في ارتباطاته من شكيب. وكان عضواً ناشطاً في جمعية الفتاة، إحدى أكثر الجمعيات السرية العربية شهرةً. وكان بعض الضحايا من الذين أعدموا شنقاً في العام (1916م) أعضاء في هذه المنظمة. وأشيع أن عادلاً كان مشتبهاً به ولم يُلقَ القبض عليه بسبب العلاقة الحميمة بين شكيب وبين جمال باشا⁽²⁴⁾. لقد استنكر رجل المواقف المرتبطة الثورة المناهضة للسلطات الدستورية في الوقت الذي دأب فيه على حماية أعضاء من أسرته الشخصية من الذين يحتمل أن يكونوا قد دعموا تلك الثورة.

وعلى الرغم من أنه بدأ يفقد الثقة بجمال باشا، بقيت أنشطة أرسلان ملتزمة بالقضية الأكبر، القضية العثمانية، ولم تهتز ولاءاته للدولة العثمانية بسبب الأحداث التي شهدتها سوريا. ومن المرجح أن يكون موقفه هذا المستمر في مساندة الدولة العثمانية هو ما جعله عرضة لاتهام آخر من قبل بعض اللبنانيين بعد الحرب، تحديداً، عدم مبادرته لفعل أي

شيء للتخفيف من حدة المعاناة التي تسببت بها المجاعة في لبنان. وكانت تلك تهمة خطيرة في نظر من وجهوها له. ومع فقدان الأيدي العاملة بسبب التجنيد، إلى جانب الإبعاد والترحيل ومصادرة الأراضي والغلال والمحاصيل من قبل جيش الاحتلال، واجه السكان المدنيون في سوريا ولبنان مصاعب رهيبة إبان زمن الحرب. واستنفد مزيد من المحاصيل بسبب كارثة الجراد التي اجتاحت البلاد في العام (1915م). كل ذلك إضافة إلى الإسهام الذي نجم عن تعاون بعض التجار السوريين مع مسؤولين عثمانيين على الإثم في إمساك المؤن وعدم طرحها في السوق، مع الحصار الساحلي المطبق من قبل الحلفاء، سبب المجاعة التي اجتاحت المنطقة في الجزء الأخير من الحرب⁽²⁵⁾.

وأرسلان الذي غادر سوريا أواخر العام (1916م) وأمضى معظم زمن العام اللاحق في اسطنبول ادعى أنه لم يأل جهداً وسعى دونما كلل أو ملل في البرلمان العثماني، واعتماداً على علاقاته الخاصة مع السلطات العثمانية من أجل إجراء الترتيبات اللازمة لجعل منظمات الإغاثة الدولية توزع مواد غذائية في لبنان⁽²⁶⁾. ونظراً لخبرة أرسلان وتجاربه السابقة مع منظمات الإغاثة، يبدو دفاعه عن موقفه في هذه الحالة مسوغاً تماماً. ولا يوجد سبب واضح للإشارة إليه بوصفه مسؤولاً بصفة خاصة عن المجاعة. وكما يبين توما، فإن الحصار أضر بأصدقائه وبأسرته بقدر ما ألحق الأذى بسكان لبنان الآخرين⁽²⁷⁾. ومع أن التهمة مستبعدة جداً ولكن إلصاقها بأرسلان كان مؤذياً جداً له، كما كان أحد العوامل التي استعملت لإقامة الدليل عليه بوصفه شريكاً لجمال باشا.

وعلى مدى مناقشة سلوك أرسلان في غضون السنتين الأولى والثانية من الحرب، كان موقعه القريب من مركز السلطة وصنع القرار هو العامل الذي أثار الجدل بشأنه: كيف أجاز لنفسه التشابك مع ظروف من هذا القبيل؟ لماذا لم يتأن بنفسه عن جمال باشا؟ يمكن العثور على إجابة عن هذين السؤالين في شخصية أرسلان، وفي عقيدته السياسية ومعتقداته الاجتماعية، وفي التعقيدات الخاصة بجبل لبنان. كان واضحاً أن أرسلان رجل مشاركة. إذ لم يكن في وسعه أن يتخذ موقفاً سلبياً في وقت الأزمة التي كانت قائمة. ولم يبدو مطلقاً أنه من النوع الذي يمكن أن يفوت فرصة للعمل. ولم يقتصر أمره

على انخراطه في المجادلات السياسية التي أشرت إليها أعلاه، بل كرس نفسه لمشاريع أخرى أيضاً، منها الاشتراك في منظمة قوة المتطوعين لحماية الساحل اللبناني والسوري. وتصور مذكراته رجلاً دائم الحركة، مرتحلاً باستمرار بين مدن عديدة، ناهضاً بأعباء مهام متعددة. وتتكشف مذكراته ذاتها أيضاً عن رجل آمن من أعماقه بأن القضية التي يعمل من أجلها قضية عادلة. وعلى مدى احتدام الحرب، ظل ولاء أرسلان للدولة العثمانية والخلافة الإسلامية راسخاً. وعلى مدى الزمن الذي سبق تنفيذ أحكام الإعدام في العام (1915م)، لم يرَ في التدابير الأمنية الصارمة الذي اتخذها جمال باشا ما يعيها قط. ويقول عن ذلك: ”بقيت على صفاء تام مع جمال باشا إلى أن بدأت منه هذه السياسة الجديدة، سياسة الإرهاب والإرهاق التي كنت أرى منها خطراً عظيماً على مستقبل الدولة العثمانية⁽²⁸⁾“.

هذا الاهتمام الأوسع نطاقاً بقضايا الدولة والدين، وربما كان على حساب الاهتمام بالشؤون المحلية، هو ما ميز دائرة استشراف أرسلان للأوضاع التي كانت سائدة زمن الحرب. وبناء على ذلك عندما انتقد الحاكم العثماني عبر كتابته الآتي: ”إن سياسة جمال باشا في سوريا كانت من أعظم المصائب على الدولة العثمانية وعلى الأمة الإسلامية“، لم يذكر الريف الذي كان يعاني مجاعة أو الوجهاء المنفيين⁽²⁹⁾. ولم يكن اعتراضه على سياسات جمال باشا منصباً على شدة بطشها ولا على إخفاقها، بقدر ما كان منطلقاً من الرغبة في الحيلولة دون حدوث انشقاق بين العرب والأتراك، وكانت سياساته تلك سبباً في حدوث انشقاق. واشتكى إلى القائد أواخر العام (1915م) قائلاً: ”إن سياسة الشدة هذه غير موافقة لمصلحة الدولة، وإني خائف من عواقبها⁽³⁰⁾“. وكانت مناقشات أرسلان تنحو هذا المنحى مراراً وتكراراً. وعلى سبيل المثال، في الطلب الذي رفعه إلى أنور باشا التماساً للمساعدة في الإفراج عن المجموعة الثانية من السجناء، ورد فيما ذكره أرسلان الآتي: ”إن الأشخاص المعتقلين في عاليه ليسوا جميعاً بأصدقائي حتى يكون توسطي من أجلهم مبنياً على مجرد صداقة، بل المسألة بالعكس، فمنهم من هم

أعدائي، ولكني الآن لست في باب الصداقة والعداوة، بل في باب مصلحة الدولة والملة فقط⁽³¹⁾“.

كان أرسلان يشرح موقفه دوماً لا بوصفه مناهضاً للعرب، فهو لم يكن كذلك، بل بوصفه داعماً للرابطة الإسلامية. وفي هذا السياق، تكفل رده على إعلان الثورة العربية بتوضيح اتساقه وتناغمه مع الرابطة العثمانية. وكان ساخطاً على الشريف حسين لأنه لم يكن في وسعه تقبل اندلاع ثورة عربية ضد الكيان الذي كان ينظر إليه بوصفه الخلافة الإسلامية الشرعية. وما كانت تعدّه حركة القوميين العرب نضالاً من أجل التحرير، كان أرسلان ينظر إليه دوماً بوصفه تدبيراً انفصالياً غادراً مسؤولاً مسؤولية مباشرة عن الاحتلال الأوروبي الذي أعقب الحرب لمقاطعات وأقاليم عربية. وعلى الرغم من أنه تصالح مع الملك فيصل لاحقاً، فقد واطب على النظر إلى الشريف حسين بوصفه مرتكباً لجريمة لا تغتفر تمثلت في تفتيت العالم الإسلامي.

وتفسر رؤية أرسلان لمجتمع إسلامي متكامل سياسياً، في جانب منها، علاقاته مع جمال باشا. فالقائد العثماني يُكنّى احتراماً عميقاً لشعائر الإسلام: كان ملتزماً بالأسلوب ذاته الذي كان أرسلان ملتزماً به بالحفاظ على الدولة العثمانية. وكانت له آراء مشوبة بالعاطفة حيال الدور السياسي للإسلام، وهو مماثل في ذلك، تقريباً، لأرسلان. فبالنسبة لجمال باشا، كان إعلان الشريف حسين عن انطلاق الثورة العربية، إلى جانب تأثيراته العسكرية والسياسية الخالصة، ”جريمة استهدفت الإسلام وعظمته⁽³²⁾“. والمعتقدات التي شكلت قاسماً مشتركاً بينه وبين جمال باشا مكنته (أرسلان) من البقاء في سوريا عقب الإعدامات التي نفذت في شهر مايو/ أيار من العام (1916م)، وأفسحت في المجال لجعل اسمه مقترناً بصحيفة الشرق التي كانت تقوم بأعمال الدعاية لجمال باشا. وكانت تلك الصحيفة تناشد الوجدان الإسلامي للمسلمين الموجودين داخل حدود الإمبراطورية من أجل تكوين جبهة إسلامية دولية مساندة للخلافة العثمانية⁽³³⁾. وكان أداء الصحيفة مصمماً، على الصعيد المحلي، بحيث يعزز سياسات جمال باشا في سوريا، تلك السياسات التي كانت تفقد شعبيتها على نحو متزايد. وقد أرسلت السلطات

العثمانية في ذلك الوقت مستشرقين من ألمانيا إلى دمشق للعمل ضمن هيئة موظفي الدولة، ولتقديم معلومات عن فوائد التحالف في زمن الحرب للشعوب الإسلامية. وحظيت تلك المعلومات بهيئة تحرير متطوعة محلية عملت على طباعتها ونشرها وجعلتها جديرة بالاحترام. وكان أرسلان رئيساً لتحرير صحيفة الشرق، وكان لها مديراً تحرير هما محمد كرد علي وعبد القادر المغربي.

وبدت صحيفة الشرق أكثر من مجرد أداة لتأمين الدعاية لسياسات جمال باشا. واعترف أرسلان بأن السلطات المركزية شوّهت سمعة الصحيفة وقوضت أركانها، بسبب إملائها المضمون الذي ينبغي نشره، واستقال من عمله في رئاسة تحريرها أواخر العام (1916م). ولكن ارتباطه بهذه المطبوعة وتبنيه للسياسات التي كانت تدافع عنها - ظهرت الإعلانات عن إعدامات شهر مايو/ أيار من العام (1916م)، وتبريرات تلك الإعدامات في عدد خاص من صحيفة الشرق - كانا مثلاً آخر على تعاونه مع جمال باشا.

وجلب العام (1916م) تغييرات عديدة إلى حياة أرسلان. وتمثل أحدها في اتخاذ قراراً بالزواج في وقت متأخر نسبياً استناداً إلى معايير الزواج في المجتمع العربي، إذ كان له من عمره آنذاك سبعة وأربعون عاماً. وكانت عروسه سُليمة أصغر منه سنّاً بعشرين سنة على الأقل⁽³⁴⁾. أبصرت عروسه النور في منطقة القوقاز التابعة لروسيا، ثم هربت من الاضطهاد القيصري للمسلمين وهي في ميعة الصبا، ويممت أول الأمر مع أسرتها شطر منطقة السلط، وهي جزء من الأردن حالياً، ثم استقرت في اسطنبول حيث التقت بأرسلان. وعلى الرغم من أن سُليمة لم تكن تعرف اللغة العربية في ذلك الوقت إلا قليلاً، فقد تزوجت بأمير البلاغة المستقبلي في بيروت في صيف العام (1916م)، وولد ابنهما غالب في عاليه في العام اللاحق. وجرياً على عادة كُتّاب السيرة الذاتية العرب، لم يفصح أرسلان عن المشاعر التي كان يكنّها لزوجته. واتسم زواجهما بفترات طويلة من الانفصال، وبمكابدته صعوبات مالية، كما اتسم بمعاناته زوجاً ربياً كان مهتماً بصورته العامة أكثر من اهتمامه بواجباته الأسرية.

وحتى الوقت الذي أمضياه معاً بعيد الزواج كان قصيراً. ففي أواخر العام (1916م)، ذهب أرسلان إلى اسطنبول ليستأنف ممارسة أنشطته في البرلمان العثماني. ولم يعد بعد ذلك مطلقاً للعيش في سوريا بصورة دائمة من جديد. وكما أشرت في بداية هذا الفصل، كانت سمعته بين كثير من أبناء العرب تستند إلى تصوراتهم عن أفعاله في الحقبة التي تقل عن الستين قليلاً، وتنحصر بين شهر ديسمبر/ كانون الأول من العام (1914م) وخريف العام (1916م). وعلى الرغم من أن سمعته امتزجت بشيء من الثناء عليه في السنوات اللاحقة، فإنها ظلت تولد شعوراً بعدم الارتياح بسبب ارتباطه (أرسلان) بإبان زمن الحرب. وكان الوضع كما لو أن أولئك الذين رغبوا في الثناء عليه وإعلاء شأنه كان عليهم أن يحرروا ضيائهم مما سمعوا عن أنشطته في سوريا، وكما لو أن مؤيديه اغتنموا الفرصة إما في مذكراتهم أو على صعيد استجاباتهم المختلفة لأحداث معينة، لعرض بيانات تفصيلية لجهود أرسلان التي بذلها إبان الحرب والتي كانت نتاجاً لنواياه الحسنة⁽³⁵⁾. ولكن يوجد في هذه الكتابات أيضاً شيء من التحفظ، نوع من الاعتذار عن الحقبة الواقعة بين العامين (1914 - 1916م)، عندما كتب أحد معجبي (أرسلان) عنها لاحقاً الآتي: "لقد كان مكرساً للأتراك والألمان..."⁽³⁶⁾.

وخلال الستين الأخيرتين من زمن الحرب، كانت أنشطة أرسلان مختلفة اختلافاً ملحوظاً عن أنشطته أثناء الحقبة السورية. فقد استبدلت واجباته المجهدة التي كان يؤديها محلياً بأخرى أكثر كوزموبوليتانية، وذلك من خلال عمله بوصفه نائباً في البرلمان (العثماني) ومبعوثاً إلى أوروبا. أمضى أرسلان معظم العام (1917م) في اسطنبول منصرفاً إلى الاضطلاع بمسؤولياته في البرلمان العثماني. وفي وقت لاحق من تلك السنة، وفي منتصف العام (1918م) أيضاً أوفد إلى ألمانيا مبعوثاً لأداء مهمتين خاصتين بناء على تكليف من قبل أنور باشا⁽³⁷⁾. شعر أنور باشا بأنه بإرساله مبعوثاً شخصياً جديراً بالثقة، يمكنه الحصول على معلومات لا تتوفر عادة من خلال القنوات العادية للتحالف الألماني العثماني. وكان شغله الشاغل وهمه الرئيس معرفة الموقف الألماني حيال الأقاليم الشرقية للإمبراطورية، وهي المنطقة التي لطالما كان مهتماً بها اهتماماً خاصاً. وجعل

أرسلان تحوله من الشوف إلى دوائر فايلهيلماني الألمانية تحولاً ناجحاً. واستطاع بأسلوبه المذهب وحذقه السياسي أن يتواصل مع الأوساط الديبلوماسية والأكاديمية، وأرسى معها أسس علاقات استطاع أن يتعهدا بالرعاية وأن يفيد منها في السنوات اللاحقة. وبوصفه صحفياً متمكناً أفاد أيضاً من بعثته تلك في الدعاية للقضية العثمانية في أوساط الجماهير الألمانية، وفي الحض على استمرار التحالف الألماني العثماني⁽³⁸⁾.

وعندما حققت الثورة العربية انتصارها الأخير، ودخلت قوات فيصل إلى دمشق في شهر أكتوبر/ تشرين أول من العام (1918م)، كان أرسلان في برلين يعمل من أجل خدمة القضية العثمانية. وعندما بدا انهيار الإمبراطورية العثمانية وشيكاً، بذل جهوداً جبارة من أجل العودة إلى الشرق الأوسط، وكان في طريقه في منطقة البحر الأسود عندما جرى توقيع اتفاقية هدنة مودروس في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني، التي أشارت إلى استسلام الإمبراطورية العثمانية إلى الحلفاء. فتغيرت وجهة رحلة أرسلان فجأة. وفي ميناء نيكولايف، التقى بمحض الصدفة بمجموعة من العرب كان بينهم صديقه الحميم عبد العزيز جاويش. وكانوا قد لاذوا بالفرار من اسطنبول بعد أن اكتشفوا أن ولاءهم لحكومة جمعية الاتحاد والترقي إبان الحرب يمكن أن يؤدي بهم إلى السجن⁽³⁹⁾. فقرر أرسلان أنه هو أيضاً يمكن أن يكون معرضاً للخطر في اسطنبول التي باتت محتلة من قبل البريطانيين، فانضم إلى اللاجئين السياسيين في رحلتهم الصعبة إلى برلين عبر روسيا. وتابع بعد ذلك رحلته ميمماً شطر سويسرا، حيث أمضى بصعوبة السنة الأولى مما أصبحت لاحقاً ثمانية وعشرين عاماً قضاها في المنفى. وكتب أرسلان في مذكراته كيف أخبره أنور باشا، عندما غادر اسطنبول مبعوثاً للمرة الثانية إلى ألمانيا في العام (1918م)، أنه ينبغي أن تستغرق تلك المهمة شهراً واحداً فقط. ولكن أرسلان لاحظ في هذا السياق ملاحظة شابهها الحزن والأسى: "لقد بقيت في أوروبا منذ ذلك الحين"⁽⁴⁰⁾.

وحتى العام (1919م)، تألق أرسلان بوصفه أحد رواد النخبة العربية العثمانية. وكانت نخبة انتمى إليها بحكم الولادة. غير أنه لم يكن قانعاً بهذه المنزلة الرفيعة

الموروثة؛ فامتازت حياته المهنية بالتفاني في الخدمة، وبإنجاز مميز على الصعيد الأدبي، بإسهامه في معترك السياسة. وإن كان أرسلان قد أصاب شهرة في مثابرتة على بذل المساعي على صعيد المهام التي تصدى للاضطلاع بها، فلم يكن ذلك لمجرد رغبته في استعراض مواهبه، بل لأنه كان يعتقد أن الواجب يقتضي التزاماً شخصياً فعلياً. وكان التزامه مكرساً للحفاظ على الإمبراطورية العثمانية وعلى النظام الإسلامي الذي دأبت على دعمه.

كان ينتمي إلى ذاك النظام ومنه أفاد، أما الآن وقد بلغ عمره خمسين عاماً - إخلاصه للدولة الدستورية هو سبب نفيه - فقد بدا شخصاً هامشياً، ثم عاد بعد ذلك ونهض من جديد، وحظي بمكانة دولية. لكن ذلك لم يكن في العام (1919م) واضحاً كيف سيتحقق. وصار وضع أرسلان مضطرباً ومقلقاً جداً بسبب هزيمة العثمانيين. ووجد التكيف مع الظروف المتغيرة من الصعوبة بمكان. وكان بطيئاً في إدراك حقيقة أن انهيار الإمبراطورية العثمانية نهائي ولا رجعة عنه. وبدا غير قادر على استيعاب القوى الجديدة التي طالبت بولاءات الشعوب التي كانت خاضعة سابقاً للإمبراطورية العثمانية. وتراكت عند أرسلان اضطرابات الهوية الشخصية الناجمة عن كونه وجد نفسه مواظباً على التعلق بعهد مضى وانقضى إلى غير رجعة؛ تراكت مع الاختلالات الطبيعية الناجمة عن العيش منفياً. وظلت زوجته ومعها ولده في لبنان في وقت كان يسعى فيه إلى التماس مكان يمكنه الاستقرار فيه، كما يسعى إلى إيجاد حل لمسألة إرثه العثماني العربي المزدوج.

وبعد قضائه معظم العام (1919م) في سويسرا، عاد إلى برلين. وعلى الرغم من أن برلين ما برحت تشكل قاعدة له حتى أواخر العام (1924م)، فإنه لم يمكث حقاً في مكان واحد رداً طويلاً من الزمن. وحتى ترحاله بين المنافي في حقبة ما بعد الحرب كان ترحالاً معقداً متعرجاً تقلب فيه ذات اليمين وذات الشمال. وافتقاره المتكرر للقدرة على تحديد الاتجاه الذي يناسبه كان محبطاً جداً للرجل الذي كان دوماً متأكداً من المكان الذي يضع نفسه فيه. وعلى مدى سبع سنوات شابهها الاضطراب كان هائماً على وجهه ودائم الارتحال بين أوروبا الغربية والشرق، وسافر من لوزان إلى موسكو، ومن روما

إلى اسطنبول. وكان دوماً واثقاً بمواقفه المناوئة للإمبريالية والمؤيدة للرابطة الإسلامية. بيد أنه كان عالقاً بين القومية العربية حديثة النشأة وبين عالم أوهايم الإمبراطورية العثمانية البائدة كما كانت تمثلها جمعية الاتحاد والترقي في المنفى.

ولا يعني هذا أنه كان بمنأى عن حركات الاحتجاج العربية التي كانت تتشكل حينها. ولسوف أعرج على انخراطه التدريجي في المعترك السياسي القومي العربي في الفصل اللاحق فأتناوله بالبحث والدراسة. أما هنا فالاهتمام مركز على المكون الآخر من مكونات هويته الذي كان أشد إلحاحاً عليه في حينه. وسأورده كما تجلّى في سيرته الذاتية ذلك لأنه يعكس خيارات أرسلان المؤيدة للعثمانيين، ولهذا السبب تطرقت إليه أنا وأغفله كتاب السيرة الآخرون.

بعد نجاحه في مغادرة البحر الأسود في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني من العام (1918م)، لم يحاول أرسلان أن يعود إلى أسرته في لبنان. من جانب لأن سياسات القوى العظمى كانت تحظر عليه فعل ذلك، ومن جانب آخر لأن الامتناع عن العودة كان يتساق مع ميوله. وفي الأشهر الثمانية عشر الأولى التي قضاها منفياً لم يكن يتناغم مع الانتداب الفرنسي على سوريا، بل مع الزمن الوجيز الذي بدت فيه الأهداف السياسية للثورة العربية تتحقق في دمشق التي باتت خاضعة لحكم الملك فيصل. وتقاطر كثير من أفراد النخب العربية إلى مملكة العرب الجديدة بصرف النظر عن ولاءاتهم زمن الحرب. أما أرسلان فقد بقي في أوروبا، وما انفك يأمل، عقب الحرب مباشرة، في إحياء الإمبراطورية العثمانية وعودتها إلى سابق عهدها، ولما يكن بعد مستعداً لأن يلزم نفسه بحركة سياسية عربية خالصة.

ولم يكن أرسلان وحيداً في توجهه المؤيد للعثمانيين، حيث كان القادة الكبار لجمعية الاتحاد والترقي قد فروا من اسطنبول على متن زورق حربي ألماني قبل احتلالها من قبل القوى المتحالفة، وأعادوا تجميع أنفسهم في برلين بتوجيه من طلعت، حيث حاولوا بكل ما أوتوا من إصرار وعزيمة العودة إلى السلطة⁽⁴¹⁾. وكان ثمة داعمون آخرون

لنظام حكم جمعية تركيا الفتاة مشيتين ومنتشرين من جنيف إلى موسكو، ومن مالطا إلى شرقي الأناضول، وكانوا يحملون أيضاً بإحياء الأسس السياسية والاجتماعية والأخلاقية للنظام العثماني، وباستعادة المناصب والمراكز التي كانوا ينعمون بها داخل بوتقته. وبصرف النظر عن عدم واقعية تلك الآمال كما تبدت في ضوء التطورات التي حدثت لاحقاً، فإن الصراع بين مصطفى كمال وبين قيادة جمعية الاتحاد والترقي من أجل السيطرة على تركيا ما بعد الحرب كان شديداً في الواقع. ولم يكن أحد أشد رغبة في بزوغ شمس الإمبراطورية العثمانية مجدداً من شكيب أرسلان. وعلى الرغم من أن إجراء نقاش موسع لحركة جمعية تركيا الفتاة في حقبة ما بعد الحرب يقع خارج نطاق هذا البحث، فإن علاقة أرسلان الخاصة بها تتطلب تفسيراً. ورؤيته للمستقبل كانت مقيدة بالماضي من خلال التزامه بأهداف جمعية الاتحاد والترقي.

وبدا إحياء جمعية الاتحاد والترقي ممكناً لسببين: أوضاع الفوضى التي استشرت داخل الأناضول عقب توقيع هدنة مودروس، ورغبات كل من ألمانيا وروسيا في إعاقة الاستقرار الذي كان آخذاً بالتبلور بعد الحرب. وجد قادة جمعية الاتحاد والترقي في برلين ملاذاً استظلوا فيه بظل المؤسسة العسكرية الألمانية، وتلقوا تشجيعاً من قبل الحكومة البلشفية التي وفرت لهم إعانات⁽⁴²⁾. وكان الذي رسخ دعائم العلاقة الأخيرة هو أنور باشا، الذي كان يعتقد أن حركات الاستقلال الوليدة للشعوب الإسلامية المحكومة برفق والموجودة على الحدود الجنوبية لروسيا يمكنها، إذا ما أُحسن توجيهها، أن تؤمن مساعدة عسكرية مباشرة لمصلحة إعادة إحياء السلطة العثمانية. ولما كانت هذه الحركات في العام (1920م) موجهة ضد احتلال الحلفاء للقوقاز، فمن الممكن أن تدعم قوات البلاشفة العسكرية أنور باشا لتنفيذ مخططاته. وأعلن أنور باشا من موسكو أوائل العام (1920م) عن تشكيل "اتحاد جمعيات إسلامية ثورية". وفي اجتماع الشعوب الإسلامية الذي انعقد في باكو في شهر سبتمبر / أيلول من العام (1920م)، ألقى أنور باشا خطاباً باسم الحركات الإسلامية الثورية من المغرب إلى الهند⁽⁴³⁾.

ويفسر هذا الاستعمال المحسوب للمشاعر الإسلامية الجياشة، في جانب منه، انجذاب أرسلان لإحياء جمعية الاتحاد والترقي. وكان الانبعاث السياسي الإسلامي المناهض للإمبريالية والمرتبط بما هو مناهض لها قضية لطالما جعلها أرسلان قضية الشخصية. وكان متوقفاً منه أن يواظب على دعمها وأن يثابر على منحها طاقاته التي كانت ما تزال رائعة واستثنائية. كما كان متوقفاً منه، على قدم المساواة لكن ليس بالزخم ذاته، مناصرته لهذه القضية بالاشتراك مع جمعية الاتحاد والترقي ذات السمعة المشوهة. وفي الوقت الذي سارع فيه معظم العرب - والأترك- من الذين لديهم حساسيات سياسية إلى قطع علاقاتهم مع زعماء جمعية الاتحاد والترقي، ظل أرسلان جزءاً لا يتجزأ من دائرتهم. وأبقى على صلاته معهم هم، لا مع الساسة العرب، في السنوات التي أعقبت الحرب مباشرة.

وبدعم من طلعت، انتخب أرسلان رئيساً لنادي برلين الشرقي، وهو مؤسسة صممت بحيث تجمع المسلمين معاً من كل أنحاء العالم. وحتى على صعيد هذا النشاط، كان تهاويه مع جمعية الاتحاد والترقي كبيراً جداً إلى الحد الذي جعل تقرير وزارة الخارجية البريطانية الصادر في العام (1921م) يصفه بالقول: "هو رئيس النادي الشرقي، وأصبح زعيماً للقوميين الأتراك في برلين منذ وفاة طلعت"⁽⁴⁴⁾. ويبدو من خلال المراجع التي أعدها أرسلان للنادي أن المنفيين أمضوا كثيراً من أوقاتهم في التخطيط من أجل العودة إلى الإمساك بزمام السلطة. إلى ذلك يشي الانطباع الذي تخلفه تلك المراجع بأن إنجازاتهم الفعلية على هذا الصعيد لا يعتد بها. وعلى الرغم من خططهم الطموحة، فقد كانوا مجموعة تبعث على الأسى وتثير الشفقة، ويعاني أفرادها مخاوف من أن يصار إلى تسليمهم لجهة ما كما يُفعلُ بالمجرمين، وكانوا يستعملون أسماء مستعارة، ويحملون باستعادة مجدهم التليد أحلاماً ميوّساً منها، وتطاردهم المشكلات المحدقة باللاجئين السياسيين جميعهم - لقد أُسِقَطَ في أيديهم: ما عساهم يفعلون وأين يستقرون وكيف يعيشون! وفي ظل هذه الأجواء الثقيلة الوطأة التي استبدت بهم، لم يكن مستغرباً أن تسرعى اهتمامهم مغامرات أنور باشا البراقة في القوقاز، وأن توقد لدى بعضهم على

الأقل شعلة آمال بعودتهم إلى الإمساك بزمام السلطة منتصرين من جديد تحت راية الإسلام المجاهد.

وكان أرسلان أحد أكثر المتحمسين لأنور باشا المعجيين به، وأسرته جاذبية زعيم جمعية تركيا الفتاة من أول لقاء ضمهما في ليبيا. عمر أنور باشا في ذاكرة أرسلان طويلاً بعد وفاته⁽⁴⁵⁾، ومر زمن كانت حياة كل منهما فيه مرتبطة بحياة الآخر ارتباطاً وثيقاً، عنوانه الأرستقراطية الأدبية والمغامرات العسكرية. كانا شريكين في السذاجة السياسية وفي الاعتقاد بأنه يمكن توجيه المشاعر الإسلامية الجياشة توجيهاً يكفل تلاحمها بحيث تغدو عاملاً رئيساً في العلاقات الدولية. وقد أكد أنور باشا في رسالة خطها إلى مصطفى كمال في السادس عشر من يوليو/ تموز من العام (1921م) على الآتي: "أما أنا، فليسوف أمتثل إلى المثل العليا وحدها. وهذا يعني أنني سأعمل على لم شمل المسلمين ورص صفوفهم، والتصدي للوحوش الأوروبيين الذين يسحقون الإسلام"⁽⁴⁶⁾. وكان هذا المثل الأعلى لأرسلان أيضاً طوال حياته. وعلى الرغم من أنه كان يقر من حين لآخر بتهور مخططات أنور باشا، فإنه كان مفتوناً بصورة أنور البطولية افتتاناً لا أمل في الشفاء منه. وقد تجشم أرسلان عناء القيام برحلة شاقة إلى موسكو في شهر يونيو/ حزيران من العام (1921م) دفعه أنور باشا إلى القيام بها. وعلى الرغم من أن ما قاله أرسلان عن تلك الرحلة كان قليلاً جداً، فإن وثائق وزارة الخارجية البريطانية تؤكد أنه قابل شيشرين وناقش معه شؤون منطقة القوقاز السياسية⁽⁴⁷⁾. وأما النتيجة غير المتوقعة لرحلة أرسلان إلى موسكو فقد أكسبته سمعة لكونه متعاطفاً مع الشيوعيين.

وبعد عودة أرسلان إلى برلين في شهر يوليو/ تموز من العام (1921م) بوقت قصير بدأت أحلام إحياء جمعية الاتحاد والترقي تنهار. فقد تبددت آمال أنور باشا باستعراض قوة جمعية الاتحاد والترقي استعراضاً عسكرياً في الأناضول، بفعل انتصار الكماليين الذي حققوه على الغزاة اليونانيين وتوطيد دعائم وضعهم العسكري. وفي الوقت نفسه، كان البلاشفة قد فقدوا حماسهم حيال الجيوش الإسلامية المتحركة التي كانت تجوب المناطق الجنوبية من بلادهم. وأرسلوا، عوضاً عن دعمهم تلك الجيوش،

الجيش الأحمر لاحتلال تلك المنطقة. وعلى الرغم من ذلك، ظل أنور باشا متناغماً مع نفسه وثابتاً على مبدئه في سعيه لتأييد القضايا الإسلامية التي كانت ميثوساً منها. ومات بينما كان يقود هجوماً ضد قوة تابعة للجيش الأحمر في شهر أغسطس / آب من العام (1922م). وأحزن موته إرسال حزنًا شديداً إلا أنه، مقترناً بأحداث أخرى، أسدى له خدمة تمثلت في جعله يدرك مدى عقم آماله في إحياء المجد العثماني إحياء كاملاً.

وفي أوروبا أيضاً، أبيد معظم أعضاء قيادة المنفيين من أنباع جمعية الاتحاد والترقي، حيث انقلبت عليهم سياستهم المشهورة التي انتهجوها زمن الحرب وجعلتهم هدفاً لكرهية عارمة. وكانت الفرصة سانحة لمسلحين أرمن للانتقام في شوارع برلين، حيث اغتالوا طلعت في شهر مارس / آذار من العام (1921م)، والدكتور عزمي والدكتور بهاء الدين شاكر في العام (1922م). وفي روما، قتل رئيس الوزارة الاتحادي الأسبق في الدولة العثمانية، محمد سعيد حلمي، في العام (1921م). وفي تفليس البعيدة، أصبح جمال باشا السفاح، وهو الحاكم المتوحش الذي حكم سوريا زمن الحرب، ضحية أخرى من ضحايا الاغتيالات التي نفذها الأرمن فيها في العام (1922م). لقد نسف قتل كل هؤلاء كلياً تحركات اللاجئين ومناوراتهم الطامحة إلى استعادة الحكم. ويضاف إلى ذلك أن الأوضاع في الأناضول لم تعد متقلبة مضطربة، حيث ألغى مصطفى كمال السلطنة العثمانية في شهر نوفمبر / تشرين الثاني من العام (1922م)، وحصل على اعتراف ديبلوماسي بجمهورية عبر توقيع معاهدة لوزان في شهر يوليو / تموز من العام (1923م).

استجاب إرسال لهذه التغييرات بصرف انتباهه إلى قضية الاحتلال الأوروبي لمقاطعات عثمانية عربية أكثر فأكثر. ولم يعمل من فوره على التخلص من آماله في تشكيل حركة ذات قاعدة إسلامية، بل ما فعله كان مجرد إعادة توجيه تلك الآمال بحيث صارت تتمركز حول التعاون التركي العربي. وزار اسطنبول أول مرة بعد الحرب أواخر العام (1923م) في محاولة لتشكيل جبهة عربية تركية مشتركة تعمل على طرد الفرنسيين من سوريا. إلا أن مصطفى كمال رفض تلبية نداءات أولئك الذين حثوه

على إعادة إرساء حدود عثمانية في البلاد غير الناطقة باللغة التركية. ثم استقر إرساله بعد ذلك في مدينة مرسين التركية القريبة من الحدود السورية، حيث أمضى الأشهر الثمانية الأولى من العام (1924 م). وكان يوجد إيجاعات تشير إلى تدبيره مكيدة باختياره الموقع. وذكرت المخابرات الفرنسية أنه كان قائداً معترفاً به للجان الثورية العربية في كل من دمشق وحلب⁽⁴⁸⁾. غير أن المعلومات الفرنسية التي طرحت في هذا المقام ليست صحيحة؛ وذلك لأن تصرفات إرساله في مرسين تقطع بصحة التفسير الذي أفاد به تبياناً لوجوده هناك: "كنت آمل أن أرى عائلتي وأصدقائي الذين خشيت أن يغيب الموت بعضهم قبل أن أتمكن من العودة، بخاصة أمي وأخي. ولأن أمي لم تتمكن من المجيء إلى أوروبا، ولأنه لم يكن في وسعي أن أذهب إلى سوريا، أو فلسطين، أو حتى مصر... توجهت إلى مرسين حتى أكون قريباً قدر المستطاع من سوريا تسهيلاً لرحلة أمي⁽⁴⁹⁾".

التم شمل الأسرة في ربيع العام (1924 م)، وكتب إرساله عن ذلك الحدث معرباً عن سعادته لرؤيته أمه، ولقائه بزوجه وابنه بعد فراق دام ست سنوات⁽⁵⁰⁾. وكانت تلك المناسبة إحدى المناسبات القليلة في حياته الزوجية التي كرس فيها إرساله اهتمامه الكامل لغالب، حيث عكف على العناية بتربيته، ووضع خطة لتعليمه. والأمير الذي لم يعرف الاستقرار في حياته لم يكن وضعه مناسباً لأن يعيش حياة أسرية مثالية. وعلى الرغم من أنه اختار أن يعيش في مرسين لوعدها بتأمين حياة هادئة ولقربها من سوريا أيضاً، فإنه سرعان ما وجد نفسه يروح تحت وطأة عزلة فرضت عليه عبر إكراهه على الإقامة في جنوبي تركيا. واشتكى لرشيد رضا محتداً ومتذمراً من القيود التي يفرضها العيش في بلدة صغيرة. وكتب له: "ولو أردت أن أخرج إلى السوق بالقفطان ما لاحظ ذلك أحد، وتمضي الجمعتان والثلاث ولا يأتيني زائر... وبمدة خمسة أشهر ما أدبت إلا مأدبة واحدة⁽⁵¹⁾".

مدفوعاً بشعوره بعدم الارتياح من جراء استبعاده من دوائر النفوذ السياسي، ترك إرساله أسرته وعاد إلى أوروبا ليقضي فيها عدة أشهر في وقت متأخر من صيف العام

(1924م). وأجرى مجموعة من الاتصالات وأقام علاقات جديدة مع الجالية العربية التي تتخذ من سويسرا منفى لها. وعزز علاقاته مع المسؤولين الألمان في برلين⁽⁵²⁾. وفي شهر يناير/ كانون الثاني من العام (1925م) عاد إلى مرسين. وعلى الرغم من أنه قضى فيها أيضاً ثمانية أشهر أخرى، لم يكن يعتزم أن يتخذ منها مقراً دائماً لإقامته؛ ذلك لأنها معزولة جداً عن مراكز الأنشطة السياسية والاجتماعية. وعندما اندلعت الثورة السورية ضد الانتداب الفرنسي صيف العام (1925م)، اقترح المنفيون في كل من القاهرة وأوروبا تشكيل وفد يمثل مصالح سوريا أمام عصبة الأمم. وعُدَّ إرسال المسألة طارئة وشديدة الإلحاح وقرر أن يعود إلى أوروبا⁽⁵³⁾.

ومهما كان الهدف المقصود من إقامة أرسلان في مرسين، فقد شكلت تلك الإقامة نقطة تحول في طيه نهائياً صفحة إحياء الإمبراطورية العثمانية، وفي تنامي تماهيه مع "العروبة" سياسياً. بعد انقضاء حقبة إقامته في مرسين، أنشأ مجموعة من الروابط الجديدة وكانت عربية الهوية بالمقام الأول، وشارك في ضرب من النشاط السياسي الذي دعا إلى التوجه إلى المستقبل، لا إلى الماضي. ولم يتخلَّ عن أولوياته المتمثلة في إقامة اتحاد إسلامي مناهض للإمبريالية، لكنه ركز على الاهتمامات السياسية مؤكداً، لا على استعادة الأجداد العثمانية، بل على أنشطة أكثر قرباً وأوثق ارتباطاً بالمناضلين العرب، وهو الذي عدَّ قضيتهم ذات مرة مقيتة وتبعث على الاشمئزاز. ولكي يحقق النجاح في توجهه هذا، كان عليه أن يقدم أوراق اعتماده بوصفه مسلماً عربياً، وأن يزيل السمعة التي لحقت به بوصفه مساعداً سابقاً للمجرم جمال باشا. لقد كانت مهمة هائلة، كما كانت عامة وعلنية جداً وجاهيرية أيضاً، وحققت لأرسلان الاهتمام الذي كان يلزمه.

الفصل الثالث

تبني القضية العربية

وقد كان هذا دأب كثير من المخلصين الذين قاوموا سياستي قبل الحرب وفي أثنائها، وكانت مقاومتهم عن عقيدة واقتناع. فلما انجلى الغبار وانكشفت الأسرار وعرفوا أنني ما تكهنت إلا بما وقع عادوا فوضعوا أيديهم في يدي، وعولوا عليّ.

أرسلان⁽¹⁾

ليست نوعية السيد هي التي تثير اهتمام السوريين، بل ما يثير اهتمامهم قضية أن يكونوا سادة أنفسهم.

أرسلان⁽²⁾

كان التركيز الرئيس لالتزام شكيب أرسلان الشخصي عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى مباشرة منصباً على استعادة النظام العثماني، ووفقاً لما جرى استعراضه في الفصل السابق من هذا الكتاب، فقد كانت ارتباطاته بصورة رئيسة مع من كانوا ذات يوم حكام ذلك النظام الأقوياء. كانت توجد أحداث ضمن الأقاليم العربية السابقة استرعت أيضاً اهتمام أرسلان واستقطبته إلى مدار العرب فضلاً عن المنفيين الأتراك. وقد شكل إنشاء نظام الانتداب في كل من سوريا وفلسطين اختلالات كبيرة في النمط الاعتيادي للعلاقات الإدارية في المنطقة، ونجم عنه إعادة ترتيب الارتباطات السياسية للأفراد

الرواد والأسر القيادية. وحتى عندما كان في برلين، تأثر إرساله من جراء تفكيك النظام القديم في المشرق العربي.

ولم تكد فرنسا تحكم قبضتها على سوريا الخاضعة لسلطة الانتداب، وذلك باستيلائها على دمشق وتفكيك مملكة فيصل في شهر يوليو/ تموز من العام (1920م)، حتى أنشأت بنية أطلق عليها ستيفن إتش لونغريغ اسم "البنية متعددة المكونات"، وسماها آخرون سياسة: فَرَّقْ تَسُدْ⁽³⁾. وعلى الرغم من أن إعادة تنظيم المناطق والأقاليم ظلت سمة ثابتة من سمات نهج الانتداب حتى نيل الاستقلال، فإن التقسيمات الإدارية كانت قد رسمت في العام (1920م). وكان أكبر المستفيدين منها موارد لبنان. فقد ضمنت السياسة الفرنسية عبر تلك التقسيمات ألا يُصارَ إلى إخضاع موارد لبنان والمسيحيين الآخرين إلى سُنَّةِ دمشق. وتحقق ذلك عبر تشكيل ما سمي بلبنان الكبير المستقل ذاتياً، وشكل فيه الموارد أكبر تجمع أحادي التركيبة (الدينية الطائفية). ولكنهم لم يشكلوا، على أي حال، أغلبية مذهبية بين السكان؛ ذلك لأن المتصرفية القديمة كانت منضوية تحت لواء المناطق الخاضعة للمهمنة الإسلامية في كل من بيروت، وصيدا، والبقاع، ومناطق أخرى كانت في صميم الحياة الزراعية والتجارية والسياسية السورية التقليدية. وجرى تقطيع جوهر الكيان السوري أكثر فأكثر، وذلك عبر إنشاء دولة العلويين في المناطق الساحلية المهمة من اللاذقية، وإنشاء حكم وكيان لجبل الدروز في منطقة حوران، فيما شُكِّلَت الدولة السورية حول مناطق مدن دمشق، وحلب، وحمص، وحماة، وهي مناطق باتت بموجب هذا التقسيم معزولة عن المنافذ الطبيعية التقليدية الضرورية لتصريف منتجاتها. وبطبيعة الحال، كان الانتداب البريطاني في فلسطين يمثل منطقة عزل وفصل أخرى، الأمر الذي عده كثير من العرب يشكل، مع التقسيم الذي جرى وسبقت الإشارة إليه، سوريا الكبرى.

وأدت هذه التقسيمات الإقليمية إلى إثارة ردود فعل متنوعة ومتباينة بين القادة العرب داخل مناطق الانتداب وخارجها. فقد كان المورد على وجه العموم راضين عن الحماية الفرنسية، ورأوا أن مصالحهم تتحقق على أفضل وجه بواسطة الحفاظ على

لبنان الكبير. ومن المرجح أن تكون حالة الرضا هذه قد انسحبت على كثير من الوجهاء المسلمين السوريين الذين كانوا على استعداد للعمل ضمن إطار الانتداب ما دام يحافظ على وضعهم التقليدي. ولكن في دمشق، بخاصة في أوساط من تبقى من الذين كانوا مسؤولين في حكومة فيصل، كان يوجد فيض من المشاعر الجياشة للقومية العربية، فضلاً عن مشاعر غضب عارم وإحباط ناجمة عن فرض الانتداب، وفقدان الاستقلال السياسي، وعن التقسيم التعسفي للبلاد.

وعلاوة على ما تقدم، نفرت سلطات الانتداب الفرنسي منها القوميين السوريين ووجهاء محليين على حد سواء بسبب طبقة موظفيها ثقيلي الوطأة. لقد كان حضور موظفي الانتداب الفرنسيين المتعددين في كل وزارة من وزارات الدويلات السورية الأربع، مروراً بمجموعة المستشارين الفنيين، وبوحدة خدمات المعلومات العسكرية الخاصة المقيمة التي كان لها نفوذ عميق الغور في سلطة الانتداب، كان حضورهم جميعاً كامل النفوذ وثقل الظل⁽⁴⁾. وبينما كان البريطانيون يرخون قبضة انتدابهم على العراق تدريجياً وصولاً إلى نقطة منح العراقيين استقلالهم في العام (1932م)، كانت السياسة الفرنسية في سوريا تخلف مزيداً من الاستياء والنقمة في أوساط النخبة الوطنية، من الذين شعروا أن دولتهم أكثر جاهزية واستعداداً لأن يحكموا أنفسهم حكماً ذاتياً من المناطق المتخلفة المدججة دجماً غير ملائم والتي تشكل العراق.

وبالنسبة لأفراد النخب من الطبقات السياسية والفكرية السورية، كانت السياسات الفرنسية غالباً ما تعد تخريبية إلى حد شديد الإيلام. فمنذ البداية، تبنت سلطات الانتداب تطبيق سياسة النفي وتنفيذ أحكام الإعدام بالوطنيين⁽⁵⁾. فمعظم أعضاء مجلسي فيصل الاستشاريين، فضلاً عن الضباط الذين قاتلوا تحت لواء الثورة العربية اعتقلوا في وقت من الأوقات أو أدينوا غيابياً. وفي ظل هذه الظروف، تضاعف عدد اللاجئين السياسيين السوريين كثيراً، وازدادت المنظمات السورية في المنفى عدداً. ولما فرت النخبة السورية من اضطهاد نظام السلطان عبد الحميد إلى مصر، التي كانت متسامحة نسبياً في ظل حكم كرومر في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر، تجمع أفرادها من جديد في القاهرة،

حيث أسسوا مجلات كما فعل أسلافهم، ونظموا لجان احتجاج. وكانوا ناشطين أيضاً في مدن أوروبا، بخاصة في باريس، وبرلين، وبوينس آيرس، وفي ديترويت ونيويورك، "حيث ما برحوا يحاكمون المعلومات المجزأة والمتحيزة التي تخص الشؤون العامة لأوطانهم الأم، ويرسلون البرقيات إلى كل من جنيف، وباريس، وبيروت نُصرةً لأي من سياسات سوريا ولبنان، أو تأييداً لسياساتها المحتملة جميعها"⁽⁶⁾.

وبالنسبة لطالب يدرس تاريخ الشرق الأوسط الحديث، يمثل تَغْيُرُ الظروف هذا منعطفاً حاسماً. فلدى إلقاء نظرة فاحصة على هذا الأمر من منظور النخب الاجتماعية والسياسية العثمانية العربية، يعد ذلك تَغْيِراً، على الرغم من كونه في كل الأحوال حصرياً، وثيق الصلة، بخاصة، بأبناء الجيل العربي الذين ولدوا بين أواسط ستينيات القرن التاسع عشر وأواسط ثمانينيات القرن نفسه تقريباً، وهم الرجال الذين أُتيح لهم من الوقت ما يكفي لتأسيس نماذج أعمال ناجحة، وربما لتحقيق التميز داخل بوتقة الإمبراطورية العثمانية، إنهم الرجال الذين كانت بالنسبة لهم الإمبراطورية العثمانية حقيقة من حقائق الحياة، وكان السلطان الخليفة بالنسبة لهم مركز ولائهم. وبعد العام (1919م)، بات لزاماً على هذا الجيل أن يتكيف مع تلاشي الإمبراطورية العثمانية، ومع وجود الإدارتين الإمبرياليتين البريطانية والفرنسية، ومع إلغاء الخلافة والتقسيمات الإدارية، والقضاء، أي إلغاء المؤسسات والرموز التي عرفوا أنفسهم من خلالها. فتمرد بعض أبناء النخب المذكورة، وأذعن بعضهم للأمر الواقع بانتظار تحسن الأوضاع، ومنهم من نفي قسراً، ومنهم من هاجر طوعاً.

كان أرسلان عالماً بارزاً من الذين شملهم الفئة الأخيرة. وسيعمل هذا الفصل من الكتاب على استكشاف الجزء الثاني والحاسم من تكيف أرسلان في حقبة ما بعد الحرب وظهوره من جديد بوصفه ناطقاً مؤثراً يتحدث عن القضية العربية الإسلامية. ومن خلال الجمع بين مبادرته الشخصية والشهرة التي انبغت له في الوقت المناسب، أصبح أكثر من مجرد عضو آخر مبعد عن وطنه من أتباع النظام القديم. وبوصفه منظماً للجمعيات، ورئيساً للمؤتمرات، ومعلماً مرشداً للشباب الوطنيين والقوميين، وصحفيّاً

وافر الإنتاج، ومندوباً سورياً في عصبة الأمم، فقد جمع في شخصه الحركات العربية الإسلامية والساخطة على الاستعمار؛ فنال بذلك مرتبة رفيعة لا تتحقق بسهولة. وجدير بالذكر أنه، لم يتأت له دوره بوصفه متحدثاً باسم العرب عن قضاياهم السياسية والقومية بصورة طبيعية. ولم يكن ينظر إليه في البداية بوصفه مجنداً مرحباً به في رحاب القضية العربية. فقد كان عليه، قبل أن يغدو شخصاً بارزاً في حركة عرب المنفى، أن يتواءم مع حالة إخفاق الدولة العثمانية، وأن يعيد صياغة هويته العثمانية عبر سبكها في قالب عربي أكثر ملاءمة.

ولم يكن موقفه المؤيد للعثمانيين قبل الحرب وأثناءها في حد ذاته مشكلة لا يمكن التغلب عليها؛ نظراً لنهج رجال مثل محمد كرد علي، وساطع الحصري، وياسين الهاشمي وآخرين كثيرين من الذين أصبحوا يعرفون بمواقفهم القومية العربية أو المحلية والإقليمية الوطنية على الرغم من أنهم كانوا سابقاً مساندين للدولة العثمانية. وجعل موقف أرسلان في هذا الإطار أشد صعوبة من حيث المبدأ، وذلك بسبب ارتباطه الدائم والثابت مع النظام (العثماني) القديم. وسهل تحول ولائه النهائي انبهار حركة جمعية الاتحاد والترقي، والحقيقة البسيطة المتمثلة في أنه لم يعد ثمة وجود لحكومة عثمانية يمكن أن تستعاد. وأجبرته سياسات الدولة التركية الجديدة نفسها على التنديد بالحكومة العثمانية البائدة. ولم يكن هناك مجال للتعاون بين أشد المنادين باستمرار الخلافة والمدافعين عنها مثل أرسلان وبين دولة أتاتورك العلمانية القوية. وكان بناء على ذلك مدفوعاً إلى البحث عن هوية عربية، وإن كانت وفقاً لما حدده الإسلام.

وفي مطلع عشرينيات القرن العشرين، كان يدلي بين الفينة والفينة ببيانات وتصريحات تتعلق بمسائل عربية، وكان أبرزها التصريح الذي أدلى به في العام (1923م)، ودعا من خلاله إلى تأسيس جامعة عربية يكون من شأنها العمل على مكافحة الضعف المتأصل في دول عربية عديدة لكل منها كيان مستقل ومنفصل عن الدول الأخرى⁽⁷⁾. وفضلاً عن دعم زعمه بوصفه ممثل العروبة، غالباً ما كان أرسلان يستغل بياناً يزعم أنه أدلى به الملك فيصل الذي كان آنذاك ملكاً على العراق، وضمنه في رسالة أرسلها لأرسلان

وكتب فيها مخاطباً أرسلان: "أشهد بأنك أول من تكلم معي من العرب في قضية الوحدة العربية⁽⁸⁾". وخارج السياق، يمكن أن يفسر كلام الملك فيصل هذا بوصفه ينسب إلى أرسلان الفضل في توفيره على برنامج باكر من أجل قيام وحدة سياسية بين دول عربية عديدة انفصلت عن الإمبراطورية العثمانية. والأمر الأكثر رجحاناً هو أن هذا الكلام يشير إلى مشاعر مماثلة لتلك التي عبر عنها أرسلان في مقالة عنوانها: "أزفت ساعة الاتحاد أيها العرب"، وهي المقالة التي كان تركيزها أضيق نطاقاً بكثير مما يوحي به عنوانها؛ ذلك لأنها كانت مقتصرة على الشخصيات البارزة في شبه الجزيرة العربية فقط⁽⁹⁾.

وعلى الرغم من هذه التأكيدات وغيرها على اهتمامه بالقضية العربية، فإن أرسلان لم يبذل جهداً منسقاً لنيل القبول بوصفه متحدثاً معتمداً باسم العرب بكل معنى الكلمة إلا بعد أن استقر في سويسرا بصورة دائمة، وقبل تحمل المسؤولية التي أفضت إلى تمثيله القضية السورية في عصبة الأمم. ولم يكن من قبيل المصادفة ظهور سلسلة من مقالاته في تلك المرحلة عن العروبة كما يفهمها هو. وتشير تلك المقالات إلى أنه رأى أن أصوله الدرزية تشكل عائقاً يحول دون قبول الآخرين اضطلاعهم بمهام دوره الجديد أكثر مما كان يفعل انتهاؤه العثماني. وبناء على ذلك، ذهب بعيداً، وإلى أقصى مدى ممكن، في تأكيد عروبة الدروز، وفي القضاء على أي شكوك تحوم حول انغلاق الدروز على أنفسهم دينياً، أو حول انحرافهم الديني. وكانت الحجج التي ساقها في هذا الصدد حازمة أكثر منها مقنعة. وزعم أن للدروز خطاباً عربياً عزَّزَ نظيره براعةً وتفوقاً خارج نطاق شبه الجزيرة العربية. وأكد أن الدروز والعرب متماثلون من حيث الهيئة والمظهر، وهي حقيقة رصدها، والكلام لأرسلان، رجل رفيع المكانة هو "أستاذي محمد عبده"⁽¹⁰⁾. وكان حريصاً، بصورة خاصة، على ربط الدروز، بوصفهم جماعة دينية، بالفاطميين الإسماعيليين مؤكداً بذلك الطابع الإسلامي المتأصل للمعتقدات الدرزية، وشدد على مراعاة الجماعة لممارسات العقيدة الإسلامية وعلى اعتمادها على القرآن الكريم. وكان هدفه من تأكيده وتشديده هو التعتيم على أهمية الطقوس السرية والنصوص

التكميلية⁽¹¹⁾. ومهما بدت هذه الحجج متكلفة، فهي تعبر عما كان يجذبه أرسلان، فقد كانت حياته كلها رفضاً وإنكاراً لانغلاق الدروز واقتصار المذهب على أبنائه، وزواجه من غير بنات طائفته شكل انفصلاً حاداً عن العرف المفضل. وعلى الرغم من أن لقبه الأميري كان متركزاً على هبة أسرته السياسية بوصفها أسرة درزية، فقد حقق شكيب نجاحاً ملحوظاً في ترسيخ نفسه بوصفه مسلماً أصيلاً قوياً كرس نفسه لخدمة مصالح الإسلام السني. وعندما عاد أرسلان إلى بلاد الشام في العام (1937م)، وأمضى فيها مدة وجيزة، ذكر المندوب السامي الفرنسي أن بعض أعيان طائفة الموحدين اللبنانية وبخوا الأمير "بسبب تحوله الصريح عن معتقده إلى الإسلام [كذا]"⁽¹²⁾. وفي حين كان كاتب سيرته، أحمد الشرباصي، الذي تخرج في جامع الأزهر الشريف حساساً لجهة ازدواجية موقف أرسلان المذهبي، فقد خلص إلى الحكم الآتي: "لقد كان الأمير شكيب سنياً"⁽¹³⁾.

لعب رشيد رضا دوراً رئيساً في إعادة إدماج أرسلان في بوتقة القادة العرب الذين شعروا بالتهميش بفعل سياساته التي انتهجها زمن الحرب. كان رضا قد تعرف إلى أرسلان منذ العام (1895م). وكان كل منهما أثراً لدى الآخر عزيزاً عليه، وكلاهما معجبان بإصلاح حال الإسلام تبعاً لأسلوب محمد عبده، وكانا يعتقدان أنه يمكن تطبيق تعاليمه في مجتمع ما بعد الحرب. كما كانا على خلاف شديد حيال دعم رضا لمجتمع قائم على اللامركزية في ظل الدولة العثمانية: ("أعداء الإمبراطورية"، كما يراهم أرسلان)، لكن صداقتهما عادت إلى سابق عهدها عقب انتهاء الحرب⁽¹⁴⁾.

وكما كانت جمعية الاتحاد والترقي تأمل في استغلال وضع أرسلان في العام (1913م)، كذلك تمنى رضا أن يفيد من قدراته في مناخات ما بعد الحرب. كان يدرك أن أرسلان بارع في عالم الدعاية، وأنه جريء وصريح، وأنه يشترك معه في الرأي وفي وجهات النظر. وكان يعي أيضاً أن رجلاً يتوفر على هذه السجاي لا ينبغي أن تترك طاقاته لتتبدد في برلين ومرسين. لذلك زج به رضا في صلب المقاومة العربية، وحتى موته في العام (1935م)، أحاطه برعايته، ونشر كثيراً من كتبه، وكان يصاب أحياناً

بالإحباط الباعث على اليأس من تعنته، إلا أنه كان يوفر له الحماية دوماً؛ لأن إرساله لم يكن مجرد صديق بل كان، إلى ذلك، خطيباً مفوهاً ومتحدثاً مؤثراً باسم الاستقلال العربي والصحوّة الإسلامية. وفيما كانت تتوثق عرى العلاقة بينهما، أفاد كل منهما من تلك العلاقة.

بادر رضا إلى إطلاق إيّاءة المصالحة الأولى. وإبان عهد فيصل ملكاً على سوريا، كتب إلى أرسلان حيث كان في برلين: "إنه مضي الذي مضى، وصار علينا أن نجتمع ونتفق لأجل معالجة الحال الحاضرة"⁽¹⁵⁾. وتعززت عملية إصلاح ذات البين أكثر عبر المؤتمر السوري الفلسطيني الذي انعقد في جنيف أواخر صيف العام (1921م). كان المؤتمر أول مظهر من مظاهر الاحتجاج العربي المنظم الذي أعقب فرض الانتداب الفرنسي على سوريا، ودُعِيَ إلى انعقاده من أجل بلورة موقف متماسك مناهض لنظام الانتداب، ومن أجل تقرير أفضل السبل المناسبة لعرض هذا الموقف على عصبة الأمم⁽¹⁶⁾.

كان المحرك والقوة الدافعة الكامنة وراء تنظيم المؤتمر وتمويله هو الأمير ميشيل لطف الله، وهو صاحب أراض وتاجر ثري من طائفة الروم الأرثوذكس، ومن أبناء الجالية السورية المقيمة في مصر. كان أبوه، حبيب باشا، مقاولاً كبيراً وجريئاً راكم ثروة كبيرة بوصفه تاجراً ومرابياً، واستعمل ثروته في شراء أراض شاسعة معدة لزراعة القطن، وأصبح أحد أثري أثرياء مالكي الأراضي في مصر⁽¹⁷⁾. وقد منحتة الحكومة المصرية لقب باشا في السنة الأخيرة من سنوات عمره المديد، وأسبغ عليه الشريف الحسين ابن علي لقب أمير الذي يمنح للأعيان، ومنحه هذا اللقب بموجب السلطة المتقلقلة والآيلة للتداعي بوصفه ملكاً للعرب. وبناء على ذلك، فضلاً عن توريثه أبناءه الثلاثة ثروة هائلة، أورثهم ألقاباً نافعة. وخلف هذا المزيج لدى أحد الصحفيين الفرنسيين انطباعاً بأن أبناء لطف الله "ملومون بسبب ثروتهم التي تعد هائلة، وبسبب ترقيتهم إلى مرتبة النبلاء، وهذا يعد فحاً آخر، وبسبب طموحاتهم التي وصفت بأنها مفرطة ومشوبة بالعجرفة"⁽¹⁸⁾. وميشيل المولود في (العام 1880م تقريباً)، وهو الابن البكر الذي ارتبط معه أرسلان بعلاقة كانت الأكثر ديمومة، كان زعيماً فاعلاً ونشطاً للجالية

السورية في القاهرة، وغدا بعد الحرب منظماً قوياً للشؤون المتعلقة بقضية الاستقلال السوري.

وثبت أن المؤتمر كان بالغ الأهمية بالنسبة إلى إرسال وانتخب أميناً عاماً له، وأفاد من هذا المنصب ليظهر بوصفه شخصية بارزة في أوساط المنفى. انتخب لطف الله رئيساً للمؤتمر ورشيد رضا نائباً للرئيس. وشكل الأخيران إلى جانب كتلة مرتحلة من منفيين آخرين، ومنهم أسعد داغر، لجنة تنفيذية دائمة للمؤتمر اتخذت من القاهرة مقراً لعملها. وقرر المؤتمر أيضاً تشكيل وفد أوروبي دائم من أجل تمثيل الشعبين السوري والفلسطيني أمام عصبة الأمم. واختير لأداء هذه المهمة كل من شكيب أرسلان وإحسان الجابري وسليمان بيه كنعان، وهو ماروني لبناني⁽¹⁹⁾. وأصبح ما تبقى من حياة أرسلان متشابكاً تشابكاً وثيقاً مع حياة الجابري، ومع الخدمات التي كان بحاجة إليها الوفد السوري الفلسطيني الذي حدد مهامها على مدى معظم الحقبة الفاصلة بين الحربين العالميتين.



الوفد السوري الفلسطيني، جنيف، 1921

الجالسون من اليسار: سليمان كنعان ورشيد رضا وميشيل لطف الله وطعن العماد وتوفيق حمد وشكيب أرسلان. والواقفون من اليسار: إحسان الجابري وشبلي الجمل ونجيب شقير وأمين التميمي

كان الجابري (1882 - 1980 م) المتحدر من أسرة حلبية متميزة، حاله حال أبناء لطف الله، مشبعاً بفكرة خدمة الدولة العثمانية، ولديه طموح سياسي شخصي. وبعد تلقيه تعليماً قانونياً في كل من اسطنبول وباريس، ترأس الجابري بلدية حلب، وخدم لاحقاً في قصر السلطان بوصفه سكرتيراً لخليفين ورثا العرش بعد السلطان عبد الحميد. وأدت أساليبه المتطورة بالملك فيصل إلى تعيينه رئيساً لأمناء المملكة السورية. وعندما احتل الفرنسيون دمشق في العام (1920 م)، فر الجابري بمعية الملك فيصل إلى أوروبا، وانضم إلى المجموعات المنفية فيها. وعلى الرغم من أنه لم يعد نشيطاً وفاعلاً بقدر ما كان أرسلان، فإنه تفرغ في خدمة القضية السورية الفلسطينية، وقال عنه أرسلان: "هو رفيقي في السلاح في النضال الوطني الذي خضناه معاً"⁽²⁰⁾.

وشارك أرسلان نفسه في طائفة متنوعة من الاحتجاجات، الأمر الذي حقق له مستوى رفيعاً من الاعتراف به من رفاقه ومواطنيه ومن خصومه الأوروبيين على حد سواء. وفي شهر مايو/ أيار من العام (1922 م)، ألقى كلمة أمام مؤتمر لرابطة الشعوب المضطهدة انعقد في مدينة جنوة الإيطالية، تحدث فيها عن الحاجة إلى إقامة علاقات أوثق مع الدول التي لا أطاع لها في (بلادنا) مثل إيطاليا، وفي شهر يوليو/ تموز، ذهب إلى لندن من أجل الاحتجاج على قرار أصدرته عصبة الأمم ويقضي بإقرار الانتداب المزدوج على سوريا وفلسطين، وفي شهر أغسطس/ آب، ظهر في روما سعياً وراء الحصول على دعم إيطالي في عصبة الأمم⁽²¹⁾. ولم يكن في وسع ناشط عربي مواظب على الإقامة في برلين أن يتفادى المراقبة اللصيقة التي تمارس عليه من قبل المندوبين البريطاني والفرنسي. فقد أبلغ السفير البريطاني في روما عن حضور الوفد السوري الفلسطيني مؤتمر الاتحاد الإسلامي، فيما راقب اللورد دابرنون في برلين عن كثب تحركات اللاجئين السوريين في تلك المدينة، وحدد أرسلان بوصفه زعيماً لهم، وعبر عن رأيه في أنهم كانوا يُمولون من سويسرا⁽²²⁾. وكان ما يزال ينظر إلى أرسلان من قبل المسؤولين البريطانيين بوصفه موالياً للأتراك، كما كان اهتمام وزارة الخارجية البريطانية فيه نابعاً من تصور

لقدرته على التأثير في الأحداث في شرق الأناضول وفي منطقة القوقاز، كما فعل في المناطق العربية من قارة آسيا.

ودفع به موقفه من الثورة السورية التي اندلعت بين العامين (1925م - 1926م) إلى مقدمة الأحداث، ليحتل مكان الصدارة فيما يتعلق بالقضية العربية في أذهان مواطنيه وفي أذهان القادة الأوروبيين. وكانت الثورة حدثاً رئيساً في العالم العربي في حقبة ما بعد الحرب. ولأن الثورة السورية تزامنت، بطبيعة الحال، مع النجاح الذي حققته حركة عبد الكريم في المغرب، فقد جعلت لفترة وجيزة قوة الصرح الإمبريالي الفرنسي في موضع تشكيك. وعلى الرغم من أن القائمين على الأعمال الدعائية والمهتمين بالشؤون والعلاقات العامة من السوريين نجحوا آنذاك في تصوير الثورات المختلفة داخل سوريا، بوصفها حملة وطنية موحدة ذات طابع ديني، فإن دوافع المشاركين السوريين في الثورة وأهدافهم أظهرت تنوعاً كبيراً. وسعى أنصار سلطان الأطرش، زعيم الدروز، الذين تمردوا في جبل الدروز في شهر يوليو/ تموز من العام (1925م)، إلى الحصول على حكم ذاتي، وإلى الحفاظ على طبقة النبلاء الإقطاعيين في مواجهة الاتجاهات التحديثية لإدارة الانتداب. ونظر وجهاء مدن حلب وحمص وحماة إلى السياسات الفرنسية بوصفها تشكل تهديداً لقواعد سلطتهم وهيبتهم التقليدية، فيما دعا المثقفون الوطنيون المتمركزون في دمشق إلى تحقيق الاستقلال التام وتكوين دولة سورية عربية⁽²³⁾. ومع أن الدافع المحرك للثورة كان طائفة من المظالم المتنوعة لدى مجموعات وقطاعات مختلفة من السكان، فقد حققت بعض النجاحات المهمة في مراحلها المبكرة. فقد اضطرت الحامية الفرنسية إلى الانسحاب من جبل الدروز، وفي خريف العام (1925م)، شهدت ضواحي مدينة دمشق مجموعة من حركات التمرد المتفرقة.

ونتيجة للإحباط الذي ألم بها من جراء عجزها عن احتواء الانتفاضة، انخرطت القوات الفرنسية في واحد من أسوأ استعراضات القوة التي أبدتها في حروبها الإمبريالية قاطبة. فقد تعرضت مدينة دمشق على مدى يومين بدءاً من الثامن عشر من شهر أكتوبر/

تشرين أول من العام (1925م) إلى قصف جوي ومدفعي مكثف أدى إلى إلحاق أضرار جسيمة بالمدينة القديمة، وخلف عدداً كبيراً من القتلى بين سكانها المدنيين. واستتبع ذلك احتجاجات صارخة على تدنيس مدينة إسلامية عربية ترددت أصداؤها خارج حدود سوريا، فعززت احتجاجات الشعوب الإسلامية الأخرى المناهضة للأوروبيين. وعنونت صحيفة الشورى الأسبوعية التي كانت تصدر في القاهرة صدر صفحتها الرئيسة بالعنوان: "فرنسا تدمر بر الشام كما دمر التتار بغداد"⁽²⁴⁾. ومن جانب آخر أبلت ثورة عبد الكريم الخطابي في الفترة نفسها بلاء حسناً في جبال الريف المغربي، وحققَت نجاحات مذهلة ضد القوات الإسبانية، وكان الثوار المغاربة أواخر صيف العام (1925م) يمتدّون عبر حدود المحمية وصولاً إلى المنطقة الفرنسية، وشكلوا تهديداً لمدينة فاس نفسها.

ورداً على الثورة السورية، جرى تفعيل الوفد الأوروبي الذي سبق أن شارك في المؤتمر السوري الفلسطيني، وكان ذلك في شهر أغسطس / آب من العام (1925م). طُلبَ من أرسلان أن يستأنف قيادته للوفد، وشجعه رشيد رضا على العودة من مرسين إلى سويسرا. وأدرك أنه إذا ما رغب في لعب دور مهم على صعيد القضية العربية فتلكم كانت فرصته⁽²⁵⁾. وعلى الرغم من رغبته الجارحة في استعادة سمعته، فإنه كان يدرك مدى التخريب الذي كان ينطوي عليه التغيير. وكان دوماً يشعر أنه دخيل غريب في أوروبا، فلم تجذبه الإنجازات الفكرية للحضارة الغربية، ولا المسرات المادية التي كانت توفرها. ولكن مرسين، في الجانب الآخر، لم تتح له مجالاً لتوظيف طاقاته، أو لتحقيق طموحه، أو لإرضاء غروره. وعاد في شهر سبتمبر / أيلول من العام (1925م) إلى سويسرا، واستقدم في العام اللاحق زوجته وابنه من مرسين، واستأجر منزلاً صغيراً في مدينة لوزان، ودشن تلك المرحلة من حياته العملية التي أسبغت عليه لقب: مجاهد الشرق في الغرب⁽²⁶⁾.

وبينما كانت سياسات السلطة المنتدبة تخضع للمراقبة والتدقيق الدوليين عن كثب، قطف أرسلان، بوصفه الناطق الرسمي باسم واحدة من الجماعات السورية القليلة المنظمة في أوروبا، ثمار حظ غير مرتقب وشهرة غير متوقعة دفعت به إلى صدارة المشهد العام في أوروبا والشرق الأوسط. كما أتاح له ارتباطه بالمسألة السورية في عصبة الأمم فرصة لإثبات وطنيته، وللظفر باستعادة مكانته المرموقة، بصورة نهائية، في الأوساط العربية. ولم تكن عودته إلى صدارة المشهد بفضل التوقيت الملائم وحده.

وما إن سخر عواطفه وسمعته لخدمة القضية السورية في عصبة الأمم، حتى نالت تلك القضية ظهوراً ملحوظاً. وفي مقابلة أجريت معه في العام (1929م)، شرح أرسلان أسلوبه:

القضية السورية دعوة سياسية معلقة، وينبغي أن تبقى معلقة لدى هذه المحكمة الكبرى، التي هي جمعية الأمم؛ وذلك حتى لا يتخذ الأجانب سكوت السوريين حجة ويعتمدوه علامة على الرضا بالحالة الحاضرة. إن المظلوم من عادته أن لا يكتفي بمراجعة المحاكم فقط، بل أن يصحب تقاريره ولوائحه القانونية بدعاية ونشرات ينبه بها الرأي العام على ما يصيبه. فالوفد السوري قائم والحمد لله بما يجب عليه، سواء كان من جهة المحاكم أم من جهة الرأي العام، ولذلك فالقضية السورية حية، بل هي ممتلئة حياة وتزداد نمواً، وكلما اجتمعت الدول في جنيف تجد فرنسا في وجهها الوفد السوري⁽²⁷⁾.

إن تفسير أرسلان لحقوق المدعى عليه قد يسبب شيئاً من عدم الارتياح في الدوائر القانونية، ولكن وصفه لاتساع نطاق أنشطته كان دقيقاً. وفي الواقع، الملاحظات التي أبدتها رئيس تحرير مجلة الشورى، في هذه الحالة، لا تنطوي على شيء من المبالغة: "والحق أن رجلنا الكبير لم يدخر سعيًا منذ وصل إلى سويسرا لخدمة وطنه إلا بذله، ولا باباً إلا طرقه⁽²⁸⁾". ولم يذكر أي شخص آخر ينتمي إلى منطقة واقعة تحت الانتداب

ضمن وقائع محاضر الهيئة الدائمة للدول الخاضعة للانتداب في عشرينيات القرن العشرين بقدر ما ذكر فيها أرسلان. هو والجابري، من خلال عدد العرائض والمطالب التي قدمها، ومن خلال صلاتهما في طلب تحديد مواعيد، كانا يضطران الهيئة المذكورة دوماً لأن تكون على اطلاع على أوضاع الوفد السوري الفلسطيني، وعلى تواصل معه. ووفقاً لما أشار إليه نائب الرئيس فإن: "كل عضو من أعضاء الهيئة استمع إليهم بصورة شخصية⁽²⁹⁾". وعلى الرغم من أن الوفد لم يضم في عضويته أي أعضاء فلسطينيين، فقد بين أن مهمته تشمل القضية الفلسطينية إلى جانب القضية السورية. وفي حين منحت سوريا الأفضلية الأولى في العامين (1925م - 1926م)، فإن الوفد الذي كان خاضعاً لإدارة شخصيتين بارزتين مواليتين للعثمانيين هما أرسلان والجابري، سرعان ما وسع دائرة اهتمامه لتشمل "جنوب سوريا". وبذلك وضع أرسلان نفسه في موقف جعله أحد أبناء العرب الأوائل الذين طرحوا القضية الفلسطينية على العالم بأسره. وعلى مدى الزمن الذي كان ينظر إليه بوصفه قادراً على استقطاب دعم الساسة العرب المنفيين وبعض سكان كل من سوريا وفلسطين، كان يعامل بصورة جدية في أوروبا، كما كان له تأثير على جدول أعمال الهيئة.

وربما كانت المراحل الأكثر فاعلية هي تلك التي سطرت بدايات مهامه التمثيلية. وعلى الرغم من أن الوفد السوري الفلسطيني لم يتعرض لعقوبات دولية رسمية، فإن الهيئة كانت منزوعة لل غاية من الثورة السورية والسياسات الفرنسية التي يمكن أن تكون أدت إلى اندلاعها، ولولا ذلك لكان حظي أرسلان والعرائض التي قدمها إلى الهيئة بمزيد من التقدير والرعاية. وقررت الهيئة، في دورة انعقادها في شهر أكتوبر/ تشرين أول من العام (1925م)، الامتناع عن استلام التقرير الفرنسي السنوي المتعلق بسوريا، ما لم تعمل (فرنسا) على تحديثه وتضمينه المعلومات الضرورية اللازمة لفهم أحوال الثورة، فضلاً عن معلومات أخرى محددة عن معاملة السكان السوريين، على أن يصار إلى مناقشة المعلومات الجديدة في دورة خاصة تعقدها الهيئة، وتقرر انعقادها في روما في شهر شباط/ فبراير من العام (1926م). ومع انتهاء الاجتماع الذي انعقد

في شهر أكتوبر/ تشرين أول، أخذت العرائض التي تقدم بها إرسال في الحسبان، وأدرجت ضمن وقائع محاضر اجتماعات الهيئة، وعومل إرسال معاملة الناطق الرسمي باسم سوريا في أوروبا. وطلب هنري دوجوفينال قبل مغادرته إلى بيروت لتسلم مهام منصبه الجديد بوصفه مندوباً سامياً في شهر نوفمبر/ تشرين ثاني من العام (1925م) من إرسال، بوصفه قائداً للوفد، أن يأتي إلى باريس ليناقد الوضع السوري معه. كانت الهيئة التي أسبغت على إرسال لفته دوجوفينال هائلة. وأبرزت صحيفة الشورى في صدر صفحتها الأولى عنواناً ينطوي على شيء من التضليل، جاء فيه: "فرنسا تستدعي الأمير شبيب إرسال إلى باريس لمفاوضته بأمور سورية"⁽³⁰⁾.

وعلى الرغم من أنه لم يتمخض عن هذه المناقشات الخاصة توقيع اتفاقيات، على أساس العرض الذي تلقاه الوفد، فقد توقع إرسال أن تنعقد جلسة استماع للهيئة بأعضائها جميعهم، ويعرض عليها الموضوع. ورأى إرسال أن يتم ذلك في جلسة استثنائية تنعقد في روما. وذهب إرسال والجابري ونجيب الأرمنازي إلى روما، وطلبوا عقد جلسة استماع يتحدثون فيها بوصفهم "مندوبين معينين حسب الأصول من قبل الأمة السورية"⁽³¹⁾. وأثار هذا الطلب نقاشاً مطولاً، وأظهر الهيئة في أشد حالاتها احتراساً. وفي نهاية المطاف، مستندة بصورة صارمة على الإجراءات، صاغت الهيئة رداً على طلب إرسال، وقالت فيه بكلمات مقتضبة وقاطعة الدلالة: "تري الهيئة أن الظروف لا تسمح لها بالموافقة على طلبك"⁽³²⁾. وعلى الرغم من أن حضور الوفد إلى روما أبقاه في دائرة الاهتمام العام، فإن إخفاقه في تحقيق طلبه بعقد جلسة استماع كان، من دون شك، مهيناً لإرسال ومخيباً لآماله. وكذلك كان تقرير الهيئة النهائي محبطاً. وبعد الاستماع للعرض الفرنسي، لاحظت الهيئة أنه في حين أن بعض ممارسات سلطات الانتداب الفرنسي يمكن أن تكون محل انتقاد، إلا أن السوريين ليسوا مستعدين بعد لتحمل أعباء "الظروف الشاقة" للاستقلال، وأفادت اللجنة بأنه ينبغي للأطراف جميعها محاولة التعاون لجعل أداء مهام الانتداب تتم بسلاسة"⁽³³⁾.

عكست الأحداث التي وقعت في سوريا القرارات التي اتخذت في روما. ففي صيف العام (1926م)، انتهت الثورة فعلياً وتوطدت دعائم سلطة الانتداب الفرنسي في المنطقة وهيمنت عليها على مدى السنوات العشرين اللاحقة. ولكن الموافقة التي اتخذت من قبل مجموعات متنوعة سورية ولبنانية في سياق الثورة، كان لها تداعيات مستمرة بين المنفيين والقادة السياسيين داخل المنطقة على حد سواء. انعقدت اتصالات وثيقة بين هاتين المجموعتين، وكانت تتخذ قرارات مهمة في كثير من الأحيان في القاهرة أو في أوروبا؛ لأن فرنسا أرغمت كثيراً من السياسيين الأكثر نشاطاً على العيش في هاتين المنطقتين. ولم يكن مفاهيم منفي مقابل نظام حكم مستقل وطيد الأركان يرغبون في الإطاحة به، كما أن إرسالهم لم يكن لينين، بل كان سياسياً أرستقراطياً نفي من مجتمع لم يشهد انقلاباً، إنما كان ببساطة محتلاً من قبل سلطة أجنبية. ولذلك عندما كان خارج وطنه لم يكن خارج نطاق معتركه السياسي. وينسحب ذلك على أخيه عادل، وعلى الجابري، وعلى شخصيات بارزة أخرى منفية أيضاً. وعلى سبيل المثال، شغل عضوان من أعضاء الوفد السوري الفلسطيني في أوروبا، في نهاية المطاف، منصبين محليين مهمين، وهما رياض الصلح الذي صار رئيساً لوزراء لبنان في العام (1943م)، والجابري الذي تولى مهام منصب حاكم اللاذقية في العام (1937م). وفي ظل الظروف الخاصة والفريدة في نوعها التي أحاطت بكل من سوريا، ولبنان، وفلسطين في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، تمكنت شخصيات بارزة، مثل إرسال، من أصحاب الشأن والنفوذ الكبيرين الراسخين محلياً، ومن كان لهم سمعة حسنة وشهرة واسعة قبل الحرب، من تمثيل مناطق وبلاد لم يكن مسموحاً لهم العيش فيها. وكان التصدي للعمل السياسي في المنفى سمة ميزت ما تبقى من حياته. ولم تكن السياسات التي انتهجها مصممة للتعاطي مع الأوضاع المتقلبة في المنفى فحسب، بل كانت، إلى ذلك، ترمي إلى السيطرة على سوريا الكبرى.

وبسبب توليه مهام المفاوض الرئيس عن المشرق العربي مع الدول الأوروبية، حظي نشاط إرسال بتغطية واسعة من الصحافة العربية. وكان مضموناً أيضاً أن يكون الاهتمام الكبير به، من جديد، محل انتقادات واسعة النطاق.

وكان كثير من الخلافات التي كان طرفاً فيها نافهاً أو شخصياً، بيد أنه كان مضطراً إلى التعامل معها، إن رغب في أن يكون لآرائه في أمور أكثر أهمية مصداقية. وإبان انهيار حركة الاتحاد والترقي في برلين، أدرك إرسال، فيما يبدو، مدى احتياجه في منفاه لأن يبدو مستنداً إلى دعم كبير يتأتى من وطنه، فضلاً عن إسناد آخر من زملائه المبعدين المنفيين لكي يكون مؤثراً وفعالاً. وكان الصراع على النفوذ سمة دائمة ملازمة لوجود المنفيين في منفاهم بدأ مع بداية الثورة السورية، إلا أن له أصولاً ضاربة في تركيبة نسيج المجتمع السوري اللبناني.

وفي ظل النظام العثماني، تم استيعاب الانقسامات الجغرافية والسياسية التي كانت قائمة بين مكونات النخبة السورية التقليدية في إطار إمبراطوري أوسع نطاقاً. ومع قيام كيان سياسي متميز، انكفأت هذه الانقسامات إلى الداخل وتغذت على ذاتها؛ مما أضر بتشكيل حركة قومية متماسكة⁽³⁴⁾. وشكلت الانتماءات الإقليمية القوية داخل الدولة بعداً واحداً من الصراع داخل النخبة. ولكن انسحب الوضع نفسه على الحدود غير المؤكدة للدولة السورية نفسها. هل ينبغي أن يكون لها كيان مستقل منفصل؟ أم هل يجب أن تشمل لبنان؟ أم هل يتعين أن تكون بمثابة نواة لدولة عربية أكبر تضم في بوتقتها القومية السورية؟ وظلت هذه القضايا في أعقاب ثورة العامين (1925م-1926م) عالقة دونها حلول، بخاصة، مشكلة التحديد المحلي للهوية التي تفاقمت بسبب سياسة «فرق تسد» الفرنسية.

وانعكست هذه الانقسامات في سياسات منظمات المنفى، وازدادت كثافة بفعل الطموحات الفردية للشخصيات المعينة المختلفة. وقد تبدى ذلك جلياً، بخاصة، في الصراع الداخلي الذي كان قائماً بين أعضاء الهيئة التنفيذية للمؤتمر السوري

الفلسطيني⁽³⁵⁾. وليس القصد من هذه الدراسة استقصاء أسباب كل خلاف عديم القيمة أو غير شخص. ولكن من الواضح أن أجواء من الارتباب المتبادل كانت تعم المنظمة، الأمر الذي أضعف قدرتها على التصرف بصورة حاسمة، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد أثر في المواقف التي اتخذها بعض أعضائها.

وفي أعقاب الثورة السورية، ازدادت طبقات المناضلين المنفيين في القاهرة وتعددت صفوفاً. ومن وجهة نظر أرسلان العملية، كانت الشخصية الجديدة الأكثر أهمية الدكتور عبد الرحمن الشهبندر (1882 - 1940 م)، وهو من أبناء مدينة دمشق وتخرج في الكلية الطبية التابعة إلى الجامعة الأمريكية في بيروت. عارض الشهبندر سياسات التتريك التي انتهجتها جمعية الاتحاد والترقي، وأمضى معظم سنوات الحرب في القاهرة عاملاً من أجل القضية الهاشمية. وكان داعيةً صلباً ومنظماً سياسياً، وعاد الشهبندر في العام (1919 م) إلى دمشق، ودفعت هناك انتقاداته المزعجة للحكومة فيصلاً إلى الإعلان أن سورياً يمكن أن تخدم على أفضل وجه إذا ما اقتصرتم مهارات أخصائيتها على مجالات اختصاصاتهم: "...ينبغي على الزعيم أن يقود قواته، وعلى السياسي أن يتدبر الأمور... وعلى الطبيب أن يعالج المريض"⁽³⁶⁾. لم يُجد هذا النصح نفعاً مع الشهبندر، وعاد بعد مشاركته في الثورة السورية التي اندلعت بين العامين (1925 م - 1926 م) إلى القاهرة، وتحالف مع جناح ميشيل لطف الله ضمن أعضاء المجلس التنفيذي السوري الفلسطيني، وشرع بتبني موقف سياسي مؤيد للهاشميين، وعقيدة قومية علمانية⁽³⁷⁾.

أصبح هو وأرسلان عدوين لدودين. وما أثار العداء بينهما هو تصادم طموحاتهما وشخصيتيهما بقدر ما أضرمت ناره رؤاهما المختلفة للمستقبل. وأسماه بـ"الرجل الخبيث" بناءً على اتهامات وجهها إليه، وقطع على نفسه عهداً: "لا أقبل أن أصالح رجلاً طعن بي بهذه البذاءة"⁽³⁸⁾. ومن سوء طالع الحركة الوطنية السورية أن أوفى أرسلان بعهده.

وقد أسهم العداء الذي استشرى بين الشهبندر وأرسلان في تعميق الشرخ بين مكونات الجالية السورية في المنفى. ويوجد مثال توضيحي عن الطريقة التي ازدادت الخلافات فيها حدةً وتحولت إلى أزمة كبيرة بين السوريين، هذا المثال مستمد من الأحداث التي جرت أواخر العام (1925م). وكان أرسلان قد بدأ الخلاف في شهر نوفمبر/ تشرين ثاني عندما قبل دعوة المندوب السامي هنري دو جوفينال لمناقشة القضية السورية في باريس. ونظراً لأنه لا يمكن لأحد أن يشكك مطلقاً في مركزية دوره، فقد افترض أرسلان أنه مخول بالتفاوض نيابة عن المجتمع السوري اللبناني كله. وكان افتراض دو جوفينال مماثلاً لافتراض أرسلان، وأجرى الرجلان نقاشاً مثمرًا، وقال المندوب السامي هيئة الانتداب لاحقاً إنهما كانا قريبين من إبرام اتفاق على بعض النقاط⁽³⁹⁾.

ولكن، كان أرسلان يفترض من موقع لا يوافق آخرون من المعنيين بالأمر على شغله إياه، ويعرض تقديم تنازلات عن أشياء ليس من حقه التنازل عنها. فقد قبل، أولاً، مفهوم لبنان الكبير، موافقاً على أن تكون فرنسا دولة لبنانية منفصلة عبر إضافتها إلى حدود المتصرفية القديمة مناطق هي سورية منذ القدم. وربما أفاد تكيف أرسلان مع هذه النقطة في حماية قاعدة سلطته المحلية. فقد كان في كل إدارة من الإدارات التي تشكلت في لبنان في عهد الانتداب تقريباً، أحد أعضاء أسرة أرسلان إما وزيراً في الحكومة أو زعيماً للمعارضة. ويمكن للمرء أن يتصور أنه في حال الاندماج مع سوريا، لن يكون للأسر الدرزية المتحدرة من منطقة الشوف دور "وطني" له أهمية الدور الذي كانت تلعبه تلك الأسر في بوتقة النظام السياسي اللبناني.

طالب أرسلان أيضاً بأن يُصارَ إلى إدماج فلسطين في سوريا، وأن تمنح سوريا ولبنان استقلالهما إضافة إلى حق العضوية في عصبة الأمم. وبإستثناء مهم وجدير بالذكر وهو ذاك المتعلق بقبوله طرح لبنان الكبير، كان يمكن التنبؤ بهذه المطالب، وكانت متساوقة مع الأهداف الوطنية لمعظم السوريين. أما الأمور التي كان التنبؤ بها أضعف احتمالاً فهي التنازلات التي كان أرسلان مستعداً لتقديمها إلى فرنسا. وهذه تتضمن التدريس

المستمر للغة الفرنسية في المدارس السورية، وحصص المستشارين العسكريين الأجانب الذين يمكن لسوريا أن تتعامل معهم بالضباط الفرنسيين، ووعده من القوات السورية بمساعدة فرنسا في حال نشوب حرب، وإقامة تحالف بين البلدين مدته ثلاثون عاماً. وبدأت هذه التنازلات متهورة، لكن إرسالها لم يتنكر لها مطلقاً ولم يتنصل من مسؤوليته عنها. وكان في هذه الحالة، على الأقل، على استعداد لتقديم تنازلات في سبيل تحقيق الاستقلال. وكان يفاوض ويتحدث لا بوصفه فرداً بل بوصفه ممثلاً، وأصبح ما قاله جزءاً من سجل الدبلوماسية الفرنسية السورية.

تكشف الجدل الذي أعقب نشر مقترحات إرسالها عن هشاشة العلاقات بين المنفيين وعن تضارب تطلعاتهم. وكان النزاع مريراً، بخاصة، بين أعضاء اللجنة التنفيذية في القاهرة. ومن خلال انخراطه في مفاوضات مباشرة مع مسؤول رفيع المستوى، كان قد أعد نفسه للتعامل مع أعضاء اللجنة التنفيذية في القاهرة بوصفهم خصوماً، وتجاهل القادة السوريين الموجودين في الميدان وتجنّبهم، وكان الدكتور الشهبندر واحداً منهم⁽⁴⁰⁾.

وفي السنوات التي تلت ذلك، تراكمت الاتهامات المتبادلة بعضها فوق بعض، الأمر الذي جعل فاعلية المؤتمر السوري الفلسطيني تقلص كثيراً. وفي خريف العام (1927م) حاول لطف الله اتخاذ التدابير اللازمة لإقالة إرسالها من الوفد الأوروبي بغية تخطي سلطته في التعامل مع دوجوفينال، فما كان من إرسالها إلا أن رد عليه قائلاً إنه مفوض بالتصرف من دون استشارة القاهرة، ورفض الإدعان والتخلي عن مزوالة مهامه⁽⁴¹⁾. وفي الوقت نفسه، طرد لطف الله والشهبندر من مجلس القاهرة التنفيذي، وأمست الحركة السورية في المنفى أكثر انقساماً وتصدعاً من أي وقت مضى.

والمرارة التي نجمت عن مبادرة إرسالها التي تقدم بها من فرنسا جعلته بحاجة إلى مواقف داعمة معبر عنها بقوة، إذ ما أريد لمهمته بوصفه "مفوضاً متديباً حسب الأصول" أن يكون لها أي مصداقية في أعين الجماهير العربية. وما إن عاد من مرسين حتى بذل

هو وأنصاره قصارى جهودهم من أجل تقديم دليل ملموس على وجود جمهور عريض ينصره. وزعموا أنهم حققوا انتصاراً كبيراً عندما أُعلن أن المؤتمر الفلسطيني السادس فوض إرسالان بالدفاع عن مصالح فلسطين أمام عصبة الأمم⁽⁴²⁾. أكد إرسالان في تمهيد استهله به أحد مطالبه أن الوفد السوري الفلسطيني يُعدُّ من قبل جميع العرب المظلومين مترجماً لمظالمهم أمام عصبة الأمم ولدى العالم المتحضر⁽⁴³⁾. وامتد السعي التماساً للدعم وصولاً إلى أمريكا الشمالية. وفي أعقاب زيارة قام بها إرسالان إلى الولايات المتحدة في العام (1927م)، وسبق لي أن بحثت فيها في الفصل الرابع من هذا الكتاب، وصل سيل من البرقيات إلى وزير الخارجية الفرنسي. وهذا نموذج يعبر عن فحوى تلك البرقيات: "الأمير إرسالان ورفاقه هم الممثلون الوحيدون لسوريا أمام الحكومة الفرنسية، وأمام عصبة الأمم⁽⁴⁴⁾". كما وصلت رسائل مماثلة من ويسكونسن، وأوهايو، ونيويورك. والطبيعة الإبداعية المتكلفة لهذه البرقيات كانت أقل أهمية من الصراع المكثف من أجل الدعم الذي كانت تمثله. وعلى المستوى الشخصي تميزت الحملة بجعلها هدفاً لمناكفات صحفية مريرة متبادلة. وكان إرسالان أشد ما يكون تأثراً عندما أثار الدكتور الشهبندر قضية علاقته مع جمال باشا السفاح، وكان ما أثاره في هذا الصدد بمثابة اتهام يقتضي نفياً وتقديم تفسيرات من قبل إرسالان ورفاقه⁽⁴⁵⁾.

كان هذا أحد أبعاد وجود إرسالان في المنفى بوصفه ناشطاً. وكان عالماً خلواً من المسؤولية السياسية. وكانت مواقفه تتخذ وهو ينظر بإحدى عينيه إلى الفرنسيين، ويرصد بالعين الأخرى ردود فعل مواطنيه. كما كان إرسالان، شأنه شأن الآخرين، عرضة دوماً لاتهامات بأنه مفرط بالتشدد في مواقفه، أو بأنه مساوم خائن يبحث عن تسوية مذلة. وكان يبدي شجاعة أكثر من البراعة ويميل إلى اتخاذ موقف صريح واضح إزاء كل المعلومات المتاحة عن أي موضوع يجري البحث فيه. وكان هذا يستلزم بذل قدر كبير من الطاقة من أجل الدفاع عن آرائه الأصلية وصقلها وتشذيبها، والتي كانت غالباً ما تتعرض لهجوم من فصيل أو من آخر. ولكن كان يوجد مع ذلك اتساق في نظراته العامة الشاملة للأمور، وكان هذا الاتساق في الرؤية يتمثل في اتخاذه موقفاً

صليلاً لا هوادة فيه في رفض احتلال أراض عربية من قبل الأوروبيين؛ الأمر الذي ولد انطباعاً طيباً مستحسنًا لدى الجماهير العربية التي صارت ترى فيه ضميرها في أوروبا. وعلى مدى الحقبة الممتدة ما بين الحربين العالميتين، كانت كتاباته تعبر عن غضبه من الذين ينظرون إليه بوصفه استعمارياً، ومن حرمانه من السيادة، ومن وصفه بأنه "ناطق محلي" من قبل سلطات الانتداب. وبدلاً من أن يكون للعرب حضارة رفيعة المستوى جوهرها العروبة والإسلام، ومعتز بها في حقبة ما بعد الحرب، جرى تقسيمهم وتفريقهم والتلاعب بهم من قبل الاستعمار الأوروبي الذي زعم منافقاً أنه يتصرف بدوافع إنسانية، ولكن ما كان يحركه في الحقيقة هو "بترول الموصل، وقطن كيليكية، وحرير سورية"⁽⁴⁶⁾. وتديلاً على المستوى المتقدم الذي أحرزه سكان سوريا الكبرى، عرض إرسال نموذج الخاضع عن العنصرية: "إن سكان هذه البلاد متطورون جداً، وينتمون بلا جدال إلى العرق الأبيض. وتجب الإشارة إلى أن سوريا هي مهد الحضارة، وفيها ومنها تطورت الفكر الدينية والأخلاقية التي تحكم البشرية اليوم". وتابع إرسال قائلاً:

"وبناء على ذلك، فإن الأمة العربية التي تعي تماماً ماضيها وتذكر حقوقها وتعترف احتياجاتها، لن تقبل أن تعامل طويلاً بوصفها قاصراً على قدم المساواة مع السود في الكاميرون وتوغو"⁽⁴⁷⁾. وبالنسبة للذين كانوا ذات يوم يشكلون النخبة في الإمبراطورية المستقلة، إلى جانب الجيل الأحدث عهداً الذين توقعوا شيئاً أكثر وأكبر من الثورة العربية ومن الوعود البريطانية، لاقت هذه المشاعر التي عبر عنها إرسال استحسانهم وراقت لهم.

وبناء على ذلك، وعلى الرغم من الشرخ الذي حل بالمجلس السوري الفلسطيني، والاتهامات المتبادلة بين أعضائه، ظلت هيئة إرسال كبيرة. ونجحت الحملة التي أطلقت نيابة عنه في تصويره بوصفه صاحب شخصية مميزة، وبأنه كرس نفسه لأداء الواجب في جنيف، وبأنه بات معترفاً به بوصفه فريداً في نوعه وأساسياً بالنسبة للمهام التي يؤديها. وفي العام (1928م)، أصبح ناطقاً رسمياً يتحدث عن كل قضية رئيسة،

تقريباً، كانت تجابه عالم المشرق العربي في علاقاته مع أوروبا. ولا يعني هذا أنه كان وحيداً من حيث الأمور التي تثير قلقه ومخاوفه، بل كان له موقف خاص دأب من خلاله على التعبير عن تلك المخاوف، وعلى جذب الآخرين إلى شخصه. تمكن من الهيمنة على جمهور بسبب لقبه بوصفه ممثلاً لدى عصبة الأمم، وأسبغ عليه زعمه حيازته هذا اللقب مظهر المتحدث الرسمي. وبسبب هذا، أصبح الوفد السوري الفلسطيني مستودعاً لآمال كثير من المثقفين المتنورين العرب في حقبة ما بين الحربين العالميتين. فإذا كان الذي أنجزه الوفد السوري الفلسطيني من خلال الجهود التي بذلها لدى لجنة الانتداب قليلاً ومتواضعاً، فقد كان له، من دون ريب، تأثير كبير في المشرق العربي بمجرد وجوده.

والذين جذبتهم شخصية أرسلان يكشفون النقاب من خلال مواقعهم العامة عن شيء من موقع الأمير وشخصه. وبين كثير من الصحفيين والسياسيين الذين ارتبط بهم على مر السنين، ثمة رجلان اثنان كانا صديقين شخصيين لأرسلان، فضلاً عن كونهما مساهمين رئيسيين في تشكيل أسطوره بوصفه مجاهداً. أحدهما رشيد رضا، الوجيه الأبرز الذي سبق لي أن أتيت على ذكره في هذا الكتاب. وعلى الرغم من أن أرسلان لم يلتق به إلا نادراً بعد العام (1921م)، فقد واظب على تبادل رسائل حميمة وعظيمة معه، وهو أكثر من أثار إعجابه بين معاصريه، وقال عنه: "كنت أُمْتُ إليه وكان يُمَّتْ إليَّ بأواصر روحية لا توجد بيني وبين شخص آخر من العرب"⁽⁴⁸⁾.



في مكتب الشورى، القاهرة، 1939. محمد علي الطاهر جالس خلف الطاولة

وأما صديق أرسلان الثاني الحميم ودائم التعاون معه فهو محمد علي الطاهر. كان الطاهر المولود في فلسطين في تسعينيات القرن التاسع عشر (توفي عام 1974م) صحفياً جديلاً متمكناً، وناشطاً سياسياً دؤوباً، عبر عن ازدرائه السياسات البريطانية حيال الشرق الأوسط في سلسلة صحف كانت تصدر في القاهرة ويرأس تحريرها⁽⁴⁹⁾. وكان الطاهر يعد نفسه "ابناً" لأرسلان، ويفرد للأمير دوماً الصفحة الأولى من الصحيفة التي يحررها ليتمكن من خلالها من التعبير عن آرائه. وخلافاً لبعض الذين تخلوا عن أرسلان بعد العام (1945م)، ظل الطاهر مخلصاً ووفياً له، وبذل قصارى جهده لمساعدة الرجل الذي سماه "ملكاً غير متوج"⁽⁵⁰⁾.

يوجد صحفي ثالث هو محب الدين الخطيب (1885م - 1969م)، ويمكن أن يعد حليفاً أيديولوجياً لأرسلان أكثر منه صديقاً حميماً. والخطيب من أصول سورية، شغل منصب سكرتير مؤتمر باريس العربي في العام (1913م)، وكان رئيس تحرير صحيفة الشريف حسين الرسمية، وهي صحيفة القبلة. وبعد الحرب، برز بوصفه مدافعاً قوياً عن الأصولية الإسلامية. وشغل منصب سكرتير اتحاد الشباب المسلمين في مصر، وتمازج مع الإخوان المسلمين، ونشر صحيفة أسبوعية اسمها الفتح، كانت تعبر عن آراء المناهضين للبربرية العلمانية في ذلك الزمن. كان أرسلان يسهم في نشر مقالات رئيسة تصدر الصفحة الأولى من تلك الصحيفة على نحو متكرر. ونشر الخطيب أيضاً مجلة أسبوعية اسمها مجلة الزهراء، كما أدار دار نشر اختار لها اسماً صريحاً عن توجهها وهو مؤسسة الصحافة السلفية، وأخرجت تلك الدار كتباً عديدة لأرسلان⁽⁵¹⁾.

وكان عدد من الأعلام الذين انجذبوا إلى أرسلان، مثل الطاهر والخطيب، مؤلفي كتيبات وكتاب مقالات وناشطين تنظيميين، ومدافعين عن النظام القديم، ومعارضين للتغيير العلماني، ومناهضين للهيمنة الأجنبية. واتسعت دائرة المعجبين به وامتدت عبر الأجيال. ومن خلال جهود أخيه عادل والناشط السوري شكري القوتلي، حظي كذلك باحترام ناشطين من جيل الشباب الأحداث عهداً والأكثر علمانية⁽⁵²⁾. ويرجع السبب الذي جعله مثلاً أعلى بالنسبة لهم، جزئياً، إلى كونه بعيداً عنهم. فكانت مقاومته انعكاساً لمقاومتهم، ونفيه رمزاً للعقاب الذي تعرضوا له جميعاً على أيدي أوروبا، وإرادته التي لا تقهر أملاً لكل منهم. والصحفيون، من خلال تغطياتهم لكل تحركاته تقريباً ونشرهم معين مقالاته الذي لم ينضب، كونوا سمعته واستداموها بين شريحة واسعة من الجماهير المثقفة المتنورة.

ومع نهايات عشرينيات القرن العشرين، كان أرسلان قد لاقى قبولاً بوصفه ناطقاً باسم قضية المشرق العربي. وأما نقطة ضعفه، كما أشار الشهبندر إبان الصراع الذي احتدم بينهما في سبيل الهيمنة على المؤتمر السوري الفلسطيني، فقد تمثلت بهشاشة موقفه حيال اتهامه بالتعاون مع جمال باشا السفاح. وحتى المندوب السامي الفرنسي دو

جوفينال في شهادته أمام هيئة الانتداب، حاول أن يطعن بمصادقية أحد الالتماسات التي تقدم بها أرسلان بملاحظته أن الحجج المتطرفة التي ساقها لا يمكن تفسيرها إلا في إطار حقيقة أن "الأمير أرسلان كان عميل جمال باشا في سوريا، وأنه كان في ذلك الوقت زعيماً للمتطوعين الدروز الذين خدموا جمال باشا⁽⁵³⁾". ومن الواضح أن هذه القضية لم تتلاش. فعلى الرغم من أن نشاط أرسلان الوطني في أوروبا أفاد في إعادة تأهيله في نظر معظم الناس، فإنه لم يفعل الشيء ذاته في نظر ألد خصومه السياسيين. وأكدت المهارات العدائية التي احتدمت بينهم وبينه أن نزاعات جديدة ستحل محل الخلافات القديمة.

أثار الاعتراف الذي حظي به أرسلان من الجماهير العربية انتباه سلطات الانتداب التي لطالما احتج على سياساتها. وكان القلق الأوروبي المتنامي من جراء تحركات أرسلان لافتاً للنظر في كثير من الأحيان، من حيث نطاقه وافتقاره للدقة وإثارته مخاوف لا مسوغ لها. وكان القنصلان الفرنسيان في كل من جنيف ولوزان يرسلان تقارير عن أنشطته، فيما أبقي مفوض خاص الطلاب العرب في سويسرا تحت المراقبة. كان أرسلان ضمن نطاق هذه المراقبة بوصفه، أولاً، محرضاً بين الطلاب، ومن ثم بوصفه خصماً كبيراً قيل إنه عاد إلى تركيا في العام (1926م) من أجل تنسيق شؤون المنظمات الموالية لسوريا جميعها في ذلك البلد⁽⁵⁴⁾. وبينما أعد المفوض الخاص تقريراً عن نشاط أرسلان في تركيا، كان دو جوفينال يعد تقريراً تقويمياً لأداء أرسلان ونشاطه في برلين، حيث، وفقاً لأفاد به المندوب السامي، كان يحاول تجنيد ضباط ألمان لقيادة العصابات المتمردة في سوريا⁽⁵⁵⁾. وورد في التقرير أنه بينما كان أرسلان في روما من أجل حضور اجتماعات لجنة الانتداب، أعدَّ الترتيبات الضرورية لتكليف عميل بشراء أسلحة ألمانية للحكومة التركية، ليصار بعد ذلك إلى إرسالها إلى متمردي سوريا الدروز من خلال اللجنة السورية في اسطنبول⁽⁵⁶⁾. واضطر التأثير التراكمي بهذه التقارير صناع القرار إلى الاعتقاد بأنهم يتعاملون مع متآمر قوي ومؤثر. وفيما كانت تتواصل نظريات الدسائس التآمرية هذه على مر السنين، فقد لعبت دوراً كبيراً في نسج الأسطورة التي ما

برحت تكبر حول أرسلان. وبالنسبة للسلطات الفرنسية الرسمية الحساسة التي كانت قد شهدت لتوها ثورتين في الأراضي العربية التي تحتلها، وتعرضت لحملة انتقادات دولية بسبب أسلوبها في التعامل معهما، كان أرسلان بوصفه "الشخص الذي شارك في حركات التمرد الموجهة ضدنا جميعها منذ العام (1920م)"، "يضر بنا على العصب الحساس"⁽⁵⁷⁾. وعندما ازداد استعارُ أوَار قضية فلسطين، حول موظفو وزارة الخارجية البريطانية كذلك انتباههم نحو الأمير، فربطوا بين أنشطته السابقة في تركيا وبين تخطيطه لتعزيز نفوذه في العالم العربي.

كان الدافع وراء كثير من الاهتمام الذي استقطبه أرسلان قد تغذى على العلاقات الحميمة التي كانت تربطه بألمانيا. فمنذ الأسابيع الأولى التي مهدت لحياته في المنفى في العام (1918م) وإلى ما قبل وفاته بوقت قصير، كانت برلين عاملاً مستقرًا وثابتًا في حياة أرسلان. وفي السنوات الصعبة التي أعقبت الحرب كانت العاصمة الألمانية تشعره بأنه محل ترحيب فيها دومًا. وكان مسؤولون ألمان يصلون به بأمور بسيطة تشعره أنه أثير عندهم. كما كان مستشرقون رواد يبدون إعجابهم به بوصفه علمًا أدبيًا مبدعًا⁽⁵⁸⁾. وهو، إلى ذلك، كان منخرطاً في منظمات عديدة تتخذ من برلين مقراً لها، وتهتم بخدمة المصالح الألمانية في الشرق الأوسط هذا، وفضلاً عن شغله منصب رئيس النادي الشرقي، كانت له اليد الطولى في تأسيس جمعية العبادة الإسلامية في العام (1924م)، وهي منظمة كانت ترمي إلى تأمين دور عبادة للمسلمين في ألمانيا.

وفي حقبة عشرينيات القرن العشرين، كان وضعه العام ما يزال وضع طرف متألم محزون يسعى جاهداً إلى العثور على ميزة أينما كان وجودها محتماً. وفي حفل شاي أقيم على شرفه في برلين، قال للضيوف: "نحن ليس في صدورنا غل خاص للفرنسيين ولا للإنكليز لو لم يحتلوا بلادنا، وما نحب الألمان إلا على شرط أن لا يأتوا ما أتاه أولئك من الطمع في ملكنا، فإنهم إذا طمعوا يوماً في استعمار بلادنا كانوا في نظرننا أعداء مثل غيرهم"⁽⁵⁹⁾. وبالنسبة للوقت الراهن، في الفترة التي أُلقيت فيها الكلمة، بدت العلاقة ذات نفع متبادل للطرفين وتحت سيطرة أرسلان، ولم تستمر دوماً على تلك الحال.

وبالإضافة إلى تعديل الولاءات السياسية التي أجبرت نهاية الإمبراطورية العثمانية أرسلان على إجرائها، كان مضطراً أيضاً إلى إعادة توجيه دفعة حياته الشخصية على نحو جعلها شديدة التطلب. وفي وسعنا الافتراض أن حياته قبل العام (1918م) كانت مريحة، وكانت إمكانية حصوله على أسباب الراحة مرتبطة بصورة طبيعية مع أحد أعضاء النخبة اللبنانية/ العثمانية السياسية والاجتماعية. وكان الاحتلال الفرنسي لبلاد الشام ونفيه منها يعينان أن دخل أرسلان من الشرق الأوسط تقلص بصورة جوهرية في زمن ازدادت فيه حاجته إلى الأموال النقدية. وكانت تلك نقلة قاسية بالنسبة لرجل اعتاد على توفر وسائل الراحة التي من الطبيعي أن تتاح لإنسان وجيه في قومه: "نحن هنا في ديار غربة، وجميع أشغالنا نقوم بها بأنفسنا، إذ ما معين ولا مساعد⁽⁶⁰⁾". وعلى الرغم من أنه عدل أسلوبه في العيش، فقد كان يعاني نقصاً مزمناً في الأموال. وإذا ما كان يراد لأنشطة الوفد السوري الفلسطيني أن تستمر، فإنه كان ينبغي لأرسلان أن يجد دخلاً كافياً. ولأنه كان ينجح أحياناً في تدبير الأمر والحصول على المال اللازم، فقد كان يؤدي ذلك إلى سوء الظن فيه، رجماً بالغيب، فيما يتعلق بموارد دعمه المالي، كما كان يؤدي إلى كيل اتهامات نفضي إلى أن ولاءاته السياسية تعكس توجهات رعاته وأولياء نعمته. وأصبحت شؤونه المالية جزءاً من مكونات شخصيته العامة، وعنصراً مهماً من عناصر هذه الدراسة. ومن سعيه المستمر للحصول على أموال، يحتمل أن يكون قد انجر إلى علاقات وارتباطات قائمة على أساس تسويات مثيرة للشبهة.

وبعد انتهاء الحرب بوقت قصير، المستشار المصري، الدكتور ميشيل بيضا، أقنعه بشراء مبنى صغير في برلين على سبيل الاستثمار⁽⁶¹⁾، وكان قرار شرائه بائساً؛ فقد أدى التضخم الرهيب الذي شهدته ألمانيا في السنوات التي أعقبت الحرب إلى تدني القيمة السوقية للمبنى، ونجم عن ذلك انخفاض دخل الإيجار السنوي له والبالغ 7000 مارك ألماني انخفاضاً شديداً؛ بسبب الضرائب والقيود التي فرضت على العملة التي لم يتلق منها أرسلان بالنتيجة إلا قدراً قليلاً جداً. وعلاوة على ذلك، أفضت ملكية المبنى إلى تشابك أرسلان في بعض العلاقات التي لم تكن ذات طبيعة مالية. وفي العام

(1925)، صدر أمر قضائي قضى بأن تعود حيازة الطابق الأول من المبنى إلى مالكة السابق ما لم يخضع إلى عمليات إصلاح محددة في موعد معين. نجح الدكتور بيضا في معالجة المسألة في غياب أرسلان، وتلقى "عونا كبراً" في هذا الشأن بفضل كتاب كان يحمله من البارون ريتشهوفن من وزارة الخارجية⁽⁶²⁾. وقد عبر أرسلان عن امتنانه للمساعدة التي تلقاها من ريتشهوفن، ورد البارون على ذلك بقوله: "إن الذي فعلته من أجلك، يا صاحب السعادة، لم يكن سوى واجبي، وأقل ما يمكنني فعله لصديق مرموق ومخلص مثلك من أصدقاء بلدي"⁽⁶³⁾. ولكن ما أبعد الأمور المالية عن أن تغدو مسائل سياسية.

وعندما ضرب الكساد أوروبا وازدادت ديون أرسلان، اضطر إلى بيع أرض في منطقة الشوف من أجل تسديد الأقساط المستحقة لجهة الرهن العقاري على المبنى الصغير الذي اشتراه في برلين. كانت رسائله إلى رشيد رضا مليئة بتفاصيل عن الضائقة الاقتصادية التي يعانيها، وتكشف النقاب عن رجل يعيش حالة فوضى مالية ناجمة عن مزيج من سوء الطالع وسوء الإدارة. وأضحت المديونية سمة قائمة ودائمة من سمات حياة أرسلان، وسببت له كثيراً من القلق.

ولكي يمول رحلاته واسعة النطاق وينفذ واجباته كاملة في عصبة الأمم، كانت أوضاع أرسلان تتطلب من المال ما يفوق رغبته في الاقتراض. وتلقى أرسلان مساعدات مالية أمر معروف، أما القول إنه كان يمكن أن يشتري فهو أمر مشكوك فيه. وإلى أن دب خلاف بينه وبين ميشيل في أواخر عشرينيات القرن العشرين، كان الوفد السوري الفلسطيني يمول من قبل أسرة لطف الله⁽⁶⁴⁾. وذلك فضلاً عن تلقي أرسلان معونة مالية شخصية مباشرة من أحد معارفه من حقبة ما قبل الحرب وهو عباس حلمي، خديوي مصر السابق⁽⁶⁵⁾.

بدأت العلاقة بينهما في العام (1911م)، وتجددت في العام (1922م) في لوزان حين أعلن عباس بصراحة وعلى الملأ أنه يرغب في مد يد العون لأرسلان؛ لتمكينه من تحمل

أعباء نفقات نشاطاته في أوروبا، عبر تزويده بمعونة مالية مقدارها 30 جنيهاً شهرياً. وعندما تأكد إرسال من أن هذه المعونة لا ترمي إلى ربطه بمواقف أي جهة سياسية خاصة، وافق على قبولها. وتبين أن هذا التدبير كان موطئاً لإثارة حرج لاحق. فعندما بدا أن الحكومة الفرنسية، عندما كان هنري بونسو مندوباً سامياً في سوريا (1926م-1933م)، على استعداد لأن تأخذ في الحسبان إقامة مملكة سورية بوصف ذلك وسيلة لتشكيل حكومة فاعلة في هذا البلد الذي كان تحت الانتداب، أمارط عباس حلمي اللثام عن طموحاته في اعتلاء عرش المملكة السورية، إلا أنه أصيب بخيبة أمل عندما أعلن إرسال أن الوفد السوري الفلسطيني معني فقط بتحقيق الاستقلال السوري، ولن يبذل أي جهد دعماً للخديوي السابق لكي يغدو ملكاً⁽⁶⁶⁾. كما نشبت مجموعة من الخلافات الإضافية بين ولي النعمة وبين المنعم عليه صاحب الفكر المستقل إلى أن توقفت المعونة المالية في العام (1931م).

وتضرر إرسال كثيرأ بسبب هذه العلاقة. ولم يقتصر الأمر على اتهامه بأنه باع سوريا مقابل ثلاثين جنيهاً شهرياً، بل تعداه إلى حد النظر إليه بوصفه متآمراً يسعى إلى عودة عباس إلى اعتلاء عرش مصر؛ الأمر الذي جعل الملك فؤاد ومن بعده الملك فاروق ينظران إليه بوصفه محل شك كبير. وحاجة إرسال إلى الأموال دفعته إلى إقامة علاقات كان يدرك أنه يتعين عليه تجنبها. وصار مزيد من الإنكار العام والتنصل من المسؤولية ضرورياً. فبعد قطع المعونة المالية، أرسل إلى رضا بعض الوثائق التي أمل منها أن تثبت أن "العلاقة ليست كما يظنون بيني وبين ذلك الرجل [عباس]. وأنه هو الذي بغاها وأصرّ عليها، وكان له فيها مآرب أخرى... وأنا برغم العسرة مغتبط بانقطاع علاقتي مع هذا الرجل؛ لأن علاقتي به أضرت بي وأتعبتني"⁽⁶⁷⁾. وأكد موقف إرسال الفريد في نوعه والغريب الأطوار أيضاً أن هذه العلاقة لم تكن الأخيرة التي سببت له متاعب.

وأسهم آخرون في أنشطة الوفد السوري الفلسطيني، وفي الحفاظ على الناطق الرئيس باسمه. ويحتمل أن يكون الملك فيصل قد قدم مساعدات من حين إلى آخر. وابن سعود، الزعيم العربي الذي كان إرسال شديد الإعجاب به، وعلى الرغم من أنه

كان أبعد ما يكون حينها عن العاهل الغني بالنفط (وصار غنياً به في السنوات اللاحقة)، قدم إلى الأمير مساعدة مالية قدر استطاعته⁽⁶⁸⁾. كما قدم له هدية أعلى من المال. فإحدى المعضلات الأخرى التي تسبب بها الانهيار العثماني للرجال الذين هم في مثل حالة أرسلان هي مواجهتهم لمسألة المواطنة. وكان من المفترض أن تحمل من خلال معاهدة لوزان (1923م)، حيث نصت بنود تلك المعاهدة على منح رعايا السلطان السابقين مدة سنتين يمكنهم أن يختاروا خلالها إما أن يصبحوا مواطنين في تركيا، أو في إحدى الدول العربية الجديدة؛ فاختار أرسلان أن يحتفظ بجواز سفره العثماني متجاوزاً الموعد النهائي المضروب للاختيار بأشهر عديدة. وعندما حاول الحصول على المواطنة اللبنانية من قبل القنصل الفرنسي في لوزان (وهي تجربة مزعجة بحد ذاتها)، قيل له إن الموعد النهائي المضروب للاختيار قد انتهى - وكان رجلاً من دون مواطنة (بطاقة جنسية)، ونتيجة لذلك لم يكن يحق له الحصول على وثائق سفر⁽⁶⁹⁾. ولكن كانت مملكة ابن سعود في الحجاز تتوفر على مَوَاطَنَ، ولها الحق في منحها. وهكذا كان، فقبلها أرسلان وكذا فعلت أسرته، وعكف بعد ذلك على السفر بجوار سفر عربي طوال حياته الباقية⁽⁷⁰⁾.

وأصبح الدرزي المساند للعثمانيين والمتحدر من منطقة الشوف مواطناً حجازياً، وناطقاً رسمياً معترفاً به باسم القضية السورية الفلسطينية في عصبة الأمم. ياله من عالم انقلب رأساً على عقب! والملاحظة التي أبداهها توما عنه، وقال فيها: "بدلاً من الموت في سبيل قضية معينة، قرر أرسلان أن يحيا مع قضية أخرى"، ما هي إلا ملاحظة سطحية جداً وتنم عن سخرية، ومن الصعب الإقرار بها⁽⁷¹⁾. فأرسلان يتوفر، من غير ريب، على غريزة تمكّنه من البقاء والتعايش سياسياً، وله أذن تستعذب هتافات الجماهير وتهليلها له. ولكن كانت لديه نقطة قوة تتمثل في شعوره بأنه صاحب قضية ومهمة مضي فيها بعيداً متجاوزاً أنواع التسويات المرتبطة بمجرد البقاء في قيد الحياة. وكانت السنوات التي أعقبت الحرب في غاية الصعوبة بالنسبة لأرسلان. وإن كان غروره قد اقتاده إلى السعي إلى الحصول على الشهرة والأضواء ضمناً لاعتلائه مكانة رفيعة يستحقها، فقد كان يعاني أيضاً من أجل تكوين سمعة لنفسه ليصار إلى الحكم عليه من

خلالها، تبعاً لرغبته، ولكي يتمكن من خدمة القضية التي يعتقد أنها قضية حق. ونجح في منتصف عشرينيات القرن العشرين من تأسيس موقع حقق له نفوذاً، ومكنه من استعادة جمهوره العربي ومن توسيع قاعدته. وصار لزاماً عليه بعد ذلك أن يمكن ذاك الجمهور من الحصول على الوسائل التي يمكن للعالم العربي الإسلامي اعتماداً عليها أن يحدد هويته، وأن يفرض احترام كرامته في عالم حرم من سيادته السياسية ومن سلطته التي كانت تتأتى من الخلافة.

الفصل الرابع

المدافع عن القومية الإسلامية: المشرق العربي

إنها وصمة عار يندى لها جبين المسلمين الذين تركوا خليفتهم السابق يهيم على وجهه في البلاد الأجنبية مغلوباً على أمره وعاجزاً عن إيجاد موطئ قدم في أرض إسلامية.

أرسلان⁽¹⁾

مع إخفاق الثورة السورية في المشرق العربي، وإلقاء القبض على عبد الكريم الخطابي في المغرب، أحكمت الإمبريالية الأوروبية قبضتها على العالم الناطق بالعربية. والزعماء العرب الذين عقدوا آمالاً على قلب المعادلة عبر تسوية تتحقق في أعقاب الحرب مباشرة عدلوا توقعاتهم، واستعدوا للتعايش المضطرب مع المحتلين الأوروبيين. وعلى الرغم من أن النخبة السورية بدأت في تأسيس منظمات سياسية، فقد ظلت منقسمة على نفسها، وكانت الممارسات الإدارية الفرنسية تشجع الشقاق الحزبي. ولم تتخذ أي خطوات مهمة لجهة تحقيق الاستقلال حتى العام (1936م). وفي فلسطين، أصبحت تعقيدات التزام الانتداب المستحيل الرامي إلى تشجيع إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي، مع عدم الإضرار بحقوق العرب الفلسطينيين واضحة. والسم المتسرب من تلك المأساة سمم العلاقات بين العرب وبريطانيا كما سمم العلاقات بين الفلسطينيين والصهاينة. وفي

الأراضي العربية الأخرى الخاضعة لهيمنتها، كانت بريطانيا قادرة على تبني سياسة أكثر إيجابية، وعلى منح كل من مصر في العامين (1922م - 1936م) والعراق في العام (1932م) استقلالاً اسمياً. ولكن كانت السيادة الناجمة عن هذا الاستقلال مقيدة جداً بموجب معاهدات كبلت أيدي الدولتين عبر ربطهما ببريطانيا وضمان تأمين الاحتياجات الإمبريالية البريطانية.

وبينما كان يعاين حطام النظام العثماني من جنيف، شعر أرسلان بآس مرير: ما كنت في حياتي أشد استيحاشاً من الدنيا، وتبرماً بتكور الليل على النهار وتكور النهار على الليل مما أنا فيه هذه الأيام الأخيرة. قد يشعر الإنسان بحالات نفسية لا يعلم لها أسباباً، ويتألم من مواجيد في قلبه لا يدرك لها مصدراً... وكيف لا تراكم الهموم وتتجمع الكرائه ونحن كل يوم أمام مظلمة تنور لها كل نفس أبية، وعرضة لخسف لا يرضى به إلا الأذلان غير الحي والوتد. ننظر إلى سورية فنجد فرنسة متشبثة بتحويلها إلى مستعمرة، ومؤلمة أن تتلاشى حرارتها الوطنية في برد المخابرات والمراوغات. وننظر إلى العراق فنجد في المقيم المقعد مع إنكلترة التي لا تريد أن تعطيه من الاستقلال إلا أسماء وألفاظاً. ونطلع إلى فلسطين فنجد الإنكليز يحاولون أن يصبوا عليها اليهود صباً، وأن يفرغوا العرب الذي فيها في قالب يهودي شاءوا أم أبوا... ونتأمل في مصر فنجد الإنكليز لا يرضون أن يعطوها هذا الاستقلال المقيد الأعرج المشوه إلا إذا قدمت لهم السودان غنيمة باردة⁽²⁾.

وكانت هذه الظروف والأحوال تقتضي الإنصاف، كما كان أرسلان عازماً على التأثير فيها. ولم يفسر مهمته بوصفها مقتصرة على القضية السورية الفلسطينية، ولم يقبل الظروف التي جعلته منفياً. وكان ينتج عن تصديه لليأس الذي يراوده أحياناً صلابة في الموقف تعزز تفويضه وتعيينه على مواصلة احتجاجه: "كلما عاتبهم الإنسان على خيانة اعتذروا بعدم إمكان المقاومة، أو باتقاء ظلم الأجنبي، أو بارتكاب أخف الضررين، وجميع أعذارهم لا تتكئ على شيء من الحق. ولقد كانوا قادرين أن يخدموا ملتهم بسيوفهم، فإن لم يستطيعوا فبأفلامهم، فإن لم يستطيعوا فبالستهم، فإن لم يستطيعوا

فبقلوبهم⁽³⁾“. وكان أرسلان نفسه ملتزماً بالنصح الذي يسديه للآخرين. ودفع به اتساع نطاق نضاله ضد الإمبريالية وشدته إلى اعتلاء مكانة أسمى من أي وقت مضى، وعززا سمعته بوصفه ناشطاً مثالياً، وجعلاً من مقر إقامته في جنيف، حسب تعبير جوليان الذي لا ينسى: ”الحبل السري للعالم الإسلامي⁽⁴⁾“.

وتركزت جهود أرسلان التي كرست لتوجيه دفعة المقاومة العربية في حقبة ما بين الحربين، وتحديدًا، بعد العام (1925 م) على الأنشطة الأربعة الرئيسة الآتية: إبقاء القضية السورية الفلسطينية حية في أروقة عصبة الأمم، وتعبئة عرب شمال أفريقيا ضمن بوتقة النضال الإسلامي المشترك المناهض للإمبريالية، والتصرف بوصفه مصلحاً دينياً عبر التعليق على أحداث المشهد الإسلامي المعاصر، والتفاوض من أجل التحالف مع دول عظمى تساند مواقف العرب المناهضة لكل من بريطانيا وفرنسا. وانخرط أرسلان في هذه المهام جميعها على نحو متزامن، مخلفاً بذلك انطباعاتاً هائلة، لكنه مشوش. وعَدَّ بعض المعنيين بالأمر مجاهدًا ضحى بنفسه مبدئياً سجايا شخصية رائعة تشي بشجاعته وثباته وجلده، وحيوية فكرية. ورأى فيه آخرون محرصاً مثيراً للاضطرابات يحشر أنفه فيما لا يعنيه، وعميلاً سياسياً مأجوراً، ومتآمراً طموحاً فاسداً. لقد كان ينطوي على شيء من كل شيء مما ذكر، فهو صورة مركبة تتكشف عن رجل ذي شخصية مركبة، وكان يعمل في ظروف معقدة. وتشف شخصيته كذلك عن إنسان فذ ذي شخصية مميزة انبغى له نفوذ واسع متراكم منه ما هو حقيقي ومنه ما هو متصور. وفي معرض اكتسابه سمعته بالتزامن مع ممارسته نفوذه، أصبح أرسلان شخصية بارزة مهيمنة في سنوات ما بين الحربين.

وسوف يفحص ما تبقى من هذه الدراسة أداء أرسلان المتصل بهذه الأدوار الأربعة. وأما هذا الفصل من الكتاب فهو مكرس لبحث دوره في متابعة القضايا المتصلة، في المقام الأول، بالمشرق العربي إبان العقد الذي يستهله العام (1927 م). ويبدأ بمناقشة الوسائل التي بنيت بواسطتها أسطورة أرسلان.

وفقاً لما أشير إليه في الفصل السابق من هذا الكتاب، أوجد وضع أرسلان بوصفه منفياً في أوروبا الظروف المؤاتية لانخراطه في القضية العربية. فقد اكتسب، من ناحية، ميزة، ببساطة، بسبب كونه في المكان المناسب في الوقت المناسب. وإلى ذلك، أدى استمرار فرض حظر على وجوده في الأراضي التي تهيمن عليها كل من بريطانيا وفرنسا إلى استبعاده من المشاركة المباشرة في السياسة الداخلية، ولكن أدى في الوقت نفسه إلى تمكينه من أن يغدو مقبولاً بوصفه متحدثاً عالمياً. وكانت هذه ميزة تتبدد ولا يستفاد منها أحياناً بسبب أسلوبه السياسي المشاكس والمناور. ولكنه أفاد، على أي حال، من موقعه في أوروبا في تطوير مجموعة من الاهتمامات الاستثنائية والارتقاء بها. وكان يوجد بعض المؤهوبين المعاصرين له قد كرسوا أنفسهم في معظم الحالات لخدمة مناطق محددة - سعد زغلول في مصر، ورياض الصلح في لبنان، وعلال الفاسي في المغرب - ذلك لأنه لم يكن لديهم ميل إلى الوصول إلى جمهور أوسع، ولم تسنح لهم فرص لفعل ذلك. ومن ناحية أخرى، أعار أرسلان اسمه وهيبته وحضوره الفعلي إلى مجموعة واسعة من الحركات السياسية والثقافية من المغرب إلى المملكة العربية السعودية، ومن البوسنة إلى فلسطين. وتعبير آخر جاء على لسان أحد معاصريه: "عاش الأمير شكيب حياته مجاهداً في سبيل الحرية والاستقلال، حرية العرب في كل قطر، واستقلال المسلمين في كل بلد، ولهذا لم يكن جهاده محصوراً في دائرة وطنه وبلده، بل سما به إلى أن يكون جهاداً واسع النطاق، يدفع عن كل مظلوم ويرد كل عدوان وينصر كل ضعيف⁽⁵⁾". وتبقى اللغة الخطابية المبالغ فيها إطرأً ومديحاً تخلب ألباب ما يعنيه شخص مميز بعينه بالنسبة للمرتبطين به.

وتمثلت مهمة أرسلان في حقبة ما بين الحربين في تدويل القضايا التي كانت تعانيها البلاد العربية الإسلامية الراححة تحت نير الهيمنة الأوروبية، وحشد الرأي العام العربي الإسلامي تأييداً لفكرة تقيده بأنه فقط من خلال التعاون المتبادل القائم على أساس الروابط الإسلامية المشتركة يمكن لهذه البلاد أن تنال استقلالها، وأن تستعيد نظامها الاجتماعي السليم. وكان وسطه الحيوي الرئيس الصحافة الدورية (الدوريات). وكما كان جزءاً من المجال الجديد للصحافة العربية قبل غروب شمس القرن التاسع عشر،

كذلك أصبح جزءاً- في حقبة ما بين الحربين- من عملية جديدة أخرى شهدت ظهور كُتّاب الكراريس وناشرها عن مواضيع تتصل بالمستعمر الإمبريالي في القارة الأوروبية. وكانت مقالاته العربية التي تتراوح عدداً بين ثمانين ومئة سنوياً في ثلاثينيات القرن العشرين غالباً ما يعاد نشرها في مطبوعات مختلفة عديدة؛ الأمر الذي أظهره بوصفه كاتب عمود صحفي تنشر مقالاته في مطبوعات متعددة في وقت واحد⁽⁶⁾.

وإبان حقبة ثلاثينيات القرن العشرين، استحوذ أرسلان أيضاً على جمهور فرنكوفوني من خلال مجلة الأمة العربية، التي يحتمل أنها كانت أقرب المطبوعات إلى قلبه وأرسخها في ذهنه. ومنذ انطلاقتها في العام (1930 م) حين كانت تطبع مرة واحدة شهرياً، أعلنت أنها لسان حال الوفد السوري الفلسطيني، وكان يشرف على تحريرها كل من أرسلان وإحسان الجابري معاً. وكانا هما المساهمين الرئيسيين فيها، وغالباً ما كانا الوحيدين في هذا المضمار. وكان الهدف من المجلة "إطلاع العالم الغربي على مطالب الأمة التي سبق لها أن نشرت نورها الحضاري عبر ظلمات العصور الوسطى، وعلى أنقاض العالم اليوناني الروماني، وأدت بذلك دوراً رائداً بوصفها إحدى القوى التي أسهمت في تشكيل العالم الحديث"⁽⁷⁾.

وكانت المجلة تطبع في أنيباس، فرنسا، واستمر إصدارها حتى وقت متأخر من العام (1938 م)، وكانت مشروعاً طموحاً واستنزفت مزيداً من أموال أرسلان الشخصية. وعلى الرغم من احتمال أن يكون قد استعمل بعض الأموال الألمانية والإيطالية لتمكين المجلة من الاستمرار في الوقوف على قدميها، يبدو أنه حاول إنتاجها بالكامل اعتماداً على عائدات الاكتتاب فيها، وعلى الإسهامات العربية وعلى دخله الخاص. وأدى ذلك إلى إعاقة سير المشروع بشدة، واضطر أرسلان خلال عام من إصدار المجلة إلى الاعتذار مرات عديدة إلى المشتركين بسبب التأخر في إصدار أعدادها. وفي العام (1936 م)، عندما كانت الأموال الإيطالية تمر بالتأكيد عبر يدي أرسلان، تقلص فعلياً عدد الأعداد السنوية لمجلة الأمة العربية، وباتت تصدر مرة واحدة كل ثلاثة أشهر وبصورة غير منتظمة. وعلى الرغم من أن المجلة كانت تدافع عن السياسة الإيطالية، فقد كان أرسلان

مصمماً على إبقائها مستقلة وفي منأى عن التمويل الإيطالي. وبلغ مجموع الأعداد التي طبعت منها ثمانية وثلاثين عدداً.

أصبحت مجلة الأمة العربية، في واقع الحال، الناطق الرسمي الشخصي باسم أرسلان، وهيمن على صفحاتها فأضفى عليها نغمة جدل مناهض للإمبريالية، ولغة خطابية إسلامية مسيية. وإلى ذلك، استغل أرسلان هذه المطبوعة للتنديد بخصومه، أوروبيين وعرباً على حد سواء، وللدفاع عن نفسه في مواجهة الاتهامات الكثيرة التي وجهت إليه. وفي جعله المجلة متداه الخاص، نجح في الربط بين اهتماماته وبواعث قلقه وبين قضايا عصره الكبرى، مانحاً بذلك مجلة الأمة العربية قدرة على التأثير تتجاوز واقع إصدارها غير المنتظم وتداولها المحدود. وبعد مرور أقل من سنة على نشر العدد الأول منها، أمكن لأرسلان أن يزعم أن "مجلتنا الدورية، الأمة العربية، باتت تقرأ الآن في كل مكان باهتمام متزايد، وتعد الناطق الرسمي باسم العرب. ويوجد عدد كبير من المشتركين في المجلة في الأوساط السياسية الباريسية، وتحظى باهتمام بالغ⁽⁸⁾". وحظيت المجلة أيضاً باهتمام في لندن حيث أقرت وزارة الخارجية فيها بأنها "تلقاها بصورة منتظمة"⁽⁹⁾. وكما هو مبين في الفصل الخامس من هذا الكتاب، عندما أصبح الإصدار المنقح الصحيح متاحاً، تمكن أرسلان من جعل المجلة قوة تعبئة قوية.

كان أرسلان أكثر من إنسان مولع بالجدل. فقد عمد إلى استكمال قدراته الصحفية بكم هائل من الكتب التي تراوحت من حيث موضوعاتها من كتب السيرة إلى الشعر، فالتعليق الديني والسرد التاريخي. وعاد عليه هذا الجهد الأدبي بدخل متواضع، لكنه منحه شهرة واسعة.

كما كان أرسلان يتوفر على أسلوب آخر من أساليب تعزيز النفوذ وهو ذاك الذي تمثل بارتباطه شخصياً، من فوره، بمؤتمر هنا جدير بالاهتمام أو بحركة استقلال وليدة هناك. وكان مسافراً لا يبالي بالتعب ولا يكل ولا يمل. وعززت في أحيان كثيرة الرحلات الشاقة التي قام بها إلى أنحاء متفرقة من العالم صورته بوصفه مجاهداً لا يقهر. فعلى

سبيل المثال، أمضى في العام (1927م)، أربعة أشهر في الولايات المتحدة الأمريكية، وحضر مؤتمرًا في موسكو. وخلال ستة أشهر من العام (1934م)، جال في دول البلقان وصولاً إلى بودابست، وتوسط لفض نزاع في اليمن، والتقى مرتين بموسوليني في روما، وتناول طعام الغداء مع المندوب السامي البريطاني في القدس. وكان مثل الأفغاني، وفي آخر أيامه، يجوب العالم الإسلامي وأوروبا فيستقطب مريدين مستجدين، ويحذر وينبه بعض الحكام العرب إلى الخطر، وينتزع تعابير القلق من المسؤولين البريطانيين والفرنسيين الذين يقتفون أثر تجواله. ويبدو أن ابنته أخبرتني ذات مرة أنه حينما يوجد مسلم واحد يذهب لإسداء النصيحة ومن أجل التشجيع.

إلى الحد الذي كانت فيه هذه الرحلات تحدد هدف إرساله وتقوي نفوذه، فهي تستحق أن تؤخذ في الحسبان. وكانت إحدى أهم الرحلات التي قام بها تلك التي يمم فيها شطر المسجد الحرام بمكة المكرمة لأداء مناسك الحج في العام (1929م)، وكانت مشروعاً تضمن أهدافاً تعدت أداء مناسك الحج، وأدت إلى بلورة آراء الأمير في قضايا الجامعة الإسلامية والقيادة العربية.

وفي الشطر الثاني من العقد الثالث من القرن العشرين، تركز انتباه أولئك العرب، الذين سعوا إلى تغيير النظام الإمبراطوري المفروض، على البحث عن قيادة بين الحكام المتنافسين الذين نصبوا حكاماً وملوكاً في أعقاب تقطيع أوصال النظام العثماني. وبالنسبة لأولئك الذين اقترحوا تشكيل تنظيم اجتماعي من منطلق إسلامي بالضرورة، كانت مسألة السلطة السياسية مرتبطة أيضاً بمصير الخلافة الروحية، وهي المؤسسة التي كان أتاتورك قد ألغاه في شهر مارس/ آذار من العام (1924م).

ومع تقسيم سوريا وتشيت نخبها السياسية، بدا أنه من المرجح أن تؤول الهيمنة على السياسات الروحية والزمنية في الجزء المركزي من البلاد العربية إلى الهاشميين المدعومين من قبل سادتهم البريطانيين المهيمنين عليهم. فقد اعترف البريطانيون بالشريف حسين ملكاً على الحجاز، وتجراً على إعلان نفسه خليفة (للمسلمين) بعد يومين فقط من إلغاء

أتاتورك للخلافة. وأصبح عبد الله وهو ابن الشريف حسين أميراً، ثم ملكاً لاحقاً، على شرقي الأردن، كما توج فيصل، وهو ابن آخر من أبناء الشريف حسين، ملكاً على العراق في العام (1921م). وكان هذا التعظيم المبالغ فيه لأسرة تحولت إلى سلالة حاكمة ومالكة منذراً بالخطر بالنسبة للملك فؤاد ملك مصر، الذي كان له طموحاته الإقليمية الخاصة وأطماعه الشخصية في اعتلاء سدة الخلافة⁽¹⁰⁾.

وفي الوقت الذي كان أرسلان يستعد فيه لأداء مناسك الحج، أضيف متنافس ثالث إلى حلبة الصراع على القيادة. ففي قصة ملحمة، ارتقى عبد العزيز بن سعود من مجرد شيخ متواضع ضئيل الأهمية في العام (1910م)، إلى أن حظي باعتراف رسمي من قبل كل من بريطانيا، وفرنسا، والاتحاد السوفياتي بوصفه "ملكاً على الحجاز وسلطاناً على نجد والأقاليم التابعة لها" في العام (1926م). وأما بالنسبة للمسلمين في كل مكان فقد كان معترفاً به بوصفه حامي المدينتين المقدستين مكة والمدينة، والقيم على الحج⁽¹¹⁾. وبمجرد تحقيق ابن سعود هذا النصر، كثف المنافسات المحتمدة بين الأسر العربية الحاكمة. وقد أدت الهزيمة التي ألحقها ابن سعود بالشريف حسين، واحتلاله مكة في العام (1926م)، إلى تحويل خليفة المسلمين وملك الحجاز السابق إلى مجرد شخص منسي ومنفي في قبرص، وجعلت ابن سعود أيضاً هدفاً "لثأر هاشمي"، وورطته في سلسلة متواصلة من الاشتباكات مع أبناء الشريف حسين على طول الحدود الشمالية المهلهلة⁽¹²⁾. وعلاوة على ذلك، بما أن الملك فؤاد أصبح نزاعاً إلى الشك في وجود منافس يدعي أحقيته بتولي زمام القيادة الإسلامية، سحبت مصر دعمها من الأمير الجديد، ورفضت منح دولته اعترافاً دبلوماسياً، وبقيت الأوضاع على هذه الحال إلى ما بعد وفاة الملك فؤاد في العام (1936م).

طفا على السطح التنافس المحموم بين عبد العزيز آل سعود، والملك فؤاد، والهاشميين. وكان، في المقام الأول، صراعاً على الحدود، ومن أجل الحفاظ على امتيازات السلالات الحاكمة، وعلى أمور دينوية أخرى. وحدث كل هذا في وقت كانت الجماهير العربية فيه منخرطة فيه في جدال دائر حول استعادة الخلافة. كان بعض المعنيين بالأمر يعتقدون

أنه سيكون لنتاج التنافس العلماني تأثير في مسألة القيادة الروحية. وراهن الجمهور على نطاق واسع على قضية إذا ما كانت المبادئ السياسية الإسلامية قادرة على إنتاج حل مُجدٍ وفاعل للأزمات الخطيرة التي تواجه المسلمين بأسرهم، وجعل رهانه هذا على المحك. وانطلاقاً من خلفيات أضيق نطاقاً وأقل تصوراً، رأى رجال طامحون مناصب وظيفية وهيبة هائلة متاحة فلهثوا وراءها تسولاً، وناورو أُملاً في الحصول على المناصب. وعقب تنازل الشريف حسين عن العرش، نظم مؤيدو الملك فواد مؤتمراً بشأن قضية الخلافة انعقد في القاهرة في العام (1926م)، ولم يكن العاهل المصري مرتاحاً للنتائج التي تمخضت عن انعقاد المؤتمر. ونظراً لعدم تمكن الوفود التي شاركت في المؤتمر من التوافق على مرشح محدد لاعتلاء سدة الخلافة، اكتفى المؤتمرون بالتأكيد على ضرورة وجود خليفة لاحقاً، وعلى إبقاء كرسي الخلافة شاغراً حتى وقت لاحق⁽¹³⁾.

وحتى لا يتعرض إلى هزيمة من قبل منافسه المصري، دعا عبد العزيز آل سعود إلى عقد اجتماع دولي في العام (1926م)، وأطلق على الاجتماع اسم مؤتمر العالم الإسلامي، وجمع هذا الغرض في مكة المكرمة وفوداً رسمية ممثلة لحكومات إسلامية عديدة من أجل مناقشة قضاياهم المسلمين كافة⁽¹⁴⁾. وعلى الرغم من أن الحلول التي تمخضت عن مؤتمر مكة بشأن قضية الخلافة كانت مماثلة لتلك التي نجمت عن مؤتمر القاهرة، فقد انطوى المؤتمر على نوايا أشد طموحاً في أن يغدو هيئة دائمة، واختارت الوفود المشاركة فيه لجنة دائمة من المندوبين. وعبر منح إرسال الذي تغيب عنه مرتبة مرموقة في اللجنة، لم يكتفِ المؤتمر بتأكيد مكانته بين المسلمين، بل أضفى عليها الشرعية أيضاً⁽¹⁵⁾. فإن كان بحاجة إلى التشجيع لتعزيز آرائه، فقد حصل عليه الآن.

فورة النشاط التي أعقبت إلغاء الخلافة تكشف النقاب عن مدى مركزية مشكلة الخلافة بالنسبة إلى المسلمين في ذلك العصر، فقد جرى تسييس القضية بكل ما في الكلمة من معنى. وبالنسبة لرجال مثل شكيب أرسلان ورشيد رضا، كان مستقبل المجتمع على المحك. وبناء على ذلك، لم يكن وارداً أن يلوذا بالصمت. ورضا الذي ثارت ثائثرته وصولاً بها إلى "ذروة السخط" نتيجة لادعاء الشريف حسين أحقيته بتولي

زمام الخلافة، شعر أن استمرار قيام الخلافة ليس واجباً فحسب، بل ينبغي أيضاً أن يتبوأ هذه المرتبة من تتوفر فيه كل المؤهلات التي أوجب توفرها في شخص الخليفة صفوة الفقهاء⁽¹⁶⁾. ولكن رضا رفض أن يسمى خليفة قبل أن يصار إلى اختيار رجل يتمتع بالمؤهلات المذكورة، وإلى تدريبه، ويكون بذلك "خليفة توافقياً". وكان اختيار رضا المفضل لهذا المنصب الإمام يحيى إمام اليمن⁽¹⁷⁾.

وشارك أرسلان صديقه آراءه إلى حد معين. وخلال عقد عشرينيات القرن العشرين، لم يكن مستعداً لمجرد تصور أن وجود عالم لا خليفة فيه أمر ممكن بالنسبة للذين يسمون أنفسهم مسلمين. ثم عدل موقفه لاحقاً، وخلص إلى الاعتقاد في أن ملكين أو ثلاثة ملوك لبلاد إسلامية ذات سيادة يمكن أن يؤدوا الغرض الذي كان يؤديه الخليفة. وكان هذا الارتباط بالحكم الإسلامي، الذي يفضل أن يكون على هيئة ملكية دستورية، عنصراً رئيساً من عناصر فكر أرسلان السياسي. كما كان استمرار التزامه بالخلفاء السلاطين العثمانيين وبالنظام الاجتماعي الإسلامي موقفاً لم يتردد مطلقاً في الالتزام به، وكان يدعو الناس إلى اتباعه بلا هوادة.

وفي أعقاب إلغاء الخلافة في تركيا مباشرة، تقبل أرسلان، شأنه شأن رضا، فكرة وجوب استعادة وضع الخلافة، وضرورة امتلاك الخليفة للسلطتين المادية والروحية في آن معاً. وفي الوقت نفسه، خالف رضا القائل إنه يتعين على الخليفة الذي سيستعيد منصب الخلافة أن يلبي كل الشروط المطلوبة التي كان قد وضعها صفوة الفقهاء. وكان أرسلان يرى أن هذه العملية غير مجدية؛ لأنه "لا يوجد في كل الإسلام رجل توفرت فيه شروط الخلافة، إذا راعينا الشرع كما يجب"⁽¹⁸⁾. وكان أرسلان مستعداً للقبول بحل وسط بالنسبة للمؤهلات التي تحتم أن يكون الخليفة قرشي النسب، وحافظاً للقرآن عن ظهر قلب مقابل توفر مؤهل جوهرى وأساسى -السلطة.

وقد راود أرسلان شعور لبعض الوقت يفضي إلى أنه إذا ما زود الخليفة العثماني المخلوع عبد المجيد بمقاطعة، في البصرة، ريباً، أو في اليمن، ثم يحاط بها يكفي من

مقومات السلطة المميزة من أجل استمراره في الحكم، فهذا يفني بالغرض. ولكن سرعان ما تخلى أرسلان عن تلك الفكرة، وحول دعمه إلى عاهل سلطانه ملموس أكثر: "فأليق كرسي بالخلافة هو كرسي مصر بدون نزاع"⁽¹⁹⁾. ولم يكن اهتمامه برجل قرشي النسب، ولا برجل حافظ لكتاب الله هو ما حدا بأرسلان إلى دعم حفيد مغامر ألباني تلقى علومه في إيطاليا. فالإسلام يقتضي توفر مركز للسلطة، وقدرة على الحزم، ووحدها مصر تستطيع توفير هذين المطلبين. ولسوف تغدو هذه المقدرة واضحة جلية تماماً عندما تحصل على استقلال غير مشروط، وتشرع في بناء جيش يتوافق مع حجم سكانها. وعندما يرى المسلمون هذه الدولة لديها قوة عسكرية معبأة قوامها مليون وخمس مئة ألف عسكري، وأسطول يضارع أسطول دولة أوروبية من الدرجة الثانية، عندها سيتهافتون "حتى التتر والترك منهم على مبايعة ملك مصر"⁽²⁰⁾. ولم يكن أرسلان صديقاً خاصاً من أصدقاء ورثة عباس حلمي، لكنه أدرك أن مصر تتوفر على أفضل فرصة لتزويد الإسلام بأسباب القوة المادية التي تمكنه من منافسة التفوق الأوروبي، ولأن تمده برجال مثله لهم مكانتهم المرموقة والمؤاتية في العالم.

وكون ولعه في أن تكون الخلافة الإسلامية مصرية يمكن أن ينتقل ويتحول بسرعة إلى عاهل آخر، فإن هذا لا يغير طبيعة الاختبار الأساسي الذي يحكم أرسلان من خلاله على الحاكم المسلم. وإنما يعني هذا أن مقومات السلطة تحققت في شخص من بعده هو أكثر استحقاقاً لشغل هذا المنصب. فقد أدت الانتصارات الحاسمة التي حققها عبد العزيز آل سعود في الحجاز بأرسلان إلى إعادة اكتشاف الفضائل الإسلامية الأقل تلوئاً من تلك التي أبداها ملك مصر. وفي الوقت الذي أنهى فيه استعداداته لأداء فريضة الحج، أعلن أن الرجل، الذي عدّه ذات يوم أميراً ضئيل الأهمية، هو المرشح المرجح أكثر لكي يظهر للغرب "الأمة العربية لم تمت"⁽²¹⁾. وبطريقته الخاصة، عقد أرسلان العزم على تعزيز سمعة عبد العزيز آل سعود. وأداء رجل شهير له سمعة أرسلان ومكانته فريضة الحج مع وقع الدعاية المصاحبة من شأنه -إذا ما تم بسلاسة- أن يعزز هبة ابن سعود عبر إظهاره قادراً على إبقاء الحج متاحاً وآمناً. ومن شأنه أيضاً أن يبين

أنه يمكن للمشاهير وذوي النفوذ أن يؤديوا مناسك الحج من دون أن يساورهم قلق حيال سلامتهم.

وفي الواقع، بمجرد وصوله إلى الحجاز، بات ما يلاقه أرسلان من صعوبات أقل من تلك التي كابدها وهو في طريقه إليها. وكانت العقبة الرئيسة التي اعترضت سبيله تتمثل في حصوله على إذن من الحكومة المصرية يمكنه من النزول من السفينة في ذلك البلد، لكي يتمكن من الانتقال إلى سفينة أخرى متجهة إلى جدة. وساور الملك فؤاد قلق حيال تسهيل مرور رجل سيئ السمعة وصديق لعباس حلمي إلى دولة ابن سعود. وبعد قضائه وقتاً محبطاً روجعت فيه خطط، وتلقى وعوداً غير مؤكدة، منح أرسلان التصريح الذي سعى إلى الحصول عليه. وشكلت وفود للترحيب به، وشرعت الصحافة الإسلامية تروج لزيارته، ورضا، لكي يضمن أن يكون الهدف النهائي من الرحلة قد أنجز على النحو الذي ينبغي، أبلغ أرسلان الآتي: "هذا وإنني مرسل إليك نسخة من مناسك الحج لتطالعها في البحر"⁽²²⁾.

ومن وجهة نظر قطاع معين من قطاعات النخبة المصرية، كان وصول أرسلان إلى ميناء بورسعيد في السابع من شهر مايو/ أيار من العام (1929م)، وعبوره إلى السويس صبيحة اليوم اللاحق حدثاً على جانب من الأهمية. كتب رضا عن ذلك يقول: لم يكن في وسعه أن يكفكف دموع الفرح حين رأى صديقه القديم. وحضرت مجموعة أخرى من الشخصيات البارزة تعبيراً عن احترامها وتقديرها لصديق سابق، وإعراباً عن تضامنها مع رجال عمالين لها رأياً وتفكيراً⁽²³⁾.

والحكومة المصرية التي بدت معنية بالاهتمام الذي حظي به أرسلان، سرّعت مغادرته السويس في اليوم اللاحق. وقد كانت نتيجة مفاجئة لخطط رضا التي أعدها بعناية على صعيد الاستقبال والمناقشات، وصمم مع ذلك على ضرورة أن يؤدي الأمير شعائر حجه على النحو الذي ينبغي، فقصد أسواق السويس على عجل ليشتري له ملابس الإحرام⁽²⁴⁾.

ولم يكن هناك سلوك حكومي عدائي حين وصل أرسلان إلى وجهته النهائية. وكان ابن سعود مدركاً للإمكانات التي يتوفر عليها أداء أرسلان لفريضة الحج على صعيد إضفاء الشرعية على نظام حكمه، ولجهة إحكام قبضته على المقدسات الإسلامية. وكما جاء فيما كتبه أرسلان، وحرص الكتاب الذين نقلوا عنه أن يكرروه بدقة، فقد استقبل الملك نفسه أرسلان في جدة، واصطحبه على متن السيارة الملكية إلى مكة المكرمة⁽²⁵⁾. وطوال فترة إقامة أرسلان في الحجاز، أكرم ابن سعود وفادته إكراماً سخياً وأشاد به في العلن، وحتى عرض عليه أن يحضر أسرته إلى المملكة إن وافق أرسلان على أن يشغل منصباً في حكومته⁽²⁶⁾.

ومن جانبه، فعل أرسلان كل ما في وسعه في سبيل تعزيز سمعة مضيفه، ونقل إلى مملكة الحجاز المتخلفة كل الإنجازات التي حرم العرب منها في أماكن أخرى: "شعرت منذ وطئت بقدمي رصيف جدة أنني عربي حر في بلاد عربية حرة. شعرت أنني تخلصت من حكم الأجنبي الثقيل الملقى بكلكله على جميع البلاد العربية... شعرت أنني إن كنت خاضعاً هنا لحكومة، فكخضوع لويد جورج لحكومة إنكلترا، وكخضوع كليمنسو لحكومة فرنسا⁽²⁷⁾". وكان على القدر نفسه من الأهمية بالنسبة لمفهوم أرسلان عن الحكم الرشيد أن بقيت شبه الجزيرة العربية "خاضعة لأحكام الشريعة الإسلامية بجميع أحكامها⁽²⁸⁾".

عزا أرسلان الفضل في وجود هذه الظروف والأحوال التي تثير الإعجاب إلى حاكم الحجاز الجديد: "وجدت منه رجلاً نادراً في الذكاء والمضاء وسرعة اللحظ وسعة الفكر وشدة العزم، هذا عدا كرم الخلق وعلو النفس وتقوى الله، وأقول لا ينقص هذا الرجل إلا استمرار التوفيق، فنرجو من الله أنه كما وفقه بالماضي بسلسلة توفيقات غريبة يوفقه في المستقبل، ويوالي صعوده ويواصل تأييده، فيكون بذلك للإسلام وللعرب نهضة حقيقية..."⁽²⁹⁾. عثر أرسلان على بطله المنشود من أجل مستقبل العرب، فابن سعود لم يكن مجرد عاهل عربي مستقل ومتمتع بسيادة كاملة، ويحكم استناداً إلى المبادئ الإسلامية، بل كان، فضلاً عن ذلك، محارباً شجاعاً يستجيب لسجاياء المآثر البطولية

العسكرية للمقاتلين الشجعان، وهي سجايا تعلق بها أرسلان تعلقاً رومانسياً⁽³⁰⁾. وكما سبق له أن انجذب إلى عبد الحميد في الأدوار التي مارسها بوصفه سلطاناً إمبراطورياً وخليفة إسلامياً، وكما سبق له أن سحرته المآثر البطولية التي رآها في أنور باشا، كذلك ألقى نفسه منجذباً إلى أمير الحجاز، المحارب الذي لا يمكن في الديار الخاضعة لحكمه وسلطانه "أن تعلق فيها يد أفرنجية على يد عربية"⁽³¹⁾.

كان الترحيب الذي حظي به أرسلان في الحجاز مناقضاً تماماً للتضييق عليه الذي عاناه في الدول العربية الخاضعة للهيمنة البريطانية والفرنسية؛ الأمر الذي أدى به إلى الخلط بين الاستقلال والسلطة. وفي وصفه للنغمة التي لونت خطابات أرسلان في الحجاز على وجه الإجمال، قال القنصل البريطاني في جدة إن الأمير مضى في خطابه بعيداً جداً، وصولاً إلى الحد الذي أعرب عنده عن أمله في أن تغدو مكة العاصمة السياسية، فضلاً عن كونها العاصمة الدينية، للعالم الإسلامي⁽³²⁾.

وبوصفه مِرْناً في العلاقات العامة وترويجاً للذات، كان حيج أرسلان ناجحاً. ولكن بوصفه مشروعاً لرجل مضى من عمره ستون عاماً وأوشك أن يحط الرحال، فقد تبين أنه كان ينطوي على كثير من المبالغة. فأرسلان الذي أنهكته الرحلة من جنيف، أمسى مريضاً جداً بعد أيام قليلة من وصوله إلى المدينة المقدسة. فنقل إلى الطائف، وهي تعد منتجعاً صيفياً لشيوخ القبائل، والأعيان الحجازيين، ولكن تعافيه كان بطيئاً، ولم يستعد عافيته تماماً إلا في منتصف شهر سبتمبر / أيلول من العام (1929م)، أي بعد أربعة أشهر تقريباً أمضاها في العربية السعودية، وعندها أصبح قادراً على الانطلاق في رحلة العودة إلى أوروبا. وتميز مروره عبر مصر باستقبالات عامة، وبلقاءات شخصية مؤثرة وقصيرة الأمد. وكانت أمه قد وصلت إلى السويس لتلتقي به، وكان لقاء أرسلان بأمه تذكيراً مؤلماً بالقيود التي فرضت على تحركاته. كان أحمد شوقي ينتظره أيضاً في السويس، وكثف هذا اللقاء العابر مع صديق قديم، من جديد، شعور أرسلان بالوحدة، وتذكر أنه قال لشوقي حينها: "لا أقدر أن أدعوك إلى سورية لأنني لا أقدر أن أطأها بقدمي، ولا

إلى فلسطين ولا إلى مصر التي لا أدخلها إلا بعد اللتيا والتي، فأنا أدعوك إلى سويسرة، حيث يمكنك أن تقضي الصيف ونشاهدك ملياً⁽³³⁾“.

كان لزاماً على المنفيين أن يحققوا أقصى ما يستطيعون من الفرص النادرة التي تتاح لهم. وعليه فقد أمضى أرسلان مع عزام ورضا وعشرة آخرين تقريباً ليلتهم في بورسعيد. ورصد مراسل الشورى أجواء لم الشمل المفعم بالحنين التي هيمنت على فندق كازينو، حيث التقى الرفاق القدامى المعمرون مع مريديهم الشباب، وحدثهم قضية عامة واحدة، وفرقهم الزمن والمسافات والمرسوم الإمبراطوري، وقد ظفروا اليوم بأمنية ثمينة جداً قضوها معاً. كان الحاضرون تلك الأمسية خليطاً من كل الأطياف، وكانت بينهم مطربة مصرية شابة صادف أنها كانت تؤدي بعض الأغاني في الفندق تلك الليلة. وعندما ألح أصدقاء أرسلان عليه ليعرفوا ردة فعله على غناء تلك النجمة الصاعدة، رد عليهم بشعر مرتجل جاء فيه أنه حتى أصحاب الرؤوس التي اشتعلت شيباً لا يمكن إلا أن يهتزوا طرباً لدى سماعهم صوت أم كلثوم⁽³⁴⁾(*).

ورؤية أرسلان أصدقاءه عمقت حدة شعور انفصاله عنهم، وبعد أشهر قليلة، وسط غمرة الشتاء السويسري، نشر مقالاً مشاكساً لكنه شجي، تحدث فيه كيف تم اختياره ليلقى معاملة خاصة من قبل بريطانيا العظمى. وكان فخوراً بسجله المناهض للإمبريالية في حقبة ما قبل الحرب، أما الآن وقد ساد السلام بين بريطانيا من جهة وكل من ألمانيا وتركيا من جهة أخرى، فما السبب الذي يدعو إلى استهدافه بهذا العداء إلى الحد الذي يحول بينه وبين زيارة أمه في فلسطين؟ والحجاز واليمن هما الدولتان الوحيدتان اللتان تنعمان بالسيادة، ولأنهما دولتان مستقلتان تجرأتا على توفير ملاذ له.

(*) الأبيات المترجمة:

رؤوس تُغَطَّى بثلج المشيب	ولكننا النار من تحتها
تميل من الطرب المستمر	لدى أم كلثوم مع تحتها
أتيح لنا سمع آياتها	فعدته نفسي من بختها

مجلة الشورى، القاهرة، السنة الخامسة، العدد 244، 9 أكتوبر 1929.

وجاء فيما كتبه: "والحمد لله على أن أبقى لنا راية ابن سعود⁽³⁵⁾". إنها الراية التي أعلن ولاءه لها بوصفه مواطناً، كما قدم دعمه الدعائي لها على مدى ما تبقى من حياته.

وما دامت القيود المفروضة على سفره إلى البلاد العربية معمولاً بها وسارية المفعول، فإن فاعلية إرساله بوصفه داعية منفيّاً كانت تكمن في قدرته على لفت الانتباه إلى أنشطته، وفي نشره أغلب الأحيان في الصحافة العربية، وفي المواظبة على التواصل مع مجموعات لها نفوذ داخل الدول العربية. وكurst رحلات أخرى عديدة قام بها لخدمة هذه الغايات. عثر إرساله على إحدى هذه الغايات الأكثر غرابة في الولايات المتحدة الأمريكية حيث أمضى هناك الأشهر الأربعة الأولى من العام (1927م)، وحضر اجتماعات المؤتمر السنوي لحزب سوريا الجديدة في ديترويت. وكان يرمي من حضوره المؤتمر إلى تزويد الجالية السورية في الولايات المتحدة الأمريكية بمعلومات عن الثورة الأخيرة، وجمع أموال تبرعات اللاجئين، وكان هدفه المستتر حشد التأييد لنفسه بوصفه الممثل الشرعي للسوريين بأسرهم أمام عصبة الأمم.

وقد تمكن بذلك من مخاطبة المؤتمر المذكور ومن جمع التبرعات من أجل القضية السورية، وكانت بالنتيجة رحلته مرضية⁽³⁶⁾. لكنه أخفق في تبريد شكوك المكون المسيحي الكبير بين الأمريكيين ذوي الأصول السورية في أنه رجل يؤمن بضرورة تفوق المسلمين وسيطرته على الآخرين. واحتشد أربع مئة متظاهر من المحتجين المنتمين إلى الجمعية المسيحية السورية في ديترويت للتنديد بـ "افتراضه" الجسور المفضي إلى زعمه بأنه يتحدث بوصفه ممثلاً رسمياً لسوريا. ووصفته صحيفة السائح التي كانت تتخذ من نيويورك مقراً لها بالأجنبي المتعشش إلى الاحتفالات الطنانة الرنانة⁽³⁷⁾.

وعلى الرغم من استقباله استقبالاً يفتقر إلى الود من قبل الجالية المسيحية السورية، فإن سمعة إرساله بوصفه ناشطاً في مجال قضية استقلال سوريا كانت تحظى بالعناية والرعاية في المشرق العربي، من خلال التغطية الجيدة لجولته في أمريكا التي أمنتها صحيفة الشورى وأحاطتها بإطرائه والثناء عليه، وتجاهلت الجدل الذي أثارته،

وركزت على الحفاوة والأجواء الاحتفالية التي واكبت الجولة⁽³⁸⁾. شرع إرساله بإجراء جولة في الولايات المتحدة حسب ما بينت الخطوط التاريخية لصحيفة الشورى، وذلك عقب انتهاء جلسات مؤتمر ديترويت، وتوقف أثناء جولته في أماكن متعددة منها فورت سميث، وأركنساس، وشوني، وجورجيا. ولم يسجل إرساله انطباعاته الخاصة عن هذه الرحلة، والكتابات التي دونها لاحقاً خلّت تقريباً من أي إشارات إلى هذا الحدث الخاص. وكانت هذه الرحلة، على وجه الإجمال، غريبة ومكلفة، بيد أنها أظهرت حرصه الشديد على تأكيد وجوده في أي مكان يشعر أنه يمكن أن يجدي نفعاً.

ومضى به الدافع نفسه، في شهر نوفمبر/ تشرين ثاني من العام (1927م) إلى موسكو لحضور احتفالاتها في الذكرى العاشرة لاندلاع الثورة البلشفية. وكان لا يقوى على مقاومة اختياره ممثلاً رسمياً لأي جماعة، وهذه المرة يمم شطر موسكو بوصفه الممثل العربي للجنة الدولية للنضال ضد الإمبريالية التي كانت تتخذ من برلين مقراً لها. ولكنه لم يكن أكثر انجذاباً إلى الثورة الشيوعية منه إلى أمريكا الشمالية. وعلى أي حال، كان حضوره في موسكو في ذلك الوقت مهماً بقدر ما كانت آراؤه كذلك. وبرهنت رحلة موسكو لأحد الديبلوماسيين البريطانيين أن إرساله "كان، بما لا يدع مجالاً للشك، يعمل في ظل القيادة السوفياتية وينفذ توجيهاتها"⁽³⁹⁾. وكانت تلك تهمة لم يتخلص منها تماماً قط، وأضيفت إلى سمعته المعقدة التي تكونت في ملفات وزارات الخارجية المختلفة.

وسواء أكان يلبي الدعوات أم يوجهها، كان إرساله يسافر باستمرار. ولم تحقق كل رحلاته أهدافها (تعد رحلته إلى الولايات المتحدة مثلاً ممتازاً)، ولكن كانت كل رحلة تؤرخ وتسجل من قبل الأمير وتغطيها الصحافة وتنشر تقارير عنها، تدليلاً على تفانيه في العمل في إطار التفويض الممنوح له في أوروبا. وحوالي العام (1930م) شرع في توسيع نطاق مصالحه متجاوزاً حدود القضية السورية الفلسطينية، مكوناً سمعة عزت إليه الفضل في تنسيق أعمال حركة الاحتجاج العربية الإسلامية برمتها. وافتتح هذه المرحلة من مسيرته، بحسن نية، بزيارة إلى إسبانيا في صيف العام (1930م). كانت

هذه الرحلة واحدة من أكثر تجاربه المرضية في حقبة ما بعد الحرب؛ فسحر الأندلس الذي استوحى منه ترجمته لشاتوبريان في العام (1898 م)، أدى به الآن إلى تأليف عدد من مجلداته الخاصة عن أعجاد العرب في الأندلس⁽⁴⁰⁾. ولم يكن وحيداً في هذا التوجه، فقد بحث كتاب عرب آخرون معاصرون لأرسلان بدءاً من أحمد شوقي في إسبانيا عن أشياء تذكر بأن المسيحيين الأوروبيين لم يكونوا دوماً مهيمنين على العرب المسلمين⁽⁴¹⁾. وبهذه الروح التي ربطت بين الإنجازات الماضية والإمكانات الراهنة، كرس أرسلان كتابه عن الفتوحات العربية في أوروبا لخدمة تنمية التعاون بين كل من فيصل، وابن سعود، والإمام يحيى، وهي العملية الكفيلة بتجديد مجد الأمة العربية و"استعادة قوتها وعظمتها"⁽⁴²⁾.

عبر أرسلان من إسبانيا إلى طنجة، وأطلق من هناك ما قدر له أن يكون لاحقاً حملته المناهضة للإمبريالية الأكثر نجاحاً، وسوف يصار إلى بحثها في الفصل اللاحق من هذا الكتاب.

لم يتوقع أرسلان في بوتقة الخطوط التاريخية المتشابهة والأشد وضوحاً، ولم يقيد نفسه بالمواقف الاستعمارية الأكثر إلحاحاً، بل كان فريداً في نوعه بين الشخصيات البارزة العربية المسلمة التي عاصرتة، وسعى إلى تمكين الروابط مع القيادات الإسلامية في أوروبا الوسطى من الذين تخلّى عنهم إخوانهم في الدين، حسب رأيه، وتركوا ليدافعوا عن أنفسهم بأنفسهم في خضم بحر من النصارى. وفي أواخر صيف العام (1932 م)، ومرة أخرى في الشهرين الأول والثاني من العام (1934 م)، جال في دول البلقان وصولاً إلى بودابست. واهتمامه بهذه المنطقة ربما عكس أكثر فأكثر صلاته مع الماضي العثماني. فهو لم يكرس، على سبيل المثال، اهتماماً بمسلمي الهند بقدر الاهتمام الذي خص به مسلمي البوسنة. وانطلاقاً من شعوره بأنه اختار ينبوعاً ثراً من المشاعر الإسلامية، دعا أرسلان علماء المشرق العربي إلى زيارة دول البلقان بصورة منتظمة بغية إدماج مسلميها في التيار الرئيس للنضال الإسلامي الرامي إلى تحقيق الاستقلال الثقافي⁽⁴³⁾. وقد عمل وحده

على تفعيل هذا الاقتراح، وقربه استعداداه لفعل ذلك كثيراً من قلوب القادة المسلمين في دول البلقان، ومكنه من عددهم ضمن المعجبين به.

وبين لهم، بتعبير آخر، أنه لم يجزِ التخلي عنهم. وإن لم يتمكن من إقناع علماء المشرق العربي بالعمل على تنظيم شؤون إخوانهم الأوروبيين في الدين، فإنه سيفعل ذلك بنفسه. وكان التكتيك الذي اتبعه في هذا الإطار هو التكتيك المعتاد في تلك الحقبة - عقد مؤتمر. وعلى الرغم من أن أرسالن لم يكن هو صاحب فكرة عقد مؤتمر لمسلمي أوروبا، فقد أصبح أحد دعاة الرياديين ومنظميه الرئيسيين⁽⁴⁴⁾. عندما انعقد في نهاية المطاف مؤتمر أوروبا الإسلامي في جنيف من (15-12) من شهر سبتمبر / أيلول من العام (1935م)، كان حدثاً أكثر تواضعاً مما توقع أرسالن. وحيث إنه عانى انخفاضاً في عدد المشاركين (شارك فيه سبعون مندوباً تقريباً فقط)، ولأنه شابهته اتهامات بأن تمويله كان إيطالياً، اجتذب المؤتمر اهتماماً من المراقبين الخارجيين أكبر من ذاك الذي حظي به من المسلمين الذين من أجلهم كان انعقاده⁽⁴⁵⁾.

أضفى أرسالن بصمته على التجمع، وتيقن من أن الأمور آلت إلى بث القضايا التي تعنيه ونشرها. وأفاد من موقعه بوصفه رئيساً للمؤتمر في إلقائه كلمة افتتح فيها المؤتمر ودعا من خلالها إلى استعادة الخلافة، وقرأ برقية أرسلها إلى المؤتمر الخليفة المخلوع عبد المجيد، وضمنها تسميته أرسالن ممثلاً شخصياً له في المؤتمر. وولد هذا الموقف شيئاً من الاستياء في أوساط المؤتمر، وحداً بأحد المؤتمرين إلى الإشارة بحدة إلى أنه لا يشاطره المؤتمر جميعاً تعاطفه مع الخلافة⁽⁴⁶⁾. كما أنهم لم يشاطروا رئيس المؤتمر هيئته. والملاحظات التي أبداهها مفتي بودابست أو رئيس رابطة مسلمي وارسو لم تكد تحرك ساكناً لدى المؤسسة الإمبريالية في بيروت أو لدى المؤسسة المسيحية في بلغراد.

ومع ذلك لا ينبغي النظر إلى المؤتمر بوصفه مشهداً تمثلياً أجوف. ربما لم يكن حاسماً، إلا أنه، شأنه شأن كثير من أنشطة أرسالن، انطوى على قيمة رمزية. وكما جاء فيما دونه المشارك الذي استهجن المشاعر المتعاطفة مع الخلافة: يبدو أن المؤتمر شكل بداية

حركة. وأحضر إرسال الشخصيات الإسلامية الأوروبية الرائدة إلى جنيف، ونجح في إقرار عدد قليل من الالتماسات التي رفعها إلى عصبة الأمم، وأكد هيمنته على اللجنة التنفيذية الدائمة بحصوله على منصب الرئاسة فيها، وبالتمهيد لاختيار الجابري نائباً للرئيس. وفي الظروف التي انعقد في ظلها يمكن أن يعد التنام شمل التجمع إنجازاً. كما كان شهادة على اتساع مجال اهتمامات إرسال، وعلى سحر اسمه وجاذبيته. ذلك لأنه لولا رعايته وحضوره لما كان ممكناً لهذا المؤتمر أن ينعقد.

إن إخلاص إرسال لابن سعود بوصفه العامل المثالي، وانخراطه بين مسلمي أوروبا، واستغراقه في الأندلس، كل ذلك كان جزءاً من تصوره لمفهوم سياسة القومية الإسلامية. ورغب في إظهار أن القضايا التي تعني المسلمين ليست مقتصرة على منطقة بعينها، بل تشمل المسلمين الآخرين برمتهم. وفي المشرق العربي، أتاحت له مشكلات الانتداب على فلسطين أفضل فرصة لاستثمار القومية الإسلامية والإفادة منها.

ومنذ الإعلان عن وعد بلفور في العام (1917م) إلى أعمال الشغب المرتبطة بحائط المبكى في العام (1929م) إلى ثورة العام (1936م)، كانت فلسطين مسرحاً لكل التهديدات التي استهدفت شعور العرب بهويتهم وقيمتهم وكيانهم: الهجرة اليهودية إلى بلاد المسلمين وأراضيهم انتهكت النظام الاجتماعي الذي أمر به الوحي وصدقه العمل، وأظهرت الهيمنة البريطانية الناجمة عن الانتداب ازدواجية الدول الأوروبية، وأكدت تسلطها على العرب، وعكس تشظي القيادة الفلسطينية المحلية مواطن الضعف السياسي المثيرة للقلق والتي كانت مستشرية في كل من سوريا والعراق أيضاً. وربما لم يكن العرب، فوق كل هذا، مؤهلين لحكم أنفسهم بأنفسهم.

ولم يكن في وسع من يدعي أنه الصوت المعبر عن الاحتجاج العربي أن يتجاهل هذه المخاطر. أفاد إرسال من الأدوار المتعددة التي هيأها لنفسه ليغدو مشاركاً نشطاً في القضية الفلسطينية. وبوصفه مندوباً في عصبة الأمم، أمطر لجنة الانتداب (المعينة من قبل عصبة الأمم) بسلسلة متصلة من الالتماسات، محاولاً بذلك أن يحول دون

تهميش موضوع فلسطين وإقصائه⁽⁴⁷⁾. وبوصفه شخصية عامة بارزة وله شأنه شعر أنه مخول بالتفاوض مع القيادة الصهيونية. وفي شهر سبتمبر (أيلول) من العام (1934م)، زار ديفيد بن غوريون كلاً من أرسلان والجابري في شقة الأمير في جنيف. وخلال المناقشات التي استمرت حتى الصباح الباكر، عزز أرسلان اعتقاد القائد الصهيوني بتصلب موقفه، وأكد بن غوريون اعتقاد أرسلان بأن الصهيونية توسعية وعاقدة العزم على المضي في غيها⁽⁴⁸⁾. وكان الاجتماع غير الحاسم صورة مصغرة عن العلاقات الصهيونية العربية خلال الحقبة الفاصلة بين الحريين العالميتين.

وبوصفه صحفياً متمرساً في الجدل، لم يكتف أرسلان باستيعاب مدى أهمية المعترك الدولي بالنسبة إلى القضية الفلسطينية، بل كان له أيضاً مدخله إلى قلب هذه القضية بقدر ما كان لأي خبير عربي في الشؤون العامة مدخل إليها. وعلى الرغم من أن كتاباته كانت، على وجه العموم، متساوقة مع اللهجة المناهضة للبريطانيين والمعادية للصهيونية، وهي اللهجة التي كانت سائدة في الأوساط العربية في عصره، فقد كان له منظوره الخاص. إذ كان يبدي حساسية عضوية تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية العثمانية العربية عندما لاحظ أن البريطانيين شعروا بأن في وسعهم تحويل فلسطين إلى دولة يهودية بسبب ازديادهم للعرب. ولاحظ بمرارة أن لهذا الموقف بعض الأساس على أرض الواقع حيث حالت المشاحنات المحتدمة بين العرب بعضهم مع بعض دون قيام جبهة موحدة معادية للصهيونية⁽⁴⁹⁾. وعلاوة على ذلك، قد يكون أرسلان أكثر إدراكاً، من بعض المعنيين بالأمر، للترتيبات الإمبريالية الخاصة بالقضية الفلسطينية. ملاحظاً في هذا الصدد أن دعم بريطانيا لقيام دولة يهودية كفيل بأن يضعها في خدمة الأهداف البريطانية، ومن شأنه أن يحول دون تكوين قوة عربية كبيرة⁽⁵⁰⁾. وكان يدرك بوضوح أن الأهداف البريطانية ترمي إلى إيجاد أغلبية يهودية في فلسطين، وتنبأ بدقة بما يمكن أن يحدث في هذا السياق: "بمجرد أن يغدو اليهود أغلبية فإن هذا يعني نهاية العرب"⁽⁵¹⁾.

وإذا ما أريد لعرب فلسطين أن يتصدوا للأطماع الصهيونية ويحبطوها وأن يطردوا البريطانيين من فلسطين، فهم بحاجة إلى المساعدة. وعلى الرغم من أن أرسلان كان

مدركاً لأهمية تلقي دعم من دولة عظمى، وكان يسعى إلى الحصول عليه من إيطاليا وألمانيا، فإنه كان يشعر أيضاً أن المسلمين في أنحاء العالم كافة ملزمون أخلاقياً بالدفاع عن فلسطين. وكان جزء، من قضية أكبر تخص الإسلام، يتعرض لهجوم. والإخفاق في إدراك هذه الحقيقة، والإحجام عن معالجة الموقف يعنيان إنكار الإسلام نفسه. كان محب الدين الخطيب قد أصدر بياناً بنبرة قوية عبر صحيفة الفتح، وعكف إرسال على الإدلاء به مراراً وتكراراً: "أن فلسطين العالم الإسلامي، والعالم الإسلامي فلسطين⁽⁵²⁾". وكما فعل بموضوع الظهير البربري في المغرب في العامين (1930م و1931م)، شرع إرسال في تدويل القضية الفلسطينية.

وفي أعقاب أحداث شغب حائط المبكى التي اندلعت في العام (1929م)، دعا الحاج أمين الحسيني إلى عقد مؤتمر إسلامي عام في القدس من أجل تركيز الاهتمام على الأبعاد الإسلامية للمشكلة الفلسطينية⁽⁵³⁾. وكان ذاك المؤتمر هو الأكثر نجاحاً بين مؤتمرات عديدة انعقدت ما بين الحربين العالميتين. وحضر الاجتماعات التي عقدت من 7-17 ديسمبر / كانون أول من العام (1931م) أكثر من أربع مئة مندوب. وعلى الرغم من أن إرسال لم يكن حاضراً، شارك بإعراجه عن ارتياحه لتمييز المؤتمر ونجاحه، وجاء فيما كتبه عن هذا الحدث: إن المؤتمر كان تأكيداً على أن "الإسلام حي يرزق، وأن وحدته لم تكن أتم منها بعد إلغاء الخلافة⁽⁵⁴⁾". وأعلنت مجلة الأمة العربية أن المؤتمر هو "البرلمان الروحي والاجتماعي للإسلام"، معربةً عن الأمل في أن يؤدي إلى تحقيق صحوة إسلامية جديدة⁽⁵⁵⁾.

ودعا أحد القرارات الصادرة عن المندوبين المشاركين في المؤتمر إلى إنشاء جامعة إسلامية في القدس. وخلق هذا الاحتمال المأمول لب إرسال. فالعظمة الثقافية التي شهدتها بغداد في عهد هارون الرشيد ستحقق راياتها من جديد في سماء الحرم الشريف. لتكن لدينا جامعة إسلامية عليا تدرس فيها العلوم الحديثة إلى جانب التعاليم القرآنية الخالصة. ولتكن جامعة تعمل على رعاية الطلاب المسلمين الواثقين بأنفسهم،

لا الذين في قلوبهم مرض. فلتكن لدينا جامعة حديثة لغتها عربية (وهي اللغة التي يهاجمها اليوم الذين في قلوبهم مرض)، ولتكن هذه اللغة لغة الإسلام العلمية بقدر ما هي لغة الإسلام الدينية⁽⁵⁶⁾.

كان هذا نداءً مخلصاً صادراً من القلب يهدف إلى تحقيق أمر مُستَتمثل، لكنه لم يعالج قضية فلاحي فلسطين المضطهدين أو الاحتلال البريطاني للأرض. وغالباً ما بدا أن فلسطين أو أي منطقة أخرى كانت تستعمل فقط بوصفها عاملاً محفزاً لرؤية أرسلان لمجتمع إسلامي نفخت فيه الروح من جديد. وقد منحه مؤتمر القدس الإسلامي أملاً بوجود معنى وجوهر في أحلامه، ودعماً لمعتقداته، ولكن هذا الأمل وذاك الدعم لم يُعمراً طويلاً. ففي العام (1933م)، حُلَّت اللجان الدائمة للمؤتمر، وأُسِقِطَتْ خطط إنشاء الجامعة الإسلامية. ومع ذلك، المشاعر التي ولدها المؤتمر وتمثيل مندوبيه واسع النطاق، كل ذلك عزز اعتقاد أرسلان بأن التضامن الإسلامي الشامل كان رداً واقعياً على الاحتلال الإمبريالي ومورداً حيوياً للتجديد الداخلي.

وأما الاهتمام العربي الشامل بفلسطين فقد بلغ أوجَهُ إبان الثورة التي اندلعت بين العامين (1936م - 1939م). في تلك الفترة نشبت ثورة حقيقية مناهضة للدولة الإمبريالية التي احتلت مصر وخانت الشريف حسين وفتحت الطريق أمام الهجرة الصهيونية. استحوذت هذه الثورة على اهتمام العرب في كل مكان، وحاول أرسلان مجدداً توجيه مسار الرد: "قلنا ولا نزال نقول إن القضية الفلسطينية ليست قضية عرب فلسطين وحدهم... بل هي فادحة عامة للعالم العربي بأسره، بل للعالم الإسلامي بحذافيره⁽⁵⁷⁾". وفي هذه الأزمة، صور أرسلان فلسطين بوصفها البوتقة التي يجري فيها اختبار التصميم العربي الإسلامي، والمعيار الذي يبين إذا ما كانت الأمة العربية على استعداد لتحويل نفسها عبر التضحية، ولأن تستعيد في المستقبل الحالة التي كانت عليها في الماضي⁽⁵⁸⁾. وعلى الرغم من أن خبراء آخرين في الشأن العام كتبوا في سياق مماثل، فإن قدرة أرسلان على استشفاف الأمور ورؤيتها بوضوح وصلت إلى حد جعله مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأحداث في فلسطين. وأسهم في تكوين الوعي العربي العام فيما يتعلق

بالمخططات الإمبريالية البريطانية والأهداف الصهيونية، وربط فلسطين بوصفها قضية إسلامية بشمال أفريقيا وربط شمال أفريقيا بفلسطين، وكما هو مبين في الفصل السابع من هذا الكتاب، سمح لنفسه، ولم يبال، في أن يصبح عاملاً في السياسة الفلسطينية المحلية.

وبدت فلسطين قضية تتطلب نثراً ملتهباً وتضحيات بطولية. ولم يكن الحفاظ على السلام بين رؤساء الدول العربية عاملاً أقل حسماً في تعزيز السياسة القومية الإسلامية، ولكنه كان يتطلب نفوذاً معتدلاً. وفي معرض التزامه بتكوين جبهة إسلامية صلبة ومتماسكة، كان أرسلان على استعداد للتوقف عن ممارسة دوره بوصفه داعية حماسياً مقابل تحمل أعباء مهمة أكثر تطلباً وهي مهمة المفاوضات الحليم طويل الأناة. وفي قيامه بذلك، لم يتخل عن مركزه ولا عن دوره المتمثل في كونه رجل المبادرات الدراماتيكية.

وفي العام (1934م)، اصطدم توسيع نطاق السلطة السعودية بنزعة التحرير التوحيدي (استعادة أراضٍ يمنية من السعودية وجمعها في نطاق سياقها الطبيعي اليمني) لليمن الذي كان يحكمه الإمام يحيى، ليشير حرباً واسعة النطاق بين دولتي شبه الجزيرة العربية. وعلى الرغم من أن الإمام يحيى مسلم شيعي (حكم بين العامين 1904م-1948م)، فقد كان يتوفر على سجايا عديدة أكسبته إعجاب الرجال العرب المهتمين بالشأن العام والناشطين إعلامياً مثل أرسلان. (علينا أن نتذكر أن اختيار رشيد رضا وقع عليه ليكون "خليفةً توافقياً مؤقتاً"). كان الإمام حاكماً مسلماً قوياً حاول تطبيق أحكام الشريعة في أنحاء مملكته المتفرقة برمتها. وكان للإمام مكانته بوصفه عاهلاً مستقلاً معترفاً به على هذا الأساس من قبل الدول الأوروبية، وهو أمر بالغ الأهمية بالنسبة إلى أرسلان. وفي الوقت الذي يمكن أن يكون فيه لسياسته الانعزالية المتطرفة تأثيرات حاسمة على برامج المحلية، فإن موقفه المناهض للأوروبيين بدا جديراً بالتقدير في ذلك الوقت⁽⁵⁹⁾.

وقد استأثر صراع الإمام يحيى مع ابن سعود بكثير من الاهتمام.

وما يمكن أن يكون، على مدى نصف القرن اللاحق، قد بدا مناوشات غير مؤذية بين الدولتين القبليتين اللتين سُمِحَ باستقلالهما نظراً لعدم أهميتهما، كان ينظر إليه من قبل ناشطين عرب في تلك الحقبة بوصفه صراعاً مؤسفاً بين دولتين من الدول العربية الثلاث ذات السيادة. وبمجرد أن تبنى ابن سعود، لم يكن إرسالاً ليسمح بأن يقلل من شأنه، تماماً كما لا يسمح بأن يصار إلى إذلال الإمام يحيى. وعملاً بالصلاحيات الممنوحة إليه بوصفه رئيساً لمؤتمر القدس الإسلامي العام، عندما وجه الحاج أمين الحسيني الدعوة إلى إرسالان للعمل ضمن وفد إسلامي لتحقيق السلام، قبل الدعوة من فوره ووصل مع الوفد إلى مكة في السادس عشر من شهر أبريل / نيسان من العام (1934م)⁽⁶⁰⁾.

ولم يكن تكليف المؤتمر الإسلامي العام للوفد المذكور بالعمل على أداء هذه المهمة إلا دليلاً على تنامي غلبة الطابع الدولي على القضايا العربية بين العرب أنفسهم. كما لم يكن استقبال ابن سعود الحار للمجموعة إلا برهاناً على فهمه المدروس بعناية للشهرة والدعاية اللتين تكتنفان مهمتها. وأمضى الوفد زهاء الشهرين في كل من مكة والطائف وفي صنعاء في نهاية المطاف، في وقت كان فيه ابن سعود والإمام يتراشقان فيه بالتعليقات وبطلقات الرصاص. وانتهى الأمر إلى إبرام معاهدة للصداقة الإسلامية والأخوة العربية بين الحاكمين في العشرين من شهر مايو / أيار، على الرغم من أنها حررت بعد "تدقيق" من الوفد، وكانت ناجمة عن إقرار الإمام بتفوق السعودية تسليحاً، وإقرار ابن سعود بأن هزيمته الكاملة لليمن يمكن أن تثير تدخلاً أوروبياً⁽⁶¹⁾. ولكن هيئة الوساطة حظيت باحترام لجهة أعضائها المشاركين ولجهة القضية التي عاجلتها. وجاء فيما كتبه إرسالان عن هذا الموضوع: لقد وفرت المعاهدة سبباً للعالم الإسلامي لكي يحتفل. وعلى الرغم من أنه أرجع الفضل في وقف الأعمال العدائية إلى نبل العاهلين وكرم أخلاقهما، فإنه لم يتمكن من الإحجام عن تذكير قرائه بأنه كان طرفاً مشاركاً في الإنجاز الذي تحقق كله: "نظراً إلى العلاقات الشخصية الوثيقة التي تربطني بالحاكمين كليهما منذ أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، والمراسلات التي تبادلتها مع

كل منهما، فأنا في موقع أفضل من موقع أي شخص آخر مكنتني من أن أحيط علماً بكل هذه المسائل⁽⁶²⁾“. وجاد رضا بمزيد من الثناءات مثنياً علناً على الوفد، ومشيداً بأرسلان شخصياً، وخاطبه قائلاً: ”أحييك مهنتاً بعودتك من سفرك الشاق... مجاهداً في سبيل الله وخدمة الإسلام وقوم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام⁽⁶³⁾“ واستنتج الناشطون إعلامياً وعلى صعيد الدعوة مثل أرسلان والمفتي أنه إن كانت الحرب الناجمة عن الصراع على منطقة عسير المغمورة قد استقطبت هذا الاهتمام الكبير، فمن المرجح أن تفعل مشكلات كل من فلسطين وسوريا الأكثر مركزية الشيء نفسه أيضاً.

وكان الرجلان كلاهما قد أجريا عملية جس نبض سابقاً. وبسبب التساهل البريطاني تمكناً من إعادة الاختبار من جديد فور عودتهما من العربية السعودية. ففي شهر مارس / آذار من العام (1934م)، طلب أرسلان إذناً يمكنه من الإقامة في فلسطين، فرفض طلبه بشدة، إلا أن وزارتي المستعمرات والخارجية وافقتا على زيارته لهذا البلد الخاضع لسلطة الانتداب لكي يلتقي بأمه (لاءم عمرها المديد الحياة السياسية لثاني أبنائها)، شريطة توقيعه على تعهد بعدم المشاركة في أي نشاط سياسي طيلة فترة وجوده في فلسطين⁽⁶⁴⁾. ووافق أرسلان على الالتزام بهذا الشرط، ورافق الحاج أمين الحسيني من جدة إلى القدس، وكانت تلك أول زيارة يقوم بها إلى بلاد الشام العربية منذ العام (1917م).

كان جريئاً في تصرفه، حيث كان في وسعه أن يلتزم بمضمون تعهده للمسؤولين البريطانيين، إلا أنه انتهك بالتأكيد روح التعهد. فقد حضر بصحبة كل من الحاج أمين الحسيني، ورياض الصلح، والجابري، الاحتفالات التي انعقدت لاستقبالهم، وتلقى التهنئة لنجاحه في التوسط لفض النزاع بين ابن سعود والإمام يحيى، واستقطب من الاهتمام لنفسه قدرأ يزيد عما تقتضيه الحكمة. طفح بذلك الكيل بالسلطات الفرنسية في بيروت. واشتكى المندوب السامي، دو مارتيل، من أن وجود كل من أرسلان والجابري في فلسطين عمل على ”استقطاب حشود مندفعة من مثيري الاضطرابات“، وسمح على أرض الواقع ”بوجود مؤتمر وطني قوي في الخفاء“، وطلب من البريطانيين طردهما⁽⁶⁵⁾.

وكانت وزارة الخارجية في لندن حساسة لجهة الرؤية الفرنسية للموضوع منذ اللحظة التي وافقت فيها لأرسلان على زيارة فلسطين، فما كان من المندوب السامي البريطاني، آرثر ووشوب، إلا أن استجاب لطلب زميله الفرنسي بالطريقة الوحيدة الممكنة، حيث استدعى أرسلان ودعاه إلى مغادرة فلسطين على متن أول سفينة متاحة. وفي الخامس من شهر أغسطس/ آب من العام (1934م)، ألقى أرسلان نفسه يتجه بعيداً عن وطنه، منفياً من جديد.

وبعد مرور ثلاث سنوات، ومع تولي الجبهة الشعبية الفرنسية زمام السلطة، تلقى أرسلان دعوة من دو مارتيل إلى العودة إلى سوريا. وكانت الدعوة لافتة سواء لجهة موقف فرنسا من أرسلان، أو لجهة المواقف الدبلوماسية للدولتين الأوروبيتين اللتين كانتا تهيمنان على بلاد الشام. ولأن عودة أرسلان تزامنت مع اندلاع الثورة الفلسطينية، انتاب الحكومة البريطانية شعور بالضيق حيال وجوده في دمشق. كما سبق أن شعرت وزارة الخارجية الفرنسية بالانزعاج بسبب دخوله إلى القدس قبل ثلاث سنوات. ولكن فرنسا لم تدع أرسلان إلى العودة إلى دمشق من أجل إحراج بريطانيا في فلسطين، بل نشأت فكرة الدعوة من منطلق التصورات الفرنسية لنفوذ، ولاعتقاد فرنسا أن في وسعها استغلال هذا النفوذ لمصلحتها. وقد أظهرت الأحداث أن أرسلان ليس بالرجل السهل الذي يمكن التلاعب به، ولكن احتياجاته الشخصية كانت ملحة إلى درجة دفعته إلى الاستفادة من الفرصة التي سنحت له للعودة إلى سوريا. فقد ألفت سنوات النفي ظلها عليه، ومع كل ما أوتي من بيان وبلاغة حيال الإمبريالية الأوروبية، أراد أرسلان العودة إلى وطنه أيضاً.

لقد وازب الوضع المالي لأرسلان على التدهور في النصف الأول من العقد الرابع من القرن العشرين. ولسوف يُصَارُ إلى مناقشة موارده المالية المحتملة من دول المحور في الفصل السابع من هذا الكتاب. وأما في هذا المقام، فسأكتفي بإيراد ما ورد في سجله بصورة مستمرة عن عدم كفاية موارده المالية، وعن خيبة أمله الشخصية المتنامية حيال وضعه المالي. ولهذه الأمور أهميتها، لا بوصفها إضافات رفدت سجل سيرته الذاتية، بل

لكونها أموراً حددت نوعاً ما سلوك الأمير. وكان هذا الموضوع، بحد ذاته، على جانب من الأهمية بالنسبة لمسؤولين رفيعي المستوى وشخصيات سياسية بارزة في دول مختلفة عديدة.

استنزف السفر موارد أرسلان المالية أكثر مما فعل أي نشاط آخر. فالصيف الذي قضاه في إسبانيا مستكشفاً ماضي العرب المجيد زاد مديونيته إلى الدكتور بيضا مثني جنيته إسترليني إضافي⁽⁶⁶⁾. وكان يحاول باستمرار أن يعزز دخله عبر المتاجرة والمضاربة مستعملاً ممتلكاته في لبنان، ولكن كانت توجهياته تولد إرباكاً أكثر من العائدات⁽⁶⁷⁾. وكان يتلقى مبالغ نقدية قصيرة الأمد لقاء إعادة رهن شقته في برلين كلما سنحت له فرصة، ولكن لم تكن هذه المعاملات تدر كثيراً من الربح. وجاء فيما كتبه مع نهاية العام (1930م): "ونحن ركبنا الدّين بدون هذا، فجئنا نسعى في البحث عن مرتين آخر، ولو بشروط أثقل، يرتهن إلى مدة خمس سنوات، لعل الله يفرج في هذه المدة، وترانا من سمسار إلى سمسار أنا والدكتور بيضا⁽⁶⁸⁾". وبعد سنوات قليلة اشتكى من أن الحياة في سويسرا ببساطة تحمله ما لا طاقة له به: "كيف نصنع؟ مزرعتنا في الشام بعناها، بيتنا في برلين رهناه، والآن لا يفضل عن الرهن شيء إن بعناه". وفكر في بيع بساتين زيتون الأسرة في الشويفات، لكنه تردد وأحجم عن ذلك عندما جال في خاطره السؤال: "وماذا نترك هؤلاء الأطفال؟"⁽⁶⁹⁾.

وبينما كان أرسلان يتراجع صحياً ويتدهور مالياً، كانت مسؤولياته الأبوية تزداد. فقد صار عنده هو وزوجته سليمى أسرة ثانية تقريباً عندما رزقا بابنتيهما مي في العام (1928م) ونظيمة في العام (1930م). وأرسلان مُعَدُّ لأن يكون أباً حنوناً، ولكن طول عهده بالغياب عن أولاده حال دون أن يكون شديد الاهتمام بهم. وقالت زوجته للبروفسور الشرباصي إن شكيباً أمضى كثيراً جداً من الوقت في القراءة والكتابة إلى درجة أنه لم يدخر وقتاً لأطفاله، ولم يهتم حتى بتعليمهم⁽⁷⁰⁾. وسبب له ذلك مشكلات من نوع خاص مع ابنه غالب الذي أمضى سنوات مراهقته من دون أن يعرف اللغة العربية أو أن يهتم بتعلمها، وأغضب هذا أمير البيان وأحبطه: "أنا من هذا الأمر في ألم

شديد، وقد أفهمته أنه إن لم يتعلم العربية ويتقنها، وإن لم يكن عربياً تاماً فليس له من تركتي قليل ولا كثير⁽⁷¹⁾“. ولما ألقى نفسه قد بلغ الستين من عمره وهو أب لابنتين ما زالتا رضيعتين، ولابن لم يتلق تعليماً مناسباً، وكان دخله آخذاً في التناقص، فكر أرسلان جدياً وسعى جاهداً إلى تغيير مكان إقامته. وفكر في الانتقال إلى فينيا أو بودابست حيث كانت الحياة فيها أقل تكلفة، ولكن تفكيره كان متوجهاً أكثر ما يكون إلى اختيار المشرق العربي مكاناً للعيش ومقراً للإقامة.

أضيفت إلى شعوره بعدم الارتياح على الصعيد الشخصي مهمة صحفية محزنة كان لزاماً عليه أداؤها بوتيرة متزايدة في ثلاثينيات القرن العشرين -كتابة كلمات النعي والتأبين. فقد كان الرجال من أبناء جيله يموتون. وقد أثر هذا في أرسلان تأثيراً عميقاً عندما كان يتذكر كيف حرّمه نفيه من عشرة أصدقائه في سنواتهم الأخيرة. ولم يؤثر فيه فقده لأي من أصدقائه تأثيراً شديداً جداً بقدر ذاك الذي خلفه في نفسه موت رشيد رضا في العام (1935م). وكانت تأملاته الخاصة في ذلك الوقت متمركزة حول ندرة اللقاءات التي كان يسمح لها فيها أن يلتقيا في حقبة ما بعد الحرب، وحول القسوة التي انتهجت في تقصير أمد اجتماعهما الأخير. وقد جرى ذاك اللقاء على متن قطار أقلهما من الإسكندرية إلى السويس خلال رحلة أرسلان إلى المملكة العربية السعودية بوصفه عضواً مشاركاً في وفد السلام في العام (1934م). كان خاضعاً إلى إجراءات أمنية مشددة للغاية أثناء عبوره مصر. وكان يرافقه حارس عسكري في رحلته كلها. وكان التحدث معه ممنوعاً تماماً. ورضا الذي استقبل طائرة أرسلان مدفوعاً بإخلاصه وولائه له واستقل القطار الذي أقله، “تجرع مرارة” الترتيبات الأمنية. فعندما تقابل الرجلان في ممر عربة القطار التي كان أرسلان فيها -وهما الرجلان اللذان تبادلوا على مدى حقبة ناهزت الثلاثين عاماً عبر المراسلات خططهما الفخمة ومشاعر الود والصداقة الشخصية الحميمة -تمكنا من أن يتصافحا فقط دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة⁽⁷²⁾. وقد يبدو هذا الحدث، كما رواه أرسلان، مثيراً للعواطف إلى حد يستدر الدمع، ولكن حزن أرسلان كان حقيقياً بقدر ما كانت القيود التي سببته.

الحزن، والتقدم في السن، والمرض، والعزلة، والأسرة، والمتاعب المالية، كلها مسائل يحتمل أن تكون قد أثرت في مسار عمل أرسلان. ومع ذلك، فإن تصويره لنفسه بوصفه متفجعاً سلبياً أسيئت معاملته تصوير يفتقر إلى الدقة، وكان هو يعرف هذا. فعلى صعيد الصراع الذي كان يحدث داخله بين احتياجاته المالية، واختياره لمقر إقامته، ومبادئه المناهضة للإمبريالية، كانت تكتب الغلبة دوماً تقريباً للخيار الأخير. فهو لم يُنخ، ببساطة، لبريطانيا أو لفرنسا مدخلاً يمكن لهما أن يعيداه من خلاله إلى وطنه. ففي الالتباس الذي قدمه في العام (1934م) من أجل عودته إلى فلسطين، لم يقدم للمندوب السامي واكهوب أي اعتذار، بل فقط فرصة للتعامل مع رجل محترم بشروطه: "لقد كان مسعاي الثابت مكرساً دوماً لخدمة بلدي وفقاً لما يمليه عليّ ضميري وقناعاتي، بصرف النظر عن التكلفة⁽⁷³⁾". وقال في رسالة أرسلها إلى أحد أصدقائه إنه على الرغم من أمله الكبير في العودة إلى سوريا قبل أن يموت، فإنه يفهم أنه بسبب أنشطته لن يسمح له بدخول وطنه إلا في ظل وجود حكومة سورية مستقلة⁽⁷⁴⁾. وعلى مدى معظم الزمن الذي قضاه في منفاه، بدا هذا الاحتمال بعيداً.

وكان التقدم السياسي الذي أحرز في موضوع الانتداب على سوريا في الحقبة الممتدة بين العامين (1928م - 1935م) ضئيلاً، حيث لم يشكل القادة المحليون تحالفات دائمة، ولم تسمح إدارة الانتداب الفرنسي إلا بقدر ضئيل من الحريات السياسية⁽⁷⁵⁾. وخلال هذه السنوات، كرس أرسلان من الكتابة العامة لشمال أفريقيا قدراً أكبر من ذلك الذي كرسه لسوريا. إلا أنه ظل ينظر إليه بوصفه الشخصية المركزية الرئيسة على صعيد العلاقات الفرنسية السورية. وكانت العرائض والالتماسات تقدم دوماً إلى اللجنة الدائمة للانتداب مشفوعةً باسمه. وكانت أهميته على صعيد الشؤون الفرنسية السورية تتبع من الدور الذي أداه في المفاوضات مع جوفينال في العام (1925م). وخلافاً لعلاقاته مع مناطق عربية محتملة أخرى، كانت مصالحه السورية تشجعه على بذل جهود تتعدى مجرد إلهام الزعماء المحليين الذين كانوا يصوغون برامجهم المحددة الخاصة مسترشدين بتوجيهاته العامة. وكان أرسلان نفسه زعيماً سورياً محلياً، وكان

لديه خطته الخاصة لحل الخلافات الفرنسية السورية. و طرحها في العام (1925 م)، وواظب على اعتمادها من دون إجراء أي تعديل عليها على مدى عقد كامل. وقد أتى العام (1936 م) بمسوغات لخطته.

ففي شهر يناير/ كانون الثاني من تلك السنة، اندلعت في دمشق أعمال شغب وسرعان ما امتدت لتشمل مدن الشمال الرئيسة. وفي شهر فبراير/ شباط، أعلنت الأحكام العرفية، ودخلت الدبابات الفرنسية مرة أخرى إلى العاصمة. واعتقل مئات المواطنين، ولكن حال دون تكرار القصف الذي استهدف دمشق في العام (1925 م) تقديم تنازلات مفاجئة من قبل المندوب السامي الفرنسي، دو مارتيل، إلى الزعماء الوطنيين. وفي نهاية شهر مارس/ آذار، سافر إلى باريس وفد من ستة أشخاص مخول بالتفاوض لإبرام معاهدة استقلال على أساس الاتفاق الذي أبرم مع دو مارتيل. وتبع ذلك الوفد وفد لبناني. وأدى فوز حكومة الجبهة الشعبية بزعامة ليون بلوم في الانتخابات التي جرت في شهر يونيو/ حزيران إلى تحسين أجواء التفاوض، وجرى التوقيع على مشروع معاهدة في شهر سبتمبر/ أيلول. وفي هذه المرحلة، احتل شخص أرسلان مركز الصدارة. والقضية التي واجهت الأطراف المشاركة في المعاهدة جميعها تتعلق بكيفية إشراكه في الأمر بصورة بناءة.

لم يكن ممكناً أن يضمن دعم أرسلان للمعاهدة تمريرها في البرلمان السوري، ولكن كان ممكناً لمعارضته لها أن تقضي عليها. واستعملت تكتيكات عديدة لكسب تأييده. وأثناء سير المفاوضات في باريس، زاره أعضاء من الوفدين السوري واللبناني في جنيف، وذلك لإبقائه معنياً بالمناقشات، وسعيًا وراء التزامه بالقرارات التي كانت تتخذ⁽⁷⁶⁾. وبمجرد التوقيع على مسودة المعاهدة بالأحرف الأولى، بذل الموقعون عليها جهوداً جبارة ليضمنوا عدم ارتفاع صوت الأمير اعتراضاً على الوثيقة التي كانت ما تزال هشة. وعقد بير فينو، وكيل بلوم المساعد للشؤون الخارجية، اجتماعاً مطولاً على العشاء مع أرسلان في جنيف، ومر الفريق السوري المفاوض عبر هذه المدينة في طريقه إلى دمشق، وشكر أعضاؤه أرسلان على جهوده التي بذلها في سبيل تحقيق الوحدة

السورية، وأسبغوا عليه لقب "أبي المسلمين"، وهو لقب عزز الصورة التي كان قد كونها لنفسه⁽⁷⁷⁾.

وكانت آراء أرسلان السياسية ومبادئه القديمة المتجددة القادرة على الصمود وطموحاته الشخصية جميعها متناغمة مع رده، الذي يضارع استجابة رجل الدولة، على مسودة المعاهدة. وكان ما أَرْضاه وأشعره بالارتياح حيال الاتفاق تطابقه التقريبي مع الاتفاق الذي كان قد توصل إليه مع دو جوفينال قبل عقد من الزمن. واستند إلى هذا التشابه بين الحالتين لتبرير دعمه العلني للمقترحات الجديدة، ولتوضيح تماسك موقفه واتساقه على مر الزمان⁽⁷⁸⁾. وانتقد أرسلان بعض جوانب المعاهدة، وعلق على بعض تفاصيلها التي شابهها شيء من التشوش، لكنه قال إنها أفضل ما يمكن توقعه في ظل الظروف الراهنة. وبلهجة تحاكي الفخامة الأوملية قال بعبارة واضحة وقاطعة: "أنا راضٍ". واعتماداً على نقطة مرجعية معهودة في ثقافته، ذكر السوريين بأنه يتعين عليهم تبني مشروع المعاهدة التي تم التوقيع عليها بالأحرف الأولى؛ لأن القرآن دعا المسلمين إلى الوفاء بعهودهم⁽⁷⁹⁾.

وكان الفرنسيون راضين أيضاً. كتب فينو لدو مارتيل يقول لقد كان موقف أرسلان صحيحاً، وكان تدخله لدى دول عربية أخرى أثناء سير المفاوضات بشأن المعاهدة مؤثراً وفعالاً في الحيلولة دون حدوث تحريض خارجي⁽⁸⁰⁾. وأدى اعتدال أرسلان والرغبة الفرنسية في تشجيعه إلى توفر الظروف التي مكنته ومكنت الجابري أيضاً من العودة إلى سوريا في شهر يونيو/ حزيران من العام (1937م).

سنحت له الفرصة أخيراً ليستقبل من قبل الشعب السوري الذي نفذ مهمته باسمه. ولم يخيب هذا الشعب آماله، حتى في ظل سمعته التي باتت موضع شبهة نوعاً ما، ظل أرسلان بوصفه رمزاً، وصاحب شخصية جذابة ومتميزة، وبوصفه أسطورة أيضاً، جذاباً جداً. فما كان عليه، وما يعتقد كثيرون بأنه مازال عليه، أتاح له أن يحظى بمرحلة ختامية مجيدة. ووفقاً لما هو موضح في سجلات المخابرات الفرنسية، "لقد كانت عودة

أمير الدروز إلى بلاد الشام عودة مظفرة⁽⁸¹⁾“. كانت كما لو كان حضوره، الذي لطالما حرم منه، دليلاً على حقيقة الاستقلال.

وفي جولاتهما المظفرة عبر كل من بيروت، ودمشق، وحمص، وحماة، وحلب، كان في استقبال أرسلان والجابري حشد ضخم⁽⁸²⁾. فقد احتشد زعماء وطينون ورؤساء بلديات لاستقبالهما، وجعلت الحكومة السورية من دخولهما إلى دمشق احتفالاً فخماً عامراً بالحفاوة والتكريم. وكتب علي الطاهر واصفاً هذا الحدث وقال إنه يحتاج إلى خمسين صفحة من أجل وصف الاستقبالات الرائعة التي حظي بها البطلان العائدان⁽⁸³⁾. وأعرب أرسلان عن مشاعره الخاصة بكثير من البساطة في الساعات الأولى التي وطأت بها قدماء أرض بيروت: ”إنني في غاية السعادة، فقد عدت إلى هذا البلد بعد غياب دام واحداً وعشرين عاماً، وقلبي مفعم بالفرح لرؤيتي التطلعات الوطنية تتحقق أخيراً“⁽⁸⁴⁾.

ونسف تسييسه المتواصل الطقس الاحتفالي برمته تقريباً. فقد كانت خطاباته التي ألقاها، في كل فرصة أتاحت له، تصالحية حيال موضوع العلاقات الفرنسية السورية، وحماسية لجهة إمكانية تحقيق الوحدة العربية. وهذه المشاعر التي لم تجرِ مشاركتها في كل الأماكن لم تكن في حد ذاتها مثيرة. فخلال إقامته في حلب، ألقى أحد أسوأ خطاباته الطائشة التي افتقرت إلى الحكمة، حيث ألقى في الجامع الأموي، بوصفه مكاناً للتجمعات الكبرى، كلمة توجه فيها إلى مناطق من العالم العربي كانت تشهد توتراً متزايداً بشأن مستقبل الحريات العقدية والمذهبية، جاء فيها: ”من ليس مسلماً لا يمكن أن يكون وطنياً“⁽⁸⁵⁾. وبعد ذلك، كافح أرسلان للتعافي من الاهتياج الذي أعقب هذه الكلمة. وطلب من رئيس أساقفة حلب أن يأذن له لإلقاء كلمة في إحدى الكنائس لكي يشرح للجمهور المسيحي ما كان يعنيه حقاً-الإلحاد لا ينطوي بدهاءة على حب الوطن، والإيمان الديني مكون لازم من مكونات الوطنية، وليس عائقاً يعترض سبيلها. ويدل سياق الكلام على أن هذا ما تضمنته رسالة أرسلان، ولكنه لم يهتم في التعبير عنه بطريقة

مدروسة. وعلى الرغم من أنه لم يلق كلمة في الكنيسة فقد أجرى تعديلات وعرض توضيحات لأرائه. ولم يغير التقدم بالعمر أسلوبه.

وعلى الرغم من أن الخطاب المذكور كان مشوهاً فإنه لم ينسف عودته. ففي ظل أجواء أفضل التقاليد التي يراعيها الوجهاء اللبنانيون، أمضى صيف العام (1937م) في صوفر حيث التقى مراراً وتكراراً مع الحاج أمين الحسيني. وأشيع أيضاً أنه سوف يترشح في الانتخابات البرلمانية القادمة. وتوجت زيارته -وربما اختتمت- بحضوره مؤتمر بلودان في شهر سبتمبر/ أيلول.

والاجتماع الذي يسمى رسمياً المؤتمر القومي العربي عقد في منتجع صيفي سوري قرب دمشق. وتمت الدعوة إلى انعقاده بناء على مبادرة من الحاج أمين الحسيني في أعقاب توصية هيئة بيل (نسبة إلى اللورد روبرت بيل، رئيس الهيئة) التي قضت بتقسيم فلسطين إلى قسمين أحدهما يهودي والآخر عربي. وعلى الرغم من أنه نظم بسرعة ومن دون رعايات رسمية، فقد اجتذب مؤتمر بلودان 411 مندوباً، و"كان حدثاً مهماً وشكل نقطة تحول على صعيد انخراط العالم العربي المتزايد في المشكلة الفلسطينية"⁽⁸⁶⁾. ومنذ لحظة وصوله إلى بيروت في شهر يونيو/ حزيران، أكد إرسال التزامه الشخصي المستمر بهذه المشكلة. وتضمنت تصريحاته إلى الجموع التي احتشدت من أجل الترحيب به هذه الكلمات: "ونحن في غمرة فرحتنا الوطنية، يتعين علينا ألا ننسى فلسطين... هل يمكن تقديم تنازلات في قضية حيوية من هذا القبيل؟ الحق إلى جانبنا، ولن يقدر أحد على انتهاك حقنا. ولن تتمكن سوريا من الحفاظ على كيائها إن ضاعت فلسطين. ولن يكون في وسع العرب أن يحلموا بتحقيق تقدم إن سمحوا لأنفسهم بأن يضيعوا فلسطين"⁽⁸⁷⁾. وبقدر ما كان يريد أن يبقى في بلاد الشام، إلا أنه لم يتمكن من أن يمنع نفسه من الجهر بقول ما يجول في خاطره دونها خوف. وإن كان يعتقد أن إحراجه بريطانيا كفيل بإرضاء الفرنسيين، فقد كان مخطئاً فيما ذهب إليه.

الاهتمام الذي أحاط بوصول أرسلاّن إلى سوريا، على الصعيدين المحلي والأوروبي، رافقه إلى بلودان. فقد كرمه الوفد أيضاً بتعيينه في منصب آخر (نائباً ثانياً للرئيس)، لمنحه شرف مخاطبة هذا التجمع. وتناقضت تصريحاته نوعاً ما مع طبيعة المؤتمر المتمثلة بالأهمية المركزية للعرب فيه. ففي حين أقر بجدوى التضامن العربي في الدفاع عن فلسطين، ذكّر المشاركين في المؤتمر بأن حافز الإسلام الديني وحتى الدافع الديني للمسيحية ينبغي أن يوظفا في هذا المضمار⁽⁸⁸⁾. فأرسلاّن، الذي كان حضوره هو الأكثر استرعاء للاهتمام في المؤتمر الذي قرّر أنه "من واجب والمسلمين في كل مكان أن يقاتلوا وهم على قلب رجل واحد من أجل الحرية، والخلّاص، وتوحيد فلسطين مع البلاد العربية، وإفشال المساعي الاستعمارية والصهيونية الرامية إلى إقامة دولة يهودية"، لم يحسن التنبؤ بشأن إقامته المستمرة في سوريا⁽⁸⁹⁾. وبعد اختتام أعمال مؤتمر بلودان بأيام قليلة ألقى خطاباً، جرى تداوله ونشره على نطاق واسع، عن الوحدة العربية في مقر النادي العربي في دمشق، فاستهلك رصيده.

وفي شهر ديسمبر/ كانون أول من العام (1937م)، أبحر أرسلاّن بصورة مفاجئة من بيروت إلى الإسكندرية، من دون تقديم أي تفسيرات لرحيله، ولكن كان مطلوباً منه أن يغادر بالتأكيد. وكانت وزارة الخارجية في لندن مستاءة بسبب وجوده في مكان خاضع للانتداب الفرنسي. وشرع مسؤولون فرنسيون يتساءلون أيضاً إذا ما كان نفعه بوصفه مؤيداً لمشروع المعاهدة أخف وزناً وأقل أهمية من حديثه جهاراً ونهاراً وبصراحة عن مسائل أخرى. ولاحظ تقرير المخابرات الفرنسية الذي رصد أنشطته أن خطابه الذي ألقاه في حلب، وحضوره في بلودان، وخطابه الذي ألقاه في النادي العربي، كل ذلك "استرعى انتباه سلطات الانتداب في بلاد الشام"⁽⁹⁰⁾. وكان ذلك كافياً على ما يبدو لوضع حد لإقامته. وفي حين تم العفو عن الجابري من قبل فرنسا وبقي في سوريا ليشغل منصب محافظ اللاذقية، طرد أرسلاّن ثم تعرض إلى مزيد من الإذلال عندما رفضت الحكومة المصرية السماح له بالنزول من السفينة في ميناء الإسكندرية. ولم

يكن لديه خيار سوى العودة إلى جنيف. وجرى تقليص عدد أعضاء الوفد السوري الفلسطيني إلى واحد فقط.

وعلى مدى العام اللاحق، كان أرسلان ينظر، وقد تحرر من الأوهام وزالت الغشاوة عن عينيه أكثر فأكثر، إلى تنصل مجلس النواب الفرنسي التدريجي من المعاهدة السورية. وكان يدرك أنه لسوف يحرم من الإقامة الدائمة في سوريا ما بقيت فرنسا مهيمنة عليها. وبالنسبة للأضرار التي يدرك تماماً أنه ألحقها بمفرده بالصرح الإمبريالي في شمال أفريقيا، فإنه لا يمكن التسامح معه أو العفو عنه.

الفصل الخامس

معلم جيل: شمال أفريقيا

هذه المسألة دواؤها حملة عامة... هذا مع الاحتجاجات إلى فرنسة نفسها وإلى جمعية الأمم، ومخاطبة سفير فرنسة بمصر في ذلك، فإن المسائل الدينية لا يقال فيها: هذه مسائل داخلية لا تعني سوانا.

أرسلان⁽¹⁾

على مدى السنوات الإحدى والعشرين التي قضاها في منفاه الاختياري، لم يكف شكيب أرسلان عن تحريض شمال أفريقيا. وعلينا ألا ننسى مسألة الظهير البربري.

دسبارمت⁽²⁾

تخللت حياة شكيب أرسلان وكتابات الفوضى الثقافية والسياسية التي أحدثت اضطرابات عنيفة في المشرق العربي، في السنوات الخمس عشرة التي أعقبت اندلاع الثورة السورية في العام (1925م). فقد علق عبر كتاباته على القضايا جميعها، الكبيرة منها والصغيرة، وكان قد خبر كثيراً منها مباشرة. وإن كان دوره قد اقتصر على الفصل في عدد قليل منها، فقد كان له قطعاً تأثير في آراء الآخرين في عصره. ولكن إسهامه في قضايا العروبة المشرقية أتى متأخراً بعض الشيء. ونتيجة لذلك كان عليه مواجهة ارتباطاته العثمانية السابقة، كما تعين عليه أن يكافح من أجل بقائه واستمراره في المعترك

السياسي وسط نظرائه المشاكسين الشرسين. ولم تكن ثمة ظروف مقيدة مماثلة حاضرة في علاقاته مع حركات الاستقلال في شمال أفريقيا، حيث قوبلت تدخلاته هناك بترحيب وحفاوة عارمة. ففي المغرب كانت له اليد الطولى وكان تأثيره واضحاً وقاطعاً، وحقق سمعة وشهرة هناك بوصفه متحدثاً إسلامياً ناطقاً باسم المسلمين وخبيراً سياسياً استراتيجياً. وفي المغرب كانت سمعته مصنونة لا تشوبها شائبة. وجاء فيما كتبه عنه شارل - آندريه جوليان: "كان معين ربيع فكره الذي لا ينضب هو السبب في إنعاش القومية المغربية التي أنشأ معظم قادتها أو أهمهم⁽³⁾". وأحضر إلى النخبة السياسية الناشئة في شمال أفريقيا، وتشكل في معظمها من شباب يافعين يصغرونه بجيلين، حضوره المحترم بوصفه معلقاً نشطاً على قضايا المشرق العربي إلى جانب قدرته على جعل أولئك الشباب يشعرون أنهم جزء من الكيان العربي الإسلامي الشامل. وكذلك رَوَّج نضالاتهم لدى زملائه وأصدقائه المشرقيين، ساعياً إلى إذكاء روح الروابط الأخوية القومية العربية والجامعة الإسلامية. وهذا الجهد الذي تميز بتحقيق بعض الإنجازات الأساسية المهمة، شكل مكوناً آخر من مكونات سمعة أرسلان الفريدة في نوعها. ولم يكن أي ناطق عربي آخر في فترة ما بين الحربين مرتبطاً بصداقات خالصة قائمة على المودة في المشرق والمغرب العربي على حد سواء، ولم يتمكن أي شخص آخر من ربط شطري الوطن العربي عبر شخصه كما فعل أرسلان. وأما كيف احتل أرسلان، وهو الرجل المشرقي الصِّرفُ مكانة مركزية مرموقة في المغرب، فهذا أمر يعود إلى مكانته وسط النخبة المتحضرة في المنطقة، وإلى توقيت ظهور الحركات الشمال أفريقية الجديدة، كما يعود مرة أخرى إلى موقعه الخاص في أوروبا.

ووجدت البلدان الثلاثة الشمال أفريقية المستعمرة من قبل فرنسا في الدعوة إلى وحدة الإسلام الشاملة في المشرق العربي عقيدة جذابة، تحض من خلالها على مقاومة فرنسا قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها. والمنظمات السياسية القومية التي تشكلت في السنوات الفاصلة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية كان يقودها غالباً رجال ولدوا بين العامين (1890م - 1910م). وكان أولئك القادة حريصين على إخفاء التواصل

الذي كان منعقداً بين حركاتهم وبين أنماط المقاومة التي تشكلت قبلها. ومن ثم، صحيح أن معاهدة الحماية المغربية لم توقع إلا قبل سنتين من الحرب العالمية العظمى، وأن القبائل البربرية لم تعرف الهدوء حتى العام (1934م)، مع ذلك لا بد من إدراك أن المحكمة الشريفة وزعماء القبائل والتجار الحضريين والعلماء ما برحوا جميعاً يعارضون الهيمنة الفرنسية على بلادهم. وفي سياق معارضتهم لها، اعتادوا على التطلع إلى مصر وإلى الإمبراطورية العثمانية سعيًا وراء الحصول على مساعدة خارجية وإلهام فكري⁽⁴⁾. واشتدت هذه النزعة بعد العام (1908م) عندما استولت حركة تركيا الفتاة على السلطة في اسطنبول، وتضافرت المصالح الألمانية والعثمانية وعملت على بذل جهود شبه رسمية متنوعة، ترمي إلى إرباك فرنسا في المغرب، وإلى جذب المقاومين المغاربة وتوجيههم وجهة الوحدة الإسلامية، وهو الخيار الذي يجذبه أنور باشا. وعمل الاتحاد المغربي الذي مر ذكره في الفصل الأول من هذا الكتاب على تجنيد طلاب مغاربة في جامعة الأزهر في القاهرة، ووضع خططاً لدعم الثورة المغربية التي اندلعت في العامين (1911م) و(1912م)، وشجع من خلال جهود الشيخ علي يوسف إرسال صحيفة المؤيد وغيرها من الصحف المصرية إلى المغرب. وإبان الحرب عملت منظمة أنور باشا الأمنية، التشكيلات المحسوسة [الاستخبارات]، مع خبراء ألمان على إرسال عملاء إلى المغرب، وعلى تأسيس مراكز دعائية في كل من اسطنبول ولوزان وبرلين ومدريد، حيث كانت توزع منها المواد المقررة ويصار إلى إيصالها إلى عموم أنحاء المغرب. ونشأت بذلك اتصالات وروابط وثيقة بين بعض أفراد النخبة المغربية وبين ناشطين من أنصار الوحدة الإسلامية الشاملة في المشرق العربي، قبل الانهيار العثماني الذي حدث في العام (1918م).

وفي الجزائر، لم تكن الإمكانيات المتاحة التي يعول عليها في إحداث تأجيح سري واعدة بالقدر ذاته، بل لم تكن تبشر بخير: إذ كان قد تم القضاء على نخبة رجال القبائل في أعقاب المقاومة التي شهدتها حقبة الأربعينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر، واستبدل البورجوازيون المدينيون وأحل محلهم مستعمرون أوروبيون، وأقصيت

المؤسسة الدينية. ولكن كما هو موضح أدناه ظل الحافظ حياً في أوساط القيادة الإسلامية؛ الأمر الذي حملها على إرسال عبد الحميد بن باديس إلى القاهرة وبشير الإبراهيمي إلى دمشق في السنوات الأولى من هذا القرن، فقدمت بذلك ثلّة من الباحثين السياسيين المطلعين على الأسلوب القائم على وحدة الإسلام في الشرق الأدنى والمنجذبين إليه.

وعلى نحو مماثل، لم يكن الشباب التوانسة في تسعينيات القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين مجرد متضامين ليبراليين، بل عمل رجال مثل الأخوين علي ومحمد باش حانبه وعبد العزيز الثعالبي على تأسيس صحيفة كانت تصدر باللغة العربية إلى جانب الفرنسية، وكانوا يتطلعون، في سياق الجهود المعقدة المبذولة لإنقاذ وطنهم، إلى فضاءات أوسع في رحاب اتحاد إسلامي، إضافة إلى معرفة إمكانية الاندماج مع المستعمرين. وفي العام (1910م)، أعلن علي باشا عبر صحيفة التونسي أن "كل مسلم هو داعم ومؤيد لاتحاد المسلمين، والتوانسة مؤيدون وموالون لهذه السياسة ومنضوون تحت لواء الدولة العثمانية التي هي نتاج لهذا المفهوم... ويؤثر الأتراك والمصريون في مشاعرنا ووجداننا تأثيراً ملهماً بقدر ما يفعل جيراننا الأقربون في الجزائر أو الشعوب في آسيا الأبعد مسافة"⁽⁵⁾.

ومن بين الأشخاص الذين تحلقوا حول أنور باشا وعباس حلمي وتحركوا متنقلين بين الجماعات السرية في كل من برلين ولوزان واسطنبول والقاهرة، والذين روجوا لفكرة الاتحاد الإسلامي الشامل منطلقين من منطلق الإيمان الشخصي والالتزام السياسي، لم يكن أحد أكثر حضوراً واستعداداً ومواظبة وشهرة من أرسلان. وعلى الرغم من أنه لا يمكن دوماً توثيق انخراطه المباشر الكلي، فإن ارتباطاته الشخصية معروفة. وفي عالم واضعي الخطط السرية والتجمعات النخبوية الصغيرة، الارتباطات من ذاك القبيل كفيلة بأن تبوح بأمور كثيرة. وأرسلان لم يكتشف فجأة شمال أفريقيا بوصفه جزءاً من قضية إسلامية أكبر منه حجماً في حقبة ما بعد الحرب، بل اتحد مع كل الحركات بغية توحيد المغرب والشرق العربيين أثناء أدائه مهامه في كنف الدولة العثمانية.

وشارك أرسلان زميله عبد العزيز جاويز في المحاولات التي سعت إلى تنظيم اتحاد مغاربي كبير إبان الغزو الإيطالي لليبيا في العام (1911م). ومن المحتمل أن يكون قد عمل على إعداد حملة دعائية إسلامية شاملة أثناء اندلاع الحرب. وقيل إنه أفاد من اتصالاته مع جمعية الاتحاد والترقي في تأمين مكانة مرموقة لعلي باش حانبة، التونسي الذي ترأس مكتب الاستخبارات التابع لأنور باشا في اسطنبول في العام (1914م) ⁽⁶⁾، وانضم إلى الرجلين اللذين أوكلت لهما مهمة الإشراف على مكتب لوزان، عباس حلمي ومحمد باش حانبة. وأداؤه مهامه في برلين أثناء الحرب وقيامه بنشاطاته فيها بعد الاستسلام العثماني مكناه من إقامة علاقات متينة عن كثب مع ألمان، من المجتمع المدني، آمنوا بإمكان قيام ثورة إسلامية شاملة مناهضة لبريطانيا وفرنسا ⁽⁷⁾. وفي برلين أيضاً، مات محمد باش حانبة بين ذراعي أرسلان في العام (1919م) ⁽⁸⁾.

زودته مفاهيمه عن الاتحاد الإسلامي الشامل واتصالاته الواسعة وجاذبيته الشخصية بسلك ناظم عابر للزمان والمكان، مضى به من الشرق الأوسط العثماني إلى المغرب، ومن جنيف والقاهرة في حقبة ما بعد الحرب، في طريق العودة إلى المغرب. وكما لاحظ إدموند بيرك، فإنه لا ينبغي استغراب تأثير أرسلان على الجيل اللاحق من القوميين في شمال أفريقيا: "ذلك لأنه لعب دوراً مهماً في تحويل كثير من آبائهم مما كانوا عليه إلى تبني فكرة الاتحاد الإسلامي" ⁽⁹⁾.

وكما كانت حال آبائهم، فإن أبناء الجيل الجديد الذين بلغوا أشدهم بعد الحرب العالمية الأولى أحيطوا علماً بالأحداث التي كانت تجري في المشرق العربي. ومن خلال الدور البارز الذي لعبه في الإعلان عن تلك الأحداث، أصبح أرسلان رجلاً مشهوراً يحظى بالإعجاب والاحترام. وكان حاضراً كلما قصده الناشطون المغاربة طلباً لإرشاده وتوجيهه، كما كان على استعداد لخوض غمار مغامرات جديدة. والوجه الأمثل لدراسة دور أرسلان في المغرب في ثلاثينيات القرن العشرين إنما يتم عبر بحث وفحص منفصلين لعلاقاته ببلاد المغرب الأربعة: المغرب وليبيا والجزائر وتونس، دون اعتزام إجراء مراجعة شاملة لتطور كل حركة من حركات استقلال هذه البلدان، بل

لاستعراض ظروف ارتباطه بها. واستمالة شمال أفريقيا له تميّط اللثام عن كثير من محتوى الاحتجاجات المغربية في حقبة ما بين الحربين العالميتين، كما تكشف النقاب عن دوره الشخصي الخاص وطموحاته.

وكانت اتصالاته الأولى مع الجيل الأحدث عهداً من الناشطين المغاربة قد جرت مع بعض الطلاب المغاربة في باريس. جذبتهم سمعته إليه، وهو بدوره وجد أن التوجه الديني لليقظة الثقافية المغربية يتوافق مع آرائه الشخصية الخاصة السياسية منها والاجتماعية. وفي مطلع عشرينيات القرن العشرين، أقرت مجموعات من الحضرين المغاربة بالحاجة إلى إحياء الإسلام من أجل إحياء مجتمعهم كله. وسعوا إلى إنجاز تلك المهمة من خلال منظومة ثقافية تعليمية على أن تكون خارج نطاق هيمنة السلطات الفرنسية. وفي مطلع عشرينيات القرن العشرين أيضاً، أسست سلسلة من المدارس التي اصطلح على تسميتها المدارس الحرة في كل من فاس والرباط وتطوان. وطرحت هذه المدارس المشبعة بالمفاهيم السلفية مناهج دراسية مصممة خصيصاً لتوليد شعور بالفخر مستمد من الماضي الإسلامي، لإنعاش الأمل في مستقبل إسلامي يستلهم روح العصر، على أن يكون خلواً من تأثيرات الثقافة الأوروبية غير المرغوب فيها⁽¹⁰⁾.

ومع دخول فرنسا في حرب ضد عبد الكريم، انخرط الحريجون في المدارس الحرة بمزيد من المجاهرة في النشاط السياسي عبر تأسيسهم جمعيات سرية ترمي إلى نشر فكر الإصلاح الإسلامي، شأنها شأن المدارس نفسها، بين النخبة الحضرية. وكان أحد زعماء جمعية من هذا القبيل أسست أواخر العام (1925م) في فاس هو محمد الفاسي. وكان ثمة مجموعة مسهمة أخرى عملت على تنظيم جمعية أخرى في الرباط ضمت كلاً من أحمد بلفريج ومحمد حسن الوزاني ومكي الناصري⁽¹¹⁾. وكان هؤلاء أصدقاء أرسلان الأقرب إليه والأوثق صلة به بين أعضاء القيادة الوطنية المغربية. ذهب هؤلاء الشباب الثلاثة إلى باريس لمتابعة تعليمهم ليصبحوا في العام (1927م) من أبرز مؤسسي جمعية طلبة شمال أفريقيا المسلمين. وكانت الجمعية قد تأسست بدايةً لتقديم طائفة من خدمات الإسكان والخدمات الاستشارية لأعداد متزايدة من الطلاب

المغاربة في العاصمة الفرنسية. وسرعان ما انخرطت هذه المنظمة في شؤون سياسية. وابتاعاشها في ظل أجواء الطلبة البهيجة في الخارج على الضفة اليسرى للبحر الأبيض المتوسط، استقطبت جمعية طلبة شمال أفريقيا المسلمين شباباً من البلاد الشمال أفريقية الثلاثة وجمعتهم معاً، وبينت لهم هويتهم المشتركة ومشكلاتهم المشتركة وجعلت مقرها مركزاً، حيث كانت منه توزع المنشورات وفيه تعقد الاجتماعات⁽¹²⁾.

لكن حتى مع التحاق الطلبة المغاربة بمدارس باريس الفرنسية، ظلوا مخلصين لمبادئ الإصلاح الإسلامي ومثله، وشرعوا بإطلاق حركة احتجاجاتهم المناهضة للإمبريالية الثقافية الفرنسية انطلاقاً من تمسكهم بتلك المبادئ. وكان يتعين أن يتلائم مسارا السياسة والإصلاح الديني، وكانت حركة المدرسة الحرة الأصلية مؤثرة بما يكفي، وأصبح الخريجون فيها، من ذهب منهم إلى أوروبا ومن تابع منهم دراساته الإسلامية التقليدية العليا على حد سواء، ملتزمين بما يكفي بأن تكون "السلفية الينبوع الذي تستقي منه الوطنية المغربية مبادئها"⁽¹³⁾. وبوصفهم طلاباً في المدارس الثانوية في كل من فاس والرباط، تربى هؤلاء "القوميون في المقام الأول" على المنشورات التي كانت تصدر من القاهرة، وأبرزها المنار، والفتح، والزهراء وعلى قصائد أحمد شوقي⁽¹⁴⁾. وعندما قابل المغاربة الشباب فعلياً، في باريس وهم على عتبة الالتزام السياسي، أرسلان مؤلف التعاليم والمبادئ التي ألهمتهم أيما إلهام، وهو الذي كان تلميذاً لمحمد عبده وصديقاً لرضا وأحمد شوقي وداعية ملتزماً بقضية شديدة الشبه بقضيتهم؛ كان للقاء تأثير قوي وفوري فيهم، وعثر نشاطهم الفتي عند أرسلان على التوجيه والإرشاد، وكان على استعداد لإسداء النصيحة والمشورة لهم.

ويحتمل أن يكون دخول أرسلان إلى الأوساط الطالبيّة قد جرى بوساطة بلغريج ومحمد الفاسي. وكان كلاهما وفقاً لما قاله هالستيد قد زارا أرسلان في جنيف مرات عديدة إبان سني دراستهما في باريس بين العامين (1926-1932)، وتلقيا منه معاملة ورعاية كما لو كانا ولديه⁽¹⁵⁾، ورافقاه في الشطر الأخير من رحلته عبر إسبانيا، وكان لهما دور أساسي في ترتيب النتيجة المهمة للرحلة الأولى التي قام بها أرسلان إلى

المغرب. وصل إلى طنجة في رحلة بحرية في التاسع من شهر أغسطس / آب من العام (1930م). وفي التاسع عشر من الشهر نفسه قفل عائداً إلى قádiz. كانت إقامته في المغرب قصيرة الأمد وخضعت لمراقبة عن كثب. ولكن استناداً إليها تكونت صداقاته السياسية الأكثر ديمومة، وتطورت احتجاجاته المناهضة للإمبريالية الأكثر فاعلية. كتب ليفي بروفنسال عن هذه الزيارة الآتي: "منذ اللحظة الأولى للزيارة، توطدت دعائم علاقات دائمة وممتينة جداً بين شكيب أرسلان والحركات السرية في كل من تطوان والرباط وفاس، وتمكن من خلالها من أن يؤثر في الناس ويلهب مشاعرهم، ومن تنسيق الحملات المناهضة لفرنسا.."⁽¹⁶⁾.

وكما كان يحدث غالباً أثناء رحلات أرسلان، كان حضوره إلى منطقة معينة وقُدوم الوجهاء والأعيان للترحيب به والثناء عليه، يتمخض عن اجتماع مجموعات بعضها مع بعض لم يكن اجتماعها ممكناً في الأحوال الأخرى. وخلال إقامته الخاطفة في طنجة والأيام المعدودة التي أمضاها في تطوان، اجتمعت وفود من مدن مغربية عديدة من أجل استقباله والترحيب به، وأتاح له الفرصة لتدشين دوره بوصفه وسيطاً بين أولئك الذين كان عليهم أن يقودوا حركة الاستقلال المغربية على مدى العقدين اللاحقين⁽¹⁷⁾.

وفي تطوان حل أرسلان ضيفاً على عائلة بنونة الموقرة التي وطد معها عرى صداقة وثيقة للغاية. وكان عميد ناشطي الأسرة، الحاج عبد السلام، قد أسس مدرسة حرة وجمعية سرية في مدينته الأم في العامين (1923م و1926م) على التعاقب. وكان بين الأشخاص الأكثر شهرة في المنطقة الإسبانية. وعمل الحاج عبد السلام، بين آخرين، بوصفه صلة وصل بين أرسلان والوطنيين في كل من فاس والرباط⁽¹⁸⁾. وأثناء إقامته في تطوان، ألقى أرسلان سلسلة من المحاضرات العامة وسعى، على وجه العموم، إلى مد جسور التواصل بين المغاربة وأبناء المشرق العربي. وكان يمتلك مضيفيه شعور مقلق بالدونية حيال مراكز التعليم الإسلامي والنشاط السياسي المشرقية. وفي مقابلة كشفت النقاب عن مواقف مغربية بقدر ما أماطت اللثام عن مواقف أرسلان، طرحت عليه مجموعة من الأسئلة من قبل أحمد بلفريج بدا أنه يبحث من خلالها عن شيء من التوكيد:

ما رأيك في شعب المغرب؟ هل توجد بقضة في المغرب؟ ما هي مناقب المغرب؟ ما رأيك في اللغة العربية في المغرب؟ وكانت إجاباته إطنائية، ورمت إلى إعلاء شأن القضية المغربية في عيون مناصريه. وكان يهدف من خلال إجاباته أيضاً إلى جعل القضية المغربية محل اهتمام القراء المشاركة⁽¹⁹⁾. ويعتقد أحد الأشخاص المغاربة البارزين على الأقل أن الزيارة حققت آمال الأمير: "لقد فتحت الباب على مصراعيه أمام مد جسور التواصل مع أشقائنا في المشرق". و"رصعت السلسلة التاريخية لليقظة المغربية الناشئة"⁽²⁰⁾.

وفي ظل أجواء الإعجاب المتبادل، كرم أرسلان في الأمسية الأخيرة التي قضاها في تطوان وذلك على هامش مآدبة أولمت على شرفه وأعدت بعناية فائقة. وتناوب في تلك المناسبة على إلقاء الخطب والقصائد رجال غدوا لاحقاً من قادة المغرب الوطنيين. فقد ألقى عبد الخالق الطريس ومحمد داود كلمتين، فيما ألقى التهامي الوزاني قصيدة هنا فيها المغرب على حسن حظه الذي تمثل في احتفائه بالزيارة التي قام بها ضيف على هذا القدر من التميز. وفي لفظة معبرة توجت حفل التكريم، قدم محمد بنونه للأمير جلاية وعباءة⁽²¹⁾. وهذا قليل من كثير قيل في تقرّظ ضيف محترم إكراماً وتشريفاً. ومن جانب آخر، يعد ضرباً من فرط الاحتراس عدم الإشارة إلى العلاقات السببية بين ظهور أرسلان في المغرب وبين انخراطه في التطورات اللاحقة. وثمة رجل مشهور ومراقب عن كثب أشار إشارة شخصية وعامة جداً إلى المغاربة ليبين أنهم ليسوا معزولين. فريبورتاج بنونه على الرغم من كونه مفرطاً في التسامح والتساهل بمقياس بعض المعايير الصحفية، فقد تمخض عن الإثارة ذاتها التي عبر عنها أرسلان نفسه ذات مرة في وصفه حضور محمد عبده إلى بيروت. كانت لزيارة قيمة رمزية ومضمون حقيقي في آن معاً، ولم تكن الاتصالات التي أجراها تفتقر إلى الأهمية.

عندما عبر أرسلان قناة السويس في طريق عودته من مكة في العام (1929م)، كان يرتدي زياً بدوياً. وعلى الرغم من أنه يمكن أن يشك المرء في أنه وصل في طريق عودته إلى قادش مرتدياً الجلّباب والبرنس المغربيين، فقد بينت الأحداث أنه قبل بجديّة ورصانة ولاء التطوانيين له وقدر تقديرهم له. وأول تأويلاً دقيقاً حماس الشباب المغاربة الذين

رأوا فيه قناة يستطيعون من خلالها التعبير عن سخطهم المتزايد على الحكم الفرنسي. ودفع إرسال قضيتهم إلى مواقع متقدمة أكثر مما كانوا يتوخون، وتمكن في غضون أشهر من جعلها قضية إسلامية عالمية قوية. وساعده في ذلك حماقة كبيرة ارتكبتها إدارة حكومة الوصاية الفرنسية.

ففي شهر مايو/ أيار من العام (1930م)، صدر مرسوم صار يعرف بالظهير البربري وقعه السلطان المغربي الشاب⁽²²⁾. ومنذ أول عهد الوصاية، أقرت السلطات الفرنسية بوجود نظام قضائي متميز ومستقل في مناطق البربر المغربية، حيث كانت تهيمن العادات والتقاليد المحلية على بعض أحكام الشريعة. وسع مرسوم العام (1930م) هذا المفهوم كما وسع نطاق مهام المحاكم البربرية في مجال القانون المدني، في حين أنه فرض القانون الفرنسي في القضايا الجنائية. وكان المرسوم مستنداً إلى مبدأ: فزق تسد، ويرمي إلى عزل البربر عن العرب إدارياً وثقافياً. ومن غير المرجح أن يكون المندوب السامي لوسيان سان ومستشاروه قد وضعوا على رأس اهتماماتهم إجراء تحول ثقافي كامل لدى البربر. لكن بإخضاعه نصف السكان البربر تقريباً إلى سلطة قضاء المحاكم الفرنسية في مجال القضاء الجنائي، فإنه يمكن أن يفسر الظهير البربري بوصفه طعناً مباشراً في سلطة حكومة السلطان، وفي أحكام الشريعة الإسلامية، وفي سلامة الدين الإسلامي ذاته. كما يمكن أن ينظر إلى الظهير البربري بوصفه محاولة لوضع حد لولاء البربر الهش للدولة المغربية، تسهلاً لدجهم واستيعابهم في بوتقة الأعراف والعادات الفرنسية. ولكي يبدو الظهير البربري أشد إيعاداً وأكثر تهديداً، تزامن الإعلان عنه ووضعه موضع التنفيذ الفعلي مع فترة شيدت فيها مدارس عديدة خاصة بالبربر تعتمد منهاجاً دراسياً فرنسياً خالصاً، وبذلت من خلالها جهود محدودة، إلا أنها تثير الذعر وتندّر بالخطر، تشجع البربر على الارتداد عن الإسلام والتحول إلى المسيحية.

وبَيَّنَّ الرد على الظهير عمق إساءة تقدير إدارة المندوب السامي لمدى المشاعر الإسلامية لدى رعاياها من العرب والبربر على حد سواء. فقد صار لدى حركة التوكيد الثقافي الوليدة قضية محددة ملموسة، وبات في وسعهم أن يتوحدوا حولها. كما أضحى

لدى الحركة شكيب أرسلان متحدثاً دولياً باسمها، وبوساطته غدا في وسع الحركة أن تعبر عن مظالمها. وداخل المغرب، نظم الشباب الذين التقى بهم أرسلان في كل من باريس، وجنيف، وتطوان أنشطاً متنوعة من الاحتجاجات التي لم تتوسل العنف - صلوات الجماعة حداً على ما حصل، وإيفاد وفود رسمية إلى السلطات الفرنسية، والتظاهر في الشوارع من وقت لآخر. ولم يحقق أي من الإجراءات المذكورة بذاته نجاحاً. وعانى منظموها أحكام سجن ونفي، وفي حالة محمد الوزاني، تعرض الرجل إلى الجلد علناً. ولكن التأثير التراكمي للتظاهر تمثل في إيقاظ الضمير الجماعي للمغرب في معرض الدفاع عن الإسلام الذي كان يتعرض لهجمة.

هذه القضية من النوع الذي يلائم أرسلان. فعندما تم تقييد عمل الحركة في المغرب من قبل الفرنسيين، رسم لنفسه دوراً بذل قصارى جهده للقيام به وذلك بالعمل الوثيق مع بلفريج ومحمد الفاسي ومكي الناصري، ونسق حملة دعائية دولية مناهضة للظهير، وفتح قنوات للمغاربة مكنتهم من التواصل مع العالم الإسلامي على نطاق واسع - لا سيما عبر صحف الفتح والنار والأمة العربية، وزودهم بمجموعة من التكتيكات التي تبنيها إلى حد بعيد، وسخر خبرته الكبيرة في الجدل والتفاوض لخدمة احتجاجاتهم. وقد نجم عن كل ذلك جهد جبار مثير للإعجاب كان عاملاً رئيساً في تأطير صورة أرسلان بين ناشطي شمال أفريقيا وفي أوساط المسؤولين الفرنسيين.

وبعد عودة أرسلان من تطوان بوقت قصير، شرعت صحيفة الأمة العربية بإطلاق ما غدا لاحقاً حملة صحفية مستمرة أفردت لتفنيد الظهير البربري والتعليق عليه. وبأسلوب الداعية الشهير في عصره، لم يكن أرسلان يهتم بالحقائق التي يتوفر عليها بقدر اهتمامه الذي لا هوادة فيه في تقديم نسخته هو منها. وبالنسبة له، كان في أذهان واضعي الظهير البربري هدف رئيس وحيد يتمثل في عزل البربر وارتدادهم عن الإسلام وتحولهم في نهاية المطاف إلى المسيحية. وصور أرسلان هذا القانون على أنه تنويع لجهود الكاردينال لافيغري التنصيرية، وبوصفه عملاً مدبراً مناهضاً للإسلام شكل انتهاكاً لآمال البربر وتطلعاتهم ولشروط معاهدة الحماية الموقعة في العام (1912م)، ولحرية المعتقدات

الدينية المقررة والمتفق عليها عالمياً، إلى جانب انتهاك القانون لأمر أخرى⁽²³⁾. والمقطع الآتي نموذج من الحجج التي كان يسوقها أرسلان تنفيذاً للظهير:

قد يسأل سائل إن كان تطبيق قانون الظهير البربري، تبعاً لأهداف إدارة المقيم العام، تعني اعتناق البربر للمذهب الكاثوليكي. ونحن نجيب بقولنا: نعم. إنها تعني التطبيق المبدئي لإجراءات أُعْمِلَ الفكر فيها ملياً لتحقيق هذا الهدف. أولاً حَيْلَ بين البربر وبين التشريع الإسلامي، وانتزع منهم حق تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في مجال الأحوال الشخصية. وكانت تلك الخطوة الأولى في الفصل بين البربر والإسلام. والخطوة الثانية تمثلت في منع البربر من تعلم الدين الإسلامي واللغة العربية التي هي بالنسبة للمسلمين بمثابة اللغة اللاتينية لأتباع المذهب الكاثوليكي. وتمثلت الخطوة الثالثة في إرسال البعثات التبشيرية من أجل التبشير بالديانة المسيحية بين البربر في وقت لم يكن في وسع التعليم الديني الإسلامي فيه أن يتدخل في مساعيهم على صعيد نشر الدعوة إلى المسيحية. وتجدر الإشارة إلى أن الفرنسيين لم ينتظروا إلى حين إتمام الخطوة الأولى ليشرعوا بالخطوتين الثانية والثالثة. بل عملوا على تنفيذ الخطوات الثلاث جميعاً في آن معاً⁽²⁴⁾.

من خلال تنفيذ هذه السياسة، "يمكن أن يكون قد سوغ اسمه بهذه الطريقة، واشتهر في هذا القرن بوصفه من تم إنجاز عمل فرديناند وإيزابيلا⁽²⁵⁾". وتوجيهه لإصبع الاتهام فيما يتعلق بالنوايا المغرقة في الشر إلى المقيم العام ومستشاريه، تمكن أرسلان من عرض قضية البربر وإظهارهم بوصفهم ضحايا أبرياء، ومصيرهم مرتبط بمصير العالم الإسلامي بأسره: "لقد أحكمت القوة العسكرية الوحشية الغاشمة الآن قبضتها على الدين الإسلامي نفسه واستهدفته باعتداءاتها كما استهدفت حرية الضمير لدى أتباعه⁽²⁶⁾".

كان هذا البسط الواسع لقضية البربر في صميم طعن أرسلان بالفرنسيين. وبدا جلياً من خلال المقالات التي نشرها في جريدة الفتاح أنه كان يسعى إلى تحقيق ما هو أكثر

من مجرد طرد الفرنسيين. فحين عمل على إقناع إخوانه في الدين بأن لسياسة الظهير البربري أبعاداً تحمل في طياتها تهديداً مخيفاً، كان يأمل أن يهز ذلك أركان المجتمع الإسلامي العالمي، فيتخذ تدابير قوية وفاعلة. وأطلق تحذيراً: "وهذه القضية لا يقتصر الاعتداء فيها على إسلام البربر، بل يشمل العالم الإسلامي كله"⁽²⁷⁾. وكما فعل في العام (1912م) حين أطلق حملته الصحفية المناهضة للغزو الإيطالي لطرابلس، دعا إرسال المسلمين إلى رفض التهديدات الإمبريالية لدينهم وإلى التصدي لها. وكانت جماعات إسلامية أخرى تراقب من مواقع المتفرجين الإمبراطورية العثمانية وهي تنهار (خلف هذا عند إرسال حشرة لا سبيل إلى زوالها)، وقد أصبح معظم العالم الإسلامي خاضعاً للهيمنة الأوروبية. وإن نجح الفرنسيون في تطبيق الظهير البربري "حرمان البربر المسلمين من تطبيق الشريعة القرآنية"، أفلا يشجع ذلك كلاً من إنجلترا وهولندا على تطبيق سياسات مماثلة؟ وإذا لم يتصرف المسلمون من فورهم "إذن يخسرون دينهم كما خسروا ممالكهم وبلدانهم". إذن، لم تكن مسألة الظهير البربري مقتصرة على فرنسا والمغرب: "وكل مسلم في الدنيا له الحق أن يتدخل في هذه المسألة".

عمل إرسال على تنسيق هذا الانخراط، حيث اقتضت خطته أن يتدفق كم هائل من الرسائل والبرقيات والالتماسات والعرائض إلى عصابة الأمم، وإلى فروع الحكومة الفرنسية جميعها، وإلى سفارات الدول العظمى وقنصلياتها؛ لأن "هذا الخطب لا يزاح إلا بالصراخ المستمر الذي يصم الأذان، حتى لا تبقى فرنسا قادرة أن تتجاهله"⁽²⁸⁾. وكان سلوكه هذا شبيهاً باستراتيجية الاحتجاج التي كان ينتهجها حيال سلطات الانتداب نيابةً عن سوريا وفلسطين. وما جعل حملة الظهير البربري أكثر تميزاً تمثل في استجابة المسلمين العالمية لمناشدة إرسال. فتأسست لجان احتجاج من سومطرة إلى برلين، ومن الهند إلى باريس. وفي جاوة، تشكلت هيئة إسلامية للدفاع عن البربر، وفي القاهرة ترأس الأمير عمر طوسون منظمة مماثلة عملت عن كثب مع مجموعات الشباب المسلمين التابعة لعبد الحميد سعيد، وذلك في مجال نشر العرائض وجمع التوقيعات. وجعل رشيد رضا هيئة صحيفة المنار في خدمة الحملة، وانضمت بقية الصحافة العربية، من تونس

إلى دمشق، إلى حملة الاحتجاج المناهضة للظلم الذي لحق بالبربر المسلمين⁽²⁹⁾. وأسوق مثلاً على نشر الوعي لدى شخصيات إسلامية عامة حيال مفهوم تهديد الإمبريالية للإسلام، وعن القيمة الدعائية للقضية التي نحن بصدددها، والمثال مستمد من مؤتمر القدس الإسلامي الذي أقر قراراً يتعلق "بسلب البربر دينهم الإسلامي"، وتضمن القرار إدانة الوفود المشاركة السياسة المصممة، وفقاً لرؤيتهم، لجعل المسلمين البربر يتحولون عن دينهم ولفرض الدين المسيحي عليهم⁽³⁰⁾. وقال محمد الوزاني عن ذلك، وربما يكون قد تملكه الدهش ولكن بالتأكيد كان السرور يغمره. "إن الحركة قد تجاوزت كل التوقعات وتخطت كل الآمال..⁽³¹⁾".

وفي حين كانت حملة إثارة الرأي العام العالمي للمسلمين، على الأرجح، أضيق نطاقاً من تصوير أرسلان لها، فإنه ينبغي أن ينظر إلى الحملة المناهضة للظهير البربري بوصفها حققت نجاحاً. ففي المغرب أدت - إلى جانب تحريك المقاومة المحلية - إلى حمل إدارة الإقامة العامة الفرنسية على إجراء تعديلات على بنود الظهير البربري الأكثر إثارة للجدل في العام (1934م)، وذلك بإعادة إخضاع إدارة المحاكم العدلية الخاصة بالبربر إلى كنف السلطان وبالنتيجة إلى السلطة الإسلامية⁽³²⁾. وتمثل الأمر الأكثر إثارة، في الحملة، في توسيع مجال تضامن منظمة الحركة القومية نفسها. وكان دور أرسلان مركزياً لجهة هذا التطوير، فقد عمل على إدراج هذه الهجمة على الهوية الثقافية المغربية التي انطوى عليها الظهير المغربي في سياق أوسع نطاقاً؛ سياق التهديد الإمبريالي المصلت فوق رؤوس المسلمين كافة والمتعلق بحقوقهم في ممارسة معتقداتهم الدينية. وأصبحت المغرب ومحتتها قضية في الأوساط العربية الإسلامية المشرقية، واكتسب المغاربة بدورهم وعياً جديداً للقضايا التي تواجه بلداناً إسلامية أخرى وحلفاء جدداً لجهة تأييد قضيتهم الخاصة⁽³³⁾.

لقد أظهرت قيادة أرسلان للحملة وإدارته لها مجدداً تفضيل أرسلان للعمل المرتكز إلى مبدأ الجامعة الإسلامية، بوصفه نقيضاً للولاءات الوطنية والقومية الأضيق نطاقاً. ولم يكن الاستقلال الوطني بحد ذاته هو الذي حدد اختياره لرموزه - لم يظهر أدنى

اهتمام في التطلع إلى إجراء أي تغيير في العلاقة الحثائية بين فرنسا والمغرب - بل أعرب عن اقتناعه في أن المسلمين في العالم أجمع عندما يتعرض دينهم لخطر ما يهبون للرد عليه رداً حازماً. وعلى الرغم من تنوع المجتمع الإسلامي فإنه يتقاسم قيماً إسلامية مشتركة، ويأدركهم هذه الرابطة والتصرف على أساسها يمكن للمسلمين أن يتحرروا من الاضطهاد الراهن وأن يستعيدوا ماضيهم المجيد. وكانت تتناسج في مقالات الاحتجاج التي دأب أرسلان على تسطيرها ضروب من استعادة ذكريات عظمة ماضي الأندلس المضيئة بحلوها ومرها، وسُلطان العهد العثماني الذي تلاشى، وتذكير بالإخفاقات الشهيرة التي حدثت في الآونة الأخيرة - عبد الكريم والثورة السورية - وتحذيرات من حاضر مظلم لفته الكآبة بفعل حادثة حائط المبكى، ومؤتمر القربان المقدس في قرطاج، والوحشية الإيطالية في ليبيا، والملاحدة الكماليين في أنقرة. وكانت مناشداته للمسلمين تلامس عاطفة عميقة وتظهر جاذبية الإسلام بوصفه سلاحاً سياسياً. وكما جاء فيما كتبه لوتورنو عن هذا الموضوع: "بسبب شكيب أرسلان، احتلت المغرب دائرة الضوء بوصفها قضية المسلمين⁽³⁴⁾". والمسألة التي سعى لتبنيها كانت قضية تهم المسلمين، واستندت تكتيكاته في معالجتها إلى أساس قضية إسلامية، وهذا ما أمن لها مسوغاتها.

ولم تكن متابعته لقضية تصرفه عن الاهتمام بأخرى. ففي خضم التزامه بالقضية المغربية، شن حملة ترمي إلى حشد العالم الإسلامي في وقفة احتجاج عامة مشتركة أخرى، هذه المرة ضد ما دعاها الفظائع الإيطالية في طرابلس وبرقة⁽³⁵⁾. فمنذ زمن اشتراكه شخصياً مع القوات العثمانية في العام (1912م) وحتى موته، ارتبطت سمعة أرسلان العامة ارتباطاً وثيقاً بردوده على المشاريع الإيطالية في ليبيا. وردوده تلك التي عززت صورته مبدئياً بوصفه مناهضاً عنيداً للإمبريالية انتهت بتقليص التواصل معه من قبل الليبيين وبالإضرار بسمعته. وعندما سالم موسوليني وعقد صلحاً معه في العام (1934م) كان محل اشتباه رهيب، ليس أقله بسبب معارضته السابقة الشديدة. وفي هذه المرحلة المبكرة، وهي ما يعيننا هنا، لم يكن أرسلان قط أكثر صراحة ووضوحاً مما كان عليه في إدانته للأعمال الوحشية التي ارتكبتها الجنرال غراتسياني في حق سكان برقة.

وسَطَّرَ رسالة إلى رضا يخبره فيها بأنه عندما علم بعمليات الإعدام والترحيل والإهانات الجنسية التي تفرض وتمارس على سكان الجبل الأخضر تصرف على النحو الآتي: "وجردت قلمي على هؤلاء الكلاب"⁽³⁶⁾. وما انفك يعدد، في مقال تلو الآخر، الفضائع التي ارتكبتها القوات الإيطالية، ويدين إيطاليا الفاشية التي يعدها الجنس البشري كله غير معقولة وغير مقبولة على الإطلاق. وحاكى في احتجاجه على الإيطاليين أسلوبه الذي سبق له أن استعمله في حملته المناهضة لقانون الظهير البربري. وأفرغ احتجاجه على الإمبريالية وتوصيفه للمعاناة الإنسانية في قوالب ذات رموز إسلامية. وقال لقرائه إنه عندما استولت القوات الإيطالية على واحة الكُفْرَة، حولت الزاوية السنوسية العظيمة إلى حانة تبادلوا فيها أنخاب إبادة مسلمي طرابلس، وألقوا المصاحف المقدسة تحت سنانك خيولهم، ثم استعملوا أوراقها في إشعال مواقد طبخهم⁽³⁷⁾.

وكما كان للظهير البربري تبعات أبعد بكثير من لغة المرسوم الذي أجازه، كذلك كان التعسف الإيطالي المسيء بحق الإسلام والسكان في ليبيا يعني أكثر من الفضائع نفسها. فقد كان الهدف الحقيقي للحكومة الفاشية اجتثاث الإسلام من المنطقة برمتها، باستئصال السكان الأصليين في هذه الحالة، وإحلال مستعمرين مسيحيين محلهم. وباستعماله المحاكاة التاريخية التي كان يفضلها في ذلك العصر، رأى أرسلان أن الفاشيين تصرفوا في ليبيا كما سبق أن تصرف فرديناند وإيزابيلا مع المغاربة في إسبانيا. ولتفادي المصير الذي لاقاه المسلمون في الأندلس، عليهم أن يحددوا صفوفهم. وعندما أعدم الإيطاليون المحارب الشيخ العظيم المهيب عمر المختار، الذي شكلت روحه وتكتيكاته قلب المقاومة في برقة، كتب أرسلان عن هذا الحدث الجلل: "إن دماءه سوف تواظب على الصراخ طلباً للثأر، ولنسوف يبقى يُسَمَّعُ صداها في أصقاع العالم الإسلامي كله"⁽³⁸⁾. لم تكن قضية ليبيا، كما حددها أرسلان، محصورة بالعرب، إذ كان يجب أن تكون قضية إسلامية. ولم يكن في وسع أي تركيز آخر على القضية من منطلق طائفي أن يصمد في وجه الهجوم كما قال: "فإذا أصبحت برقة طليانية خالصة، وجارتها طرابلس طليانية خالصة، وقعت مصر من هذا الجوار في أشد الخطر، ولم تنفعها بعد ذلك النعرة

الفرعونية. ولا وقاها بعد ذلك سياسة بعض المتفلسفين من أهلها أن مصر ليس لها شغل بالعالم الإسلامي، وأن مصر ليست بلاداً عربية⁽³⁹⁾. والأمر الكفيل بإنقاذ مصر، وربما طرابلس أيضاً، هو استجابة مشتركة متسقة من النوع ذاته الذي كان قد شكل الرد على قانون الظهير البربري.

وعلى الرغم من أن إرسال شرع في رسم خطة مماثلة تتضمن البرقيات والمقاطعات وما شابه ذلك، فإن الاحتجاج الليبي لم يتمخض عن توليد مستوى الدعم ذاته الذي حظيت به قضية البربر، والظروف كانت ببساطة غير مؤاتية؛ إذ لم تكن النخبة الوطنية الحضرية تمتلك، على الحال التي كانت عليها، أي تنظيم أو دعم، والعقوبات التي أنزلها غراتسياني بمن تبقى من أتباع عمر المختار كسرت شوكة مقاومة البدو وشرعت في تفكيك النظام القبلي ذاته.

لكن إن كانت الظروف الداخلية قد حالت دون أن تصبح الحملة المناهضة لإيطاليا منصة إطلاق لبرنامج قومي مماثل لما فعله الظهير البربري عند المغاربة، إلا أنها استقطبت اهتماماً مماثلاً من القوة الاستعمارية المعنية. فقد ذكرت المفوضيات والقناصل الإيطاليون أن الهجمات التي شنّها إرسال عبر مقالاته على السياسة الليبية، أعيد طبع المقالات المذكورة فيها في صحف كل من بيروت ودمشق، وأن مقالاته التي نشرت عبر صحيفة الفتح استنسخت وأدرجت في كتيبات ووزعت على الحجاج المسلمين في الديار المقدسة من شبه الجزيرة العربية، وأن دعوته لمقاطعة البضائع الإيطالية لاقت صدى وفي وسعها أن تسبب صعوبات تجارية⁽⁴⁰⁾. أقدمت وزارة الخارجية الإيطالية، وقد استشعرت التأثير المحتمل لانتقادات إرسال، على إصدار تعليمات تبين سبل مواجهة التهم التي أطلقها. وخلصت وزارة الخارجية الإيطالية، كما فعلت نظيراتها البريطانية والفرنسية، إلى استنتاج يفيد بأن إرسال هو السبب الرئيس في التحريض الذي يجابه القوى الاستعمارية في العالم العربي⁽⁴¹⁾. ولكن قدرة إرسال على التأثير في الرأي العام العربي جعلت روما تكيّد المكائد وأغضبتها في آن معاً. فقد أوصت مذكرة سرية للغاية بأنه: على الرغم من أن كل الدلائل تصور الأمير بوصفه شخصاً متعتاً

وعديم الاكتراث، فإن قلقه على سوريا قد يجعله سهل العريكة وقابلاً للمفاتيح، وهنا نقترح أن يُعرض عليه عرض يقضي بأن يدعم الضغوطات الإيطالية على الموقف الفرنسي في بلاد الشام مقابل تعديل موقفه العدائي بشأن برقة⁽⁴²⁾. وحتى مع بلوغ هيئته قمماً جديدة، فقد كان الأساس مهياً لانحداره.

لكن في تلك المرحلة، دُكرَ موقفه باستعمال أكثر العبارات غموضاً. فشجاعة إرسال وإنجازاته، على صعيد القضية المغربية، في تنسيق الحركات الاحتجاجية عززت مكانته بوصفه بطل الإسلام في العالم الإسلامي، كما ذاع بفضلها صيته لدى المسؤولين الفرنسيين بوصفه مثيراً خطراً للاضطرابات والمتاعب. واشتكى المقيم العام الفرنسي في المغرب، لوسيان سان، لمراسل صحفي من الطريقة التي حرّفت بها مقاصده بفعل الحملة الغادرة التي شُنّت عبر بعض المطبوعات الأجنبية. تلقف إرسال، وقد تملكه الفخار، الإشارة بوصفها تعني صحيفة الأمة العربية كونها "تحتل مكان الطليعة بين المنشورات التي هاجمت بشدة السياسة البربرية لإم. سانت ومعاونيه⁽⁴³⁾". وكان هذا دقيقاً بما يكفي ومعترفاً به على نطاق واسع من قبل المعجبين والمعارضين على حد سواء. ولم يسبق مطلقاً أن كانت سمعة إرسال أكثر سطوعاً ولم يكن تأثيره أكثر وضوحاً مما كان عليه في تلك المرحلة.

وفيما كان الشباب المغاربة يبدون نشاطاً ملحوظاً لتعزيز مكتسباتهم من خلال تكوين مجموعات سياسية منظمة وصياغة مطالب متماسكة، واطبوا على التماس إرشادات الأمير وتوجيهاته. وبينما كان أكثر إسهاماً وأفضل أداءً في توجيه استراتيجية الاحتجاج وإدارتها منه في تحديد محتوى الأيديولوجية، فقد كان للدور الذي لعبه أبعاد تكفي لجعل مخبري هالستيد يتفقون على أنه جدير بلقب خبير بارع في التكتيكات والمناورات المتعلقة بالحركة القومية المغربية⁽⁴⁴⁾. وكانت نادراً ما تنخفض كثافة التواصل بين زعماء الحركة وبينه في حقبة ثلاثينيات القرن العشرين: عمل محمد الوزاني سكرتيراً له في جنيف من خريف العام (1932م) وحتى صيف العام (1933م). وتلقى أحمد بلقرج مساعدة منه على صعيد الجمع بين الدعم المالي والمجلس الاستشاري؛ الأمر الذي أدى إلى ظهور

المغرب في العام (1932م)، أول مجلة تصدرها الحركة الجديدة، كما أجدت وساطته نفعاً في فض نزاع على مستوى القيادة كان قد نشب بين محمد الوزاني وعلال الفاسي في العامين (1936م) و(1937م)⁽⁴⁵⁾.

ولم تكن القيادة السياسية هي كل ما عرضه أرسلان على أصدقائه المغاربة. فعلاقته الأبوية بحركتهم تجاوزت الحركة وشملتهم أفراداً، وكان يمد لهم يد العون بصفة شخصية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وعلى سبيل المثال، عندما أدخل أحمد بلفريج إلى مصحة في سويسرا لتلقي علاج بسبب إصابته بمرض السل، أكد عليه أرسلان برفق أن يهتم بتعافيه فقط دون التفكير بموضوع قيمة الفواتير الطبية. وقال له: "في كل وقت أتلقى فيه شيئاً من المال سوف أبقى لنفسى قدرًا قليلاً منه ولنسوف أعطيك الباقي... أنت عندي بمثابة ابني، ولا ينبغي عليك عمل أي شيء، ولنسوف أعنتي بك في كل دقيقة"⁽⁴⁶⁾. ويوجد كثير من الأسباب التي تدعونا إلى الاعتقاد بأنه قام بلفتات مماثلة حيال أناس آخرين من شمال أفريقيا في أوروبا.

وكذلك تعهد أرسلان بالرعاية والمتابعة العلاقات التي أقامها مع القوميين في المنطقة الإسبانية إبان زيارته لتطوان. وعاد في زيارة دامت فترة وجيزة إلى تلك المدينة في العام (1936م) عندما بدا أن الفرانكويين والجهة الشعبية توافقوا على صيغة مبدئية لحكم ذاتي بالنسبة للمنطقة الإسبانية⁽⁴⁷⁾. وفي مثال أسر على التأثيرات التراكمية للنفوذ الشخصي، يذكر ريزيت في تقرير له أنه بناء على إصرار أرسلان، أرسل عبد السلام بنونة أحد أبنائه إلى نابلس في فلسطين ليلتحق بمدرسة ثانوية لإتمام تعليمه. ونتيجة لهذا التصرف، ارتبطت الدراسة في المعاهد التعليمية العربية الشرقية بقدر من الاحترام والتقدير وبرفعة المكانة. وحذا حذو بنونة ووجهاء تطوان، حيث عزفوا عن إرسال أبنائهم إلى مؤسسات القرويين التعليمية وأحقوهم بالجامعات المصرية أو بالمدارس الفلسطينية، وهناك كانوا على اتصال مع الأنشطة السياسية الأكثر كثافة في تلك المنطقة من العالم العربي⁽⁴⁸⁾. ويوجد دليل إضافي على اندماج المغاربة المتنامي في شؤون المشرق العربي؛ هذا الدليل مستمد من الحدث الذي تزامن مع افتتاح مؤتمر بلودان في سوريا

في العام (1937م)، عندما احتل المغاربة الشوارع في مظاهرات منظمة تعبيراً عن تضامنهم مع إخوانهم الفلسطينيين⁽⁴⁹⁾. وهذه البادرة سواء أكانت بتشجيع من أرسلان شخصياً أم لا، فإنها تمثل قدراً من الانتصار للسياسة التي انتهجها في العام (1930م).

وأدت علاقات أرسلان مع المغاربة والحماس الذي أبدوه في تقبلهم له إلى جعله يوسع مجال ارتباطاته، ليشمل مجموعات أخرى معنية بالشؤون الشمال أفريقية. وعند نقطة محددة من الحقبة التي تلت الحرب مباشرة، نفذ إلى أوساط الحزب الاشتراكي الفرنسي، وعقد صداقات شخصية مع زعيمين كبيرين هما بيير رينوديل وروبرت لونغيه، اللذين كانا مؤيدين لحق المعتقد عبر نشاطهما في القسم الفرنسي من المنظمة العمالية الأمية⁽⁵⁰⁾. وواظب أيضاً على مراسلة غابرييل بيري، رئيس تحرير صحيفة لومانيتيه الشيوعية التي كان يسهم هو والجابري برفدها بمقالات أحياناً. وكان أرسلان يدرك جيداً أن التوترات داخل أروقة الحزب الاشتراكي كانت من الحدة بمكان، بحيث تحول دون قدرته على اتخاذ موقف صلب حيال المسألة الاستعمارية، لكنه لم يتردد في تذكير المنضوين تحت لوائه بواجبهم الأساسي. وإبان الاحتجاج على قانون الظهير البربري طلب من اليسار الأوروبي أن يرفع صوته قوياً بحيث يجعله مسموعاً: "لا نطلب من الاشتراكيين أن يلتزموا بالدعوة للمسلمين - فهم أبعد ما يكونون عن ذلك. لكننا ندعوهم كما ندعو أولئك الراديكاليين الذين أصموا العالم بصرخاتهم المدوية "علمانية"، ندعوهم إلى مهاجمة السياسة الحكومية التي ترمي إلى تنصير البربر..⁽⁵¹⁾". والتحالف بين الأرسطراطي المسلم صاحب الأملاك والأطيان (أرسلان) وبين حفيد كارل ماركس كان تكتيكياً صَرفاً، لكنه كان مثمراً أحياناً. وأَمَّنَ أرسلان إمكانية الاتصال المتبادل وتأسيس علاقة وثيقة بين رينوديل ولونغيه، وابن لونغيه، روبرت جان، من جهة وبين الهيئة الاستشارية لصحيفة المغرب، وبذلك جعل ظهورها ممكناً⁽⁵²⁾. وصحيفة المغرب التي تولى أحمد بلفريج رئاسة تحريرها ظلت تنشر وتوزع في باريس من العام (1932م) وحتى العام (1934م)، وبإسهام من رعاتها الفرنسيين فضلاً عن محرريها المغاربة اتخذت موقفاً مؤيداً لاستقلال كل من سوريا

وتونس والمغرب⁽⁵³⁾. وكما يلاحظ هالستيد، على الرغم من أنه لم يكن واضحاً دوماً من يستخدم من في هذا التحالف الغريب ولتحقيق غايات أي طرف، فإن ارتباط أرسلان الشخصي مع قسم باريس من منظمة العمل الدولية قدم دليلاً إضافياً لأولئك الذين يرون فيه تهديداً رئيساً لوجود فرنسا المستمر فيما وراء البحار.

والانتصار الذي حققه أرسلان على صعيد الاحتجاج المناهض لقانون الظهير المغربي، عبر شدة التزامه الواضحة بالشؤون المغربية، نجح في الانتشار وصولاً إلى الدوائر والأوساط الجزائرية والتونسية، وساعد في ترسيخ دوره بوصفه مرشداً لزعماء من هاتين المنطقتين. وكان نطاق اتصالاته يتوسع باستمرار من خلال أنشطة اتحاد الطلاب الشباب لشمال أفريقيا، سواء أكان ذلك عن طريق إصدار كتيبات أم تنظيم مؤتمرات سنوية، أم عقد منتدى للمقاربات والمناهج واسعة التباين لقضايا الوحدة، والاستقلال، والعروبة، والإسلام. وكانت المنظمة الطالبية أرضاً خصبة لتبادل الفكر وإرساء أسس لاتصالات مغربية داخلية. وربما يوجد شيء من المبالغة التي يغذيها جنون العظمة الاستعمارية في التقرير الذي أعده كاي دورسيه وذكر فيه أن "قادة اتحاد الطلاب الشباب لشمال أفريقيا لا يخفون حقيقة تلقيهم تعليماتهم من شكيب أرسلان⁽⁵⁴⁾". وعلى كل حال، كان نفوذ أرسلان وتأثيره على الطلاب واضحاً وصرحاً. وكان بدوره يحظى بمكانة المرشد المعلم ويمارس دوره على هذا الأساس، وكانت اقتراحاته في كثير من الأحيان تعتمد بكل إخلاص ومحبة. لقد كان تحولاً مرحباً به من الصراع المربك المطلوب واللازم للحفاظ على المكانة بين المنفيين السوريين شديدي الاختلاف أيديولوجياً.

وفي الجزائر، كان توجيه أرسلان للنهضة السياسية والثقافية حاضراً لدى قطبين من أقطاب الطيف السياسي - جمعية العلماء الجزائريين ذات التوجه الإصلاحية من جهة، والاشتراكية الشعبية المنبثقة عن الأحزاب المختلفة التابعة لمصالي الحاج من جهة أخرى. وأما التيار الرئيس الثالث للنشاط الوطني الجزائري في عقد الثلاثينيات من القرن العشرين المتمثل بالثقفين الداعين إلى الاندماج مع الفرنسيين والساعين إلى تحقيق نوع من التعاون المستمر مع فرنسا على أساس المساواة، فلم يكن يَسْتَدِرُّ تعاطف الأمير.

وقد تجسد التعبير المنظم للمثل السلفية في الجزائر فيما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية في جمعية العلماء الجزائريين وفي مجلتهم الشهاب. وكان الاتحاد الذي تأسس في العام (1931م) يتزعمه عبد الحميد بن باديس الذي تلقى علومه في جامع الزيتونة، وهو عالم صاحب شخصية وقدرات استثنائية. ابن باديس رجل تقي شديد الورع، وكتب متحدثاً عن نفسه: "سبب وجودي هو الإسلام". كان خطيباً مفوهاً وداعياً مؤثراً، ومفكراً إصلاحياً إسلامياً متمكناً⁽⁵⁵⁾. وعقب وفاة رشيد رضا مباشرة في العام (1935م)، كان الوضع مهياً للاعتراف بابن باديس بوصفه زعيماً روحياً وفكرياً للسلفية الإسلامية في المغرب العربي. وجاء فيما كتبه عنه كبير كتّاب سيرته: "كان غيوراً على دينه، متحمساً متقدماً عاطفة، ويشعر أنه مدعو لخدمة الإسلام-إسلام السلفية، ومحمد عبده، ورشيد رضا، ومدرسة المنار-على المستويات الاجتماعية كافة، وأنه مدعو أيضاً لحمل لواء الرسالة الإصلاحية من أقصى الجزائر إلى أقصاه"⁽⁵⁶⁾، مشكلاً منظمة أكدت على وجوب استعادة كرامة الإسلام واللغة العربية، من خلال إحياء نظام تعليمي يرتكز إلى مدارس قرآنية متقدمة تتوسل منهجاً إصلاحياً، ويعلي شأن اللغة العربية بوصفها وسيلة للتبادل الثقافي بين المشرق والمغرب العربيين، وأقرت بأن الجزائر جزء أصيل ومتميز من التراث العربي الإسلامي وبأنه يتوفر على وعي سياسي متميز. مشكلاً هذه المنظمة، تبنى ابن باديس وأعوانه برنامجاً اشتمل على معظم القضايا التي سخر أرسلان طاقاته كلها لخدمتها منذ زمن نشوب الحرب. ولم يتمكن أرسلان من اجتناب جاذبية مهمتهم، كما لم يتمكنوا هم-وكانوا أحوج ما يكونون إلى مشورة خارجية-من مقاومة إمكانية الاستفادة منه.

وكان من جانب على قدر من الأهمية أن أقرت المنظمة بأن أرسلان هو أستاذ المبادئ السلفية الموقر وسيد العربية إبداعاً وأسلوباً وبياناً، وبوأنه مكانة مرموقة في حقل الأعمال التي كانت تقوم بها المنظمة. ومن جانب آخر على القدر نفسه من الأهمية، اغتنم أعضاء المنظمة دوره الزماني الذي يؤديه. والعلماء الجزائريون الذين عوقت حركتهم أحادية

اللغة وجهلهم الرهيب في السياسة الأوروبية وجدوا في إرسال مترجمهم للمشهد الأوروبي، وخولوه صلاحيات التخطيط السياسي الاستراتيجي لهم⁽⁵⁷⁾.

كان إرسال صلة وصل وقناة انتقلت من خلالها فكرُ المشرق العربي وأحداثه إلى الجزائر. وأخبار تطور المشرق اجتماعياً وثقافياً وسياسياً الذي دأبت القيادة الإسلامية الجزائرية على محاكاته على صعيد نهضتها الخاصة، كانت تنتقل إليها في أغلب الأحيان عبر صفحات صحيفتي الفتح والمناور. ومن خلال رغبتهم في الاقتضاء بالتيار الرئيس من التيارات التي تشكل مصدر إلهامهم، اعتنق الإصلاحيون الجزائريون عقيدة العروبة الثقافية، وكانوا "يمجدون المشرق بوصفه موطنهم الثاني"⁽⁵⁸⁾. وشعر ابن باديس أن سمعة الشهاب كانت تعزز بإعادة نشرها مقالات سبق أن كتبها إرسال لصحيفة الفتح ومجلات مشرقية أخرى، إلى جانب نشرها مراسلاته بين الفينة والأخرى⁽⁵⁹⁾. وعلاوة على ذلك، في تدبير كان يستجيب بالتأكيد لمشورة إرسال، أرسلت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وفوداً إلى مؤتمرات إسلامية متعددة انعقدت في حقبة الثلاثينيات من القرن العشرين.

وبوصفه مستفيداً من الهبة ورفعة المكانة المرتبطة بالأدوار المتعددة التي أداها خبيراً في الشأن الأوروبي، وناطقاً باسم السلفية، ورمزاً مشرقياً، كان نفوذ إرسال السياسي والأخلاقي في أوساط النخبة الجزائرية من ذوي الثقافة العربية من القوة بمكان بحيث أصبح كما يرى مراد: "مستشاراً حقيقياً موثقاً، ومعلماً مرشداً لدى بعض المثقفين، وموجهاً أخلاقياً للضمير لدى بعضهم الآخر، ومستشاراً قوبلت مشورته بامتنان كبير، وخطيباً مفوهاً يتشهى الناس بخطابه، وناثراً يطيب نثره لكل المغرمين باللغة العربية الفصيحة الجميلة. لقد كان شكيب إرسال كل ذلك في آن معاً، وأكثر من ذلك أيضاً"⁽⁶⁰⁾.

ولكن بصمة إرسال المباشرة لم تكن ملموسة دوماً. فقد كان ابن باديس مفكراً أصيلاً وسلك مسلكه الخاص في مسألة العقيدة. وبينما عكس موقف الإصلاحيين من

الخلافة وكفاحهم المناهض للمرابطين (الأولياء والصوفيين) ميول أرسلان الخاصة، فقد كان أقل انجذاباً إلى العلوم الدينية منه إلى العمل السياسي الإسلامي المتأصل في الجمعية. وكان كثير من أولوياته الخاصة جزءاً من الرؤية العامة للإصلاحيين. وشجع توجه العلماء نحو تعزيز موقع الجزائر في إطار عربي إسلامي أوسع مدى، وعلى سبيل المثال، كما رأى في ابن سعود زعيماً عربياً إسلامياً مثالياً، كذلك أعجب العلماء الجزائريون وأتباعهم الأصغر سناً بحاكم شبه الجزيرة العربية. ولم يستطيعوا تقبل التعصب الذي رأوه في الوهابية، ولكن مقتفين أثر أرسلان، أعجبوا بحيوية ابن سعود وباستقلالته وبتطبيقه الحازم لمبادئ العقيدة الإسلامية، ومضوا في طريق الإعجاب به بعيداً إلى حيث باتوا يشيرون إليه في صحيفة الشهاب بوصفه "ملك الإسلام" (61).

إذا ما أخذ في الحسبان زعيمها الموقر المحترم وشبكة مدارسها الرائعة وتنظيمها مؤتمر المسلمين الجزائريين في العام (1936م)، فإنه كان يبدو مُسَوَّغاً توقع استمرار نمو جمعية العلماء المسلمين في الجزائر وازدياد نفوذها. ولكن كان يوجد قوى أخرى في المعترك السياسي سعت أيضاً للهيمنة على ذاك القطاع من الجزائر المسلمة، الذي كان مستعداً للتعبير عن استيائه من المجتمع الاستعماري. ففي الدورة الثانية من مؤتمر المسلمين الذي انعقد في العام (1936م)، ظهر شخص مهم ومثير للاهتمام ظهوراً لم يكن مقررراً، وقال بحماسة المتقد المعهود وقد أمسك بقبضة يده حفنة من تراب أمام جمهور بلغ عديده عدة آلاف: "هذه الأرض ليست للبيع. وورثتها هم أبنائها جميعاً. ولا يبيع المرء وطنه" (62). وكان هذا الشخص هو مصالي الحاج. وقف مصالي خطيباً وكان في وقفته تناقض واضح بينه وبين العلماء البورجوازيين الجزائريين من حيث الأسلوب السياسي والاستشراف الاجتماعي. وفي منافسته هذه معهم سعياً للحصول على دعم جماهيري عام، أصبح في حقبة ما بين الحربين العالميتين المتحدث الجزائري الأكثر شعبية. وكان أحد أهداف أرسلان الرئيسة في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين التوفيق بين هاتين القوتين، وتسخير طاقات مصالي الحاج لقضية الإسلام المتشدد بدلاً

من تسخيرها لمصلحة الاشتراكية المتشددة. وكان يتعين النظر إلى أهمية توجه أرسلان في هذا الإطار في ضوء ما كان يمثلته مصالي الحاج أصلاً.

كان أول الأحزاب العديدة التي باتت تعرف باسم الأحزاب المصالية حزب نجم شمال أفريقيا، الذي تشكل في مناطق المحيطين المحيطة بباريس التي كان يعيش فيها عمال مهاجرون من شمال أفريقيا⁽⁶³⁾. ومصالي الذي كان في تلك المرحلة من نشاطه متشرباً بالاشتراكية الراديكالية، أصبح رئيساً لحزب نجم شمال أفريقيا في العام (1926م)، وبالتعاون مع الحزب الشيوعي الفرنسي حاول تنظيم العمال المهاجرين. وعلى الرغم من عقده العزم على خلق وعي طبقي، فإن حزب النجم باجتماعاته التي كانت تعقد في المقاهي وبوسطه بوصفه ملاذاً للتواصل بالنسبة للرجال المفعمين بالحنين إلى الوطن، والمنحدرين من طبقات مسحوقة، والقاطنين في الأحياء والمناطق الفقيرة من باريس، كان يُعدُّ نسخة العمال من اتحاد طلبة شمال أفريقيا المسلمين. وحتى على الرغم من أن الحزب ربط رسالته الهادفة إلى تحرير البروليتاريا بالتححرر السياسي من الحكم الاستعماري، فقد كان على ما يبدو بعيداً كل البعد اجتماعياً وأيديولوجياً عن اهتمامات شكيب أرسلان في جنيف. ومع ذلك فإن حزب النجم وزعيمه المتقدم حماساً استرعيا اهتمام الأمير، وقال الأمين العام إن أرسلان كان يمول التنظيم في العام (1933م)⁽⁶⁴⁾. وعلاوة على ذلك، كان مصالي نفسه في تلك الفترة ينقل الحزب تدريجياً من موقعه الذي كان يؤكد منه على أهمية الصراع الطبقي، إلى موقع يركز فيه على أمر أضيق نطاقاً وأكثر وطنيةً يتمثل في تحرير الجزائر من فرنسا. وكون مصالي الحاج ذهب في نهاية المطاف إلى ما هو أبعد من ذلك، منتقلاً في رحلة أيديولوجية كاملة من الماركسية إلى الوطنية الإسلامية، فهو أمر غالباً ما كان يعزى مباشرة إلى الأشهر القليلة التي قضاها في صحبة أرسلان.

وقد نشأت الظروف التي جمعت الرجلين معاً أخيراً من تخطي مصالي للحدود التي رسمتها السلطات الفرنسية لناشط محلي. وبعد أن أمضى ردهاً من عمره وهو يزوج به في السجون الفرنسية ثم يفرج عنه، وعندما علم أن اعتقاله مجدداً بات وشيكاً، فر من

باريس ويمم شطر جنيف أوائل العام (1936م). وليس معروفاً ما الذي حدث على وجه الدقة إبان اتخاذه ملاذاً عند أرسلان. وللمرء أن يتخيل احتدام مواجهة فكرية عارمة، معركة بين صاحبي شخصيتين مستقلتين كل منهما مُعتدّ بنفسه كثيراً، أحدهما أستاذ موطد العزم والآخر تلميذ عنيد. أو ربما لم يحدث بينهما صراع على الإطلاق، بل نقاش لخيارات سياسية أكثر تحفظاً. وأياً كانت طبيعة الجدل الذي دار بين الرجلين، فعندما عاد مصالي إلى باريس في شهر يونيو/ حزيران من العام (1936م) كان رجلاً مختلفاً، حيث استبدل بزيه الأوروبي رداءً وأطلق لحية مرسلّة. موجزاً في وصف شمولية التحول الذي طرأ على مصالي، لاحظ جوليان الآتي: "انسحب الثوري مفسحاً في المجال للمسلم لكي يحل محله"⁽⁶⁵⁾. وقد استشف من هذا التغيير على نطاق واسع الرأي القائل إن أرسلان "حوّل" مصالي أثناء إقامة الأخير في جنيف⁽⁶⁶⁾. وقد اكتسب هذا التأويل مصداقية عبر برنامج مصالي الذي تمثل في تأسيس حزب جديد في العام (1937م) أسماه حزب الشعب الجزائري، معلناً عن "القوة الأخلاقية التي لا تقهر"، قوة الشعب العربي، ووضع على رأس غلاف مجلته شعاراً يقول: "إرادة الشعب تنبع من إرادة الله، وإرادة الله منيعة"⁽⁶⁷⁾. وثمة رأي مخالف بعض الشيء صاحبه جان كلود فاتان الذي حاجج في أن مصالي لم يتحول مساره بجهد من أرسلان، بل أدخل واعياً ومدرّكاً عناصر من الوطنية الإسلامية في برنامجه السياسي. ويفترض أن يكون قد بدل رموز مظهره الشخصي أيضاً؛ لأنه استشعر ضرورة استجابة المظهر لمقتضيات هذه العقيدة⁽⁶⁸⁾.

وليس التأويلان ثنائيي التفرع. فأرسلان، وهو نفسه لا ينفر من المواقف التكتيكية، لم يكن بحاجة إلى جعل مصالي عالماً تقياً ورعاً ليشرع بأنه راضٍ عن برنامجه. فإن كان قد تمكن، في غضون الأشهر التي أمضيها معاً في جنيف، من إقناع مصالي بأن الاستراتيجية الأكثر ملاءمة للحركة والمستقبل الجزائر على حد سواء تكمن في حشد الدعم للجذور العربية الإسلامية للمجتمع الجزائري، إذن لكان ذلك كافياً. ولربما كانت قراءة مصالي الخاصة لتلك المرحلة السياسية ومشورة أرسلان متماثلتين - فالجزائري عدل برنامجه

السياسي سعيًا وراء استقطاب أتباع ومناصرين. وشجعه الأمير على إجراء ذلك التعديل لضمان توجه مهارات مصالي الشعبية نحو خدمة التضامن العربي الإسلامي.

وينبغي عدم إعطاء أهمية كبيرة للتعديل حديث العهد الذي أجراه مصالي. فقد حافظ حزب الشعب الجزائري بعد إجراءاته على تركيزه الأصلي على المساواة الاجتماعية والعدالة، وعلى الأمر الأكثر تميزاً وهو ذاك المتمثل بتحقيق الاستقلال التام. ولكن سواء أكان تحول مصالي نحو الإسلام تحولاً مبرمجاً محسوباً، أم تحولاً صادقاً غلصاً؛ فإن جاذبيته الخاصة، على المستويين الشخصي والعقديّ كليهما، تعززت بفعل أسطورة الأشهر التي قضاها إلى جانب الأمير. وجدير بالانتباه أن تبني حزب الشعب الجزائري رموزاً إسلامية يتناقض مع موقف حزب النجم السابق. وعندما أعلن مصالي في العام (1938م) أن "الشعب الذي يتطلع إلى الاندماج في بوتقة شعب آخر، إنما يقطع الصلة بينه وبين الله، ويقطع الروابط التي تربطه بتاريخه وأسلافه وأجياله القادمة"، عندما أعلن ذلك بدا موقفه شبيهاً جداً بموقف جمعية العلماء في تأكيدها الشهير على أن الجزائر المسلمة هي "أمة أبعد ما تكون عن فرنسا بلغتها وعاداتها وأصولها العرقية ودينها"⁽⁶⁹⁾. وهذان الموقفان لمصالي وجمعية العلماء شبيهان بموقف أرسلان القائل: "إن الإسلام هو الحصن الحصين الذي يحمي العرب من الانصهار الكامل في بوتقة الإفرنج"⁽⁷⁰⁾.

ولكن حتى ارتباط أرسلان بهم لم يستطع أن يحمل المجموعتين على التعاون بعضهم مع بعض. فمصالي يتوفر على رؤية حادة جداً للنضال الفوري تحول دون تقبل فكرة دمج مع السياسة الأطول أمداً والأكثر حذراً للنهضة الثقافية التي يتصورها أتباع ابن باديس. لقد ربح أرسلان وخسر في آن معاً من جراء إبقائه على مسافة تفصل بينه وبين الحركات المختلفة التي سعى إلى إدارتها وتوجيهها. وتمكن من إقناع القائمين عليها في بعض الأمور، كما تمكن من التوسط بينهم عندما اقتضى الأمر، إلا أنه لم يتمكن من إرغام أحد على شيء. وفي النهاية ليس لديه ما يقدمه سوى سمعته ومكانته. ولم يكن هذا، إلى جانب قدرته على إلهام الآخرين، كافياً دوماً.



مجاهد يتشاور مع آخر: الحبيب بورقيبة مع أرسلان، عام 1946

وبينما يبدو أن ميل أرسلان إلى رؤية السياسة من خلال منظور الإسلام يحد من قدرته على اختيار حلفاء، فإن علاقته مع مصالي أظهرت أنه لم يتوان عن دعم من يأنس فيهم الكفاية والمقدرة حتى إن كانت رؤاهم أكثر علمانية من رؤيته. وليس معروفاً إن كان، بفعله ذلك، يسعى إلى توظيف مكانته بوصفها محل مساومة. وعلى كل حال، كان أرسلان في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين في وضع يجعل ارتباط أي حركة باسمه كافياً لمنحها حظاً من الظهور والشهرة. ولم ترغب الحركات والمنظمات جميعها في الاستفادة من هذه الفرصة، ولكن مكانته آنذاك شكلت جزءاً من جاذبيته بالنسبة لحزب الدستور الجديد في تونس.

مع ميله الطبيعي إلى دستور الثعالبي الأصلي، وازب أرسلان على الثناء على ذلك الحزب حتى بعد تآكل قاعدته التنظيمية ونفي زعيمه. ولكن اهتمامات الثعالبي في إحياء أجداد الماضي الإسلامي والحفاظ على التضامن الإسلامي الشامل أدرجت ضمن ما أكد عليه الدستور الجديد في سياق الشخصية التونسية المميزة، وفي سياق تأكيد الدستور على ضرورة حل مشكلات الشعب التونسي الاجتماعية⁽⁷¹⁾. وكان الحبيب

بورقية يجذب، أساساً، قيام دولة علمانية، ولكن كان مع ذلك ينجذب إلى الإمكانات الديماغوجية للإسلام السياسي. وفي الوقت الذي كان يجادل فيه انتصاراً للدستورية العلمانية، عكف كذلك في أواخر عشرينيات القرن العشرين وأوائل العقد الثالث منه على أخذ زمام المبادرة في تبني قضايا إسلامية عبر دفاعه عن الحجاب بوصفه رمزاً للهوية الثقافية التونسية، وعبر انتقاده للعلماء بسبب إهمالهم مسؤولياتهم الدينية حيال الشعب التونسي بشأن الجنسية الفرنسية⁽⁷²⁾. وتبنى على نحو مماثل الهالة المحيطة بشخص أرسلان وتوجهاته. وفي سرده لانطباعاته عن الاجتماع الأول بينها الذي جرى في العام (1937م) على هامش مأدبة عشاء بباريسية أولمها اتحاد طلبة شمال أفريقيا المسلمين، أشار بورقية إلى أنه قبل أي أمر آخر أثار أرسلان إعجابه بوصفه مسلماً عظيماً شعر حياله، كما شعر هو حيال الأمير، بتقارب من الطبيعي أن ينعقد بين أخوين مسلمين يلتقيان في بلد أجنبي⁽⁷³⁾. وعلى الرغم من أني لا أرمي إلى عرض تأويل ضيق الأفق لما فعله بورقية، فإن الإشارة تجدر إلى أن مديحه لأرسلان نشر في الصحف بعد أشهر عديدة من لقاءهما، وتزامن مع مواجهة الدستور الجديد لأزمة نجمت عن عودة الثعالبى الباكورة من منفاه الذي كان يفترض أن يقضي فيه أربعة عشر عاماً. وبناء على ذلك كان الارتباط العلني مع أرسلان، المؤيد الداعم لمنافسه، مفيداً لبورقية بخاصة في تلك المرحلة.

ويشير رأي آخر إلى أن الرجلين كانا ببساطة من الاختلاف بمكان بحيث لم يكن ممكناً أن تنعقد بينهما علاقة وثيقة⁽⁷⁴⁾. والدستور الجديد المرتكز على الوعي السياسي الذي شرع في تشكيله الثعالبى ورفاقه في عشرينيات القرن العشرين، لم يكن في حاجة إلى أرسلان على نحو يحاكي الطريقة التي كان يحتاجها المناضلون المغاربة والجزائريون. وعلى الرغم من أن الموقف كان يقتضي خطب وده وكسب رضاه-ومن أن بورقية كان يرأسه كلما اقتضى الأمر طلباً للنصح والمشورة-فإن تعاونه مع جماعة الدستور الجديد كان أقل حميمية وتأثيراً من تعاونه مع بعض المجموعات والأطراف الأخرى في المغرب.

ولدى التمحيص في تصريحات أرسلان وعلاقاته الشخصية على وجه الإجمال تتولد انطباعات تظهره بمظهر المتلاعب بالمشاعر الثورية في أوساط النخبة الشمال أفريقية. ورأى أحد تيارات الأبحاث والدراسات الفرنسية في أنشطته مصدراً رئيساً للسخط المغربي. ولم يكن هذا الانطباع مقتصرأ على مدافعين عنيين عن الإمبراطورية مثل روبرت بولين من صحيفة التايمز (استعمارية)، بل كان أيضاً انطباع مراقبين أكثر تعاطفاً. وهم على الرغم من نشرهم مقالاتهم في صحيفة أفريقيا الفرنسية، لسان حال الإمبراطورية، فقد حققوا قدراً معقولاً من مقتضيات معايير الدراسات والأبحاث والفهم على صعيد تفسيرهم للشؤون الشمال أفريقية⁽⁷⁵⁾. ولكن الاستجابة ذات القاعدة العريضة للحملة المناهضة للظهير البربري خلفت ذاكرة حفرت مجراها عميقاً في أذهانهم. وكانوا في التحليل النهائي مرغمين على النظر إلى التوترات المتنامية بين فرنسا ومستعمراتها في شمال أفريقيا بوصفها تهديداً. وراغبين عن الاعتراف في أن الوعي الإسلامي الذي كان آخذاً في الاستيقاظ من غفلته، والذي أرخوا له بحذر شديد، يمكن أن يبرعم ويزهر بسبب حاجة ملموسة تستشعرها المجتمعات الأهلية الإسلامية، فضل أولئك المراقبون أن ينظروا إلى ذاك الوعي والتقارب الضمني مع العروبة بوصفه أمراً غير طبيعي، وسعوا إلى البحث عن مصادر خارجية للاستفزاز. فعثروا عليها في الفتح والنار وعند رشيد رضا ولدى السورين وابن سعود وفي الحج، وقد أسهمت هذه الأمور جميعها في إيجاد "انتماءات يكتنفها الغموض" بين المشرق والمغرب. ولكن المصدر الأوحى الأكثر أهمية لتسلل الفكر المشرقي إلى المغرب كان الرأي الجماعي لكتاب ومؤلفين على رأسهم شبيب أرسلان، "الذي كان يحتفى به في الأوساط الإسلامية قاطبة بوصفه مستشاراً سياسياً للمجتمع الإسلامي"⁽⁷⁶⁾. وكانت تأثيراته تتبدى، بطريقة أو بأخرى، في كل مكان، "لورنس العرب"، حيث كانت آراؤه تنشر عدوى العروبة والوهابية كما النار في الهشيم، فتشكل آراء الطلبة التونسيين والمغاربة في باريس. وكان يدافع عبر آرائه تلك عن حلم الوحدة، ويصدر توجيهاته وإرشاداته من جنيف فتتبع في الرباط وقسنطينة⁽⁷⁷⁾. لقد كان "قائداً وشاعراً ملهماً

ومنبراً للعروبة“ في آن معاً، وكان يعتد بأقواله وتصريحاته بوصفها تشكل طليعة الرأي العربي الإسلامي⁽⁷⁸⁾.

وكان ارتقاء سمعته إلى مكانة مرموقة كالتي بلغها سبباً في الثناء عليه وفي النيل منه في آن معاً. لذلك كان يملكه شعور بالفخر إزاء الدور الذي كان يؤديه، وشعور بالرغبة في التبرؤ منه أيضاً. فكان يرحب من ناحية بالتغطية الفرنسية له ولأنشطته ويعدها فرصة للتأكيد على أنه يجهر بآرائه (المناهضة للفرنسيين)، وعلى أنه كان ”ينتفض ضد الظلم والجور والوحشية حيث كان يثقفها“⁽⁷⁹⁾. فعندما كان الفرنسيون يرغبون في تصنيفه بوصفه ناطقاً ومتحدثاً مناهضاً للبغي والضييم، كان يتقبل اتهامه بلعب هذا الدور مختلاً فخوراً. ولكن يشك المرء في أنه لم يكن يستاء استياء شديداً لاطلاعه على مائة وثلاثة وثلاثين مقالاً عرضت في مطبوعات فرنسية في غضون عام واحد وأفردت للهجوم عليه⁽⁸⁰⁾.

ومن ناحية أخرى، كان يزعمه أن نشاطه أكسبه لقباً غالباً ما كان يطلق عليه وهو ”عدو فرنسا القديم الأبدى“⁽⁸¹⁾.

وصرح بأنه ليس عدواً لفرنسا على الإطلاق، بل عدو للسياسة التي تسمح بمعاملة ”مسلمي شمال أفريقيا الذين تربطني بهم روابط الدم واللغة والدين، بوصفهم ينتمون إلى طبقة أدنى مستوى من الفرنسيين والأوروبيين جميعاً واليهود وحتى المالطين“⁽⁸²⁾. وحاول أن يميز بين مقتته للحكام الإمبرياليين الفرنسيين، وبين استعداده لتقديم تنازلات وإجراء تسويات حين تبدي فرنسا استعداداً لتغيير سياساتها. لقد فعل هذا في موضوع المعاهدة السورية، وكان عازماً على فعله في شمال أفريقيا أيضاً. وقال في هذا السياق: ”أنا لا أخاف أن أكون صديقاً لفرنسا أو لأي بلد آخر لا يستغل المسلمين، إخوتي في الدين“⁽⁸³⁾.

بقدر الأهمية التي استشعرها إرسالان في تصريحه هذا تبياناً لموقفه، فإن النقطة الرئيسة في معرض رده على الباحثين والصحفيين الفرنسيين، تمثلت في رغبته في التأكيد لهم أن

في اختياره من قبلهم سبباً وحيداً للهاج المغربي يضيعون البوصلة الموصلة إلى فحوى انتقاده، ويتعاملون عن حقائق الأوضاع في شمال أفريقيا: "إذا كان المواطن الجزائري يشتكى متذمراً بسبب الخط من قدره، وخفض مكانته الاجتماعية وإذلاله وتجريده من معظم الحريات الإنسانية الأساسية، ومعاملة سلك العدالة الفرنسية له بوصفه كائناً وضعياً بكل ما في الكلمة من معنى... إذا كان يعاني كل ذلك، إذن يمكن النظر إلى شكيب أرسلان بوصفه عدواً شرساً لفرنسا، وعلى أنه هو من علّم المواطن الجزائري المذكور أن يجهر بصوته، ببساطة، سعيّاً وراء تلطيخ سمعة فرنسا⁽⁸⁴⁾". ورأى أرسلان أن المحاولات التي بذلت من أجل نسبة الردود الداخلية على القمع إليه مثيرة للسخرية: "لقد قيل للجزائريين إنهم ليسوا مضطهدين وإن كانوا يعتقدون أنهم مضطهدون، فذلك لأن شكيب أرسلان زرع هذه الفكرة في عقولهم. ولو لم يكن الأمر كذلك لكانوا في غاية السعادة⁽⁸⁵⁾". ولم يكن من تسبب في يقظة المغرب العرب من الخارج، بل فرنسا نفسها كانت السبب. ولم يكن المسؤول عن ذلك شكيب أرسلان، بل يرجع السبب إلى عمليات الترحيل والمصادرات ونزع الملكيات والهجمات التي استهدفت الإسلام، والزج بالناس في السجون والرقابة على الصحافة والسياسة المالية المنحرفة التي كانت تخلق حالة من الاحتياج بين الشعوب الشمال أفريقية. وفي فقرات بلاغية لاذعة نابغة من بصيرة نافذة محفوفة بالكآبة، أعلن أنه يجب على الفرنسيين أن يفهموا أن أعداء بلدهم الحقيقيين ليسوا أناساً على شاكلته، بل هم مواطنون فرنسيون شوفينيون وعنصريون: "المكفوفون الذين لا يرغبون في رؤية الضوء والصم الذين لا يرغبون في الإصغاء إلى صوت العقل". هؤلاء هم الأفراد المسؤولون عن خيانة القضية الفرنسية، وهم الذين يدفعونها نحو نهاية لا يمكن إلا أن تكون كارثية⁽⁸⁶⁾.

وفي إنكاره لأداء أي دور في أحداث شمال أفريقيا، كان مراوغاً أكثر منه مقتنعاً: "أذكر أنني قابلت طالبين أو ثلاثة من الطلاب المغاربة في باريس وقد خلفوا لدي انطباعاً ممتازاً؛ وذلك نظراً لمستوى تعليمهم الراقي المتألق، بيد أنني لم أبادل معهم قط آراء تتعلق بشؤون سياسية⁽⁸⁷⁾". وعلى أي حال، تشكل الحجج التي ساقها تدليلاً على

أنه يجب أن تتحمل فرنسا المسؤولية عن ردة الفعل المغربية على سياساتها بعضاً من أفضل ما كتب ونشر في مجلة الأمة العربية. ووظف إرسال الاهتمام الذي حظي به أحسن توظيف. فقد فضل أن ينخرط في عملية التفاوض مع ليون بلوم بدلاً من إدانة الطبقة الجاحدة من العدو النبيل، لكنه كان يعرف على الأقل أن لجهوده وقعاً وتأثيراً إلى الحد الذي جعل أحدهم يعده: "عدواً محترفاً للاستعمار الأوروبي". ولم يقتصر الأمر مع إرسال على استقطاب جيل جديد من المناهضين للاستعمار، بل أثار انتباه خصومه أيضاً⁽⁸⁸⁾.

وكما لاحظ منتقدوه الفرنسيون، وكانوا على حق فيما ذهبوا إليه، فإن ارتباطات إرسال الشمال أفريقية لم تكن معزولة عن همومه وبواعث قلقه حيال المشرق العربي. فقد أخذ على عاتقه بصفة شخصية مهمة مد جسور التواصل بين شطري العالم العربي. وعندما جاء في مقال كتبه روبرت مونتاني في العام (1936م) أن قنابل فلسطين انفجرت في تونس وتطوان، جادت مخيلته بطرح دليل على التكامل المتزايد بين المغرب والمشرق العربيين⁽⁸⁹⁾. وعندما اتخذ الحبيب بورقيبة لنفسه مجلساً مجاوراً لإرسال في المأدبة التي أولمها اتحاد طلبة شمال أفريقيا المسلمين بعد سنة من التاريخ المذكور آنفاً، ورأى زميله في مجموعه الدستور الجديد، الدكتور ثامر، منخرطاً في محادثة مفعمة بالحيوية مع أحد المصريين أثناء انشغال ممثل العلماء الجزائريين في مناقشة أمور مع أحد السوريين، استوقفته الأجواء الأخوية الحميمة الساحرة الناجمة عن وجود إرسال⁽⁹⁰⁾.

وقد شكل العقد الثالث من القرن العشرين، لا سيما الشطر الأول منه، أوج السيرة العملية لإرسال، حيث بدا لبعض الوقت مجسداً للمناهضة العربية والإسلامية الشاملة للحملة الاستعمارية. وكان يارس نفوذه أساساً من خلال اتصالاته، بصفة شخصية وعبر الرسائل، مع مناضلين أفراد. وعلى الرغم من أن مظالمهم كانت متجذرة في ظروف حياتهم المحلية والإقليمية المحددة، فقد أقتنهم إرسال بوجود روابط مشتركة تجمعهم وتوحدتهم، ووسع بذلك مدى قدرتهم على استشراف الأمور، كما وسع آفاق آمالهم، وقدرتهم على استشعار ما هو ممكن. وبوصفه رجل مهام ومبادرات

متجولاً كان يظهر في اللحظات الحاسمة في مناطق متفرقة من العالم العربي الإسلامي، فقد حظي باحترام من الجهات كافة. فبالنسبة لمكي الناصري، المغربي، كان إرسال "رجل الساعة في العالم العربي الإسلامي"، أما عند رشيد رضا في القاهرة، فقد كان "الأمير شكيب أكبر رجال السياسة من زعماء الأمة العربية، وأشهر كتابها الذائدين عن حوضها، والمنافحين عن حقوقها والعاملين لمصالحها"⁽⁹¹⁾. والثناء في العلن لا يعني طبعاً بالضرورة انسجاماً وتوافقاً في السر، فقد واجه إرسال معارضة مريرة حتى في ظل انتصاراته. ومع ذلك كان يضيف قيمة كبيرة على أي إنجاز، وكان ذلك ضرورياً لحشد التأييد له وذلك من أجل عدم تقويض القضية التي كان يمثلها.

وبينما كان يراكم إرسال حالات الاستحسان من المغرب والمشرق على حد سواء، فإن مكانته في التاريخ السياسي لكل من المنطقتين مختلفة تماماً. لقد ترأس الوفد السوري الفلسطيني إلى اجتماعات عصبة الأمم، لكن لا يمكن أن يطلق عليه لقب الرجل التكتيكي البارع على صعيد حركات الاستقلال المصرية أو السورية. ولكن في المغرب العربي، بخاصة في المغرب، المسحات والإيجاءات الدينية للسياسة، وغياب الطوائف المسيحية عن المكونات الأصلية للسكان - المكونات التي سبب حضورها في المشرق العربي صعوبات لرجل له إصرار إرسال على التوجه الإسلامي - وتركيبه الشباب المناضلين على وجه العموم توافقت وتساوقت تماماً مع رؤى إرسال وأهدافه العامة، ومع خبراته المتركمة، وبراعته السياسية فأعطته دوراً خاصاً. وإنجازات إرسال التي حققت نجاحاً فورياً لجهة مناهضة قانون الظهير البربري جعلت اختيار المغاربة له بوصفه مخططاً استراتيجياً لهم راسخ الأساس. وعزز هذا النجاح جاذبية إرسال بوصفه معلماً مرشداً وملهماً، وتوسع مدى جاذبيته وتأثيره في المغرب، أكثر مما فعل في المشرق، ليشمل رموزاً وشخصيات بارزة خارج نطاق جمهوره الطبيعي المتمثل بإصلاحيي التيار السلفي. وكان أقرب المغاربة المقربين إليه أولئك الذين تفرسوا تماماً. فعلى سبيل المثال، اكتشف هالستيد عبر المقابلات التي أجراها أن الوزاني، على الرغم من انغماسه كلياً في نظام الجامعات الفرنسي، تعلم من إرسال أكثر من تعلمه من

المؤسسات التعليمية الرسمية. والديماغوجي، مصالي الحاج، صاحب الموقف المغاير لمواقف أبناء مجتمعه قبل سواء بوساطة الإقناع أو تبعاً لخياره الشخصي آراء أرسلان فيما يتعلق بالإسلام السياسي. وبورقية الذي كان يصور غالباً بوصفه مثلاً للعقلانية السياسية والعلمانية، رأى من المفيد أن يربط نفسه بسمعة أرسلان. ولم يحاول أرسلان تحديد مضمون الأيديولوجية الوطنية في البلدان الثلاثة، إلا أنه سعى إلى توجيه طاقات أصحاب الكلمة والمتحدثين المختلفين فيها بطريقة من شأنها أن تحقق أكبر فاعلية سياسية، وتضمن في الوقت نفسه وجود مكانة مرموقة لمبادئه العربية الإسلامية العزيزة على قلبه داخل مجتمع المستقبل. وكان اهتمام أرسلان في تلك المرحلة موجهاً نحو اختبار تلك المبادئ عن كثب.

الفصل السادس

سلامة التقليد

الْفِكْرُ السياسية تصنع حقائقهم. غالباً في تحدٍ سافر للمنطق، يحتجزون رجالاً وهم بدورهم محتجزون من قِبَلِهِمْ، مكونين عالماً من صنع خيالاتهم، ليصلوا بأنفسهم إلى الإنهاك في نهاية المطاف مكبلين بالمشكلات الروتينية التي لم يأخذها في حسابهم أولئك الذين نسجوا الأسطورة، أو ليعيشوا في الماضي ويكفوا عن التأثير في الناس بها فيه الكفاية.

فؤاد عجمي⁽¹⁾

استناداً إلى الدليل الذي سقته، يبدو جلياً أن روابط الجامعة الإسلامية أقوى وأكثر أهمية من أواصر الوطنية.

أرسلان⁽²⁾

خلال السنوات الفاصلة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، أولى أرسلان الإسلام المسيس أهمية جوهرية على صعيد إحياء المجتمع وتمكينه من مقاومة الإمبريالية الأوروبية.

وتناول القضايا الكبرى الرئيسة المثيرة للجدل عبر إخضاعها للمعايير الإسلامية، مبدئياً قدر أقل من الاهتمام في أي منطقة عربية بعينها، مقارنة بالقدر الأكبر من الاهتمام

الذي أولاه العالم العربي الإسلامي على وجه الإجمال. وأصبح مشاركاً أيضاً في هذه المجادلات والمباحثات، وهياً مكانة خاصة لنفسه بوصفه قوة إلهام وتحفيز.

وتزامناً مع استجاباته التكتيكية لمجموعة متنوعة من المواقف الإمبريالية، طرح أرسلان فكرة إجراء فحص ومعاينة للمشكلات الداخلية للعالم الإسلامي، ووصف علاج للعلل التي ابتلي بها المسلمون. وعلى الرغم من أن أرسلان لم يكن مفكراً لاهوتياً تأملياً أو مبدعاً، فقد استقطبت كتاباته وتعليقاته الإسلامية طيفاً واسعاً من جماهير القراء. وكتابه الذي انطوى على انتقادات لاذعة وعنوانه: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ هو إسهام دائم ومتجدد منه، فقد طبع ثلاث مرات في حياته، وأعيدت طباعته في العامين (1965م) و(1981م)⁽³⁾. ينتمي هذا الكتاب والمقالات الكثيرة التي نشرها أرسلان عن موضوع مكان الإسلام في المجتمع الحديث إلى التيار التسويغي للإصلاح السلفي⁽⁴⁾. وبينما كانت نقطة انطلاق أرسلان تنهاى مع منطلقات محمد عبده ورضا، فإن منهجيته، إن جاز لنا أن نسميها كذلك، كانت مختلفة عن منهجيتيهما، فهو لم يطرح رؤية نقدية في أمور الفقه التقليدية، ولم يسهم في التفسير، ولم يتطرق إلى موضوع مراجعة الأحاديث الشريفة والنظر فيها. وإنه لمن الإنصاف لأرسلان أن يتوصل المرء إلى استنتاج يفيد بأن أسلوبه كان أقرب إلى أسلوب جمال الدين الأفغاني منه إلى أسلوب محمد عبده. ولم يكن لدى أرسلان من الوقت ما يتيح له أن يتبحر في الدلالات الدينية، ولم تكن كتاباته عن الإسلام بعيدة بحال من الأحوال عن الأحداث السياسية التي راقبها عن كثب. وإن كان افتقاره إلى الإحاطة بالمعرفة الْعَقْدِيَّة دفعه أحياناً إلى الانخراط في أكثر الأمور ضحالة في معرض الدفاع عن العقيدة، إلا أنه لاس كذا أكثر القضايا الاجتماعية حساسية وتطرق إليها.

وعلى الرغم من أن أرسلان طور تدريجياً برنامجاً سياسياً غامضاً بالنسبة للوحدة العربية، فإن إيمانه بأولوية الجامعة الإسلامية كان هو المهيمن. وترميم النسيج الاجتماعي والتأكيد على الكرامة في المعترك الدولي، والرأي رآيه، يتحققان من روابط الإسلام بصورة طبيعية أكثر مما يتحققان من روابط العروبة. ولا تجد رؤيته للمستقبل

ضالتها في بناء نظام جديد، بل في إحياء النظام القديم وتنشيطه. وفي أدبيات الإصلاح السلفي، يتطلب هذا تقويماً للأسس التي تشكل المكونات الأصلية للمجتمع الإسلامي، والوقوف على الأسباب التي خلفت المجتمع في الحال التي كان عليها من التشوش.

واستناداً إلى نقطة الانطلاق نفسها التي انطلق منها محمد عبده ورضاء، أقر أرسلان بالتخلف القائم في العالم الإسلامي بالمقارنة مع الأوضاع في كل من أوروبا الغربية واليابان، إلا أنه عزا ذلك إلى إخفاقات المسلمين، لا إلى خلل في دينهم. وقد عُثِرَ على دليل يبرهن على صحة هذه الفرضية من الأدلة المستمدة من الماضي، ودافع أرسلان عن سلامة التجربة الإسلامية وصلاحيتها عبر استحضاره السجل التاريخي، وإشارته بكل فخر إلى العصر البطولي الذي شاهده صدر الإسلام عندما "فتح العرب نصف العالم في نصف قرن"⁽⁵⁾. وقد تمكنوا من تحقيق ذلك بسبب تمسكهم بالتعاليم القرآنية، واستعدادهم للتضحية بأرواحهم نصرَةً للدين، وثباتهم في مواجهة المصاعب والخطر. لقد كان عصر الرجال الشجعان عندما كان "يقوم واحد للعشرة وربما للمئة من غيرهم"⁽⁶⁾. وكانت معالجة أرسلان للفتوحات الإسلامية وتطور الحضارة الإسلامية المرموقة تطرح دوماً على هذا النحو. إذ كان يمجّد فضائل الرجال ويتجنب الخوض في مناقشة تعقيدات العقيدة، ففي العمل يكمن الإنجاز. "وعندما يتفانى الناس ولاءً ويتقدون حماساً ويتحلون بالشجاعة ويمتلكون صدق العزيمة"، يمكنهم أن ينجحوا في أي أمر⁽⁷⁾. وعليه لا تعود الحال تقتضي مزيداً من التحليل.

وعلى نحو مماثل، في مناقشاته المتكررة لإنجازات الحضارة الإسلامية المتحضرة، لم يربط أرسلان بين محتوى الرسالة الدينية وبين المجتمع الذي أطرها. وأكد عظمة الماضي عبر وصفه روعة الأبنية واستعراضه المدن الكبيرة المزدانة والمزخرفة، وبقياسه أبعاد الفتوحات العسكرية. وكان يلوذ بالماضي التماساً للدعم النفسي والمعنوي لقرائه وله أيضاً، عبر تزويدهم بأدلة قاطعة تثبت أن منظومتهم الدينية كانت تتوفر في الماضي على الهيمنة الزمنية وعلى أسباب المجد والفخر.

ولكن لماذا انحدرت العظمة، المعترف بها عالمياً، إلى الدرك الراهن من الانحطاط؟ وفي معالجة هذه المسألة، لم يكن أرسلان راغباً في إعداد سلسلة تاريخية متصلة تشير إلى انحدار المسلمين، كما لم يكن معنياً بتحليل الأسباب والنتائج المرتكزة إلى أحداث محددة أو المستندة إلى اتجاهات عامة، بل كان معنياً ومتأثراً بأزمة الإسلام القائمة في عهده، وتلك الأزمة هي ما كان يرغب في شرحها وفي شجب مفتعلها بشدة.

وكان حكم الأوروبيين المباشر لبلاد من بلاد المسلمين وهيمتهم عليها أحد تجليات تلك الأزمة. وكان الغرب دوماً موجوداً في أزمت المسلمين، وتم صده بنجاح حتى عهد قريب مضى، لا بل وهُزِمَ أيضاً. وبناء على ذلك، يتعين على المسلمين أن يتحملوا مسؤوليتهم الرئيسة عن تراجعهم الراهن. وما كان للقيوى الغربية أن تحقق نجاحاً في إخضاع العالم الإسلامي لولا الأمراض الداخلية التي تنخر الجسم السياسي بشدة. وبالنسبة لأرسلان، تحديد المسؤولين عن تخلف العالم الإسلامي من السهولة بمكان وهم، والرأي رأيته، غلاة المحافظين التقليديين والمتغربون العلمانيون. وقد أسهم أصحاب الفئة الأولى في هذا التخلف عبر تفسيراتهم المغلوطة فيها للإسلام، وعكفوا على ازدراء العلوم كافة، بخاصة الفلسفة، وهم يدينون جهود المثقفين والمفكرين ويصفون أعمالهم بأنها ممارسات كفار زنادقة⁽⁸⁾. وأحقق الرجعيون في فهم أن "الإسلام هو من أصله ثورة على القديم الفاسد"، وأدوا بالإسلام بسبب عقليتهم المنغلقة إلى حالة من الجمود الذي يناقض طبيعته⁽⁹⁾.

وأدان أرسلان الجبرين كذلك بوصفهم أناساً جهلة أخفقوا في فهم الدينامية المتأصلة في صلب الإسلام، وما تقتضيه من استناد الحياة إلى العمل الذي تتناسب النتائج التي تنجم عنه مع الجهود المبذولة. وال دراو يش، كما يراهم أرسلان، "ليس لهم شغل ولا عمل، وليس في الواقع إلا أعضاء مشلولة في جسم المجتمع الإسلامي"⁽¹⁰⁾. وللذين وطنوا أنفسهم على نبذ العمل وبذل الجهد في الحياة الدنيا لصالح الآخرة والتأمل فيها، وجه أرسلان رسالة ازدراء خصهم بها: "فإن كنا طول العمر لا نتكلم إلا فيما هو عائد للآخرة، قالت لنا الأرض: اذهبوا تَوّاً إلى الآخرة، فليس لكم نصيب مني"⁽¹¹⁾.

ومن أجل حث فاتري الهمم وجعل النشاط يدب في أوصالهم وفي سبيل استنهاض عزائم غير المباليين، حاول أرسلان أن يبين التلازم بين بذل الجهود الإيجابية وبين تحقيق الإنجازات الإسلامية. وكان متمكناً من عقد مقارنات تاريخية بمنتهى البساطة. ومثال على ذلك ما كتبه عن إحباط النبي (صلى الله عليه وسلم) من جراء نكسة معركة أحد، لكنه علق على ذلك بقوله: بسبب إيمان النبي (صلى الله عليه وسلم) وشجاعته كان هو المتصر في النهاية⁽¹²⁾. وعليه فإن ما تحقق في صدر الإسلام يمكن أن يتحقق لمسلمي القرن العشرين. إن هم لم يفقدوا الأمل، وإذا ما حافظوا على إيمانهم، وإذا ما قدموا تضحيات شخصية، إذا ما فعلوا ذلك كله سوف تكتب الغلبة لهم. مستفيضاً في استعراض هذه الأنواع من المواعظ ومقتصداً في التحليل، لم يحاول أرسلان أن يعيد التفكير في عقائد الإسلام، إذ لم يجد أن ذلك كان ضرورياً.

والبحث والتفكير في الأمور العقدية كانا من شأن آخرين غيره. أما هو فلديه حل مباشر وبراغماتي وواضح وهو مدرج في أدبيات محمد عبده، ويتمثل في الدمج الجريء بين مذهب المنفعة وبين التنزيل. وورد فيما كتبه أرسلان الآتي: "الإسلام مرناً بما فيه الكفاية إلى الحد الذي يجعله قادراً على التوافق والتناغم مع أي موقف في العصر الحديث"⁽¹³⁾.

كان محمد عبده قد بين أن "كل أمر مفيد اجتماعياً يعد أخلاقياً... ما لم يتعارض مع أحكام التنزيل وتعاليمه تحديداً". وأضاف أرسلان إلى ذلك ملحفاً شديد الوضوح لا لبس فيه حين قال إن كل ما يحقق المصلحة العامة لا يمكن أن يتعارض مع مقاصد الإسلام: "الذين يفهمون الإسلام حق الفهم يرحبون بكل جديد لا يعارض العقيدة، ولا تخشى منه مفسدة. ولا أظن شيئاً يفيد المجتمع الإسلامي يكون مخالفاً للدين المبني على إسعاد العباد"⁽¹⁴⁾.

وفي المحصلة يمكن للمجتمع أن يحصل على ما يحتاج إليه، فحقيقة الاحتياج تسوغ الاكتساب. وبناء على ذلك كان أرسلان يتقبل النهج العقلاني بوصفه وسيلة لتحقيق

التقدم الاجتماعي. ولم يكن أرسلان يوافق على استعمال العلمانيين لهذه الفكرة، لكنه كان أكثر اهتماماً من رشيد رضا في استعمال المسعى الإنساني لتحقيق أغراض سياسية. وبتأكيد أنه "إرادة الإنسان هي الوسيلة الأساسية لتحقيق أهدافه"، كان أرسلان قادراً على تأمين قدر معين من الإقرار الصريح بمشروعية سورية المستقلة، أو بفكرة الحالة الثورية الجزائرية طبقاً لتعريف مصالي الحاج لها⁽¹⁵⁾. وبدأ أحياناً أن انصياحه للعامل البشري قد تخطى حدود الإلهام. يقول أرسلان: "يقول بعض الناس: مالنا وللرجوع إلى القرآن في ابتعاث هم المسلمين إلى التعليم؟ فإن النهضة لا ينبغي أن تكون دينية، بل وطنية قومية كما هي نهضة أهل أوروبا! ونجيبهم أن المقصود هو النهضة، سواء كانت وطنية أم دينية⁽¹⁶⁾". وما قاله أرسلان لنفسه بوصفه سياسياً عندما صادق على المعاهدة الفرنسية السورية في العام (1936م)، يمكن أن ينسحب عليه أيضاً بوصفه "رجل دين": دعونا نتجنب القول إن شكيب أرسلان حالم وليس في وسعه استشعار الأمور عملياً⁽¹⁷⁾.

أتاح استشراف الأمور على هذا النحو لأرسلان أن يجعل من الأخلاقيات الدينية ما كان يعتقد أنه يجب أن تكون عليه في حينه -إيجابية واستشرافية. فإن كان الوزن الساحق للاحتلال الأوروبي متفوقاً بالقوة وغالباً على أمره، وقد جاء في القرآن الكريم: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"⁽¹⁸⁾. ألم يبين الأفغاني أن الإسلام مناسب لكل جانب من جوانب الحضارة الحديثة من دون أن يشوش إيمان المؤمن عليه؟ وبناء على ذلك فإن أولئك المسلمين "الجغرافيين" الذين أهملوا العمل لصالح الدين كانوا يخالفون الدين، والذين يشعرون بالسعادة من جراء أدائهم الطقوس المقررة، لم ينفذوا الالتزامات الكاملة التي تقتضيها الشريعة. إنهم مذنبون بسبب عدم مبالاتهم، ودحضت حججهم المراجع الدينية الحديثة. يقول أرسلان: "أنا أقول إن مقاصد اللامبالين تتناقض مع مقاصد جمال الدين (الأفغاني)⁽¹⁹⁾".

ولكي تزدهر أحوال المسلمين كما أراد لهم الله، يجب عليهم أن يعملوا وأن يضحوا. وقد وجه أرسلان إلى المجتمع الإسلامي دعوة للعمل الذي يمكن وصفه بأخلاقية

الجهاد الحديثة التي يجري التأكيد فيها على المسؤولية الفردية لكل مؤمن: "مستعنيين بالانضباط المستمر، وبالعزيمة والإصرار على السير قدماً، وبالفهم الصحيح لأساسيات الإيمان تبعاً لما نصت عليه تعاليم القرآن الكريم دعونا نحاول ولنواصل جهادنا"⁽²⁰⁾. هذه هي الطريقة التي يتوافق تبعاً لها الإسلام مع الحضارة الحديثة. فإن تمكن المسلمون من استرداد روح بذل الجهد الإيجابي، عند ذلك يكون في وسعهم أيضاً اكتساب المهارات التقنية التي تحتكرها أوروبا حالياً. ولم تكن هذه المهارات إلا نتاجاً للجهود التي بذلها الأوروبيون وأهلها المسلمون. "والأوروبيون، شأنهم شأن المسلمين، هم بشر ليس إلا"⁽²¹⁾.

كان أرسلان مصلحاً من دون أن يطرح نوعاً من إعادة الصياغة، وحاول أن يوصل إلى الناس فهماً عملياً سليماً للإمكانات التي أتاحها الإسلام دون محاولة الاستكشاف العميق جداً لحدود التنزيل المحتملة. وقد أكد على أن الإسلام قوة إيجابية ديناميكية، وأدان الذين يقولون ما هو خلاف ذلك أو يتصرفون تبعاً لما هو مغاير له، ووظف العقل دعماً وتأيداً للعمل الذي يحض عليه، وما برح يحاجج في أن العمل أُتِيحَ لأن العقل والمنطق يتطلبان تحقيق ازدهار المجتمع الإسلامي. ولكن في النهاية يتوفر الدين على مسوغات ذاتية تبرر وجوده: "وكل منصف يحكم أن الدين إذا أقيم على أركانه كان مبعثاً للأخلاق الفاضلة، لا يقوم مقامه غيره في إحيائها في صدور الناس"⁽²²⁾. وكل ما تدعو الحاجة إليه مباح ومتاح. ومن شأن التقيد بمقتضيات أخلاقيات الجهاد أن يعيد المسلمين إلى مكانهم الصحيح في العالم. وفي الوقت الذي أتاح فيه أرسلان نطاقاً واسعاً للأمور المباحة والجائزة في المجتمع الإسلامي على وجه الإجمال لكي يحقق التقدم، فإن تشجيعه لحرية العمل لم يكن غير محدود. فإن كان التمسك الأعمى بالتقاليد التي أسيء تأويلها قد وضع الحيوية المتأصلة في الإسلام، فإن تهديداً أشد وطأة شكله أولئك الذين "تخلوا عن التقاليد واعتقدوا أنهم يقودون قافلة التقدم والنجاح"⁽²³⁾. لقد كان هؤلاء المرتدين "المضللين باسم التقدم". وأمثلة عليهم نجدها في كل من طه حسين ومحمد حسين هيكل والدكتور الشهبندر، وعلى رأسهم جميعاً مصطفى كمال

أتاتورك⁽²⁴⁾. ويرى أرسلان أن هؤلاء أعداء أيضاً ولا بد من مجابتهم والتصدي للتحديات التي فرضوها.

كانت القضية، كما رآها أرسلان، تتمثل في واجب الإسلام في توليد يقظة اجتماعية جديدة، فقد نظرت الحلقة المؤثرة من المثقفين الليبراليين المصريين إلى الإسلام بوصفه عائقاً يحول دون تحقيق العملية الوحيدة التي من شأنها تنشيط المجتمع، وتحديدًا عبر "ضخ القيم العلمانية المستمدة من الليبرالية الأوروبية التي شهدتها أوروبا في القرن التاسع عشر⁽²⁵⁾". وفي بثهم قيمًا من هذا القبيل، انتقدوا الأساليب الأدبية المهترئة (وكان أحد الذين استهدفهم طه حسين في هذا الإطار أحمد شوقي)، وتحلوا عن هوية مصر الإسلامية، وأخضعوا التراث الأدبي الديني بما في ذلك القرآن الكريم إلى التدقيق والتمحيص باستعمال أساليب نقدية جديدة. وكان أرسلان يبغضهم ويستنزل اللعن عليهم.

وقد تبدو للوهلة الأولى معارضة أرسلان، وهو الساخط على الأوضاع التي كانت قائمة، للجماعات التي التزمت بتغييرها أمراً يفتر إلى التساوق المنطقي. وأرسلان نفسه لم يكن يفتر إلى بعض آثار الفلسفة الوضعية، والمجتمع الذي دعا إلى تكوينه شكلته روح السعي الإنساني والإيمان بالتقدم. وربما كان متوقفاً أيضاً أن يكون لرجل له خبرة أرسلان في أوروبا رغبة في أن يستحسن المجتمع الإسلامي شيئاً من الممارسات الغربية المتقاة ويتبناها. إلا أن خبرة أرسلان في أوروبا كانت نتائج تجربة رجل عاش فيها غير أنه ليس منها. وخلافاً لهيكل أو طه حسين وكلاهما حازا درجات دراسية عالية من جامعة السوربون، لم يشارك أرسلان في عملية المثاقفة التي بثت الإعجاب بالقيم الأوروبية. وكان تأكيده على "أن الضرورة تقتضي أن يظل الشرق شرقاً" تعبيراً عن رفضه الجريء المتحدي لأولئك الذين تصوروا التجديد استنساخاً للأساليب الأجنبية⁽²⁶⁾. وأفاد أرسلان من طلاقته في اللغة الفرنسية وذلك في وضع جماهير القراء الفرنكوفونيين في صورة نفور أبناء الشرق من أوروبا، وعدم تشرّبهم تياراتها الفكرية. وتجاوز إلحاحه في حملته الدعائية وشجبه المشوب بالازدراء حدود الدفاع عن مجتمع

بعينه في مرحلة تاريخية محددة. لقد كان ما قام به إرسال دفاعاً عن عالمه وعن تراث جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والتراث العثماني، التراث الذي كان وريثاً مخلصاً له، ولكن بأسلوبه الخاص. وكان يعتقد أنَّ عليه أن يقاوم الغرب بسبب ما فعله لذلك العالم (عالمه)، وبسبب تهديده لشرعية ذاك الإرث. لقد أغلق ذلك العالم على نفسه مؤكداً أن إحياءه إنما يتأتى من التطبيق الرشيد لمنهجه، لا من خلال المناهج المستوردة.

ويرى إرسال أن المناهج المحلية مفضلة على المناهج الأجنبية لأنها تناسب مجتمعاتها التي تتوفر عليها. وأكد في هذا السياق أن تمايز نظم العالم الثقافية أمر مرغوب فيه، فقد أبلى الأوروبيون بلاء حسناً حين عملوا في ظل النصرانية، وازدهر اليابانيون في ظل بنية دينية معقدة. وكان ينبغي أن تجري الأمور على هذا المنوال؛ ذلك لأن التعددية الثقافية في بوتقة منظومة بعينها أمر غير مناسب بالتأكيد.

ومن ثمَّ، فإن التراث الإسلامي الديناميكي يتوفر على قيم ثقافية وأخلاقية يتعين الحفاظ عليها لأنها مناسبة للمجتمع الإسلامي. ويرى إرسال أن من شأن مقترحات الليبراليين المتفرنجين أن تنسف الإسلام بوصفه نظاماً اجتماعياً، وذلك عبر تجريد المسلمين من مناهجهم التي تعد ضماناً لتمييزهم.

وبالنسبة لأرسال، المنهج يعني تراثاً ثقافياً متراكماً يحقق غايات متميزة أخلاقياً ومتماسكة اجتماعياً في آن معاً. وأدبياته الجهادية تؤطرها المنظومة الأخلاقية الإسلامية: وأياً كان المجال الذي أتاحته الشريعة لاكتساب العلوم والفنون، ولتحقيق السلطة والمجد، فإنه ينبغي اتباع الاتجاه المعاكس عندما يتعلق الأمر بقضايا اللياقة وآداب السلوك والتواضع الشخصي والنقاء الأخلاقي... ونحن نعتقد أن الشريعة تحرم تحريماً شديداً الفسوق والدعارة والفجور، ويجب أن تتلازم الحرية مع سلسلة من آداب السلوك، وينبغي أن تواظب على تحريم كل ذلك. والسلوك الذي يدعوه بعض المتغربين من المشاركة سلوكاً حضارياً وضرورة اجتماعية ليس حضارياً ولا تقتضيه الضرورة⁽²⁷⁾.

وإنه لأمر يخلف شيئاً من الصدمة أن تقرأ ما خطه رجل كوزموبوليتاني، عاش أكثر من عقدين من عمره في كنف أوروبا، ويدعو فيه إلى المواظبة على منع الرقص المختلط بين الجنسين لأنه ينطوي على "احتكاك، ولأن الاحتكاك هو أول مرحلة من مراحل الزنا"⁽²⁸⁾. ولكن أرسالن رأى في انتهاك الوصايا الأخلاقية للإسلام مقدمة لانحلال المجتمع الإسلامي نفسه. كما رأى أن تحقيق الصالح العام يقتضي صَوْن كل ما هو مميز لدى الأمة حتى مع واقع السماح بتحقيق تقدم عقلائي:

أما الجاحد فهو الذي يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين، ويخرجهم عن جميع مقوماتهم ومشخصاتهم، ويحملهم على إنكار ماضيهم، ويجعلهم أشبه بالجزء الكيماوي الذي يدخل في تركيب جسم آخر كان بعيداً فيذوب فيه ويفقد هويته. وهذا الميل في النفس إلى إنكار الإنسان لماضيه واعترافه بأن آباءه كانوا سافلين وأنه هو يريد أن يبرأ منهم، لا يصدر إلا عن الفسل الخسيس، الوضع النفس، أو الذي يشعر أنه في وسط قومه دنيء الأصل... وهو مخالف لسنن الكون الطبيعية التي جعلت في كل أمة ميلاً طبعياً للاحتفاظ بمقوماتها ومشخصاتها، من لغة وعقيدة وعادة وطعام وشراب وسكنى⁽²⁹⁾.

وفي حملته الرامية إلى المحافظة على مجموعة كاملة من مكونات الأصالة الثقافية الإسلامية، اصطدم أرسالن مع الليبراليين العلمانيين، وعارضهم عبر تأكيده على صحة حججه التي كان يسوقها تدليلاً على الأصالة الثقافية التي استعرضت أعلاه، وجعلهم هدفاً لحملة دعائية إعلانية تسخر استنهاض العواطف للتشهير بهم. وكانت حملته وحججه ضعيفة فكرياً، لكن كانت ذات أسلوب يبعث على الرضا، لا ريب في ذلك. ولم يتبع أرسالن مطلقاً منهج طه حسين في التحقق من موثوقية الشعر الجاهلي، وفي دراسة السور القرآنية الكريمة دراسة نقدية تحليلية مفصلة. ومتهما المصريين بانتحال كتابات المستشرق مارغليوث النقدية، زعم أرسالن أن كل ما قام بعمله طه حسين كان مجرد محاولة لتحقيق الشهرة لنفسه⁽³⁰⁾. وانطلاقاً من اقتناعه بصوابية نسخته الخاصة من الماضي الإسلامي، لم يسمح أرسالن بالعبث بها من قبل "متفرنجي" القاهرة. وزعم أن

ما كتبوه لم يكن نتاج آراء سديدة، وأن ما كتبه هو كان تاريخياً واقعياً. ووصف سلامة موسى ومن لف لفه بأنهم "شعوبيو العصر" الفوضويون العازمون على التقليل من شأن تميز الإنجازات العربية، وأنه يتعين، نظراً لوقاحتهم، التعامل معهم بوصفهم أعداء⁽³¹⁾.

ولكن كان يوجد عدو أكبر. فقد كان أرسلان يرى أن القوة الأشد خبثاً بين العلمانيين المتفرنجين هي تركيا الكمالية، حيث تعد الأغلاط التي اجترحها القوميون العلمانيون في القاهرة واهية وباهتة إذا ما قورنت بالجرائم التي ارتكبت في أنقرة. ولم تثر قلق أرسلان قضية إسلامية بقدر ما فعل البرنامج الكمالي الإصلاحي، وكرس معظم ما كتب في أواخر عشرينيات القرن العشرين وأوائل ثلاثينياته لهذا الموضوع أكثر من أي موضوع آخر. وبدا الأمر كما لو أن كمال أتاتورك كان يئد ماضي أرسلان، فرد على ذلك بغضب مستدام. لقد طُعن في صميم معتقداته الجوهرية الأساسية، وجرى تهديد مفهومه المتعلق بالنظام الاجتماعي والأخلاقي المناسب. وغلفت معالجته للمسألة الكمالية هجومه المضاد الكامل الذي كان يستهدف المتفرنجين.

استنكر أرسلان المقترحات "الكمالية الإلحادية" كلها تقريباً⁽³²⁾، وادعى أن الحكومة في أنقرة (التي يميز بعناية بينها وبين الشعب التركي) كانت تشن هجوماً مباشراً وعديم الرأفة على الإسلام، وكانت كتاباته تحفل بتعابير من قبيل "تدمير أركان الإسلام من قبل الكماليين"، و"تدمير أنقرة لروح الإسلام في تركيا"، و"قضاء الكماليين على أسس الإسلام"⁽³³⁾. وبالنسبة لأرسلان، كان خطر هذه السياسات من النوع الذي يمكن تلخيصه بالآتي: "ثورة أنقرة على الخلافة، وعلى المبادئ الإسلامية، وعلى التقاليد الشرقية، لا بل على الدين وعلى الله"⁽³⁴⁾.

ونشر هذه الفِكرَ كفيل بتشويه الإسلام برمته، وكانت مهمة أرسلان تلخص بمحاولة احتواء الوباء وإظهار ضروره: "الإشفاق على وحدة المسلمين يقضي أن نقارع هذا الغلو وهذا التهور بكل استطاعتنا"⁽³⁵⁾. وأشار أرسلان إلى أنه جرى تخويف بعض

الناس وإرهابهم وإسكاتهم من قبل دكتاتور أنقرة الذي لا يعرف الرحمة. وكان أرسلان يجاهر في مناهضته للسياسة الكمالية: "لا نخشى أحداً في مقام الدفاع عن الإسلام"⁽³⁶⁾. وشن حملة دفاعه عن الإسلام انطلاقاً من استعراض عدم ملائمة إصلاحات أتاتورك الاجتماعية أساساً للأوضاع التي كانت قائمة. وبفعله ذلك، كان يدافع عن رؤاه الخاصة لترتيب الأمور ترتيباً صحيحاً ملائماً. وتشير الأمثلة الآتية إلى طبيعة التهم التي وجهها أرسلان إلى سياسة أتاتورك: إن اعتماد الأبجدية اللاتينية لا يخدم سوى هدف واحد يتمثل في حمل الأتراك على التخلي عن لغتهم، وفي الحيلولة دون تمكنهم من قراءة القرآن الكريم. كما أن الإصرار على كشف نقاب المرأة لا يعدو كونه استبدالاً للفجور بالطهر والعفاف، وترافق مع علامات فساد أخلاقي مثل الاختلاط بين الشباب من الجنسين وصولاً إلى حد السماح لهم بالرقص معاً. وكذلك وضع حد للتعليم الديني تمخض عن تهديد بتكوين جيل من شأنه أن يعرف الإسلام بوصفه مجرد تقليد يمارسه أناس آخرون، بالطريقة ذاتها التي يمكن أن يعرف فيها جيل من هذا القبيل شيئاً عن البوذية⁽³⁷⁾.

ورد أرسلان أيضاً على السياسات التي شكلت خطراً على الرموز الخارجية للاستمرارية الثقافية. لقد شن أرسلان، وهو الرجل الذي يرتدي زياً أوروبياً لا تشوبه شائبة، من سويسرا حملة دفاع شرسة عن الطربوش. وسخر من أولئك الذين حطوا من قدر أنفسهم باعتمادهم القبعات لمجرد محاكاة الممارسات الأوروبية. وعندما زار أمان الله، ملك أفغانستان، لوزان في العام (1928م)، رفض أرسلان أن يلتقي به؛ لأن الملك كان يعتمر قبعة خلال زيارته الرسمية لمصر قبل بضعة أسابيع⁽³⁸⁾. وفي أحد تعليقاته النادرة حول الولايات المتحدة، أشار أرسلان إلى أن أعضاء أخوية الشراينرز (الماسونية) اعتمدوا الطرابيش، مبدين بذلك احتراماً أكبر للطقوس التي تبناها من الاحترام الذي أبداه الكماليون لتقاليد أبناء بلدهم⁽³⁹⁾.

وبالنسبة لأرسلان، مضى التشريع الكمالي وصولاً إلى ما هو أبعد من الفصل الإداري بين الدين والسياسة، وشكل هجوماً مباشراً على الدين نفسه. وكانت مشاعره

التي تجيش في صدره حيال هذه المسألة من الحدة بمكان بحيث جعلته في مرحلة معينة يشكك، عبر مقالات نشرها في الصحف، في قيمة استقلال تركيا. وأشار في مقال إلى أنه إن لم تنتصر تركيا على اليونانيين، سيبقى احتلال الحلفاء قائماً، وسيواظب مصطفى كمال على التحدث باللغة العربية عن الأحلاف الإسلامية وعن الحاجة إلى الحفاظ على الخلافة⁽⁴⁰⁾.

اتهم أرسلان أيضاً الليبراليين المصريين باستهداف الدين بهجوم مباشر عبر ادعاءاتهم التي زعموا فيها أن القومية تتعارض مع الدين، وأنه لكون القومية هي الأيديولوجية التي اعتمدتها الأمم المتقدمة، إذن الدين والحدثة أمران متناقضان⁽⁴¹⁾. وكان من الضرورة بمكان بالنسبة لأرسلان أن يدحض هذه الادعاءات، وأن يثبت أن التحديث ليس مرادفاً لنبد الدين. وكان هذا الأمر هو جوهر ما كان يسعى إلى تحقيقه، وموضوعه الأساسي. واستندت حججه التي ساقها وكررها عبر مقالات نشرها في عشرات المطبوعات إلى فرضية تفيد بأن التقدم كان، كلما حل وفي كل وقت يحدث فيه، يتأتى بالتضافر والاشتراك مع الروح الدينية للمجتمع المعني بالأمر، وأن إحياء التجديد والتطوير لا يمكن أن يحدث حقاً إلا في إطار التقليد التاريخي. وكان أسلوبه المفضل يتمثل في ذكر أمثلة على الطريقة التي حققت بها أوروبا واليابان مستويات متقدمة من الحضارة من دون التخلي عن قيمهما الدينية والثقافية التقليدية⁽⁴²⁾. سواء أكان الأمر يتعلق برعاية حكومية رسمية لأنشطة الإرساليات التبشيرية، أم بالصلوات والدعوات التي يخصص بها الإنجليز مليكهم، فقد عثر أرسلان على دليل على نوع من الرمزية الدينية في المجتمع الأوروبي المعاصر، وكانت الحجج التي ساقها تفتقر إلى الدليل الموضوعي، إلا أنها تنم عن ذكاء. طرح أرسلان السؤال الآتي: ألم يتوصل ملوك أوروبا ورؤساؤها المسيحية في تبرير سياساتهم الوطنية؟ ألم يتبوا رئيس أساقفة كانتربري المكانة الأرفع مقاماً بعد الملك مباشرة في المواكب الاحتفالية؟ ربما يكون أرسلان قد أساء كلياً تأويل اتفاقات لاتران التي أبرمت بين السلطة البابوية وبين حكومة موسوليني في العام (1923م)، أو قد يكون نظر إليها في ضوء آماله الخاصة. وقرر التأكيد على الاتفاق

بوصفه برهاناً كبيراً، من نظام آخذ في التحديث، على دور الدين في الدولة. وخاطب فئة بعينها قائلاً: ”اسمعوا! أنتم يا من تلهثون وراء التحديث، أنتم يا من ارتددتم عن دينكم باسم التقدم، لقد قرر الإيطاليون العودة إلى الدين، لكن لم يعوّ ذلك مسيرهم في طريق التقدم“. ثم قال محذراً وموجهاً صفة مباشرة إلى الكمالين: ”وهذا أيها الشرقيون الذين يسفست عليكم بعض رجالكم بكيفية فصل الدين عن السياسة نوع من أنواع هذا الفصل، يبناه لكم وأعطيناكم خلاصته لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية⁽⁴³⁾“.

خلبت اليابان لبَّ أرسلان بسبب اعتقاده أنها حققت مستوى حداثياً موازياً لذلك الذي بلغته أوروبا الغربية من دون أن تتنازل عن معتقداتها الأصلية ونظمها الثقافية. وقال: كل أمة من أمم الإسلام تريد أن تنهض وتلحق بالأمم العريضة يمكنها ذلك وتبقى مسلمة و متمسكة بدينها. كما أن اليابانيين تعلموا علوم الأوروبيين كلها وضارعوها، ولم يقصروا في شيء عنهم ولبثوا يابانيين ولبثوا متمسكين بدينهم وأوضاعهم⁽⁴⁴⁾.

وتساءل أرسلان: لماذا نحن، المسلمون، بطيئون جداً في فهم هذه التطورات؟ أفلا نفهم أننا إذا تصرفنا، تبعاً لما يحثنا على فعله الكماليون، وانسلخنا عن تاريخنا، ونبذنا القرآن، ورمينا معتقداتنا وقيمنا التي تجعلنا نفرق بين الحق والباطل في مهب الريح، سوف يُجهز علينا؟ ورفع أرسلان صوته محذراً: ”إن شئت أيها العالم الإسلامي أن تتعلم وترقى فأمامك مثال هو العالم الأوروبي. فكما أنه ترقى وبقي مسيحياً بكليته، يمكنك أنت أن تبقى مسلماً وأن تترقى بقدر ما تجدد، وليس رقيق موقوفاً على الكفر⁽⁴⁵⁾“.

وأظهرت هذه الأمثلة وأمثلة أخرى لا تعد ولا تحصى التوافق بين الدين والتقدم.

كان أرسلان عاقداً العزم على إثبات أن أي نجاح نعمت به تركيا قد تحقق على الرغم من العلمانية الكمالية، لا بفضلها. وبينما لم يستطع أن ينكر تحقيق إنجاز السيادة التركية، حرص على ربط هذا التطور الجدير بالثناء بوجود قاعدة إسلامية استند إليها. وبناء عليه، كما يرى أرسلان، ظلت تركيا محافظة على هويتها الإسلامية، وبقي الإيمان واسع

الانتشار بالإسلام راسخاً لم يتزعزع،” وحافظ الشعب التركي على عقيدته في ظل رابطة الدين التي لا تنقسم عراها، وذلك على الرغم من سياسة حكومته الإلحادية⁽⁴⁶⁾“. ودعماً لرأيه هذا، تحدى أرسلان أتاتورك مباشرة في أن يعيد إلى الذاكرة أحداثاً محددة كانت قد أحاطت بحرب الاستقلال ضد الإغريق. هل نسي الكماليون كيف زعمت جمعية أنقرة أنها كانت تقاتل من أجل تحرير خليفة الإسلام من أيدي الدول غير الإسلامية؟ هل نسي مصطفى كمال كيف اعتاد أن يذهب إلى محطة أنقرة لإلقاء السلام على سيد أحمد الشريف السنوسي، وتقبيل يده على مرأى من أعين الناس جميعاً؟ وخلال هذا الوقت، ألم يختلف غازي إلى المساجد جيئة وذهوباً، مراراً وتكراراً؟ وتساءل أرسلان قائلاً: حسناً! إذا كانت المعتقدات الإسلامية تشكل عائقاً، فلماذا لجأ إليها الكماليون إذن ولاذوا بها لإنقاذ بلدهم؟⁽⁴⁷⁾.

وجاء فيما كتبه سافران عن القوميين الليبراليين المصريين: ”هنالك من الاستدلال المنطقي ما يكفي للتحقق من صحة أي استنتاجات ذات صلة بالموضوع من الناحية الاجتماعية⁽⁴⁸⁾“. وينطبق هذا التوصيف على أرسلان أيضاً. حيث يبدو علمانياً، في ظاهر الأمر، بقدر أولئك الذين لطخ سمعتهم بهذا المصطلح. إلا أنه يختلف عنهم اختلافاً ملحوظاً من حيث الموارد التي يستقي منها عقلانيته، ومن حيث مقاومته لتطبيق النماذج المستمدة من الأوروبيين في العالم الإسلامي. ورأى رجلٌ مثل هيكल أنه يتعين على أفراد النخبة المتفرنجة من الذين هم على شاكلته أن يتولوا القيادة: ”إن الوسائل الكفيلة بوضع مصر على الطريق التي سلكتها أوروبا تكمن في وجود أولئك المثقفين الذين تعلموا وفقاً للمبادئ الأوروبية⁽⁴⁹⁾“. ومن ناحية أخرى، ربط أرسلان شعوره بالتفوق والجدارة بالنظام الإسلامي العثماني الذي حقق في ظله تميزاً. وكان رأس حربة الوعي الإسلامي في عالم معاد، والصائن للنظام الاجتماعي والثقافي الذي يتعين أن يُصَارَ إلى تشييطه، لا إلى التخلي عنه ونبذه. علماً بأن هذا النظام هو في تغير مستمر، إنه النظام الذي شجع في رجل له مثل فرص أرسلان اكتساب لغات أوروبية وتحقيق حراك جديد. لقد واجه معضلة في العالم المتغير في حقبة العشرينيات والثلاثينيات من

القرن العشرين. ولم يكن مناهضاً للتقدم، ولكن في الوقت ذاته أراد الإبقاء على التقاليد الأصلية. وتصميمه وحيرته، وحزمه وارتبائه؛ كل ذلك عبر عنه في معرض رده على الكمالية:

كلما جاء المسلمون ليحافظوا على دينهم وأخلاقهم وفضائلهم، ويجاروا الإلحاد والإباحة والمبادئ المضرة والخلاعة والفجور وما جرى هذا المجرى، يقوم رجال من أنقرة فيقولون: هؤلاء يريدون اتخاذ الدين آلة لترويج السياسة... المسألة مسألة عقيدة وصيانة أعراض وتبين حقوق، وتطهير أخلاق وتهذيب نفوس وتنمية نسل، ودرء مفسد تهدم كل مجتمع بشري. أفكلما قام أناس يحافظون على هذه المبادئ جتتم لهم بهذه النعمة الكاذبة قائلين: هذا من باب خلط الدين بالسياسة؟! (50)

ولكن من كان يصبر، كما فعل أرسلان، على تطبيق العقل والمنطق على التقليد، ومن أطرّ دعوته للحفاظ على التقاليد بضرورة توفر المؤهلات لذلك، "باستثناء الحالات التي يتعارض فيها تطبيق المنطق مع الصالح العام ومع معرفة معينة"، من كان يصبر على ذلك كان في ذهنه نمط من التغيير من نوع ما⁽⁵¹⁾. إلا أنه ليس محددًا، في كل الأحوال، في صيغة برامج محددة. وكان أرسلان يتوقع عادة في بوتقة من الإرشادات والعظات العامة، مدعوماً بإصراره على أن تضافر الجهود البشرية يمكن أن يتمخض عن الظروف التي يتطلب المجتمع توفرها، أيًا كانت. وفي مجال التعليم، طرح توصيات حددها بصورة أشد وضوحاً. وفي حين أنه لم يتسامح مع أي تدخل في الشؤون الثقافية، أقر بحاجة العالم الإسلامي إلى اكتساب مهارات تقنية متقدمة. وكانت العلوم الطبيعية، بالنسبة له، تتوفر على جاذبية لها مفعول السحر، ورصع كتاباته بأمثلة مستمدة من معرفته الخاصة بعلم الميكروسكوب والكيمياء ونظرية النسبية. وكان يرى أنه أمر "ضروري للغاية" بالنسبة للمسلمين اكتساب معارف هذه المسائل وعلومها وذلك بواسطة الدراسة في أوروبا. وأما الأمر الأكثر أهمية فيتمثل، والرأي ما يراه أرسلان، في عدم الاستسلام لمخاطر التفكير الحر والإلحاد عندما يكون الطلاب في

أوروبا⁽⁵²⁾. وقد أعرب أرسلان عن ارتياحه لتزايد أعداد الطلاب السوريين والمصريين الذين يتحدثون بلغات أوروبية، ويؤكدون في الوقت نفسه بإيراد الحجج والبراهين أنه يمكن الحيلولة دون حدوث عمليات مثاقفة كاملة، عن طريق تحصين الشباب العربي بالتعليم الديني قبل إرسالهم إلى أوروبا⁽⁵³⁾. وتشبت بعناد بهذه الرؤية البسيطة لمشكلة معقدة. وكان يتأسى بالنموذج الياباني الذي عكف على استعراضه المرة تلو المرة بوصفه دليلاً على إمكانية الاقتباس الانتقائي للخبرات التقنية من دون تغيير القواعد الروحية والاجتماعية للمجتمع. وبتأييده التعبير القائل: "نريد أن نحقق الحداثة مع المحافظة على أنفسنا"، كشف أرسلان النقاب عن المعضلة التي تثير الدهش لإنسان محافظ من الناحية الثقافية ومثالي تقدمي في آن معاً⁽⁵⁴⁾. وبالنسبة لأرسلان، تحديد المجتمع لما يجب أن يقتبسه (من الغرب) وما يتعين عليه رفضه هو شأن ينبغي أن يكون من اختصاص السيادة السياسية. وقدمت له تركيا الكمالية لغزاً تعامل معه باستهدافه بهجمات سجالية مباشرة. وعرض عليه ابن سعود اقتراحاً فتقبله أرسلان متلهفاً: إن تقبل شكيب خلافة معدلة، تقدم استعراضها في الفصل الرابع من هذا الكتاب، كان أقل استناداً إلى الضرورة الدينية منه إلى السلطة السياسية. وكان بقاء النظام الإسلامي واستمراره يعتمدان على وجود حاكم مستقل وقوي يعتز بتراث الماضي في وقت يجري فيه التعديلات اللازمة والكفيلة بتحقيق الازدهار في المستقبل. وقد توصل أرسلان إلى استنتاج يفيد بأن ابن سعود هو هذا الحاكم.

ثمة ناطق آخر عربي إسلامي ومتحدث رسمي باسم العرب والمسلمين، شارك أرسلان سعيه في البحث عن قاعدة سلطة إسلامية، وأعرب عن إعجابه بإنجازات ابن سعود. فقد كتب رشيد رضا مقالاً قال فيه إن استقلال ابن سعود عن أوروبا جعله "أعظم سلطة إسلامية في العالم بأسره منذ سقوط الدولة العثمانية وقيام حكومة لا دينية في تركيا⁽⁵⁵⁾". كما امتدح عبد الحميد بن باديس من الجزائر استقلالية الملك العربي وتمسكه بالشرعية الإسلامية⁽⁵⁶⁾. وكان لابن سعود جاذبيته بوصفه مناهضاً للكمالية. ورفض مصطفى كمال، بعلمانيته المتصلبة، أن يمدح ويحتفى به بوصفه حاكماً إسلامياً

ناجحاً. ولكن الأراضي الجرداء عديمة الفائدة التي كانت خاضعة لسلطان ابن سعود لم تكن تثير اهتمام أي سلطة أجنبية في ذلك الوقت. أدرك أرسلان وجود هذا الموقف؛ فحاول أن يغيره عبر إحاطة ابن سعود بصورة إيجابية وجعله مقبولاً للعب دور قيادي أكبر، وأطلق بناء على ذلك حملة لإظهار ابن سعود، لا بوصفه مستقلاً فحسب، كما كانت حال تركيا، ولا بوصفه معنياً بتطبيق أحكام الشريعة فقط، بل بوصفه مجدداً أيضاً. وقد أدى ذلك بأرسلان إلى رسم صورة متكلفة للملك الوهابي بوصفه مخططاً تنموياً تقدماً، يعمل بحماس كبير على إدخال السيارات والكهرباء ونظام بريدي جديد إلى بلاد الحجاز، إلى جانب خصائص أخرى تميز الحضارة الحديثة⁽⁵⁷⁾.

ومهما تكن هذه الدعاية مضللة، فإن الدافع الكامن وراءها واضح. لقد كانت رداً مباشراً على الافتراض الذي استندت إليه إصلاحات أتاتورك وبرامج المتفرنجين العرب، الذي يزعمون فيه أن التحديث والإسلام لا يتوافقان. وكان ابن سعود ناجحاً في إدخاله ضروباً من الحداثة الانتقائية إلى مجتمعه؛ لأنه "حارب (خصومه) بسيف الشريعة نفسها، وبين أن القرآن الكريم والحديث الشريف لا يجرمان الاختراعات الحديثة... وأورد لهم شواهد الجواز من أقوال الله تعالى في محكم كتابه، لا من أقوال أنقرة⁽⁵⁸⁾". إن حكمة هذا شأنها مقترنة بنجاح من هذا القبيل قد أظهرت أغلاط أولئك الذين زعموا أن التقدم يقتضي نبذ الإسلام.

وُجِّهَ بهذه الرسالة، التي كانت بارزة جداً في كتابات أرسلان، في معترك السياسة العربية البينية. وكان أرسلان يأمل أن يسخر النقاء الديني والسيادة السعودية لابن سعود لتعزيز الدول المتقدمة مادياً والواقعة في شمال شبه الجزيرة العربية، وبذلك تشكل قوة عربية كفيلة بأن تغدو "إحدى الركائز التي يستند إليها التوازن العالمي⁽⁵⁹⁾". وعلى الرغم من أنه قبل على مضض بوجود دول عديدة في الشطر الشرقي من العالم العربي، فقد وازب على تشجيع إقامة تحالفات دفاعية فيما بينها، وعلى دعم إنشاء كونفدرالية تكون نواتها كل من سوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية. ولم يدع مجالاً للشك حيال مرشحه لقيادة اتحاد كونفدرالي من هذا القبيل: "لا أفضل أحداً على ابن سعود، ولا

أحب أحداً ولا فيصل بقدر ما أحب ابن سعود⁽⁶⁰⁾“. وكان ابن سعود خيار أرسلان لأنه يمثل الواقع الإسلامي في رأيه.

إن تشجيع أرسلان على قيام هذه الاتحادات الكونفدرالية العربية الشرقية وانخراطه الموازي في المغرب، جعل بعض المعنيين بالأمر يرون فيه المحامي المدافع عن العروبة. وهذه واحدة من الحجج الرئيسة التي ساقها كل من الشرباصي والدهان⁽⁶¹⁾. وخلال حياته كان يسمى “قلعة العروبة وعماد الإسلام”، وتضمنت بيانات نعيه شهادات عديدة ثمنت جهوده حيال الوحدة العربية⁽⁶²⁾. وكان أرسلان يرى في التحالفات العربية أمراً مرغوباً فيه، وكان يعي وعياً عميقاً مكانة العرب المركزية في العالم الإسلامي. ولكنه لم يكن مع ذلك قومياً عربياً بالمعنى الدقيق للكلمة. وعاملاً للولاء للجماعة والهوية الشخصية اللذان يرى فيهما فاعلية كبرى إذا ما تلازما ظلاً في رأيه عاملين إسلاميين في المقام الأول، وظل يتوسلها في مناشدة الناس في حملاته المناهضة للإمبريالية. وصورت السياسة البربرية الفرنسية في المغرب بوصفها تشكل انتهاكاً لاستقامة الإسلام وسلامته، وشكلت الهجرة الصهيونية إلى فلسطين تهديداً للعبات المقدسة في القدس. وكان من واجب العالم الإسلامي بأسره أن يرد على هذه المخاطر على أساس الشعور المشترك للأمة. والوحدة، كما يراها أرسلان، هي قبول متبادل للتراث الثقافي الإسلامي، وامتثال متبادل للأوامر الأخلاقية التي جعلت المجتمع الإسلامي مجتمعاً متميزاً. ولم يناصر فكرة قيام أمة عربية موحدة سياسياً. ولم يسع إلى إيجاد مركز لسلطة إسلامية عبر المطالبة بإقامة دولة إسلامية موحدة.

وعلى الرغم من أن أرسلان كان يستعمل بين الفينة والفينة مفردات لها صبغة عروبية من الناحية السياسية، فإنه كان ميالاً وحريصاً على إيراد تلك المفردات ضمن سياق ديني. فلم يكن، على سبيل المثال، دقيقاً في استعماله لمصطلح الأمة، وكان واضحاً أنه كان يقصد به جماعة المؤمنين (حتى عندما كان يتحدث بكلامه جماعة المؤمنين العرب) أكثر مما كان يقصد “أمة علمانية“. وكان، في الواقع، ميالاً في أغلب الأحيان إلى استعمال مصطلحي العالم الإسلامي والبلاد الإسلامية. وخطابه الذي ألقاه في دمشق

في العام (1937م) وجرى تداوله على نطاق واسع، تلقاه الناس بمزيد من الاهتمام بسبب اعتداله وبراغماتيته أكثر من كونه بسبب مفهومه عن الوحدة العربية. واقترح إرسال إنشاء أحلاف بين الدول المتميزة تتم على مراحل تبلغ ذروتها في منظمة على غرار الجامعة العربية التي تأسست في العالم (1945م). ونأيه بنفسه عن نموذج القومية الثقافية الذي يمثله ساطع الحصري واضح في اختياره نموذج الإمبراطورية النمساوية المجرية بوصفه نموذجاً تاريخياً، وتحالف الوفاق الصغير بين كل من تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوغوسلافيا بوصفه مثلاً معاصراً. وعلى الرغم من مثابرتة على استعمال مصطلح الوحدة العربية، فقد سعى إرسال إلى تحقيق اتحاد كونفدرالي يستند إلى قاعدة المصلحة الذاتية المستنيرة، لا إلى قيام اتحاد تكاملي: "لا تتطلب الوحدة السياسية والاقتصادية والعسكرية وحدة إدارية أو اندماجاً كاملاً بين مملكة وأخرى. والوحدة العربية هي شيء قابل للتحقيق من دون أن تعترض طريقها صعوبة تذكر، فالوحدة هذه تتيح للعراق وسوريا والعربية السعودية أن تبقى ممالك مستقلة ضمن بوتقة هيكلية إدارية داخلية⁽⁶³⁾". ولكن إرسال نفى إمكانية حدوث أي شيء آخر خلافاً للتضامن المشترك بين المغرب والمشرق العربيين: "لا تتعدى وحدتنا معهم حدود الوحدة الدينية واللغوية والثقافية والاجتماعية⁽⁶⁴⁾". وقد جَرَّ هذا الموقف عليه انتقادات من وطنيين ليبين شعروا أن إرسال تخلى عن حملته المناهضة للإمبريالية لقاء تلقيه ذهباً إيطالياً.

تركز برنامج إرسال السياسي على ضرورة التناغم بين الملوك الهاشميين الغيورين وبين حاكمي شبه الجزيرة العربية الرئيسيين. ولم يُكوَّن رؤية لدولة قومية متكاملة، كما أنه لم يلجأ إلى الاستعانة بالقوميين الرومانيين الألمان الذين كانت تتوخى منهم الفائدة بوصفهم نموذجاً يحاكي نماذج ساطع الحصري. وفي الواقع، في حين أقر ساطع الحصري بقصيدة القوميين العرب سياسة الوحدة العربية: "أمة واحدة من إيران إلى تطوان" التي لاقت رواجاً بين الجماهير، أنكرها إرسال: "ليست الحركة العربية حركة قومية عربية تسعى إلى توحيد كل الناطقين بالعربية في وحدة واحدة. فالوحدة العربية ليست طوباوية إلى هذا الحد، والمثقفون العرب واقعيون بما يكفي للإحجام عن تخيل

قيام إمبراطورية عربية تمتد رقعتها من حدود إيران إلى شواطئ المحيط الأطلسي، كما يحاول بعض المعنيين بالأمر أن يوحيوا⁽⁶⁵⁾.

وكان هذا موفقاً واقعياً أتاح لأرسلان مجالاً إضافياً للمناورة، كما أظهر ميله لتحاشي التعامل مع العروبة السياسية. وكان يفضل الروابط العامة المشتركة التي أَلَفَهَا وكان معتاداً عليها، وهي الروابط الإسلامية. فقد خشي أن تقوض القومية دعائم التضامن الديني المشترك الذي يعده في غاية الأهمية لجهة انبعاث الأمة من جديد. وقد رسخت في ذاكرته حقيقة لا تنسى ولا تغتفر تتمثل في أن الإمبراطورية العثمانية سقطت، جزئياً، بسبب الثورة العربية التي اندلعت ضدها. وهكذا، في حين أنه بدا يتصور الدول العربية تدخل فرادى في حيز الوجود السياسي، فقد ثابر على التأكيد على أن القواسم المشتركة التي تجمع بين هذه الدول لم تكن تلك المتعلقة بالقومية العربية بقدر ما كانت عوامل الترابط النابعة من الرابطة الإسلامية. وكان كلما قال مسلماً يعني عادة عربياً، وكلما قال عربياً يعني عادة مسلماً.

وكانت القومية تقض مضجع أرسلان إلى حد أبعد بسبب دلالاتها العلمانية. والجامعة الإسلامية، في رأيه، بوصفها حاجزاً حال دون تحقيق الطموحات الأوروبية، أقوى من القومية العلمانية. والرابط الديني، لا الرابطة القومية، هو الذي استثار السلوك الأخلاقي القويم والذي زود المؤمنين بالمعرفة التي تبعث على الطمأنينة التي تخلف عند المؤمنين الذين يأتزمون بأوامر الله يقيناً بأنه، مهما كان الوضع الراهن، سيكون النجاح من نصيبهم لا محالة⁽⁶⁶⁾. ووجد الإمبرياليون، إلى جانب المتفرنجين المتواطئين معهم والقابعين بين المسلمين، في الحركات القومية أهدافاً سهلة لتعزيز جهودهم الرامية إلى تقويض النسيج الأخلاقي للمجتمع. والكحول والمخدرات، وهي أدوات الإفساد الإمبريالية المعروفة جيداً، لم تكن مواد محظورة من قبل الحركات القومية، ولكن "الجامعة الإسلامية سد منيع دون السكر"⁽⁶⁷⁾. وحده الإسلام، في كل مظهره، تمكن من الحيلولة دون وقوع المؤمن في قبضة الآخر الأجنبي الدخيل. وشأنه شأن معلمه الأفغاني أيضاً، شكل أرسلان رداً إسلامياً على الإمبريالية⁽⁶⁸⁾.

ويمكن الوقوف على دليل إضافي على عدم قدرة إرسال على التوافق مع المفهوم الأساسي للعروبة في علاقاته مع مسيحيي المشرق العربي. وربما نقل عنه كلام خارج السياق في خطابه الشهير الذي ألقاه في حلب، وذلك لدى قوله العبارة الآتية: "من لم يكن مسلماً لا يمكن أن يكون وطنياً"، لكن اقتناعه بأن المفاهيم الإسلامية في الدولة والمجتمع ينبغي أن تهيم في العالم العربي كان معروفاً عنه تماماً إلى الحد الذي جعل خطابه يعامل بوصفه مقياساً حقيقياً لمشاعره⁽⁶⁹⁾. ونظرة الشك التي أحاطه بها المسيحيون العرب إبان الحرب العالمية الأولى لم تراجع حدتها على الرغم من الخدمات التي قدمها لقضية الاستقلال العربي. وسبب ذلك، على وجه العموم، هو إرسال نفسه؛ لأنه ينظر إلى هذه الخدمة بوصفها عاملاً متلازماً مع قضية تحرير الإسلام من الهيمنة الأجنبية، وضماناً لكي يبقى الإسلام مهيمناً على الشرق الأوسط كما كان عهده دوماً. ومجاملته الساخرة لزميله الأول في الوفد السوري الفلسطيني كانت إقصاءً للطوائف العربية المسيحية برمتها: "المسيحيون كسليمان كنعان يتتغون مصلحة قومهم ووطنهم، مؤتلفة مع مصلحة العرب المسلمين، وهم أفراد وأفذاذ معلومون⁽⁷⁰⁾". وضمت لائحته، التي أدرج فيها أولئك الذين خلطوا بين إحياء الأمة وبين روح إصلاحات أتاتورك، مجالات مسيحية عربية من أمريكا الشمالية، وذكر أيضاً أن الآشوريين ليسوا أبناء حقيقيين للعراق، ولم يُحْفَ قطُّ ارتياحه بالطائفة المارونية في لبنان لما رآه تشجيعاً منها على التدخل الفرنسي، ولتأييدها محاكاة الثقافة الغربية الزائفة⁽⁷¹⁾. وظل موقفه نفسه القائم على رفعة مكانة الإسلام مقارنة بغيره الذي كان يحكم سلوكه حيال المسيحيين إبان عهد عبد الحميد، ملازماً له على مدى السنوات الفاصلة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية.

ويوجد مثال على موقف إرسال الذي لا هوادة فيه من المبادئ الإسلامية على صعيد التنظيم الاجتماعي، ورؤيته الطائفية لمسألة العروبة، وقد تبدى هذا المثال جلياً في مقال استنسخه الشرباصي تبياناً لدعم الأمير لقيام وحدة عربية تكاملية⁽⁷²⁾. وفي الواقع يشير المقال إلى أمر مختلف كل الاختلاف عن تأويل الشرباصي له. فهو يشير إلى تَلَمُّس إرسال طريقاً تفضي إلى تعريف السيادة القومية، ويخلص إلى نتيجة مؤداها أنه لا تدعو

الحاجة في الواقع إلى طمس معالم الهوية الدينية الرئيسة في غمرة ضبابية الدولة العلمانية. ومتمثلاً أدبيات الموروث الديني الإسلامي، ومستنداً إلى الممارسات الإسلامية الباكورة بوصفها مؤثلاً مرجعياً، قال أرسلان: بما أن المسلمين يمثلون للقرآن، وبما أن الأوامر القرآنية تقضي بأن يعامل المسلمون المسيحيين بالمساواة والعدل، إذن لا ينبغي أن يخاف المسيحيون من العيش مع الأغلبية المسلمة في دولة واحدة. وتجنب أرسلان الخوض في مسائل العروبة العلمانية، وطلب من المسيحيين العرب أن يثقوا بالتزام المسلمين الثابت القويم بالأوامر الربانية التي تدعو إلى ضمان حمايتهم في ظل الدولة العربية الإسلامية.

ورغم كل مباشرة توجهاته الإسلامية الطابع، كان أرسلان محرضاً أكثر منه مُنظراً. وكان إسهامه الفكري في الحياة الفكرية في الحقبة الفاصلة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية متساوفاً ومتناغماً مع إسهامه السياسي. لقد كان له شأن بوصفه مصلحاً إسلامياً، إلا أن ملاحظاته عن الإسلام كانت تنزع نحو تأييد اتخاذ تدابير والقيام بأعمال في العالم المادي أكثر من توجهها نحو إعادة بلورة العالم الروحي. ولهذا السبب تحديداً لم يتمكن من الطموح إلى اعتلاء سدة القيادة الفكرية التي انعقدت لمعلمه وملهمه محمد عبده أو لزميله رضا، علماً بأن قاعدته الجماهيرية كانت أكثر اتساعاً من قاعدتيهما معاً.

ولدى استعراض الخطوط العريضة لفكر أرسلان، نتبين أن القضية ليست مسألة إخفاق مفكر، بل تتركز حول كونه، إلى جانب فكره، حظي بشعبية عارمة، ولأنه- ضمن حدود معينة- كان شديد الفاعلية والتأثير على مدى الحقبة الفاصلة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية. وتأثيره مسألة لا يرقى الشك إليها. كان أرسلان شخصاً استثنائياً بارعاً متأصلاً في عصره بوصفه شخصية دولية عامة متميزة، شأنه في ذلك شأن قلة قليلة جداً من عرب آخرين. وبين آيات الثناء والتقدير الكثيرة التي أسبغها عليه معجبهوه في معرض الإشادة به، محاولة كرد علي تسليط الضوء عليه بغية تعريفه إلى جيل لم يعاصره، وكان توصيفه له أفضل ما قيل فيه: "لم يشتهر واحد منا شهرة عالمية كما اشتهر الأمير شكيب. اشتهر بالسياسة كما اشتهر بالأدب، وعرف عند الشرقيين كما عرف عند الغربيين، فهو العيار المنقطع النظير... (73)".

تشهد الإشادات بأرسلان بكل بساطة على مدى تأثيره، والأعمال السياسية التي تظهر النفوذ والتأثير، مثل الحملة المناهضة للظهير البربري هي مجرد بعد واحد من تأثيره الشخصي في عصره. وسيبقى تأثيره ملموساً إن كان ارتباط أرسلان بالمواقف الفكرية المستعرضة في هذا الفصل له إسهامه في التقدير الذي حظي به.

وتعقياً على اتساق موقفه حيال التهديد الأوروبي الإمبريالي للسيادة الإسلامية، كتب أرسلان في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين الآتي: "لو قرأ قارئ كتاباتي تلك (زمن ما قبل الحرب) وقرأ ما أكتبه اليوم، ظن أن الذي يكتب اليوم هو شكيب أرسلان حفيد شكيب أرسلان الأول⁽⁷⁴⁾". وهذا لم يجعل من أرسلان إسلامياً قديماً في عصر القومية العربية العلمانية، إذ لم يكن العالم الإسلامي العربي قد تقبل بعد القومية العلمانية بوصفها مبدأه الناظم. كان كثير من نشطاء هذا العالم على استعداد لتأييد استفادة أرسلان من الإسلام بوصفه سلاحاً سياسياً وثقافياً، غير مثقل بأعباء تبريرات لاهوتية أكثر تعقيداً من التأكيد الأساس بأن الناشطة مسموح بها. وكون أرسلان كسب شعبية لتبنيه هذه العقيدة -أو بتعبير أكثر دقة، هذا التكتيك- فهذا عائد إلى أنه تحسس مشاعر أبناء عصره. ويكمن بعض جاذبية رسالة أرسلان في الأشياء التي تمثلها نفسها. كان يحمل آفاق حقبة سابقة وتطلعاتها، ولكن مثل تلك الحقبة لم تكن قد تلاشت تماماً. كما أفاد أرسلان بوصفه معبراً عن آمال الحقبة التي سبقت العام (1914م) وعن مخاوفها، التي كانت أبعد ما تكون من أن تحظى بحلول في بوتقة الحرب، لا بل فاقمتها الحرب أيضاً. والسيادة الإسلامية التي تعرضت للتهديد في ظل حكم عبد الحميد الثاني أقل نجمها بعد العام (1919م)، باستثناء خيط الأمل الذي كان معلقاً على مملكة ابن سعود. وهكذا كان يوجد جو من تقبل النشاط الذي نُظِمَ متمحوراً حول مبادئ الجامعة الإسلامية ومكرساً لتحقيق هدف التحرر الإسلامي. وكانت حقبتا عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته حافلتين بجهود رمت إلى استعادة نسخ معدلة من صيغ روابط الماضي، وباستعدادات تتطلع إلى إنشاء روابط جديدة.

والذين نزعوا إلى النظر إلى حقبة ما بين الحربين بوصفها تحضيراً لانتصار القومية العربية الناصرية، فاتهم الانتباه إلى هيمنة المشاعر الإسلامية في ذلك الوقت؛ فحركات مثل اتحاد الشباب المسلمين وحركة الإخوان المسلمين في مصر، والجمعيات السرية

والمدارس الحرة في المغرب، وجمعية العلماء الجزائريين، على الرغم من أنهم لم يظفروا دوماً بالسلطة السياسية في الحقبة التي أعقبت الاستقلال، عبرت عن الاتجاه السائد في ثلاثينيات القرن العشرين. ولم يقتصر الأمر مع أرسلان على تمثيله الاتجاه السائد وتعبيره عنه، بل تعداه إلى إلهامه الجماهير.

وعلى الرغم من أن استعانة أرسلان بالإسلام في معرض دعوته إلى العمل عزفت على وتر حساس، فإن السمعة السيئة التي لحقت به تجاوزت تلك الناجمة عن كونه ممارياً مولعاً بالجدل، وعلى المرء أن ينظر إلى ما هو أبعد من المحتوى في كتاباته، وحتى إلى تواتر الكتابات إذا ما أراد أن يشرح أهميته. والعامل الرئيس الكامن وراء قدرته على اكتساب مكانة الإرشاد بين الشباب اليافعين الأحدث عهداً، والذي مكنه على الاحتفاظ بمكانته المرموقة بين أقرانه، وأكسبه احترام الأوروبيين الذين تعاملوا معه مباشرة، يتمثل في شخصيته القيادية. فقد كان أرسلان ذا شخصية آسرة ساحرة على الصعيد السياسي ولكنه شديد الصلابة والعناد في آن معاً، كما كان جريئاً لكنه قادر على الإقناع في الوقت ذاته، وهو على هذا الصعيد يتوفر على مجموعة من المهارات على صعيد العلاقات الشخصية مع الآخرين، وأفاد منها أيما فائدة. وعلى الرغم من أنه ليس غوغائياً كما هي الحال مع مصالي الحاج - لم يكن يعدو كونه خطيباً عاماً مناسباً - فقد كان أرسلان عظيم الجدوى وشديد الفاعلية في الحالات التي كان يقتصر الحضور فيها على مجموعات صغيرة⁽⁷⁵⁾. وأتاحت له التجمعات المتكررة للطلبة والمنفيين في شقته في جنيف استعمال قاعة الاستقبال بوصفها ملحقاً متمماً للصفحة المطبوعة وبوصفها قناة لنقل الفكر، واختبار مدى تأثيره. والجابري، زميله على مدى عشرين عاماً، كان يشعر بالهيبة الناجمة عن شجاعة أرسلان وجراته، ويشير إليه بوصفه رجلاً يتوفر على "شجاعة رهيبة"⁽⁷⁶⁾. وخلال اللقاء المطول الذي جمعه بأرسلان في العام (1934م)، كان أول ما لفت انتباه ديفيد بن غوريون الضعف البدني لمضيفه، ولكن سرعان ما تأثر "بقوته وحماسته" بمجرد أن بدأ بالكلام⁽⁷⁷⁾.

وعزز آخرون، من وجهات نظر مختلفة تماماً، انطباعات تفضي إلى أن أرسلان صاحب شخصية هائلة. فالمندوب السامي الفرنسي في سوريا، دو جوفينال، واصل التفاوض معه بشأن المسألة السورية اللبنانية في العام (1925م)، إلى الحد الذي آل إلى اقتراح فقرات ومواد محددة (تشكل معاهدة)؛ لأنه شعر أن شخصية الأمير ذات أبعاد كافية وكفيلة بأن يُصارَ إلى توقيع الوثيقة، من قبل الآخرين، إذا ما تم التوافق عليها. وفي لحظة موجزة أعدت من قبل وزارة الخارجية الألمانية، أشير إلى الأمير بوصفه "متفخراً متباهياً بصورة استثنائية" و"بارعاً ولبقاً جداً اجتماعياً"⁽⁷⁸⁾. كان رجلاً واثقاً بنفسه وذا حضور شخصي قوي. وقدرته على تعزيز نفوذه وتأثيره الشخصي متيسرة له عبر اتصالاته المباشرة وعبر نتاجه الصحفي.

كان أرسلان واعياً ومدركاً لصورته وللهيئة التي يتبدى عليها لدى الآخرين، وتولى تلك الصورة بالرعاية من خلال تعاونه الثابت والدائم مع الملوك العرب الجدد. فقد كان ابن سعود والإمام يحيى صديقين له وهما من الشخصيات العامة الشهيرة. كما واطب على زيارة الملك فيصل بانتظام أثناء قضاء الملك عطلاته الصيفية في سويسرا. وأشار تقرير إلى أن حاكم العراق تناول طعام العشاء ذات مره في مقر إقامة أرسلان في "أجواء حميمة"⁽⁷⁹⁾. وعلى صعيد متابعة هذه الاتصالات وتلك العلاقات، كان أرسلان يتصرف من بعض النواحي بطريقة متوقعة من رجل معتاد على الالتقاء بالسلطان العثماني وبخديوي مصر، لكنه يعلم أيضاً الأوضاع التي كان بصدددها، فكان يتعهد الدور الذي يقوم به بالرعاية ويصقله حتى أثناء قيامه به.

ونتيجة لكل ما تقدم، تعززت سمعته واتسعت مدى عبر تصورات الآخرين لقدرته في السيطرة على الأحداث والتحكم بها وتشكيل الآراء وتأطيرها. وإذا ما قرأ المرء الملخص الذي أعده لويس جوفيليه للتطورات التي حدثت في العالم العربي في السنوات الواقعة بين العامين (1930م و1933م)، فلسوف يستشعر إلى أي حد تمكن أرسلان من الهيمنة على تفكير بعض المراقبين الفرنسيين المعنيين بشؤون العالم العربي، وكان مرادفاً فيها ذهب إليه للمعارضة العربية⁽⁸⁰⁾. وسبق لي أن قدمت تحليلاً في هذا الفصل

(الخامس) من هذا الكتاب للرأي الفرنسي في التأثير الذي خلفه أرسلان في المغرب العربي. وتراوحت الانطباعات التي خلفها لدى المراقبين الفرنسيين بين الشعور بالذعر وتوجيه الاتهامات له من قبل المدرسة الأفريقية الفرنسية، وبين مشاعر الاحترام التي أكتنّها له رجال منهم جوليان ولوتورنو. والأخير، من خلال كتاباته من منظور حقبة خمسينيات القرن العشرين، خلص إلى نتيجة أفادت بأن أرسلان كان صاحب إحدى الشخصيات العربية الأربع الأكثر نفوذاً وتأثيراً في حقبة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية⁽⁸¹⁾. ولم يؤسس أرسلان حركة استمرت بعد رحيله، إلا أن تأثيره في عصره كان كبيراً. ويوجد بعد مبالغ فيه في تقويم أرسلان وهو ذاك الذي أعلن عنه بول ألارد من باريس سوار، وجاء فيه: "كان أرسلان أحد أكثر المغامرين الدوليين الاستثنائيين والرائعين جداً في الأزمنة الحديثة"⁽⁸²⁾.

وعدّ مسؤولون من كل من بريطانيا وفرنسا على حد سواء أرسلان المصدر الوحيد الذي حرض العرب وحدد الطموحات العربية، ونسبوا إليه قدرة تنظيمية لم يكن يمتلكها في الواقع. ولكن بالنسبة لأولئك الذين يفضلون العمل السهل البسيط المتمثل في نسبة شواهدهم إلى مصدر وحيد على المهمة الصعبة المتمثلة في التحليل الاجتماعي ومراجعة السياسة، فإن أرسلان يُعدّ هدفاً طبيعياً. وكان أسهل بكثير الإناحة باللائمة فيما يتعلق باستياء الجزائريين والفلسطينيين على المكائد التي يُزعم أنه كان يدبرها في جنيف، من العمل على تخفيف حدة مواقف المدعين المشتكين منه.

وبتصويرهما أرسلان بوصفه شخصاً خطيراً، وبإيجائهما بأن قدراته على التلاعب بالحركات العربية المناهضة للإمبريالية أكبر مما كانت عليه في واقع الحال، عززت بريطانيا وفرنسا سمعته في العالم العربي. وصارت هيئة أرسلان، بهذه الطريقة، تتغذى من موردين متناقضين - الأوروبيين الذين بالغوا في قدراته على السيطرة الفعلية على الأحداث، والجماهير العربية التي رأت فيه - جزئياً بفعل تقارير الصحافة الأوروبية - مجاهداً مقدماً زرع الخوف في قلوب المديرين الإمبرياليين عبر أنشطته الاستقلالية التي مارسها في عواصم بلادهم عيناها.

وبعد فإن إرساله لم يكن مجرد نتاج لنسج الخيال الإمبريالي العصبي. لا، ولا كان، بفعل الشناء كله الذي أسبغ عليه من قبل أنصاره ومؤيديه، مجرد نتاج أجوف من صنع الصحافة، بل كان رجلاً وطنياً محباً لوطنه ومتحمساً للدفاع عنه منفياً ومضطهداً. وكان آفي عصبية الأمم، وصاحب شخصية بارزة مرموقة وجذابة. وخب، في مرحلة من مراحل ما بين الحربين، ألباب الناشطين السياسيين وذوي الميول الدينية في آن معاً. وبوصفه خبيراً بارعاً في الشأن العام، حدد القضايا التي يعدها المجتمع العربي الإسلامي أسباباً للجور الذي ألم به -الظهير البربري، ونظام الانتداب، والاستيطان الصهيوني في فلسطين، والعلمانية المتفشية- وزعم أن أوجه الجور هذه يمكن تقويمها وإصلاح حالها. وهو إلى ذلك مارس الطقوس التي سعى العالم الأقدم عهداً من خلالها إلى الحفاظ على نفسه، وحقق ذلك عبر أدائه فريضة الحج ومن خلال أسلوبه الأدبي الغني وطريقته الأنيقة (بالمظهر والملبس والتعامل)، وكان يحتفي بمناقبية إنسان أرسطراطي صيره القرن العشرون المتوحش ناشطاً. وهو لم يخاطب الماضي الميثوس من استعادة أمجادَه بقدر ما وجه خطابه وصب اهتمامه على الروابط بين الماضي والحاضر. وخاطب رغبة الإنسان عميقة الجذور في استعادة نظام الحياة العادي البسيط المؤلف في زمن الاضطراب والبلاء والعناء. ولكنه قرن رسالته بالخص على العمل، وتحلى بالجرأة والشجاعة، وكان كما قال عنه محمد كرد علي "رجلاً عزَّ نظيره"، ولكن على صعيد الجهود التي بذلها استكشافاً لاتجاهات جديدة ترمي إلى وضع حد لإذلال العرب، وفي إطار حاجته للاستفادة من نفوذه الذي تأتى له تجاوز حدود القدر الذي تمكن من التحكم به. واتهم، وهو في قمة شعبيته وجاهيريته واحترام الناس له، بالفساد والخيانة. وكما سوف يتبين من الفصل اللاحق، لم تتعاف سمعته تماماً قط.

الفصل السابع

نحو المحور

لم ألوث يدي والحمد لله بقبول فلس واحد من أي دولة أجنبية.

أرسلان⁽¹⁾

في ضوء الظروف الراهنة، يبدو وجود الأمير في سويسرا غير مرغوب فيه؛ ذلك لأنه كان ينظر إليه دوماً بوصفه عميلاً لإيطاليا، وألمانيا، وحتى للسوفييات.

النيابة العامة الاتحادية، برن⁽²⁾

في خضم سعيها وبذاتها جهوداً لتحقيق الاستقلال عن الدولتين اللتين تقاسمتا الهيمنة على معظم البلدان والمقاطعات من المغرب إلى العراق، حققت الحركة العربية بعض الانتصارات الحقيقية في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين. ولم تغير الثورة التي اتخذت من العنف وسيلة لها ولا التفاوض الهادئ واقع الهيمنة البريطانية والفرنسية. وقد أدت المعاهدات التقييدية مع العراق ومصر، وتشريع الجبهة الشعبية غير المشروع المتعلق بكل من سوريا والمغرب، والهجرة الصهيونية المستمرة إلى فلسطين؛ كل ذلك أدى إلى إقناع الرأي العام العربي بتعنت الإمبريالية الفرنسية البريطانية. وإزاء هذا الموقف، استنتج قطاع واسع من القادة العرب أنه لا يمكن تحقيق أهدافهم إلا بمساعدة من حلفاء أوروبيين قادرين على توظيف الوسائل الدبلوماسية والقوة المسلحة الممكنة

ضد سلطات الاحتلال. هذا وقد تتبع دراسات أخرى هذه التطورات بالتفصيل⁽³⁾.
ويكفي في هذا السياق أن نشير إلى النموذج الواسع من تعاون المحور العربي بوصفه
إطاراً كان لكتابات أرسلان وأنشطته ضمنه مكانة خاصة. ولم يكتفِ أرسلان بمجرد
الترحيب بالتحول الجديد نحو المحور، بل سعى إلى تأطير هذا الواقع وصياغته.

واستندت مبادرات الانفتاح العربية على ألمانيا، وإلى حد أقل بكثير على إيطاليا، في
المقام الأول على المزايا الاستراتيجية المتوخاة من التحالف مع قوى أوروبية "منزهة"
عن المشاريع الإمبريالية. وبهذا المعنى كان لألمانيا جاذبية خاصة بوصفها حليفاً. ولم تعد
حكومة فايمار ولا خليفاتها النازية الشرق الأوسط من الأهمية بما يكفي لتسويق صياغة
موقف سياسي متماسك حيال المنطقة. فقد كانت مصالح برلين في أوروبا، ولم تكن لها
مصلحة في استعداد بريطانيا في بلاد الشام إن كان ممكناً كسب تنازلات في القارة دون
استعدادها. وعلاوة على ذلك، مع الإعلان عن تأسيس المحور في العام (1936م)،
أقرت وزارة الخارجية الألمانية بأن البحر الأبيض المتوسط هو منطقة نفوذ إيطالية،
معللة قرارها بقولها إنه أجدى نفعاً لأهداف الرايخ الألماني ترك إيطاليا وبريطانيا تحلان
خلافتهما في العالم العربي.

ولكن هذا لا يعني أن الانخراط الألماني الرسمي في المنطقة كان غائباً تماماً. فقد
أسست قنوات تواصل مع قادة سياسيين عرب أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، وبدأ
البحث الإذاعي باللغة العربية من برلين في العام (1939م)، واستقبل في تلك المدينة
(برلين) طلبة عرب وبعثات عربية. كما زارت مجموعة من كبار الشخصيات النازية مثل
غوبلز وفون شيراش بعض العواصم العربية. كان المحرك الدافع لتحقيق هذه المصلحة
الألمانية، جزئياً، التوتر المتزايد مع بريطانيا العظمى، وإدراك الألمان أنه يمكن للسياسات
اليهودية النازية أن تكون سياسات هزيمة ذاتية. فإذا نجح الصهاينة في الحصول على
دولة يهودية في فلسطين تبعاً لما بدا أن خطة التقسيم للعام (1937م) تسمح به، آنذاك
تكون، وفقاً للرؤية النازية، قد نجحت المؤامرة اليهودية العالمية في تأمين مركز يكون
قاعدة لسلطة اليهود ينسجون من خلالها المكائد. وبناء على ذلك كان لألمانيا مصلحة

نوعاً ما في دعم العالم العربي على وجه العموم بوصفه عامل توازن محتملاً في وجه التهديد المذكور. والثورة الفلسطينية التي اندلعت بين العامين (1936م) و (1939م) أتاحت فرصة لإحراج بريطانيا وتشجيع العرب. وجرى تمويل المتمردين الثائرين بقدر متواضع جداً من الأموال، كما تم توفير أسلحة لهم في العراق⁽⁴⁾. وكانت هذه الإجراءات مجرد خطوات مبدئية. أما السياسة الألمانية الرسمية حيال الشرق الأوسط العربي في حقبة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، فيمكن وصفها على وجه الدقة بأنها سياسة اتسمت بعدم الاكتراث.

ولم يكن الوضع نفسه ينسحب على إيطاليا الفاشية. ففي ظل هيمنة قيادة موسوليني المغامرة والخطيرة، عقدت إيطاليا العزم على السعي إلى تغيير الوضع الذي كان قائماً على طول شواطئ البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر⁽⁵⁾. وفي الوقت الذي كانت فيه خطوط السياسة الخارجية غامضة وتفتقر إلى الدقة، ظهرت بعض الاتجاهات القائمة على مواجهة العالم العربي بعد العام (1933م). وفي محاولة منه لتحدي الموقف المهيمن لكل من بريطانيا وفرنسا، انتهج موسوليني سياسة ترمي إلى إعادة النظر في نظام الانتداب الذي خلف إيطاليا من دون هيمنة في منطقة الشرق الأوسط، وأضعف عصبة الأمم التي حالت دون تمكين إيطاليا من الحصول على منطقة نفوذ. وأطلق موسوليني أيضاً مشاريع توسع إمبريالي مباشر، كما في الحرب الإثيوبية (1935م - 1936م)، ومشاريع الاستعمار التي أطلقت في ليبيا على نطاق واسع في العامين (1938م - 1939م). ومن أجل زعزعة موقع بريطانيا في البحر الأحمر، كلفت بعثة إيطالية كبرى بتنفيذ عمليات في اليمن، وبُذلت جهود في قصر ابن سعود. كانت روما تنتهج سياسات معقدة للغاية في بلاد الشام، ومتناقضة أحياناً، حيث كانت في مرحلة معينة تدعم كلاً من وايزمان والحاج أمين الحسيني في آن معاً، ولكن كان الهدف من كل ذلك إقلاق راحة بريطانيا وزعزعة موقفها.

جرى إسناد هذه المناورات بحملة دعائية ثقافية مكلفة صممت من أجل إزالة الانطباعات التي تشكلت إبان الغزو الإيطالي لليبيا، ومن ثمّ بغية تعزيز هبة إيطاليا

بين العرب. فشرع راديو باري يبتث بثنأ مباشراً باللغة العربية، ووزعت إعانات على مختلف الصحف، وزرعت شبكة من المخبزين والعملاء في المنطقة، وكانت هذه الأدوات الرئيسة التي نقلت باستخدامها رسالة إلى العالم العربي مؤيدة للإيطاليين ومناهضة للبريطانيين⁽⁶⁾. وقد أعلن راديو باري أن روما عقدت العزم على تخليص الشعوب العربية المضطهدة من قبل الإمبريالية البريطانية والفرنسية، وأن أم الحضارات قررت أن تستعيد دورها العظيم في مناطق البحر الأبيض المتوسط بوصفها وسيطاً وصلة وصل بين آسيا وأوروبا. غلفت هذه الوعود بمسحة واقعية بعض الشيء وذلك عبر تأسيس معهد جديد في روما للشرقين الأدنى والأقصى في شهر ديسمبر/ كانون أول من العام (1933م)، وتزامن حفل افتتاح المعهد مع استضافة مؤتمر لطلاب آسيويين. وفي السنوات اللاحقة، أنشئ نادٍ ثقافي شرقي ومكتب دائم للتعاون الأوروبي الآسيوي، ونشرت نشرات عديدة متنوعة، وترجمت كتب إيطالية قليلة عن الإسلام إلى اللغة العربية. كما توجت صورة روما بوصفها وطناً للطلاب المسلمين وراعياً للإسلام في إعلان موسوليني بوصفه حامياً للإسلام، إبان زيارة الدولة التي قام بها إلى ليبيا في العام (1937م).

وفي حين لاقت المحاولات التي بذلت لإحراج بريطانيا والإبماءات التي توجهت نحو الإسلام بعض الاستحسان في العالم العربي، فإنها لم تكن كافية إطلاقاً على التغلب على واقع انعدام ثقة العرب بروما بسبب أطماعها الإمبريالية. وكان ينظر إلى إيطاليا في الوطن العربي بوصفها خلفاً لبريطانيا وفرنسا، لا بوصفها محرراً متزهاً عن الغرض. وهذا "الصراع بين الأطماع الإيطالية والتطلعات العربية" دفع حتى بعض المتحدثين الرسميين العرب إلى تفضيل التواؤم مع بريطانيا على التحالف مع روما، وأدى بآخرين إلى الطلب من ألمانيا أن تبدد مخاوفهم من الإمبريالية الإيطالية⁽⁷⁾.

نظراً لإحباطهم الناجم عن الوجود الخائف لكل من بريطانيا وفرنسا، وعلى الرغم من تحفظاتهم، التي لها ما يبررها، على النوايا الإيطالية، فقد عمل عدد من الحكام العرب

ومجموعة من أعلام الفكر والثقافة على التقرب من كل من روما وبرلين في آن معاً في السنوات التي سبقت الحرب.

وفي العامين اللذين سبقا اندلاع الحرب، ناورت أنظمة كما ناور أفراد من أجل تعزيز مواقعهم ومراكزهم، مستفيدين من المرونة التي أبدوها الحلفاء، وذلك لتحسين أوضاعهم التفاوضية مع كلا المعسكرين. فعلى سبيل المثال، ابن سعود، في محاولة منه للحد من اعتماده على بريطانيا العظمى شرع في إجراء سلسلة من المفاوضات مع دولتين فاشيتين؛ الأمر الذي أدى به في العامين (1938 م و 1939 م) إلى الاعتراف بضم إثيوبيا من قبل إيطاليا، وإلى إقامة علاقات دبلوماسية مع ألمانيا، وإلى إبرام اتفاقيات شراء أسلحة مع كل من روما وبرلين وعلى نحو مماثل، نظام الحكم في العراق الذي تمخض عن أول انقلاب بين العامين (1936 م - 1937 م) رتب أموره من أجل شراء أسلحة من ألمانيا، وبادر إلى إقامة علاقات وثيقة الصلة مع السفير فرتيز غروبا صمدت في وجه صعود الحكومات وسقوطها في بغداد، وبلغت ذروتها في الانتفاضة المناهضة للبريطانيين التي اندلعت في العام (1941 م). أما الحاج أمين الحسيني الذي كان يمول فعلياً من قبل إيطاليا، فقد أجرى أول اتصالاته الرسمية مع المندوبين الألمان في العام (1937 م)، طالباً منهم أسلحة ومعونات مالية للتمرد الفلسطيني، وجرى ذلك عبر القنصل الألماني في القدس. كما عمدت عناصر مناهضة للبريطانيين داخل قصر الحكم المصري وفي الأوساط العسكرية المصرية إلى سبر غور الألمان بطريقة مماثلة، ففي العام (1938 م)، قام عزيز علي المصري، المفتش العام في القوات المسلحة المصرية، بزيارة برلين، حيث أجرى مفاوضات فيها بشأن شراء أسلحة. وأطلقت مبادرات أخرى مماثلة ومتزامنة مع هذه المبادرات من قبل كل من بيروت ودمشق إلى جانب المغرب⁽⁸⁾.

وعلى الرغم من أن القيمة الاستراتيجية لعلاقات المحور كانت أكثر أهمية من محتوى الفاشية على صعيد الترويج لهذه الاتصالات المبدئية، فقد تولد شيء من الإعجاب، داخل الأوساط العربية، ببعض الإنجازات الفاشية. وشأنها شأن الدول العربية، أضعفت ألمانيا وإيطاليا بسبب الحرب. ولكن خلافاً للعرب، عملتا على قلب

ذاك الواقع رأساً على عقب. فالواقف التي اتخذها موسوليني وتظاهره بالقوة أضفى على إيطاليا، على الأقل، مظهر قوة عظمى. وظفرت ألمانيا بمزيد من التنازلات من بريطانيا في أوروبا، وازدادت هيبة النظام الفاشي على حساب اضمحلال الهيبة البرلمانية. لم يجلب فرض أنماط الديمقراطية الغربية إلا استمرار التبعية وعدم كفاية الحكم في الدول العربية الشرقية. وخيبة الأمل من هذا الوضع وجدت مجالاً للتعبير عن نفسها في تشكيل حركات شبابية شبه عسكرية، مثل حركة الفتوة في العراق التي ترعاها الدولة، والحزب السوري القومي الاجتماعي الذي أسسه أنطون سعادة في كل من سوريا ولبنان، ومنظمة أصحاب القمصان الخضر من شباب مصر. وقد أعربت هذه المنظمات جميعها عن درجات متفاوتة من الإعجاب بالإنجاز الفاشي.

وينبغي النظر إلى تعاملات أرسلان مع القوى التي شكلت المحور في ظل هذه الخلفية، وتعين دراستها في ظلها أيضاً. فقد لعب الرجل دوراً مركزياً في تنسيق التفاعل بين الرغبات الألمانية والإيطالية التي تتطلع إلى تكوين نظام عالمي جديد وبين سعي العرب إلى نيل الاستقلال. أدى قيامه بهذا الدور إلى الحكم عليه بقسوة من قبل بعض المعنيين بالأمر، واستهجن بعض المؤرخين الغربيين تحالفاته النهائية، بينما رأى متقدوه المعاصرون دعمه لإيطاليا خيانة لمعاداته السابقة للإمبريالية التي لا لبس فيها، ورأوا في هذا الدعم موقفاً من قبل أرسلان يجب عليه أن يدفع ثمنه. وهذا الشك حيال تعاونه مع الإيطاليين شوه صورته ولطخ سمعته في آخر سنوات حياته. وأما وفقاً لما يراه أرسلان، فقد كان تواصله الودي مع دول المحور امتداداً طبيعياً لجهوده الرامية إلى الضغط على كل من بريطانيا وفرنسا. وبالتزامن مع تنسيقه الحركات الاحتجاجية والمناقشات السلمية، حاول أيضاً أن يتدبر أمر المنافسات الأوروبية بغية كسب حليف للعرب من القوى العظمى. وامتزجت خبرته في الدبلوماسية الأوروبية مع استشعاره لماهية مهمته الشخصية مع مشاعره حيال أهميته الذاتية، وحملته هذه العوامل جميعها على تولي دور المفاوض الرئيس. وهل تمكن أرسلان في نهاية المطاف من استدراج ألمانيا غير المكترثة إلى التحالف، وهل تمكن من كبح جماح إيطاليا الطامحة إلى تحقيق أفضل مصالحها من

القضية العربية الإسلامية؟ في الحقيقة، لم يُبلِّ بلاءً حسناً لا في هذه، ولا في تلك، وبات غارقاً في وضع معقد للغاية، فأسقط في يده ولم يعد في وسعه أن يتدبر الأمر، إلى أن فقد في نهاية المطاف مرونته التي كانت تمنحه شيئاً من القوة. ولكن انخراطه في الديبلوماسية الأوروبية أزعج، لبعض الوقت، خصومه البريطانيين والفرنسيين، ودفعه أكثر من أي وقت مضى إلى حيث غدا أكثر ظهوراً وبروزاً في الساحة الدولية، وهو الأمر الذي بعث في نفسه سروراً ورضاً.

ومن منظور تلك الحكومات الأوروبية التي تعقبت تحركات إرسال ونشاطه وحاولت تحديد ماهية أهدافه، كان إرسال يعد مناوئاً أكثر منه ضحيةً منقًى. رسمت محفوظات وزارة الخارجية وسجلات الأمن العام لإرسال صورة مختلفة عن تلك التي رسمها له معجبهوه في كل من القاهرة ودمشق. فقد كانت صورة لمحرض مهني ومحترف، صورة لعميل دائم الحركة يسعى إلى القيام بأفضل الترتيبات لنفسه. وبعد مراجعة شاملة لسجلات محفوظات وزارتي الخارجية الإيطالية والبريطانية، أقرت الدكتوروزاريا كوارتارارو أنها لم تستطع أن تقرر إن كان إرسال مجرد عميل يخرض الناس بغرض الإيقاع بهم، أو إن كان صاحب قضية حقيقية⁽⁹⁾. أما أنا فلا أتردد مطلقاً في حل إشكال معضلة الدكتوروزاروارو، وذلك عبر زعمي وتأكيدي على أن إرسال أكثر رشداً واستقامة والتزاماً من أن يكون عميلاً محرّضاً. وثمة أمر لا سبيل إلى إنكاره يتعلق بموقفه إبان الحرب العالمية الأولى. ذلك الموقف الذي يشوبه تضارب ويعتريه تناقض ظاهر يتمثل بتبرير مبدئي مقترن بتسوية واضحة. وعلى الرغم من موقفه المساند للمحور، فقد كان إرسال جزءاً من تيار قوي من تيارات الرأي العام العربي. ومناورات التي تفرد بها وتضمنت مجموعة هائلة من التصرفات التي خلّبت ألباب طيف واسع من معجبيه، وقدرته على استقطاب دعم شعبي جماهيري، كل ذلك جعل منه شخصاً مثيراً للجدل. وكثير مما يعنيه شخص إرسال وصورته لدى جمهوره العربي، وكثير جداً أيضاً مما اختار فعله بتأثيره الهائل ونفوذه الكبير مرتبط بقضية علاقاته مع كل من إيطاليا وألمانيا، إلى الحد الذي يحول دون القدرة على تقويم إرسال ودراسته

على النحو الذي ينبغي، ما لم تبذل محاولة جادة لاستكشاف ذاك الارتباط. وعلاوة على ذلك، كان للمواقف التي اتخذها أرسلان أصدقاء في أنحاء العالم العربي بأسره، وأضحى أكثر من أي وقت مضى مركز اهتمام تراصفت معه وتحلقت حوله قوى سياسية إقليمية. وأفضل طريقة للبحث في تطور دوره هذا ودراسته إنما تمر عبر استعراض اتصالاته المنفصلة مع دولتين من دول المحور.

لقد بدأت علاقة أرسلان الخاصة مع ألمانيا وموظفي وزارة الخارجية الألمانية إبان الحرب العالمية الأولى، وتواصلت دونما انقطاع على مدى السنوات الثماني والعشرين التي أقام خلالها في أوروبا. كانت برلين ملاذه الذي لجأ إليه مع فجر عشرينيات القرن العشرين، ولم يحاول لا في السر ولا في العلن أن يخفي موقفه الودي من ألمانيا. وكما أكد هو نفسه ذات مرة لدى محاولته الحصول على موافقة الحكومة الألمانية وتبنيها رؤيته لمسألة معينة فقد كان صديق ألمانيا العربي الأقدم عهداً، الصديق الذي واظب على مدى سبعة وأربعين عاماً على التبشير بتحقيق مصالح مشتركة بين ألمانيا والعالم الإسلامي⁽¹⁰⁾.

وتعريف أرسلان لتلك المصالح ولسبب وجودها إنما يُردُّ جزئياً إلى الصورة التي شكلها لألمانيا من خلال الصداقات التي عقدها مع أشخاص معينين. فمنذ الزمن الذي أرسله فيه أنور باشا في مهمة خاصة في العام (1917م) وحتى اجتماعاته الأخيرة التي انعقدت في العام (1940م)، كان أصدقاء أرسلان من الأرستقراطيين الذين عملوا في مكاتب الخارجية الألمانية. وكانوا مجموعة صغيرة من الرجال المتحلقيين حول فيرنر أوتوفون هنتيغ، والدكتور كيرت ماكس بروفير، وبارون هربرت فون ريتشهوفن، "وصديقه الحميم وأخيه" بارون ماكس فون أوينهايم، هؤلاء هم الذين شكلوا الوسط الذي كون أرسلان من خلاله انطباعاته عن المواقف الألمانية حيال الشرق الأوسط العربي⁽¹¹⁾. وصل أرسلان إلى حَدٍّ عَدَّ فيه حتى القيصر السابق "صديقاً" وأدى زيارة خاصة له في دورن في العام (1934م)⁽¹²⁾. ولم يبدأ أنه تعامل على نحو مباشر مع مسؤولين تقتضي مناصبهم ووظائفهم منهم خدمة الرايخ الثالث.

وضمن هذه الدائرة الصغيرة من الأرستقراطيين، انعقدت العلاقة الأكثر حميمية بين أرسلان وبين فون أوبنهايم (1860م - 1946م). وكانت تربط بينهما علاقة دائمة من الود. فون أوبنهايم الذي ينحدر من أصول يهودية عمل ملحقاً في القنصلية الألمانية العامة في القاهرة من عام (1890م) وحتى عام (1910م)، ثم استقال من منصبه ليتفرغ لعمله الذي يهوى وهو الآثار الحثية (آثار الحضارة الحثية المزعومة التي ورد ذكرها كثيراً في العهد القديم)، لكنه استدعي مجدداً من قبل وزارة الخارجية الألمانية في العام (1914م)، وأنشأ من اسطنبول مكتب استخبارات للشرق وأداره. كان هدف تلك المنظمة التي أنشأها إنتاج حرب إسلامية مقدسة ضد الحلفاء. وسرعان ما قفل عائداً لمتابعة مساعيه المتعلقة بالآثار الحثية، ولكن كان يظهر أوقات الأزمات ليعمل بوصفه عميلاً غير رسمي للحكومة الألمانية، مستفيداً من علاقاته مع زملاء سابقين ذكرتهم آنفاً، وذلك بغية تحقيق مزيد من الاختراق السياسي الألماني للشرق الأوسط⁽¹³⁾. وكان لأرسلان والبارون في منتصف حياتهما العملية شغف مشترك، كان قاسماً مشتركاً بينهما، للعلم والأبحاث، واللغة، والشرق الأوسط العثماني، وتقاسما في أواخر حياتهما امتيازاً ملتبساً لكونهما آريين فخرين.

وفي حين أنه قد لا يلتبس من هذه العلاقات عذر لحسابات أرسلان المغلوطة فيها، فإنها تبين على الأقل أصول اقتناعه في أن للصدقة الألمانية العربية أساساً متيناً على نحو استثنائي. وبينما ألقت قوى الأمن القبض على أصدقائه المغاربة في باريس، وحالت منطقة كاييه دورسيه (تعبير يشير إلى وزارة الخارجية الفرنسية حيث مقرها) بينه وبين وطنه، كان يتودد إليه موظفو وزارة الخارجية الألمانية القدامى، وهم رجال تفرسوا في شؤون الشرق الأوسط وتعاطفوا مع قضاياهم على وجه العموم، وكانوا حتى في أحاديثهم الخاصة يقرون بأن الأمير المنفي "مذهب للغاية"⁽¹⁴⁾. وكانت هذه المعاملة التي تلقاها من الألمان بعيدة كل البعد عن تلك التي تلقاها من كثير من السلطات الرسمية الفرنسية.

وفي لغة المجاملات، إن لم يكن من حيث صَوغ السياسات، كان الانطباع يعزز بعضه بعضاً. فبالنسبة لوزارة الخارجية الألمانية في العهدين: عهد فايمار والعهد النازي، كان لأرسلان ميزتان جذابتان بصورة خاصة - تعاطفه المؤيد للألمان الذي لا جدال فيه و"الثقة غير العادية والهيبة اللتان ينعم بهما في مختلف أصقاع العالم العربي"⁽¹⁵⁾. وفي حين لم يكن لألمانيا أطماع استعمارية في الشرق الأوسط العربي، ارتأت وزارة الخارجية أن من المفيد لها أن تتملق شخصاً له مكانة أرسلان وتعاطفه وذلك كسباً لوده. كان القنصل الألماني في جنيف تلقى إيعازات بتكليفه بمساعدة أرسلان، عبر تزويده بوثائق سفره استعداداً لقيامه برحلته إلى الولايات المتحدة. وأُلْفَت رسائل شخصية لاسترضائه وتهنئته مشاعره التي تكدرت من جراء تقرير نُشر، وجاء فيه أن ألمانيا عازمة على الإذعان للمصالح الفرنسية البريطانية في الشرق الأوسط. وكما ذكر في الفصل الثالث من هذا الكتاب، تدخلت الوزارة في صيغة رسالة شخصية خطها البارون فون ريتشهوفن خلال جلسة استماع ومرافعة تتعلق بشقة سكنية لأرسلان في برلين⁽¹⁶⁾.

وفي الوقت الذي كانت تمد فيه يد العون لأرسلان، تمتت وزارة الخارجية أيضاً أن تحاط علماً بتفكيره السياسي في الأوقات جميعها. وبناء على ذلك، بدأ في العام (1926م) صديق أرسلان القديم، البارون فون أوبنهايم، ممارسة نشاط كان لزاماً عليه أن يستمر فيه طيلة السنوات التسع عشرة اللاحقة، وتمثل في تقديم نسخ من مراسلات الأمير الشخصية إلى قسم الشؤون الشرقية في وزارة الخارجية الألمانية⁽¹⁷⁾.

كانت المواد الأرشيفية الألمانية تشير إلى أن معرفة أرسلان بالشخصيات والسياسة العربية، كانت عند معارفه من وزارة الخارجية الألمانية أكثر أهمية من صداقته. وكان يعد مورداً مفيداً للمعلومات (وفي هذه الحالة، كان هو نفسه يجهل هذا الأمر). كما كان يخضع لمراقبة لصيقة كلما تقدم بطلب سياسي. ولم يتمكن قط من التواصل مع كوادير الصف الأول من صانعي القرار الألماني المتعلق بالسياسة الألمانية في الشرق الأوسط. ولم يحظَ مطلقاً بفرصة لعرض قضيته لدى أصحاب القرار من المستويات الرفيعة الذين كان يعتقد أنه يستحق أن يلتقي بهم. وكان قد استهل موجة من النشاط البروتوكولي،

وعكف على مراجعة العلاقات الفرنسية الألمانية العربية، عندما طلب أن يلتقي بالرئيس وأصر على طلبه وذلك في سنة (1927م). ولم يفلح في تحقيق هذا الطلب كما لم ينجح بعد سبع سنوات من ذاك التاريخ عندما طلب أن يلتقي بهتلر. وإن كانت هذه التجاهلات لطلباته قد أضرت بشعوره بأهمية ذاته، فهي لم تثنه عن بذل جهود متواصلة للإفادة من برلين في سبيل قضيته. وكان انجذاب شكيب أرسلان إلى ألمانيا مستنداً إلى آمال أعظم بكثير من الصداقات الشخصية والاستحسان المتبادل.

وعندما أعلن فيلهلم الثاني في دمشق في العام (1898م) أن ألمانيا كانت الحامية لثلاثمائة مليون مسلم، وقف أرسلان إلى جانب القيصر⁽¹⁸⁾. وحتى آخر حياته، استند فهمه للتحالفات الأوروبية الداخلية والتحالفات الأوروبية الشرق أوسطية إلى هذا التعهد الذي يعود إلى القرن التاسع عشر. وفي رأيه، تأكدت صدقية هذا التعهد عبر التحالف الألماني العثماني الذي انعقدت رايته في الحرب العالمية الأولى. وعلى مدى السنوات الفاصلة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، عمل على إقناع وزارة الخارجية الألمانية لتفعيل هذا المفهوم ولجعله حجر الزاوية في السياسة الألمانية العربية.

أصبح مقتنعاً بالحاجة إلى التحالف الألماني؛ بسبب عجز القادة العرب عن إنجاز أي شيء من دون التحالف مع الألمان. وبينما كان يسعى إلى تعزيز علاقاته مع ألمانيا، احتفظ بشيء من المرونة في التعامل مع دول الانتداب وتجاوب تجاوباً إيجابياً مع المعاهدة التي جرى توقيعها في العام (1936م) بين فرنسا وسوريا. ولكن إخفاق المفاوضات المتكرر على المستويات جميعها في تحقيق تعديل جوهرى في حالة الانتداب السورية أو في وضع المحميات المغربية، أدى بأرسلان إلى تكثيف مفاوضاته مع ألمانيا. والمقاومة سواء أكانت خلف المنابر أم حول طاولة المفاوضات لا تحقق النجاح، ما لم يُصَرَّ إلى إمدادها بالأموال والأسلحة والدعم الدبلوماسي من قبل دولة أوروبية قوية. وهذا الدور هو ما كان يتوخاه أرسلان من ألمانيا، وهو في رأيه في صلب تأكيد "المصالح المشتركة".

حاول هو وإحسان الجابري أن يحث وزارة الخارجية الألمانية على اتخاذ تدابير لتحقيق بعض المقترحات الجريئة، التي تظهر الأخطار الجسام التي كان إرسال على استعداد لتحمل تبعاتها؛ وذلك نتيجة لإحباطه الناجم عن تعنت دول الانتداب. وإبان المراحل الأخيرة من الثورة السورية، اتخذ إرسال الترتيبات اللازمة لعقد لقاء بين الجابري والبارون فون ريتشهوفن، وذلك لمناقشة خطة تهدف إلى الحصول على أسلحة وقرض مالي كبير من ألمانيا للثوار السوريين. وأكد البارون فون ريتشهوفن للجابري في اللقاء الذي ضمهما، ولإرسال عبر رسالة شخصية، أنه في الوقت الذي تحظى فيه فكرة تحقيق الاستقلال لسوريا بتعاطف ألمانيا، فإن الوضع الاقتصادي المضطرب لفابيار ووضع ألمانيا تحت إشراف هيئة الرقابة على الأسلحة يجعل من أي مساعدة فعلية أمراً مستحيلاً⁽¹⁹⁾.

وبعد سنوات قليلة، حاول إرسال حمل ألمانيا على فعل ما لا ترغب فيه. وصور هذه المرة الالتزام الألماني بقضايا العرب بوصفه ينطوي على مزايا مميزة لبرلين. والسيناريو الذي أعده إرسال وعرضه على الدكتور بروفر تخيل فيه أن حرباً وشيكة ستشب حتماً بين فرنسا وألمانيا. وحاول أن يسوق الحجج والبراهين على أنه يستحسن أن تؤمن برلين، على نحو استباقي، حلفاء لها استعداداً للصراع المحتوم. والمرشحون الطبيعيون المثاليون لهذه المهمة، وفقاً لرؤيته، هم العرب المظلومون المضطهدون في كل من سوريا والمغرب العربي. وهم من يمكن أن يعول عليهم في تسريع وتيرة تحقيق النصر الألماني. لم يبد بروفر أدنى اهتمام ألبته بالمقترح، شاعراً أنه ينطوي على مخاطر وأنه غير عملي. ولأن بروفر كان على دراية بتركيبة إرسال، أدرك أن إرسال، الذي لم يقتنع باعترضاته على فكرته، سوف يحاول دون أدنى شك تمرير مقترحه عبر قناة أخرى سعيًا وراء تنفيذ مخططه. لذلك "نصح على جناح السرعة بعدم استقبال إرسال أو الجابري من قبل شخصيات رفيعة المستوى في الحكومة"⁽²⁰⁾.

مرتباً كعهده بالدول الأوروبية، تحمل إرسال خطر مناشدة الألمان علناً التماساً لدعمهم؛ وذلك لاعتقاده وإيمانه بأن ألمانيا هي الدولة العظمى الوحيدة التي ليس لها

حقاً وصدقاً أطباع إمبريالية مستقبلية في العالم العربي. فإذا كان ممكناً التعبير عن هذا التنزه عن الأغراض والأطباع عبر إعلان ألماني يصب في مصلحة استقلال العرب، فلسوف يكون هنالك أمل في التحرر. لقد كان مدركاً للمخاطر المتأصلة الكامنة في تحالف افتراضي عديم التكافؤ. وفي العام (1939م)، كتب لدانيال غويرين يقول: إن المسلمين تعاطفوا مع ألمانيا بسبب عدائها لأعدائهم ليس إلا. وما كانوا ليجهلوا حقيقة أنه إذا ما أطبق على رقابهم النير الألماني، عندها يكونون قد غيروا سادتهم فقط⁽²¹⁾. ولكنه مع ذلك كان اقتناعه راسخاً بأنه لا أطباع للألمان في بلاد المسلمين. وحث أثناء اندلاع الحرب المفتي السابق على إعلان دعمه للمحور، وأوضح له الأمر قائلاً: ”إنني أشايح المحور وأسعى وراءه أملاً في أن يفضي انتصاره إلى تحرر الإسلام من ربة عبوديته⁽²²⁾“.

والمبررات الأكثر تفصيلاً التي ساقها أرسلان تسويغاً لموقفه في هذا المجال متضمنة في رسالة أرسلها إلى أحد معارفه في منطقة البلقان، وهو سليمان آغا من كرواتيا. ومع أن الرسالة سَطُرَتْ أثناء اندلاع الحرب، فهي تعد ملخصاً دقيقاً يثني بمشاعر أرسلان على مدى سنين عديدة⁽²³⁾. ومؤكداً على السبب الجوهري الذي دعاه لاتخاذ موقف مساند للألمان، أوضح أن المسلمين لا يمكن أن يستعيدوا استقلالهم التام إلا من خلال الانتصار الألماني. كما أوضح أن ”ألمانيا لم يسبق لها أن أخضعت لسلطانها أو ظلمت أي مسلم قط“. وبين إلى ذلك أن ألمانيا عقب انتصارها سوف تعامل المسلمين بوصفهم حلفاء، لا رعايا. وفي معرض رده على التهديد المتمثل، ببساطة، باستبدال مجموعة من السادة (المستعمرين) بمجموعة أخرى، رأى أرسلان أن عليه الاعتماد على ما عده أمراً منطقياً في الموقف: ”تعلم ألمانيا جيداً أنها إذا ما رغبت في أن تتخذ لنفسها من بلاد العرب مستعمرات على غرار ما فعلت كل من بريطانيا وفرنسا، فإنه سوف يتبدد الأمل في أن يسود السلام؛ لأن العرب وطمحوا العزم على أن يعيشوا أحراراً ومستقلين. وتعلم ألمانيا هذا وإيطاليا كذلك“. وإلى ذلك، أوضح أرسلان أنه لا توجد طريقة أخرى يمكن

اتباعها. فقد حاول هو نفسه أن يتفاوض مع سلطات الانتداب، وأخفقت المفاوضات. وقال في هذا السياق: "إن من تعتريه أوهام حيال احتمالات تحقيق أي تغيير، مهما كان متواضعاً، في السياسة البريطانية أو الفرنسية أو الروسية لا بد أن يكون شخصاً محروماً من العقل أو معدوم الضمير".

أرسلان رجل وطني تملكه اليأس من التفاوض، فكلما كان يحاول توسيع دائرته يجدها تضيق فعلياً. فهل تمكن في انجرافه نحو المحور من العثور على ملامح ألمانيا النازية التي تثير الإعجاب؟ كيف يستطيع، وهو المثقف الإسلامي العارف بموقف النبل والسمو القرآني من أهل الكتاب، أن يشعر بالراحة عندما يجابه بسياسات ألمانيا الهتلرية المناهضة لليهود؟ شأنه شأن أي سامي، كان يشعر بالقلق حيال توريطهم الكامل، ولم يسع قط بصورة مباشرة إلى الدفاع عنهم. ووضع نفسه في أحيان كثيرة في مواقف حرجية لشخص اختار حليفاً مشكوكاً فيه، ودافع عن ذلك الخيار عبر الغمز من قناة البدائل. قد تكون ألمانيا قمعت بضعة ملايين من أبناء التشيك، ولكن هذا الأمر لا يعد شيئاً إذا ما قورن بالمسلمين الذين بلغ عددهم مئة وخمسين مليوناً واستعبدتهم البريطانيون والفرنسيون. يقول أرسلان: لماذا تتحسر بريطانيا على هجرة اليهود القسرية من ألمانيا التي ترزح تحت وطأة نظام شمولي في وقت تعكف فيه هي، الدولة الديمقراطية، على ذبح الفلسطينيين الذين لم يقرّفوا جريمة، ولا ذنب لهم سوى الدفاع عن وطنهم؟⁽²⁴⁾

وعلى المدى الطويل، اختار أرسلان عدم التدخل فيما أسماه شؤوناً ألمانية داخلية (ولم يكن موقفه هذا موقفاً غير مألوف في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين)، ولكنه تحمل شيئاً من الآلام والعناء ثمناً لنأيه بالإسلام، ومن ثمّ بنفسه عن العنصرية. نفى أرسلان نفياً واضحاً وصريحاً معاداة العرب للسامية لسبب واضح يتمثل في أن العرب أنفسهم ساميون، وحاول الإبقاء على مسافة تفصل العروبة عن النازية وتبعدها عنها، وقال في هذا الإطار: "إن حركة القومية العربية هي حركة عربية خالصة، ليست عنصرية ولا حاجة بها إلى النظريات القومية الاشتراكية الألمانية من أجل حث العرب على

رفض الهيمنة الأجنبية⁽²⁵⁾“. وكان يرد على عقائد المذهب والعرق بالاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشريف ليثبت أن التقوى الفردية هي المعيار الأوحد الذي يحكم على المؤمن من خلاله. يقول أرسلان عن ذلك: ”إذا رغب مسيحي أو يهودي أن يصبح مسلماً بمطلق الحرية يغدو واحداً من المؤمنين، له ما لهم من الحقوق وعليه ما عليهم من الواجبات. ولكن إذا رغب في البقاء على دينه مسيحياً أكان أم يهودياً لا ينبغي لأحد أن يحول بينه وبين ما يشاء⁽²⁶⁾“.

وهكذا، بينما كانت تجربته الخاصة مع الألمان الذين اصطفاهم لطيفة على وجه العموم، لاقى صعوبة في عرض رأيه المتعلق بقضايا بلاده. وأرسل رسالة إلى محمد علي الطاهر يقول فيها: إن ألمانيا، شأنها شأن الحلفاء جميعهم، ”لها مبادئ لا أشاركها فيها“، وحاول أن يوضح لنوري السعيد أمراً: ”أنا لا أهتم بهتلر، ولا أدافع عنه، ولا أؤمن بأيديولوجيته...⁽²⁷⁾“. كل ما كان يتوق إليه هو تأسيس حلف يمكن الثقافة العربية الإسلامية من الانعتاق من القمع والاضطهاد ومن تنسم نساء الحرية والاستقلال. ولا تختلف ألمانيا عن الحضارات الأوروبية الأخرى في افتقارها إلى أي عوامل جذب أصيلة بوصفها نموذجاً. وكل ما في الأمر أنه اتفق لألمانيا أن كانت ”عدواً لأعدائنا“.

وفي علاقاته مع ألمانيا في حقبة ما بين الحربين، لم يكن أرسلان وكيلاً عاملاً على نشر الدعاية الألمانية بقدر ما كان يتصرف بوصفه مدعياً عاماً نيابة عن العرب، محاولاً إقناع أصحاب القرار السياسي الألمان بتبني مجموعة معينة من المواقف حيال الشرق الأوسط العربي. ولم تكن هذه حاله في التعامل مع إيطاليا الفاشية التي انبرى للدفاع عن مغامراتها الخارجية. ولكي تبدو إيطاليا ذات ثقل مقبول موازن ومقابل لثقل بريطانيا وفرنسا، كان على أرسلان أن يصور المحرضين على الفظائع الليبية بوصفهم أبطال الإسلام الغربيين الجدد. لقد كانت شراكة محفوفة بالمخاطر جعلت من أرسلان شخصاً مثار جدل وسجال ومهاترات، وعرضته لهجمات شرسة مست نزاهته، وجردته من قدر من مصداقيته التي استحقها بجدارته وكانت نتاجاً لجهود مضنية بذلها.

وفي حقبة عشرينيات القرن العشرين، حاول الوفد السوري الفلسطيني أن يستقطب دعماً إيطالياً للمظالم العربية⁽²⁸⁾، ثم توقفت هذه المبادرات إبان تجدد الغزو الإيطالي لليبيا. ولكن عندما سعت إيطاليا إلى إعادة تلميع صورتها في أعين العرب عبر تبنيها سياسة تصالحية مع الشعب الليبي، أعاد إرسال تقويم موقفه. وكان منجذباً إلى حقيقة أن الإيطاليين، على حد تعبير أحد أشد منتقديهم، "كانوا حريصين كل الحرص على عدم الإساءة إلى الرأي العام العربي في مسائل دينية"⁽²⁹⁾. وواظبت إيطاليا على معارضة أنشطة التبشير (التنصير) في ليبيا، واتخذت خطوات لبناء مساجد واحترام الشريعة في مجال الأحوال الشخصية والميراث. ومهما كانت هذه السياسات سطحية، ومهما كان الحكم الإيطالي في ليبيا عديم الاكتراث بالشعب الليبي ونزاعاً إلى الاستبداد، فإنه يمكن الإفادة من المظاهر من قبل داعية حاذق.

مستعيناً بأدوات استشعاره عالية الدقة لأحوال المسلمين الخاضعين لسطوة الحكم الاستعماري، رأى إرسال في موقف إيطاليا الجديد فرصة لتشكيل تحالف أوثق ارتباطاً. ونشر في العام (1933م) مقالاً في الصحافة المقدسية أعرب فيه عن استحسانه للعفو الإيطالي الذي أعلن عنه في ليبيا. فردت وزارة الخارجية الإيطالية على ذلك بتفاؤل مشوب بالحذر، معربة عن أملها في أن ينتهج "الزعيم المؤثر" نهجاً يفضي إلى جعل العلاقات الإيطالية العربية تسير في اتجاه جديد⁽³⁰⁾.

ونتيجة لنشر هذا المقال، على الأرجح، وللاهتمام الذي حظي به، استؤنف التواصل بين إرسال والإيطاليين. ووفقاً لما أدلى به إرسال، وجهت إليه دعوة من قبل موسوليني لزيارة روما، ولكن رد عليه بقوله إنه سيلبي الدعوة فقط عندما يُصَار إلى إعادة القبائل الرُّحْل الليبية إلى وطنها⁽³¹⁾. وعندما استُهِلَّ العمل بهذه السياسة، ظهر إرسال في مؤتمر للطلاب المسلمين استضافه موسوليني في شهر ديسمبر/ كانون أول من عام (1933م)، فأضفى بحضوره على اللقاء هيبة لم تكن لتنبغي له لو أنه غاب عنه. وبعد ذلك بوقت قصير، أي في شهر فبراير/ شباط من عام (1934م)، انعقد لقاءان بينه وبين موسوليني، قدم خلالها للزعيم (الدوتشي) مطالبه من أجل إجراء

مزيد من التعديلات على سياسة إيطاليا في ليبيا. وعلى الرغم من أنه لم يعترف بالأمر بصورة مباشرة قط، فمن المرجح أن يكون أرسلان قد وافق على الكف عن توجيه انتقاده للسياسات الإيطالية، إذا ما جرى تعديل هذه السياسات بحيث تتيح شيئاً من الحرية للمؤسسات الدينية الإسلامية. وكان يعرب، على مر السنين، عن ارتياحه لأن إيطاليا وازبطت على تنفيذ الشطر الخاص بالتزاماتها بموجب الاتفاق⁽³²⁾.

مستنداً إلى هذه الأسباب الواهية، أضاف أرسلان موسوليني إلى قائمته العامة التي تتضمن أصدقاءه الشخصيين، وخلص إلى استنتاج يفيد بأن السياسة الاستعمارية الإيطالية، على الرغم من كونها مؤسفة وتبعث على الأسى في المقام الأول، فقد كانت تلك السياسة أفضل ترتيب يمكن أن يتوقعه المسلمون من سلطة أوروبية. وكانت بعد ذلك تقع على عاتقه مهمة تبديد الشكوك التي انتابت جمهوره العربي، وإقناعه بأن الأوضاع تبدو خلافاً لما يعتقد هذا الجمهور، إذ إن الإعلانات الإيطالية تنطوي على إخلاص في النوايا، والوعود الإيطالية صادقة ويمكن الركون إليها والثقة بها. وقد شكل هذا الموقف قيداً سيئاً للغاية عليه؛ ذلك لأنه هو المناضل المكافح المتحدث باسم شعبه الذي قال ذات يوم: "عندما يتعلق الأمر بمصالح العرب والمسلمين على وجه العموم، لا أخاف من مهاجمة أي شخص كائناً من كان"، وألقى نفسه يعترف: "لا أستطيع مهاجمة موسوليني في وقت أطلب منه فيه إعادة حقوق المسلمين في ليبيا⁽³³⁾". لقد كان الإسلام بالنسبة لأرسلان منارة يهتدى بها إلى الحرية. أما في حالة إيطاليا فأقل ما يقال إنه كان على استعداد لمبادلة الحريات الدينية بالحريات السياسية.

وكان هذا الأمر شديد الوضوح وشديد الإحراج؛ الأمر الذي يتعلق بمحاولاته إقناع زملائه العرب بأن الغزو الإيطالي لإثيوبيا لم يكن مشروعاً إمبريالياً مماثلاً لتلك المشاريع الاستعمارية التي جردتهم من استقلالهم. وحاجج في مقالاته المتعددة التي كرسها لهذا الموضوع دفاعاً عن رأيه قائلاً: لقد دأبت إثيوبيا المسيحية باستمرار على قمع أغليبتها المسلمة (استعمل هنا إحصائياته الخاصة)، في حين أن ما قامت به إيطاليا، على الرغم من أنه تمخض عن عواقب مؤسفة تمثلت في تدمير سياسة الدولة الإثيوبية،

فقد جلب سلوكها هناك سياسة إسلامية متتورة، وبناء على ذلك ينبغي أن يكون ما قامت به محل ترحيب من قبل المهتمين بمصير المسلمين جميعاً. ولم يتغاضَّ أرسلان عن الإمبريالية ولكن "خفف من شدة إشفاقنا على الحبشة ذكرى المعاناة الرهيبة التي فرضها مسيحيو الحبشة على مر القرون على مسلمي ذاك البلد، وعلى مسلمي الدول المجاورة"⁽³⁴⁾. وحذر رشيد رضا أرسلان قائلاً إن الرأي العام المشرقي العربي يساند إثيوبيا بقوة، غير أن الأمير واطب على تقديم مزيج من الأعذار التي تبرر سياسات إيطاليا الإسلامية مع الإعراب عن استيائه من الغزو⁽³⁵⁾.

لم تكن تنطلي على أرسلان المظاهر الخادعة الكاذبة في ليبيا، أو حتى خطابه هو عن إثيوبيا. فمن له من الفطنة السياسية ما يكفي لإدراك أن الجبهة الشعبية ما هي إلا حكومة دولة إمبريالية، يعي بالتأكيد أن أطماع إيطاليا موازية لطموحات كل من بريطانيا وفرنسا. وأقر في سنوات الحرب الأولى أنه يتعين على ألمانيا أن تكبح جماح الجشع الإيطالي⁽³⁶⁾. كما أقر أنه من المرجح أن تكون سياسة موسوليني الإسلامية مستندة إلى اعتبارات سياسية، لا إلى مودة حقيقية. ولكن هكذا كانت حال موقف أرسلان الخاص المؤيد للإيطاليين. وقد شرح موقفه هذا لرضا قائلاً: "أنا لي مطالب عند موسوليني تتعلق بمسألة سورية، وبمسألة فلسطين، وبمسألة طرابلس"⁽³⁷⁾. ويمكن لإيطاليا أن تساعد في معالجة المظالم العربية بسبب مكانتها في المقام الأول. وأعلن أرسلان بطريقة جعلته أشبه ما يكون بما كينة دعائية فاشية أن: "إيطاليا باتت الآن قوة من الطراز الأول... ولا يمكن إنجاز أي شيء على صعيد الساحة الدولية من دون الامتثال لها"⁽³⁸⁾. ويستتج أرسلان: "بما أن إيطاليا قوة عظمى، فإنه في وسعها أن تمد لنا يد العون في كل من سوريا وفلسطين عبر انتهاجها سياسة مساندة للعرب"⁽³⁹⁾. ولدى مواجهته بوقائع الغزو الإيطالي لليبيا، قضى أرسلان بوصفه "رجلاً عملياً" بأن المزايا التي يمكن أن تعود بالنفع على القضية العربية من خلال استرضاء دولة إمبريالية تراجعت عن غيها، أكثر من المزايا التي يمكن انتزاعها عبر استعدادها⁽⁴⁰⁾.

بلغت التوترات التي أحاطت بالعلاقات الودية والتقارب بين أرسلان وإيطاليا حد الأزمة في ربيع العام (1935م)، حيث كان يقوم بنشاط ملحوظ يرمي إلى الانتقال من واقع التردد في الموافقة على إصلاحات موسوليني في ليبيا، إلى موقع التأييد الكامل لسياسة إيطاليا الإسلامية الشاملة في إريتريا وإثيوبيا. وفي شهري مارس/ آذار وأبريل/ نيسان من تلك السنة، نشر أرسلان سلسلة من المقالات في صحيفة الجمعية العربية التي كانت تتخذ من القدس مقراً لها مشيداً فيها بتصويت إيطاليا الداعم للقضايا العربية في عصبة الأمم، ومدافعاً عن سياسة روما حيال مسلمي إثيوبيا، وموضحاً كيف يعول على تحالف مع إيطاليا في أن يعود بالنفع على قضايا العرب والمسلمين⁽⁴¹⁾. ومع ظهور هذه المقالات، دخل أرسلان من غير قصد معترك السياسة الفلسطينية المحلية، وأصبح رهينة للصراع الذي كان دائراً بين فصيل النشاشيبي وفصيل الحسيني في ظل سلطة الانتداب. وما كان قد بدأ حينها بوصفه مغامرة دعائية عادية ترمي إلى تسويق موقف أرسلان الخاص وإقناع الآخرين بتبنيه، تحول إلى حملة شرسة تهدف إلى تشويه سمعة الأمير، وجعلت من ذلك هدفاً رئيساً لها. وأصبحت السمعة المشهورة للسياسة العربية في حقبة ما بين الحربين وحرب الصحافة في العام (1935م) سمة ثابتة في حياة أرسلان، مثل "حادثة الرسالة المزورة"، وغدت من أكثر الاتهامات العلنية إلحاقاً للأذى بحياته المهنية. والسلاح الذي لطالما برع في استعماله من أجل إلحاق الهزيمة بخصومه، وهو الصحافة الدورية، انقلب عليه محملاً بتأثير مدمر. فبعد نشر الرسالة المزورة، لم تعد سمعته آمنة إطلاقاً كعهده بها سابقاً.

وفي الثامن عشر من شهر إبريل/ نيسان من العام (1935م)، نشرت صحيفة الجمعية الإسلامية المقربة من النشاشيبي نسخة مطابقة للرسالة التي زعم المحررون أن أرسلان خطّها للحاج أمين الحسيني، مفتي القدس. وذكر في جزء من هذه الوثيقة المؤرخة في العشرين من فبراير/ شباط من العام (1935م) أن: "هذه الاتفاقية أبرمت من أجل إطلاق حملة دعائية مؤيدة لإيطاليا في الدول العربية في أقرب وقت ممكن... وقد ترسل وزارة الدعاية في روما بعض الملاحظات بغية نشرها"⁽⁴²⁾. وكان معارضو

المفتي يستغلون علاقات أرسلان مع الإيطاليين وصداقته المشهورة مع الحاج أمين من أجل تشويه سمعة المفتي نفسه. كما كان هدفهم من نشر الرسالة إظهار أن الحاج الحسيني والمجلس الإسلامي الأعلى الذي يرأسه يعملون على نحو وثيق مع دولة أوروبية إمبريالية بكل تفاصيلها، شأنها في ذلك شأن بريطانيا. وعلى الرغم من أن ميول أرسلان المساندة لإيطاليا أثرت فقط بوصفها وسيلة لتشويه سمعة الحاج أمين، فقد أضحى الأمير أكثر عرضة للخطر من جراء ذلك من المفتي. ويكشف تقرير صدر عن مؤسسة إيسكو النقاب عن أن الأطراف جميعها ردت على الحدث رداً هجومياً: "أثار نشر الرسالة عاصفة من المناقشات العنيفة في الصحافة العربية ترافقت مع سيل من الاتهامات المتبادلة والهجمات الصحفية والهجمات المضادة"⁽⁴³⁾.

لم يكن أحد أكثر شراسة من أرسلان. ففي قلب العاصفة، رد على المهاجمين بكل ما أوتي من قوة. وأرسل سيلاً من الرسائل الخاصة والعامّة، ونشر مقالات دفاعه عبر صفحات مجلة الأمة العربية، وعبر كل المجلات التي وافقت على نشر مقالاته. انتقد أرسلان عبر مراسلاته مع رشيد رضا كل من كان له صلة بالرسالة، وألقي باللائمة على الدكتور الشهبندر بسبب موافقته على التزوير، وأدين الجابري بسبب إخفاقه في إبلاغ أرسلان عن نشر المقال، وهوجم البريطانيون لرفضهم السماح له بدخول فلسطين لرفع دعوى قضائية بالافتراء وتشويه السمعة⁽⁴⁴⁾. استدعي خبراء في الخط ليعلموا أن الرسالة مزورة استشهاده بـ دليل تتضمنه، يثبت أن تأريخها وأسلوب إيراد التحية فيها مخالفان لطريقة أرسلان المعتادة في هذا الإطار، وأعلن أمير البلاغة أيضاً أن الرسالة تضمنت خمسة عشر غلطاً في ثمانية وثلاثين سطراً، يقول أرسلان عن ذلك: "هل تعتقدون أن عضواً في مجمع اللغة العربية عكف على التأليف على مدى حقبة امتدت خمسين عاماً، وعرف بأسلوبه الذي يتسم بالتزامه الصارم بقواعد اللغة، يمكن أن يرتكب أغلاطاً في بناء الجمل وفي القواعد لا يمكن أن يرتكبها حتى التجار؟"⁽⁴⁵⁾.

حذر رشيد رضا أرسلان من تطرفه الشديد في الدفاع عن النفس، وشرح له الموقف موضحاً أنه يوجد إقرار عام بأن الرسالة مزورة⁽⁴⁶⁾. ولم يخفف أرسلان من حذره. وما

بدارد فعل مبالغاً فيه على حادثة يمكن توقعها من قبل رجل يفخر في كونه مجادلاً صريحاً، في هذه الحالة، مبرر بسبب الطريقة التي حدد أرسلان بها الرهان. وفي قضية تأتت فيها مصداقيته بوصفه صاحب شخصية بارزة مناهضة للإمبريالية، بدلاً من تلقيه التهاني لخوضه غمار مفاوضات سياسية يرمي من خلالها إلى تحقيق مصالح العرب على أفضل وجه، اتهم بنشر دعاية مساندة لإيطاليا. أدرك أرسلان فحوى المضامين الكاملة للعبارة المدمرة التي عبرت عنها الرسالة، وتبرأ مما ورد فيها مراراً وتكراراً. وقال عن ذلك: "لا أصير داعياً لإيطالية، ولا موسوليني يطلب من أن أكون داعياً لإيطالية⁽⁴⁷⁾". ورضاً، رأيه الذي يتمسك به بشدة بأهمية أن تبقى صورة أرسلان نقية لا تشوبها شائبة بالنسبة للقضية العربية الإسلامية، حثه على المضي قدماً وعلى "الإمساك عن كل كلمة مدح أو دفاع عن إيطاليا أو ذم للحبشة وتنفيذ منها الآن⁽⁴⁸⁾". وهذا ما لم يستطع أرسلان فعله. وشعر بأن التقارب بينه وبين الإيطاليين تقارب معقول، وقد جرى استغلاله من قبل الراغبين في تشويه سمعته خدمة لقضاياهم الشخصية، وهم البريطانيون والصهاينة وبعض العرب الساعين إلى تحقيق مصالحهم.

والمشاعر التي عبرت عنها الرسالة يمكن أن تكون نابعة من أرسلان على الرغم من استيائه العام. فعبارة "إني واثق من أن إيطاليا لن تعاملنا كما عاملتنا إنكلترا وفرنسا" كانت متسقة مع استراتيجيته في ذلك الوقت⁽⁴⁹⁾. وسواء أكانت الرسالة الشهيرة مزورة أم لا، فإن إسهامه النهائي في الدعاية لإيطاليا في فلسطين كان واضحاً. وضارباً صفحاً عن تحذير رضا، واطب أرسلان على نشر مقالات مساندة لإيطاليا في مجلات عديدة مختلفة. وبصرف النظر عن عدد المرات التي تنصل فيها بشدة من المسؤولية عن كتابة الرسالة الملفقة، فإن الأنشطة التي كان يقوم بها عززت فكرة أن يكون هو من كتبها. وأفاد مسؤولون يعملون في سلطة الانتداب البريطاني أنه: "يبدو بها لا يدع مجالاً للشك، أنه (أرسلان) كان وما يزال ييثر دعاية مساندة لإيطاليا على نطاق واسع في كل من فلسطين ومصر⁽⁵⁰⁾". وفي هذه الحالة، توافقت أهداف أرسلان مع تفسير بريطاني لها - حشد الرأي العام العربي بحيث تتفجر، في حال نشوب حرب أوروبية، الاضطرابات الكامنة

في كل من سوريا وفلسطين ضد سلطات الانتداب. ومن الواضح أن أرسلان كان مؤثراً وفعالاً على صعيد ربط وضعه بالسياسات الإيطالية مانحاً إياها بذلك نوعاً من المصداقية. وبالنسبة لمكتب المندوب السامي البريطاني، كان أرسلان يعد وسيطاً أساسياً وعاملاً حاسماً أمكن من خلاله إضفاء مصداقية على إيطاليا لجهة تأكيداتها بانتهاجها سياسة تقدمية حيال المسلمين، لدى الرأي العام العربي. وقد أضفى ذلك مزيداً من التدقيق من قبل المسؤولين البريطانيين على تحركات أرسلان وعلى سلوك أولئك المشتبه بعمالتهم له⁽⁵¹⁾.

ومع ذلك، فإن مخاوف أرسلان حيال قدرة سمعته على الصمود ومعاشية واقعة الرسالة الملفقة والقضايا التي أدت إلى إثارتها كانت مخاوف لها ما يبررها. فقد كان دوره في تعزيز الدعاية الإيطالية صادمًا وغير متوقع، لا لأنه يعد تحولاً دراماتيكياً عن عدائه السابق لإيطاليا فحسب، بل لأن معظم القادة العرب الآخرين أيضاً يرتابون في إيطاليا أشد الارتياب. وتمثل الاستثناءان الرئيسان من ذلك في شخص أرسلان وفي الحاج أمين الحسيني، وحتى الحسيني أخبر السفير الألماني في طهران أن أي قائد عربي يعمل بصورة حصرية مع إيطاليا مرشح لأن يخسر من فوره أتباعه ومناصريه⁽⁵²⁾. أما بالنسبة لأولئك الذين لم يقتنعوا بتفسيرات أرسلان لموقفه التصالحي حيال الوجود الإيطالي في كل من ليبيا وإثيوبيا، فلا يوجد إلا احتمال آخر واحد - خان أرسلان مبادئه مقابل حصوله على أموال.

وعلى مدى العقد الأخير المثير للجدل من حياته، لم يسبب لأرسلان التعاسة شيءٌ بقدر ما فعلت الإشاعة التي صورتها عميلاً مأجوراً لإيطاليا. لقد أقر بتأييده لإيطاليا وحاول تبريره، لكن ما جرح مشاعره وأغضبه تمثل في اتهامه بأنه قدم الدعم مقابل المال. وصدرت هذه الاتهامات عن مجموعة متنوعة من المصادر وخدمت مصالح متنوعة عديدة⁽⁵³⁾. وكون هذه الاتهامات لم تُرد من فورها بوصفها محض افتراء كشفت حالة ضعف الأمير في مجال التمويل.

لقد ذكرت موارد أرسلان المالية المشوبة بحالة من التشوش الشامل مرات عديدة في هذه الدراسة. وتقتضي الضرورة استعراضها في هذا المقام؛ لأنه بنشر الرسالة الملفقة أصبحت تلك الموارد سمة بارزة من سمات صورته العامة أكثر من أي وقت مضى. وعلاوة على ذلك، فإن قضية إذا ما كانت ولاءات أرسلان السياسية تحدد بموجب حاجته المعروفة جداً إلى المال، تمتد إلى ما وراء مثاله الخاص به فتلامس جهود سلطات دول المحور، لتؤثر على السياسة العربية عبر إعانات تمنح إلى منظمات وأفراد آخرين.

لقد غدا أرسلان متورطاً في معترك هذه الجهود؛ لأنه كان مقررًا من قبل أولئك الذين أولوه اهتماماً أنه لم يكن متوفراً على ما يكفي من الدخل للقيام بكل ما كان يقوم به من أعمال. ووصفه صديقه الألماني، الدكتور بروفور بأنه رجل "يعاني أزمة مالية مزمنة"، واشتكى الاتحاد المدني في جنيف من أنه لحقت بالأمر سمعة بين تجار المدينة بسبب كونه "مرهقاً في دفع المستحقات"⁽⁵⁴⁾. وكان يتتاب السلطات السويسرية قلقاً من أن يؤدي الوضع المالي المضطرب لأرسلان إلى جعله عرضة للخضوع إلى ترتيبات من سلطات أخرى؛ الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى المساس بمبدأ الحياد السويسري. وأثارت التكهّنات بشأن الدخل الإضافي لأرسلان الصديق والعدو على حد سواء، وجعلته، تقريباً بالقدر نفسه الذي جعلته فيه كتاباته المثيرة للجدل حيال أمور أخرى، هدفاً للبحث والاستقصاء وإطلاق الشائعات.

وكمثال على الهالة التي أثّرت حوله في هذا الوقت، فإن جهاز الأمن السويسري، الذي كان من أكثر الوكالات الأوروبية المشرفة على أنشطته فاعلية، كان مقتنعاً أن أرسلان تلقى في العام (1936م) مبلغ خمس مئة ألف فرنك سويسري من بيير فينو، وكيل وزارة الدولة للشؤون الخارجية في حكومة الجبهة الشعبية⁽⁵⁵⁾.

ولكن معظم الادعاءات والمزاعم التي تتعلق بترتيبات أرسلان المالية غير المشروعة تتعلق بحصوله على أموال إيطالية. وكان مسؤولون بريطانيون وفرنسيون، بصورة خاصة، مصممين على أن دوره بوصفه موزع أموال يعطي تفسيراً للاضطرابات

المستمرة في المناطق العربية الخاضعة لهما. وكان هذا استمراراً للاتجاه المذكور في الفصل الخامس، من هذا الكتاب في السياق الشمال أفريقي، الذي صنف أرسلا ن بوصفه راعياً للأعمال العدائية التي لم يكن في وسع الفلسطينيين (أو السوريين، أو المغاربة، أو الجزائريين) القيام بها من دون رعايته لها. ويرى أولئك المسؤولون أنه هو نفسه كان يجبري التلاعب به بأساليب غير قويمه من قبل قوى شريرة في روما، ولا شك في أنه عميل تتم من خلاله إثارة السخط والتمرد المستمرين.

حتى قبل اندلاع ثورة العام (1936م)، ذكرت مصادر بريطانية أن أرسلا ن والجابري وزملاءهما كانوا يتلقون أموالاً من الحكومة الإيطالية لأغراض دعائية في فلسطين⁽⁵⁶⁾. وقدرت الأموال التي حصلوا عليها حتى العام (1937م) بخمسة وسبعين ألف جنيه استرليني يفترض أن تكون قد وزعت على مدى أربع سنوات بدءاً من العام (1933م)⁽⁵⁷⁾. ومن المؤكد أن أرسلا ن كان على استعداد تام للعمل بوصفه قناة لتميرر الأموال المكرسة لشراء أسلحة للثوار الفلسطينيين. ونظراً للرقابة المحكمة من قبل السويسريين عليه، فقد كان قيام أرسلا ن بالدور المنسوب إليه هنا من الصعوبة بمكان، لكن لم يكن مستحيلاً. وعلى أي حال، لم يكن أداء وظيفة من هذا القبيل أمراً منفراً على الصعيد الشعبي في الأوساط العربية بصورة خاصة. وما هو أكثر إضراراً وأشد إيداءً الإشاعة التي أطلقت وزعمت أن الأموال التي تلقاها من إيطاليا كانت مكرسة لاستعماله الشخصي. وأرسلا ن الذي أسيء له بإطلاق هذه المزاعم، ولم يكن قادراً على تجاهلها، اضطر إلى الدفاع عن نفسه باستمرار. وكثيراً ما كان يفعل ذلك ببلاغة قوية: "أمضينا خمسة عشر عاماً ونحن ندافع عن قضية العرب والمسلمين، وندافع عنها على نفقتنا الخاصة... وضحينا في سبيل ذلك تضحيات كبيرة بالمتلكات والأموال، ولسوف نستمر على هذا النهج. ونحن لا نخدم ألمانيا ولا فرنسا، لا إنجلترا ولا إيطاليا، ولا أي بلد آخر. بل نخدم حصراً الأمة العربية التي ننتمي إليها، والعالم الإسلامي على وجه العموم⁽⁵⁸⁾". وبينما عكفت قلة قليلة على إنكار تفانيه في خدمة القضايا العربية الإسلامية، استمرت الاتهامات التي استهدفته. وتملك أرسلا ن شعور

بأن الصحافة الفرنسية، على وجه الخصوص، تتصرف بدافع من الحقد وحب الانتقام في هذا الإطار، وكان يشتكي منها قائلاً: "لقد شوّهت سمعتي افتراءً وقذفاً على نحو يتجاوز قدرة الإنسان على التحمل⁽⁵⁹⁾". وفي معرض رده على الهجمات التي شنت عليه من قبل صحفيين فرنسيين، لجأ أرسلان مراراً وتكراراً إلى اقتباس حججهم معيداً صياغتها ومبيناً ضمناً مدى سخفها لدى عرضها إلى جانب إنجازاته ذائعة الصيت، ربما كانت أسلوباً مجدياً: "لم يفعل شكيب أرسلان ما فعله خدمة للوطنية، أو للإسلام على وجه العموم، أو من أجل العروبة؛ بل خدمة لهتلر وموسوليني اللذين باع نفسه لهما. بتعبير آخر، لا تعتقدوا أن هذا الرجل يدافع عن قضيتكم من أجل الحرية، أو العدالة، أو الإسلام، أو أي مُثل أخرى. لا، بل هو يفعل ذلك من أجل تحقيق مصالح مادية خالصة. ويتعين عليكم ألا تهتموا بما يكتبه نيابةً عنكم⁽⁶⁰⁾".

وفي معرض تحديه لأولئك الذين كانوا على دراية بكل ما قدمه للقضية العربية الإسلامية وتجروأ على تسميته عميلاً مأجوراً، لم يكتف أرسلان بالانخراط معهم في حرب كلامية عنيفة، بل كان يذكر الحقائق إلى حد كبير، فلم يكن تعاطفه الموالي لإيطاليا يستهدف منه الحصول على مصالح شخصية. نعم، لقد حصل بالتأكيد على دعم من كل من إيطاليا وألمانيا، لكنه كان من أجل أغراض محددة مثل السفر والإقامة، وطباعة مجلة الأمة العربية⁽⁶¹⁾. ولدى إلقاء نظرة فاحصة على شؤونه المالية في حقبة أواخر ثلاثينيات القرن العشرين يتبين جلياً أن أرسلان لم يستعمل أي أموال تلقاها من دول المحور من أجل تحقيق مكاسب شخصية. ولدى سؤاله ذات مرة من قبل السلطات السويسرية إذا ما تلقى أموالاً من أي حكومة من أجل عمله، أجاب قائلاً: "لا. أنا رجل حر، وأرجو أن أبقى كذلك⁽⁶²⁾". لقد كان صادقاً فيما قاله، وإذا ما أخذنا في الحسبان ظروف حياة أرسلان، فإنها تشكل سبباً كافياً لتبرئته من التهم الأكثر اشتباهاً في سمعته.

كان دخل أرسلان يُستمدُّ من أربعة موارد رئيسية: أمراء وحكام عرب، وقادة إسلاميين، وجماعات إسلامية، ومن جماعات سورية مقيمة في أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، كانت تسهم إسهامات مالية غير منتظمة مكرسة للوفد السوري

الفلسطيني⁽⁶³⁾. وقد استعمل أرسلان هذه الأموال لتحقيق الأغراض التي كرس من أجلها، وكانت تكاليفها كبيرة-نفقات بريد وبرقيات، وأجور ونفقات طباعة مجلة الأمة العربية، وتكاليف توزيع عرائض على عصبة الأمم، وتكاليف سفره وانتقاله المتعلق بأدائه واجباته بوصفه رئيساً للوفد (وربما قسم كبير من تكاليف سفر الجابري)، ونفقات عدد لا يحصى من الأنشطة الدعائية ذات الصلة.

كما تلقى أرسلان، إضافة إلى ذلك، عوائد أدبية على كتبه، ودفعات مباشرة على المقالات التي كان ينشرها وافتتاحيات الصحف والمجلات التي كان يكتبها. وبينما كانت سمعته تتنامى ووضعه المالي يتفاقم سوءاً، كان يعتمد على سمعته للتخفيف من حدة سوء وضعه المالي. اشتكى ذات مرة لرؤسا من أن ناشرين عربياً يكلفونه بكتابة مقدمات ومقالات من دون أن يدفعوا مقابلاً لذلك، ومن دون إبداء أي قدر من التعاطف مع ظروفه الاقتصادية المروعة. ولم يكونوا يدركون أن له زوجة وأطفالاً يعولهم، ولا وقت لديه يكرسه لكتابة من دون مقابل⁽⁶⁴⁾. وكان أمير البيان مضطراً إلى التأليف للسوق فضلاً عن الكتابة من أجل القضية.

وحتى زمن اندلاع الحرب (العالمية الثانية) في العام (1939م)، كان أرسلان يتلقى دخلاً أيضاً من عائدات عقارات العائلة في لبنان. وسبق لي أن أشرت في هذا الكتاب إلى مراسلات تبين انخراط أرسلان العميق في مجموعة متنوعة من المشاريع التفصيلية المدرة للدخل، بدءاً من بيع الأراضي، ووصولاً إلى تشييد المباني. وتكريسه الفعلي من وقته وطاقاته لهذه المسائل فوق ما يطبق يشير إلى مدى حيوية الدخل اللبناني بالنسبة إليه⁽⁶⁵⁾. وأخيراً، كان يحصل على بعض المال من تأجير شقته في برلين. وكان هذا الوضع غير منتظم بسبب القيود الدولية المفروضة على العملات، كما كان هذا الدخل غير متاح أحياناً بسبب إعادة تمويل الرهن العقاري للشقة كلما سنحت الفرصة. وإبان الحرب العالمية الثانية، ناشد أرسلان فون أوبنهايم استعمال نفوذه لترتيب أمور إيرادات إيجار الشقة التي تراكت فبلغت ألفي مارك ألماني تقريباً بحيث يصار إلى تحويلها إلى وكيله في أمستردام، لكي يتمكن من الشروع في تسديد الأقساط المستحقة على

الدَّيْن⁽⁶⁶⁾. ومتابعة أرسلان التي بلغت حد الاستماتة لهذا المبلغ الصغير نسبياً (800 دولار أمريكي) تكشف النقاب عن رجل يعاني ضائقة مالية خانقة.

كانت مديونيته ناجمة عن عدم كفاية دخله لتلبية متطلباته الخاصة والعامة التي ربطها به. وقد عاش حياة متواضعة ومشوبة بشيء من عدم الاكتراث في آن معاً. وبصرف النظر عن ظروفه، كان يختار فنادق فاخرة. وكان، على الرغم من كل شيء، أميراً، يتوقع أن يخاطبه الناس بقولهم يا صاحب السمو، ويترتب عليه التزامات معينة. وبالإضافة إلى سكرتير شكيب الشخصي، كان لدى أسرة أرسلان خادمة لم تتقاض أجورها على مدى سبع سنوات؛ لأن أرسلان فشل، ببساطة، في دفع أجورها، وسويت القضية في نهاية المطاف من قبل محاميها. وعلى الرغم من أنه كان يذهب إلى الحلاق مرتين أسبوعياً، لم يكن أحياناً يملك ثمن فنجان قهوة. وما أثار دهش مراقبيه السويسريين أن العوز كان يصل به أحياناً إلى حد يحمله على الشرب من النوافير العامة في فصل الشتاء⁽⁶⁷⁾. ولشكيب عنوانان في جنيف هما شارع هيتش وشارع ماريناك، وكانا يبلغان حداً من الترف والبذخ أحياناً يمكنهما من استضافة الملك فيصل وإكرام وفادته إلى جانب غيره من كبار الشخصيات. وإلى جانب ما مرّ ذكره، راكم أرسلان على نفسه نفقات طبية كبيرة، كما كان لزاماً عليه دفع تكاليف تعليم أطفاله الثلاثة، ونفقات سفرهم. ويضاف كل ذلك إلى مجموعة من النفقات التي تقتضيها الحياة البورجوازية في جنيف. ففي غضون ثلاثة أشهر من الأول من شهر يوليو/ تموز حتى الثلاثين من شهر سبتمبر/ أيلول من العام (1938م)، سحب من مصرفه 935, 8 فرنكاً سويسرياً⁽⁶⁸⁾.

أضاف إلى نفقاته الشخصية نفقات أخرى تمثلت في تبرعاته المتواضعة إلى الطلاب العرب المحتاجين وجمعياتهم. وقد سبقت الإشارة إلى إسهاماته التي خص بها أحمد بلفريج. وكان يقدم مبالغ تتراوح من 50 - 150 فرنكاً سويسرياً إلى عبد القادر هاني، وهو شخص آخر من الذين كان يدعوهم "أبنائي الأعزاء" الذين واطبوا على إحياء مجتمع مصر في سويسرا. وكان يعتذر دوماً من هاني لعدم تمكنه من إرسال مزيد من المال له، وقد كان في تلك المرحلة يعاني "متاعب مالية"⁽⁶⁹⁾، وهي الأشد إرهاقاً له

من الناحية المالية، علماً بأنه كان يعاني معظم أوقات وجوده في الخارج. وقد حدث له تلك المتاعب لأنه في ظل رغبته في أن يبقى متحرراً من المعوقات الناجمة عن التزاماته الشخصية للحكومات الأوروبية، رفض قبول تلقي أموال من تلك الحكومات لتلبية احتياجاته الشخصية.



الرحلة الأخيرة: ميناء الإسكندرية، 1946

وقد أذهل مزج أرسلان-الاستقامة المالية مع الضائقة المالية حتى أصدقاءه الألمان. وإحدى الوثائق الأجدد بالملاحظة المدرجة في ملف أرسلان المحفوظ لدى وزارة الخارجية الألمانية، تتضمن رسالة أرسلها فون أوبنهايم إلى فون هنتيغ يشرح له فيها لماذا ذكر أرسلان في رسالته الأخيرة أن مصر في الأمير في برلين أُعْلِمَ بوجوب دفع 1,500 مارك لهنتيغ، وكتب فون أوبنهايم عن ذلك الآتي: ”لا شك في أن الرسالة تتعلق بفكرة شكيب القديمة التي تفيد بأنه تلقى مالاً من وزارة الخارجية، ويرغب في تسديده تدريجياً⁽⁷⁰⁾“. وعلى الرغم من أن هذه هي مجرد حادثة واحدة فإنها تتطابق مع نمط السلوك الذي اتبعه أرسلان في أواخر عقد الثلاثينيات. وهي تبين أنه، على نحو خاص، تحت وطأة الحاجة الماسة، لا بد أن يكون قد وافق على الحصول على أموال لاستعماله الشخصي من وزارة الخارجية الألمانية. وتبين كذلك أنه تلبية لرغبته العارمة في ألا يكون مديناً لأي دولة أوروبية، أعاد المال إلى الوزارة. وكان يقبل تلقي مساعدة

مالية أوروبية من أجل تغطية احتياجات نشاطات عامة تتعلق بتعزيز قضايا الاستقلال العربي، ويحتمل أن يكون قد عمل على تمرير أموال لمقاتلين عرب، إلا أنه لم يتلقَ هدايا مالية لاستعماله الشخصي.

ولم يكن إرسال نموذجاً يمكن أن يعتد به على صعيد حفظ السجلات، لذلك افترض أنه كان يميز دوماً بين موارده العامة وموارده الخاصة هو افتراض غير واقعي. ولكن لم يكن ثمة وجود لما يشعر ببجوحة أو رغد العيش على الصعيد الشخصي، ولا وجود لما يشعر بمعاناة محنة اقتصادية مزرية. وعلى النقيض من ذلك تماماً، عندما وصل المفتي ورشيد عالي الكيلاني إلى أوروبا في العام (1941م)، تلقيا من برلين إعانة مشتركة لهما كليهما بلغت (200,000) مئتي ألف مارك شهرياً، وحصولاً على سكن مجاني، ومدفوعات خاصة بلغت (250,000) مئتي وخمسين ألف مارك ألماني. وسلكت وزارة الخارجية الإيطالية معها المسلك ذاته، حيث جهزت فيلاتين رائعتين لهما، وأمرت بدفع إعانة مالية لكل منهما مقدارها مليونان ونصف المليون لير إيطالي، وذلك في العام (1942م)⁽⁷¹⁾. ولو أن إرسال طلب أموالاً، كان تلقى بالتأكيد من قبل كل من روما وبرلين ما يكفي من الأموال لتخفيف حدة أعباء ظروفه الصعبة. ولكنه لم يطلب، وإلى أن يظهر دليل آخر منافٍ لهذا الذي أذكره، يجب علينا أن نستنتج أنه لم يتلقَ أي معونات مالية شخصية كبيرة من إيطاليا أو من ألمانيا. كان تقربه من إيطاليا تكتيكياً صرفاً، وكانت علاقاته مع ألمانيا لائقة ومتفقة مع السلوك القويم.

ظل دخله الخاص لبعض الوقت كافياً لتمكينه من المحافظة على المظاهر الملائمة للعيش في جنيف. وكما كتب ذات مرة: "لم نكن في يوم من الأيام أغنياء جداً، ولكننا لم نكن فقراء، وكان في وسعنا أن نعيش حياة مريحة إلى حد ما بمواردنا المالية الذاتية التي ورثناها من آبائنا"⁽⁷²⁾. ولكن عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية، لم يعد هذا الوضع قائماً. وحاله حال كثيرين غيره كانوا يعيشون ظروفًا مماثلة، حافظ إرسال على مظاهر تجعل الأوضاع تبدو مرضية خلافاً لواقع الحال عبر جعل مديونيته تتراكم أكثر فأكثر⁽⁷³⁾. وفي العام (1946م)، أفلس إرسال تقريباً.

وإن كانت مشكلات إرسال المالية تسببت في جعله يعاني شيئاً من الصعوبات المالية والمواقف المحرجة في سنواته الأخيرة، فمن الملاحظ أنها لم تحد من قدرته على انتزاع مزيد من الشهرة والفوز بمزيد من الشعبية. وفي الواقع، هيأت أوضاعه المالية الظروف المواتية لنشوب المواجهة الأخيرة والنهائية بينه وبين سلطات الانتداب الفرنسي.

ولما لم يعد يقوى على تحمل أعباء نفقات الحياة في جنيف، وربما لشعوره بأن فاعليته في أوروبا لم تعد تجدي نفعاً، حاول إرسال للمرة الأخيرة أن يعود إلى سوريا. ففي العام (1938م)، شغل منصب رئيس المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية لاحقاً) في دمشق. فرغب إرسال في شغل كرسي رئاسته رغبةً شديدة، وأطلق حملة علنية ترمي إلى تمكينه من شغل هذا المنصب. فمن شأنه أن يدر عليه دخلاً، ومن شأنه أيضاً بوصفه منصباً أكاديمياً له مكانته وأهميته أن يوفر للفرنسيين سبباً للتخفيف من شدة الحظر على إقامته في البلد الخاضع لسلطة الانتداب. وتفهم مناصروه داخل الحكومة السورية موقفه، وكانوا قادرين على اتخاذ الترتيبات اللازمة لاختياره⁽⁷⁴⁾. وبمجرد الإعلان عن تعيينه، أبلغ إرسال قراء مجلة الأمة العربية أنه عازم على العودة إلى دمشق تلبية لدعوة وجهت إليه من الحكومة السورية، وأنه ستوقف طباعة المجلة ونشرها مؤقتاً، ثم سيُصار إلى استئناف إصدارها من العاصمة السورية.

وهكذا في شهر فبراير / شباط من العام (1939م)، امتطى متن سفينة فيما بدا أنه خاتمة مشرفة لمسيرته العملية التي لم تعرف الهدوء. ولكن تبين أن ما صار إليه ليس سوى وعد زائف يمني النفس بأمل لا يحققه. إنها مجرد خيبة أمل مريعة أخرى. فعندما رست السفينة التي استقلها في ميناء الإسكندرية، أبلغ أنه لا يستطيع مواصلة السفر إلى سوريا؛ وذلك لأنه في الأسابيع الأولى من العام (1939م)، لم تكتف الحكومة الفرنسية بإتمام إجراءات سلخ لواء الاسكندرون وضمه إلى تركيا، بل رفضت أيضاً التصديق على معاهدة العام (1936م). وقوبلت هذه القرارات في سوريا باندلاع أعمال شغب، والخروج بمظاهرات، وبشلل حكومي. وكان آخر شخص يربغ الفرنسيون في دخوله إلى سوريا في تلك المرحلة شكيب أرسلان.

لكن بحرمانه من دخول سوريا، أوجدت سلطات الانتداب الموقف نفسه الذي رغبت في تفادي حدوثه-تصدر أرسلاَن من جديد عناوين الصحف في الصحافة المصرية وفي صحافة دمشق. وعُدَّت إهانة للإهانة للعرب جميعاً. واستعملت سخرية الفرنسيين من استقلالية الحكومة السورية للتدليل على خواء المعاهدات الأوروبية⁽⁷⁵⁾. وأياً كانت الشائعات التي سبق لها أن راجت حول ارتباطات أرسلاَن مع الإيطاليين، فإن قدرته على التصرف بوصفه مركز استقطاب للرأي العام المناهض للإمبريالية ما زالت قائمة. وكذا كانت جاذبيته الشخصية، وبذا غدا شخصية الموسم في مصر. وسمح له في نهاية المطاف بالعيش بحرية في البلد الذي احتضنت مجلَّته مقالاته، وواظبت مطابعه على طباعة كتبه ونشرها على مدى عقدين من الزمن. وأقيمت احتفالات استقبال متنوعة تكريماً له واحتفاءً به، وأولت الولائم على شرفه. ثابر محمد علي الطاهر على جعله حديث الساعة، وعلى تصدره وسائل الإعلام على مدى الأسابيع الأولى من وجوده في القاهرة. وحتى الهيئة الملكية الحاكمة خففت حدة العداء، التي أسهمت بقدر ما فعل الضغط البريطاني، في إبعاد أرسلاَن عن مصر إبان السنوات الفاصلة بين الحريين العالميتين. كما استضاف الملك فاروق، الذي كان يعمل على ضمان عدم صد أي دخول محتمل لمعسكر المحور، الأمير في قصر عابدين وأكرم وفادته⁽⁷⁶⁾. وكانت آخر مرة استقبل فيها أرسلاَن بمثل هذه الحفاوة وهذا التكريم في العام (1912م) من قبل عباس حلمي، حيث ناقش معه حينذاك العلاقات المصرية العثمانية. وكان ذلك كله عشية اندلاع حرب أخرى في عالم مختلف جداً.

وبعد انتظار أربعة أشهر تقريباً أملاً في تحسن الأوضاع في سوريا، أدرك أرسلاَن أن استقراره في وطنه مازال بعيد المنال، ففعل عائداً إلى جنيف في منتصف شهر يوليو/ تموز من العام (1939م). وبعد ستة أسابيع، غزت ألمانيا بولندا. علق أرسلاَن في شرك أوروبا التي اندلعت فيها الحرب. وحتى تلك اللحظة ظل يحتفظ بشيء من المرونة في تعاملاته مع كل من الحلفاء والمحور. ولكن صار اتخاذ موقف محدد أمراً محتوماً. وكما كانت الحال في الحرب العالمية الأولى، كان أرسلاَن منجذباً بفعل ميوله وظروفه إلى

الوقوف إلى جانب ألمانيا. وسمعتة التي تلطخت بسبب ارتباطاته السابقة تم التغلب على تبعاتها من خلال تقديمه خدمات متواصلة. أما هذه المرة فليست لديه فرصة من أجل إعادة التأهيل - الوقت نفذ أخيراً بالنسبة إليه.

لم يحاول إرسال أن يقدم أعذاراً. فلم تكذ الحرب تدخل أسبوعها الثالث حتى ظهر في برلين. ولا شك في أن هدف رحلته الرئيس كان تعزيز وضعه المالي في مواجهة قيود الحرب المختلفة، التي كانت قد بدأت تحد من الدخل الذي يستلمه أكثر من أي وقت مضى (استغل الزيارة لإعادة رهن شقته المؤجرة في برلين)، ويضاف إلى ذلك أن وجوده في العاصمة النازية في مرحلة بالغة الحساسية أظهر دعمه المطلق الذي لا لبس فيه للسياسات الألمانية. لقد أدان المشرق العربي ظهوره في برلين، على الرغم من ترويع السلطات الألمانية له. فقد أعلن راديو برلين عن زيارته، ووفقاً لبعض المصادر، أسبغ عليه لقب مواطن شرف في الرايخ الألماني. وهذا اللقب هو من أوسمة الشرف القليلة التي أنكر إرسال تلقيها إنكاراً مطلقاً⁽⁷⁷⁾. ولكن خلفت هذه الزيارة التي أتت في غير أوانها انطباعاً بأن إرسال تصرف على نحو يوحي بأنه يمثل كل العرب (ولم يفعل أي شيء لتبديد هذا الانطباع)، والذين لم يشاركوه رؤاه، أو لم يقروا بقيادته، نددوا به بشدة. ومع اكتسابه شرفاً لم يسع بالتأكيد إلى نيّله، جُرّد إرسال من تكريم ربما كان يعنيه أكثر من أي شيء آخر - رئاسة مجمع اللغة العربية في دمشق.

وعندما عاد إلى جنيف في شهر أكتوبر / تشرين أول من العام (1939م)، اكتشف أنه كان لرحلته إلى برلين تداعيات في سويسرا أيضاً. فقد أبلغه المدعي العام السويسري أن عليه أن يغادر البلاد بحلول شهر أبريل / نيسان من العام (1940م). وأخر إرسال تنفيذ الإجراء عبر تقديمه التماساً لإلغائه. وفي نهاية المطاف أصدرت المحكمة المختصة حكماً لمصلحة إرسال. ولكن قيل لأرسال إن هو غادر سويسرا مرة أخرى، فلن يسمح له بالعودة إليها⁽⁷⁸⁾. وهذا القرار، الذي لم يكن في وسعه فعل شيء سوى الانصياع إليه، همّش إرسال. رجل مريض طاعن في السن محجوز في بلد محايد زمن الحرب.

ولم يكن إرسال قط ذلك الرجل الذي يمكن أن يتنازل عن موقع الصدارة عن طيب خاطر، فشرع يتصرف كما لو أن نصحه ومشورته كانا يؤطران ناتج الصراع. وعكف على تزويد البارون فون أوبنهايم بسيل متدفق من الرسائل التي تبين الطريقة التي يتعين على ألمانيا اتباعها في شن حملة على الجبهة الشرقية، وأخبر كذلك الحكومة الإيطالية كيف تدير شؤونها السياسية في منطقة البلقان. وقدم إلى الحاج أمين الحسيني مشورة ذات طابع تكتيكي، وبعث نشرات شخصية إلى ابن سعود وإلى الإمام يحيى ضمنها استعراضاً ومراجعة للوضع العالمي ولمسار الحرب. وحاول كذلك استرجاع صدى صوته لدى الجماهير الشعبية عبر إحياء مجلة الأمة العربية واستئناف إصدارها. وعندما رفض السويسريون السماح له بنشرها من بلادهم، تحول إلى معارفه الألمان طلباً للمساعدة. وبعد إجراء مفاوضات مطولة، اتخذت ترتيبات لطباعة المجلة في مطبعة المكتبة في باريس المحتلة⁽⁷⁹⁾. ولم يعلن إرسال عن الحدث بتعابير تنطوي على تهينة ذاتية على هذه المبادرة التي تثير البهجة في النفس. ولجأ بدلاً من ذلك إلى المواظبة على الإثقال على برلين بشأن تفاصيل النشر؛ الأمر الذي حدا بمرشده في مشروعه هذا، فون هنتيغ، إلى التساؤل عن أهمية المجلة قياساً بالضجة التي أثارها⁽⁸⁰⁾. وعلى الرغم من أن إرسال حرر ما لا يقل عن عشرين من مجلته، لا يوجد مؤشر على أن المجلة ظهرت فعلاً أثناء الحرب.

اشتكى إرسال من أنه لولا وجود مجلة الأمة العربية لكان "لاذ بالصمت"⁽⁸¹⁾. وما أبعد هذا الذي قاله عن الحقيقة. وتعهد أيضاً تعهداً يتساق مع سمات شخصيته: "لن أكف عن إبداء المشورة. ونظراً لخبرتي السياسية ومعرفتي الكاملة لكل ما هو عربي، أنا واثق بأنني على الطريق المستقيم في كل المسائل التي تهم أمتي والشرق الأوسط برمته"⁽⁸²⁾. وإلى أن أبطأ المرض في نهاية المطاف حتى وتيرة قلمه في العام (1942م)، كان يجد منافذ عامة لأرائه في الصحف المؤيدة للمحور، ومنها المغرب الإسبانية التي كانت تصدر عن مؤسسة بريد الشرق التي اتخذت من برلين مقراً لها، ومجلة العالم العربي المؤيدة للألمان والتي كانت تصدر من بوينس آيرس⁽⁸³⁾. وقضيتا الحرب الرئيستان

اللتان انكب على متابعتها كانتا استمراراً لمواضيع تخص قضايا لطالما سعى إلى تحقيقها على مدى سنين عديدة: حاجة العرب إلى الاعتراف بأن ألمانيا، بقتالها الدول والقوى التي استعبدت المسلمين تستحق مساندتهم ودعمهم، وحاجة ألمانيا بالمقابل إلى إصدار إعلان لا لبس فيه لصالح الاستقلال العربي. وعلى مستوى السياسة العربية الداخلية البينية، شارك أرسلان، على الرغم من أن مشاركته كانت هامشية، في المنافسة المريبة بين الحاج أمين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني بشأن الاعتراف بالمحور بوصفه زعيماً أو وحدهم للقضية العربية.

وبالنسبة لأرسلان، كان صدور إعلان ألماني إيطالي مشترك يعترف بالاستقلال الرسمي للدول العربية أمراً ملحاً في غاية الأهمية. إذ كان من شأن إعلان من هذا القبيل أن يعزز ثقة العرب بالنزاهة الألمانية، وهو كفيلاً بوضع حد للطموحات الإيطالية، ويعول عليه في تعزيز مصداقية أرسلان. وعشية اليوم الذي شعر فيه هو ومراقبون آخرون عديدون أنه يوم سقوط طبرق، أوضح لفون أوبنهايم أنه "من الضرورة بمكان" بالنسبة لألمانيا أن تدلي بإعلان رسمي للمصريين وللمسلمي العالم، يشير إلى أن القوات المسلحة الألمانية عازمة على دخول مصر فقط، من أجل تحقيق هدف يتمثل في تحريرها من البريطانيين وتوحيدها مع السودان⁽⁸⁴⁾. وكانت معظم الرسائل التي خطتها للبارون إبان نشوب الحرب تتضمن النصح المشوب بالعتب ذاته، سواء أكانت المنطقة المشار إليها سوريا أم العراق أم البوسنة.

وعلى الرغم من كونه غداً مهماً، حاول أرسلان جاهداً ألا يسمي شخصاً منسياً. فبالإضافة إلى حفاظه على حجم مراسلاته الهائل، واظب على أداء دوره المتمثل بالتواصل داخل سويسرا بهدف التشاور مع كل من بلفريج وفؤاد حمزة في جنيف، ومع مسؤول القنصلية الألمانية في بازل، ومع بروفر في برن⁽⁸⁵⁾. وأطلقت مبادرات من جهات أخرى أيضاً أسهمت في إبقاء اسمه حياً ولا ممعاً. فخلال أحد النزاعات المطولة التي نشبت بينهما من جهة، وبين مضيفيهما (المحور) من جهة أخرى، طلب كل من الحاج أمين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني أن يحضر أرسلان إلى روما لكي يعمل بوصفه وسيطاً

بينهما وبين موسوليني⁽⁸⁶⁾. مستشعراً أن إرساله يمكن أن يكون مفيداً في مرحلة ما في برلين، حاول بروفير أن يقنعه بالمجيء إلى عاصمة الرايخ الألماني أوائل العام (1943م)⁽⁸⁷⁾. ولكن القيود السويسرية اضطرت له للبقاء في ذلك البلد. ولم تكن مبادراته الخاصة عاملاً مهماً قط أثناء الحرب. وما نشره بعد العام (1941م) كان قليلاً جداً. وحتى أقرب معارفه الألمان إليه، فون أوبنهايم، كان مواطناً خاصاً—فقد كان آنذاك قد بلغ من الكبر عتياً وتجاوز الثمانين. ومن الواضح أن إرساله بصفته الشخصية لم يحتل مكاناً بارزاً في خطط دعاية الرايخ الألماني.

ولكن كان يمكن أن تستغل شهرته بطرق خارجة عن إرادته. فقد كانت تقرأ مختارات من مقالاته بين الفينة والفينة ضمن البرامج الإذاعية لراديو دول المحور الناطق بالعربية. وأذاع يونس بحري، المذيع العراقي الشهير الذي كان يعمل في راديو برلين، عبر برنامج موجه إلى شمال أفريقيا في العام (1941م) الإعلان الآتي: ”أيها الجزائريون! لقد باتت حريتكم في متناول اليد. لقد أعطى المستشار هتلر كلمته بهذا الشأن إلى شكيب أرسلان⁽⁸⁸⁾“. ولا يمكن الاستشهاد بمثال أكثر تحديداً عن تأثير أرسلان المتضائل من هذه المحاولة الملتوية لاستعماله. وعندما وضعت الحرب أوزارها كان أرسلان نتاجاً لما قيل عنه بقدر ما كان نتاجاً لما قاله وفعله هو نفسه. وكان إلى ذلك مفقراً ومريضاً وخارج دائرة الاهتمام.

ولأسباب ليست واضحة على الإطلاق، أخضعت الشرطة السويسرية إلى مراقبة شديدة أوائل العام (1946م). ووصفته تقارير الشرطة بأنه رجل معمر يعيش بعيداً عن زوجته وابنه في شقة فندقية، يمضي الأيام في مقاه، يطالع فيها صحفه، ويقابل عدداً قليلاً من الزوار خلافاً لابنه، وكان يختلف كثيراً إلى مصرفه ويقضي وقتاً هائلاً في سبيل ذلك⁽⁸⁹⁾. يبدو أن هذا النشاط الأخير كان أكثر الأنشطة إلحاحاً عليه، فقد كان مطارداً من قبل الدائنين، وانتقص من قدره إلى الحد الذي جعله يكتب رسائل تعود عليه بالحزني والمذلة، ويرسلها لأصدقائه ومعارفه طالباً مساعدتهم. وعلى مدى أشهر عديدة، عاش على هذا المنوال معانياً تجاهلاً من قبل أولئك الذين كانوا يفتخرون

به ذات يوم بوصفه بطلاً أو صديقاً. وقد حمل محمد علي الطاهر، بصراحته النموذجية، بشدة على حلفاء أرسلان السابقين الذين أخفقوا في الإفادة من مناصبهم الجديدة، في السلطات المخولة لهم، في مساعدة الرجل الذي كُرِّست حياته من أجل تهيئة الظروف التي صاروا يستفيدون منها⁽⁹⁰⁾. كما (فعل محمد علي الطاهر) كل ما استطاع فعله وذلك بإخطار المساهمين المحتملين بمحنة أرسلان، وعبر إرساله له التبرعات المتراكمة التي جمعها شخصياً من الناشرين في القاهرة.

ربما كان ما حصل في نهاية المطاف ملائماً، حيث أنقذ أرسلان من دائنيه من قبل ذاك القطاع من المجتمع العربي الإسلامي الذي كان صوته مسموعاً بوضوح فيه. لقد لاقى من أصدقائه في محنته تمنعاً وصدأً وتجاهلاً، بينما وجد البر والإحسان في شخص الأمير عبد الله، ابن الإمام يحيى إمام اليمن، الذي أرسل له أموالاً لتسديد ما عليه من الديون الأكثر إلحاحاً⁽⁹¹⁾. وأدى ذلك إلى تحرير أرسلان من برائن أسره المالي في أوروبا، وجعله في سباق مع الزمن إن هو رغب في العودة إلى الوطن.

وفي خريف العام (1946م)، انطلق الأمير مستهلاً رحلته النهائية إلى الشرق. وعلى الرغم من ضعفه، كانت صحته جيدة بما يكفي للاستمتاع بالقليل المتاح، رحلة حنين إلى الماضي، إلى الوطن. وكما لو كان قد رتب أمور الرحلة سابقاً، فقد رست السفينة من جديد في ميناء الإسكندرية، حيث كان قد استهل عمله بوصفه صحفياً إسلامياً قبل ما يزيد على خمسين عاماً، وحيث تبددت آماله كثيراً في السنوات الفاصلة بين الحريين العالميتين. أمضى في الإسكندرية ليلة ختامية مع محمد علي الطاهر ومع الحاج أمين الحسيني قبل استئنافه الإبحار ميمماً شطر بيروت، حيث وصل إليها بهدوء أواخر شهر أكتوبر/ تشرين أول من العام (1946م). وأجل ما في الأمر أنه حين وطأت قدماه أرض بلده، كان وطنه مستقلاً، وهو الهدف الذي كرس من أجله معظم سني عمره. وإن لم يعد قادراً على إطلاق الخطوة اللاحقة المتمثلة في إرساء قواعد المعايير الإسلامية، فقد يكون المحرض السياسي في داخله تمكن على الأقل من أن يستمد شيئاً من الارتياح، من حقيقة أن سمعته بوصفه ناشطاً يثير شيئاً من التهديد جعلته يصمد ويواصل العمل.

وفي الحادي عشر من شهر ديسمبر/ كانون أول من عام (1946م)، قدرت الشرطة السويسرية أنه بات آمناً إيقاف التنصت على هاتفه في جنيف، ولما يكن قد نَمى إلى علمهم بعد أنه مات قبل يومين في بيروت.

الفصل الثامن

الخاتمة

توجد أعداد متنامية من المسلمين الذين باتوا على دراية تامة بأحوال الحياة الحديثة، وحققوا مزيداً من التماس والتواصل مع أهداف الحياة المعاصرة ومثلها، وما زالوا مع ذلك متشبثين بدينهم الذي تشرّبوا قيمه في طفولتهم، وبارتباطاتهم بالأجواء الإسلامية التي ترعرعوا في رحابها والتي يعتزون بها. ويتعلق هؤلاء الرجال، مع ذلك، بقيم ومثل ذات نظم سياسية واجتماعية معينة يمكنهم من خلالها تحقيق ذاتهم عبر نظام حضاري إسلامي الطابع والملائم والقسمات. وهم يستأوون من هيمنة الحكم الأوروبي، وتعتن الفكر الأوروبي.

توماس آرنولد⁽¹⁾

ثقوا بأنفسكم وكونوا مسلمين جيدين، وابقوا متحدين في نضالكم لاستعادة حقوقكم.

أرسلان⁽²⁾

استهل أرسلان سيرته الذاتية بادعائه أنه لا يستحق أن تكون له سيرة ذاتية. وقوله هذا لا يمثل رأيه في نفسه ويفتقر إلى الدقة بالقدر ذاته. فالافتراض بأنه كان دوماً إيجابياً مسألة فيها نظر وعليها اختلاف، وأما الاختلاف على أنه كان، أم لم يكن، سيئ السمعة، فهذا ما لا ينبغي أن يكون.

وكانت مسيرة أدائه التي غطت ردحاً طويلاً من الزمن مفعمة بالتهليل ومتخمة بالاستنكار، وشملت معظم الأزمات الشرق أوسطية الرئيسة التي عاصرها. لم تتأت أهمية أرسالان بالنسبة لهذه الأزمات من كونه عايشها فحسب، بل من كونه سعى جاهداً من أجل تحديد نتائجها. لقد كان شخصية عربية كبيرة وبارزة على مدى العقدين العثمانيين الأخيرين. وفي أعقاب هزيمة العثمانيين، شق لنفسه طريقاً خاصة به ولعب دوراً خاصاً به أيضاً. وفي حقبة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، تضافرت مناووراته التي برع فيها على صعيد معالجة القضايا الجماهيرية مع مناووراته السياسية المثيرة للجدل، مع قدرته على الظهور بمظهر بطل العالم العربي والإسلامي بأسره، مع موهبته في العمل الدعائي واستقطاب الجماهير، تضافرت هذه العوامل مجتمعة وأسهمت في إكسابه سمعة فريدة في نوعها.

لم يختار أرسالان الإسلام السياسي من بين خيارات متعددة؛ ذلك لأن الإسلام كان العقيدة الوحيدة التي عرفها. وأرسالان الذي كان نتاج منطقة طائفية إلى حد بعيد ضمن دولة قائمة على أسس الانتماء الديني، التزم بالعقيدة المهيمنة وهو في مطلع الشباب. ولم يخطر له في بال أن يغير مساره العقدي قط. كما أن استشرافه للأمور تأطر من خلال الإرشاد الذي تلقاه من محمد عبده ومن خلال لقاءاته المقتضبة مع جمال الدين الأفغاني. ونظراً لافتقاره إلى طباع محمد عبده وعلمه وأمنه، عالج قضايا عصره الإسلامية على طريقة الأفغاني. فقد غدا ذاك القومي الإسلامي الذي رأى في استنهاض المجتمع الإسلامي سلاحاً كفيلاً بتحقيق الاستقلال السياسي. وظل مجاهراً بمناهضته للنهج العلماني، وبقيت التجمعات المفضلة عنده هي التي تضم تحالفات الشباب المسلم، وأما حليفه الأيديولوجيان فقد كانا رشيد رضا ودائرة الفتح.

ولم يكن أرسالان مبشراً، ولا شخصاً ظهر في غير زمانه الصحيح. وتزامنت الحقبة التي ذاع صيته فيها مع انبثاق التجربة الليبرالية في مصر، ومع انتشار كتابات ساطع الحصري عن القومية العربية العلمانية، ومع ظهور برنامج أتاتورك الداعي إلى التغريب (الفرنجة). وتزامنت شهرته أيضاً مع الفترة التي طرد فيها العالم المصري

علي عبد الرازق من وظيفته التعليمية بسبب كتابته التي جاء فيها أن الخلافة ليست مؤسسة سياسية إسلامية أساسية، ومع الحقبة التي تأسس فيها اتحاد الشباب المسلمين، وحركة الإخوان المسلمين، والجمعية الشرقية، وجمعيات أخرى ذات توجهات إسلامية استقطبت ولاءات الشباب وولاءات المتحررين من الأوهام، وفي وقت طبع فيه كتاب: لماذا تأخر المسلمون... ثلاث مرات في غضون تسع سنوات بين العامين (1930م- 1939 م)، وعندما أضفت الحملة المناهضة للظهير البربري الشرعية على قوة الإسلام بوصفها قوة استقطاب. تاق أرسلان إلى إحلال النظام في الأوقات العصيبة. ورفضاً جديد التوجهات وغريبها، دعا إلى التمسك بالوصايا الأخلاقية والتضامن بين مختلف مكونات الشعب، وإلى التحلي بالروح الدينية التي حققت الرخاء والأمن في الماضي. وبفعله هذا لامس أرسلان وتراً حساساً.

كما تعززت شعبية رسالة أرسلان بالدعاية التي منحت له بوصفه فرداً. وميله نحو الترويج الذاتي أزعج معارضي سياسته، لكن جعله على الحال التي صار إليها. ولم يكن في وسع أي مُنظّر للتواري عن الأنظار تواضعاً أن يحقق ما حققه أرسلان. فقد كان يضيف ملوكاً عرباً من معاصريه ويستضيفونه، ويفاوض مندوبين سامين، ويؤثر في سياسات الإدارات الاستعمارية. وكان يعد رمزاً ومصدر إلهام للمسلمين، إخوانه في الدين.

استطاب أرسلان الدور الذي رسمه لنفسه، وأداه بالطريقة الوحيدة التي عرفها. والتمس الدعاية لنفسه والشهرة، من جهة إرضاء لخيالاته، ومن جهة أخرى ضماناً لعدم تجاهل العالم للظلم الذي مورس على العرب. وعلى الرغم من افتقاره إلى الأدوات السياسية التي تتوفر للدول-أو حتى إلى مساندة متينة من جهاز دولة سياسي- فقد كان تأثيره كبيراً وملحوظاً. وكان مثيراً في القرارات التي يطلب من عصبة الأمم اتخاذها. وعلى الرغم من أنه لم يَحْظَ قطُ باعتراف رسمي من تلك الهيئة، فلربما كان إسهامه فيها أكثر نفعاً، على وجه العموم، مما كان يعترف به. واحتكم إلى سليلته السياسية وأعلى شأنها. واستعداده للتواصل مع المختلفين معه أيديولوجياً زاد قوته وعزز نفوذه،

وعرضه في الوقت نفسه إلى انتقادات حادة. فقد توافق مع ليبراليين، وتحالف مع الفاشيين، وتعاون مع أصوليين. وبات قاب قوسين من تشكيل مجموعة ضغط من مزيج من إصلاحيين إسلاميين واشتراكيين فرنسيين. ولكونه مرناً ومتعنتاً في آن معاً، كان مستعداً لتقديم تنازلات لفرنسا، لكن ليس لأتاتورك. وكان هدفه من تعامله مع الأوروبيين تحقيق الاستقلال، وإطلاق عملية إعادة بناء حقيقية للمجتمع الإسلامي، وهذا ما كان يطرحه في مواجهة المسلمين، إخوانه في الدين. ونشاطه السياسي، وإثارته الدائمة للرأي العام وأسفاره التي لم تعرف الهدوء، كل ذلك أضفى بعداً عاماً على مسيرته. وهو ما افتقرت إليه مسيرة آخرين ربما كانوا أرفع منه ثقافة، وأشد منه حذراً في معترك السياسة. وفي النهاية، عادت عليه هذه العوامل بالخطري، وجعلت منه لبعض الوقت مجاهداً.

وبالنسبة للسمعة السيئة التي لحقت به، لم يكن إرث أرسلان فيما يتعلق بها واضحاً وقاطعاً. فقد تلطخت سمعته بسبب ارتباطاته الأخيرة مع دول المحور. وتم تجاوز الإمكانات التي توفرت عليها رسالته بواسطة تحقيق الاستقلال، وبحقيقة أن شرق، ما بعد الحرب، الأوساط العربي بدأ متارجحاً على حافة القومية العلمانية. وفي عهد عبد الناصر وحزب البعث، بدت الجامعة الإسلامية عديمة الصلة بالواقع الاجتماعي في وقت استصلاح الأراضي والإصلاح الزراعي والتوسع في التعليم، واشتراكية الدولة التجريبية. وفي تلك الحقبة، الذين كان هدفهم المحافظة على نظام أرسطراطي مرتب نبذوا اجتماعياً بوصفهم متبلدي الشعور.

والانتقادات الرئيسة التي وجهت إلى منظري ما بين الحربين من ذوي الأرضية العثمانية، سواء أكانوا قوميين عرباً مثل ساطع الحصري أم وطنيين إسلاميين مثل شكيب أرسلان، تستند إلى أنهم لا يتوفرون على تصورات لصيغ للتغيير الاجتماعي، ولا على فهم لاحتياجات الجماهير. وفي الوقت الذي لا يمكن أن يتوقع منهم أن يكونوا غير الذي كانوا، فإن التهمة التي وجهت إليهم دقيقة وتشير إلى سبب آخر تعزى إليه محدودية تأثير أرسلان في السنوات التي أعقبت موته مباشرة، فقد كان إنساناً يطغى عليه

الحنين إلى استعادة أجداد (الأمة الإسلامية) الشاملة، أكثر من كونه مصلحاً اجتماعياً، وكان مهتماً بالسلامة الثقافية أكثر من اهتمامه بأسباب الفقر في المناطق الريفية. وطالما أن طاقات النخبة كانت متركزة على مهمة تحقيق الاستقلال، فإنه لم يكن لدى أرسلان فكرة توحى إليه بأنه يتعين عليه أن يُعنى بمحنة الجماهير. لقد كان مخططاً استراتيجياً على صعيد الاحتجاجات المناهضة للإمبريالية، لا دليلاً للحكم. وبمجرد أن آلت أمور الحكم في المنطقة إلى ضباط الجيش من ذوي العقلية الإصلاحية، فقد الرجال، الذين هم على شاكلة أرسلان من حيث الأرضية والموقف، جاذبيتهم وسحرهم للجماهير، وصارت تلقى اللاتمة عليهم على وجه العموم، وكان كل من أرسلان والجابري مثلاً على ذلك، وذلك تحديداً بسبب "أنشطتهما المساندة للعثمانيين، وخصالهما التركية، ونهجهما السياسي الذي يحاكيان فيه أسلوب السلطان عبد الحميد⁽³⁾". مات أرسلان قبل ست سنوات فقط من تنفيذ انقلاب الضباط الأحرار في مصر، وهو الذي أبصر النور قبل ستة عقود من مولد جمال عبد الناصر (1918م). وجاءت السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية بأجيال جديدة، كما أنت محملة بأيديولوجيات جديدة. ولم يكن إرث أرسلان قادراً على التأثير في القادم من الأيام والمستجد من الأحداث. لقد خلف أرسلان قلة قليلة جداً من المريدين، غير أنه عَمَرَ في ذاكرة كثيرين.

إنها ذكريات رجل موطن العزم ماضي العزيمة، صاحب شخصية نابضة بالحياة. كان ذا حضور فريد في نوعه في قضايا العرب والمسلمين، ورفيع المقام في زمن كان نظراؤه فيه قليلاً عديدهم. وأعرب مصالي الحاج عما يختلج في وجدانه حيال أرسلان عندما صرح قائلاً: "أنا الرجل البسيط، أفتخر بكوني صديقاً وبناً روحياً لإنسان يتمتع بكل هذه الخصال الكريمة والفضائل. وأشعر أن الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أقر بفضلها من خلالها -والطريقة الوحيدة للإقرار بفضلها التي يراها هو مقبولة- إنما تتمثل في اقتفاء أثره، وتتبع خطاه، وتبني مبادئه..."⁽⁴⁾. وفي معرض استجابته لهذه الإشادة، قال أرسلان: "لطالما ناضلت في سبيل القضية العربية، ومن أجل تحرير وطني. وللنضال مسارحه -لا ينبغي لأحد أن ينتحب على هذا الواقع أو أن يحاول تغييره. أنت شاب

والمستقبل ملك يديك، اعمل من أجل نيل حريتك وصون كرامتك وتحقيق مصالحك، ولكن افعل ذلك كله بهدوء واعتدال⁽⁵⁾“. لقد عمل أرسلان بمقتضى الشرط الأول من مشورته، بيد أنه أخفق في الامتثال إلى الشرط الثاني المتمثل في الاعتدال؛ ذلك لأنه خصيصة لا تلائم إنساناً عرف بوصفه مجاهداً.

شكيب أرسلان: التسلسل الزمني

1869	ولد في الشويفات، لبنان
1879 - 1888	تلقى تعليمه في بيروت
1886	نشر باكورة أعماله، أصبح مريداً لمحمد عبده
1888	عين مديراً لمنطقة الشويفات
1890 - 1892	زار مصر، أقام في اسطنبول
1892	أمضى عدة أسابيع في أوروبا، قابل الأفغاني في اسطنبول
1892 - 1916	الإقامة الرئيسة في لبنان
1902	عين قائم مقام لمنطقة الشوف، وبقي على رأس عمله أشهراً قليلة
1908 - 1911	عين قائم مقام لمنطقة الشوف
1912	أبريل - يونيو، على الجبهة الليبية
1914	انتخب نائباً عن حوران في البرلمان العثماني
1914 - 1916	ارتبط بسياسات جمال باشا في سوريا/ لبنان
1916	تزوج بسليمة الخاص
1917 - 1918	كلف بمهمتين في ألمانيا مبعوثاً من قبل أنور باشا

1917	ولد ابنه غالب في عاليه
1919 - 1920	أقام في سويسرا
1921 - 1923	أقام في برلين
1921	يونيو - يوليو، رحلة إلى موسكو
1922	أغسطس، انعقاد المؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف مايو، شغل منصب سكرتير مؤتمر الشعوب المضطهدة في جنوة.
	يوليو، زار لندن
1923 ديسمبر	أقام في مرسين، تركيا
1925 سبتمبر	أواخر العام 1924، أمضى عدة أسابيع في أوروبا
1925	اتخذ من سويسرا مقر إقامة دائمة
	نوفمبر، قابل دو جوفينال في باريس
1926	أصبح مواطناً حجازياً
	يوليو، انتخب عضواً في اللجنة الدائمة لمؤتمر الخلافة
1927	يناير - أبريل، قام برحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية
	نوفمبر، رحلة إلى موسكو
1928	ابنته مي أبصرت النور في لوزان
1929	مايو - سبتمبر، أدى فريضة الحج، زار مكة.
1930	ابنته نظيمة أبصرت النور في جنيف؛ أسس مجلة الأمة العربية

يونيو-أغسطس، قام برحلة إلى إسبانيا	
أغسطس، زار المغرب	
يناير، قام برحلة إلى منطقة البلقان	1932
ديسمبر، حضر مؤتمراً للطلاب المشاركة، روما	1933
يناير-فبراير، قام برحلة إلى منطقة البلقان	1934
فبراير، عقد اجتماعات مع موسوليني، روما	
أبريل-يونيو، مهمة حفظ السلام في العربية السعودية	
يوليو-أغسطس، زار فلسطين	
أبريل / نيسان، بداية حادثة "الرسالة الملفقة"	1935
سبتمبر، شغل منصب رئيس المؤتمر الإسلامي الأوروبي، جنيف	
يناير-مايو، مناقشات مع مصالي الحاج، جنيف	1936
يونيو-ديسمبر، عودة مظفرة إلى سوريا	1937
سبتمبر، حضر مؤتمر بلودان، انتخب نائباً ثانياً للرئيس	
عين رئيساً لمجمع اللغة العربية في دمشق	1938
فبراير-يوليو، في مصر	1939
سبتمبر، زار برلين	
ممنوع من مغادرة سويسرا	1939 - 1946
ديسمبر، توفي في بيروت	1946

الهوامش

ملاحظة عن المصادر

1. عندما زار أحد كاتبتي سيرة أرسلان الأواثل قرية الشويفات وتحدث مع عدد من أبناء أسرة أرسلان أواثل العقد السادس من القرن العشرين، تولد لديه انطباع جلي بأن الصناديق العديدة التي تضم أوراق الأمير ليست معدة بطريقة تتيح للباحثين استعمالها (أحمد الشرباصي، أمير البيان، 1، ص12). وأرسلت المراسلات لاحقاً إلى الحكومة المغربية من قبل ابنة أرسلان، الأميرة مي (مقابلة مع مي جنبلاط، 3 ديسمبر 1974م).
2. أعمالهما مدرجة في ثبث المراجع. (الشرباصي هو أكثر الاثنين تحليلاً. والسيرة الذاتية التي أعدها عن أرسلان تحت عنوان: شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، هي أفضل سيرة ذاتية كتبت عنه باللغة العربية وضمها مجلد واحد. مقال نعي شامل بقلم إي. ليفي بروفنسال. "الأمير شكيب أرسلان (1826م-1946م)". كرايس المشرق المعاصر، الصفحتان 9-10 (1947م)، 5-19. دراسة نموذجية بلغة غربية. بدا المقال نسخة مركزة عن تقرير مطول من إعداد المكتب السياسي، مسرح عمليات شمال أفريقيا في شهر يونيو من العام 1940. وتحت عنوان: إسهام في دراسة النشاط السياسي للأمير شكيب أرسلان. تقرير إيكس إن بروفنس، أرشيف ما وراء البحار 35H29. وهذا مذكور في هذا الكتاب باسم النشاط السياسي.
3. من دجي. إس. بي. فريمان- غرينفيل، التقويمات الإسلامية والمسيحية.

مقدمة

1. عملاهما مدرجان في ثبث المراجع ومذكوران في مواضع مناسبة في النص.

2. وفقاً لما أشير إليه في هذا البحث، يشير مصطلح سوريا الكبرى إلى المنطقة التي تضم حالياً دول سوريا، ولبنان، والأردن، وفلسطين.
3. انظر هشام شرابي، المثقفون العرب والغرب: السنوات التقويمية 1914-1875، ص 57.
4. للاطلاع على هذا الموضوع بالتفصيل، انظر سي. أرنست، دون، من العثمانية إلى العروبة: مقالات عن أصول القومية العربية، الصفحتان 184-185.
5. على الرغم من أن مكانة أسرة الأرسلايين تستند إلى زعامتهم للطائفة الأقلوية المسلمة، فهم يعدون أنفسهم جزءاً من منظومة إسلامية سنية أكبر منهم حجماً. أخضعت هذه القضية إلى مزيد من البحث في الفصل الأول.
6. تجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من حراك شكيب كله، بقيت الجذور راسخة. فأصغر ابنتيه الأميرة مي تزوجت بالزعيم الدرزي الراحل كمال جنبلاط. وعقب اغتياله في العام 1977، خلفه بوصفه رئيساً فخرياً للطائفة الدرزية اللبنانية ابنه وليد، وهو حفيد شكيب أرسلان.
7. على سبيل المثال، سيلفيا دجي. حاييم، القومية العربية: مقتطفات، وآلبرت حوراني، الفكر العربي في العصر الليبرالي، 1798-1939. اعترف حوراني بلباقة في كتابات لاحقة بأنه يحتمل أن يكون قد قلل من شأن التأثيرات الإسلامية، وتجاوز الحد في أخذ التأثيرات الأوروبية في الحسبان. انظر كتابه: ظهور الشرق الأوسط الحديث، الصفحتان 14-16. ويمكن الاطلاع على وصف متميز لتأثير كتاب حوراني في تأطير دراسة تاريخ الفكر العربي الحديث في كتاب دونالد إم. ريد، "الفكر العربي في العصر الليبرالي بعد عشرين سنة"، المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، ص 541-557.
8. اختبر هذه القضية وبحث فيها مايكل سي. هدسون، "الإسلام والتنمية السياسية". وبحث فيها كذلك جون إل. إيبوسيتو (محرر)، الإسلام والتنمية: الدين والتغيير الاجتماعي السياسي، ص 1-24.
9. انظر جون أوبرت فول، الإسلام: الاستمرارية والتغيير في العالم الحديث، ص 156.
10. المجاهد هو الشخص الذي يشارك في الجهاد. والجهاد هو النضال في سبيل قضية الدين الإسلامي. وفي النصوص الإسلامية الحديثة، يشار إلى أن المعنى الأصلي لكلمة الجهاد بوصفه قتالاً ضد غير المسلمين جرى توسيعه بحيث بات يشمل النشاط الذي يهدف إلى تحسين أحوال المجتمع الإسلامي: وفي هذا السياق، كانت المطبوعات العربية في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته تشير إلى أرسلان مراراً وتكراراً بوصفه مجاهد العصر الأكثر شجاعة. للاطلاع على نقاش دقيق ومفصل للتعريفات، انظر رودولف بيترز، الإسلام والاستعمار: عقيدة الجهاد في التاريخ الحديث.

الفصل الأول: تشكيل الجنتلمان العربي - العثماني

1. أحمد الشرباصي، شكيب أرسلان: من رواد الوحدة العربية، ص28.
2. شكيب أرسلان، السيرة الذاتية، ص84.
3. تبقى الدراسة العامة الأجدى نفعاً هي الدراسة التي أعدها كمال س. صليبي، تاريخ لبنان الحديث، وقد استند إليها كثير من المعلومات الواردة في هذا القسم. ويوجد تحليل للطريقة التي اتبعها مختلف الفرقاء في المنطقة لأداء مهامهم ضمن نظام معترف به، ويمكن الاطلاع عليها في كتاب إيليا ف. حريك، السياسة والتغيير في المجتمع التقليدي: لبنان، 1711-1845.
4. توجد مناقشة كاملة لتشكيل التنظيم وتطور نظامه في دراسة أعدها جون بي. سبانولو تحت عنوان: فرنسا ولبنان العثماني، 1861-1914. الفصلان الثاني والرابع، ونفح التنظيم في العام 1864، وهذه الخلاصة هي للنسخة المنقحة التي ظلت سارية المفعول حتى العام 1914.
5. يوجد شرح للجوانب الداخلية للمعتقد والطقوس من إعداد الباحث الدرزي سامي نسيب مكارم، وهو تحت عنوان: المذهب الدرزي. وانظر أيضاً: «أصول الدين الدرزي» لديفيد براير، الإسلام إل 2 (1975)، 47-84، وإل 3 (1976)، 27-4، للاطلاع على نقاش عن الوسط الإسماعيلي الذي بدأت في رحمه العقائد الدرزية تتشكل.
6. انظر، على سبيل المثال، وصفاً بقلم ستيفن همسلي لونغريغ بعنوان: سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، الصفحتان 9-17.
7. فيليب ك. حتى: أصول الدروز والديانة الدرزية، ص48، للوقوف على وصفٍ مُوَجَّهٍ لقدرة مصطفى على التعامل مع سياسات المتصرفية، انظر سبانولو، لبنان العثماني، ص237-225. وانظر أيضاً يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص45.
8. معظم المعلومات عن باكورة حياة أرسلان مستمد من سيرته الذاتية. ويبدو أن كتاب سيرته الآخرين اعتمدوا على المصدر ذاته. وعمدت إلى الإشارة إلى أعمالهم في هذا الكتاب فقط لدى إدراجهم دليلاً جديداً أو تفسيرات مختلفة للدليل القديم.
9. انظر الديوان لنسيب عريضة الذي حرر ونشر بعد وفاته من قبل شكيب تحت عنوان: روض الشقيق في الجزل الرقيق، ص17-28. ويوجد ملخص لسيرة عادل في مذكراته، ذكريات الأمير عادل أرسلان، ص12-9. وما عرف عن الأخ الآخر حسن المولود في سنة 1879 قليل.
10. انظر الفصل الثالث من كتاب: اليقظة العربية لجورج أنطونيوس، وكتاب المصالح الأمريكية في سوريا ل. أ. ل. الطيباوي 1800-1901.

11. المصالح الأمريكية للطيباوي ص 77-78 و92-96 و187.
12. السيرة الذاتية لأرسلان، ص24.
13. أرسلان في كتاب محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، 1، ص399.
14. الدراسة الأكثر اكتمالاً لهذا الرجل هي التي أنجزتها نيكي آر. كيدي تحت عنوان: السيد جمال الدين «الأفغاني»: السيرة السياسية.
15. الكلام الذي قاله مالكوم إتش كيرس وجاء فيه: «ما كتب عن محمد عبده من قبل المستشرقين والمسلمين على حد سواء هو من الكثرة بمكان بحيث يبدو قول أي شيء آخر عنه زائداً عن الحاجة» (الإصلاح الإسلامي: النظريات السياسية والشرعية لمحمد عبده ورشيد رضا ص103) وهو يشير إلى غنى الموضوع. وبالإضافة إلى كير. تمكن من معاينة الموضوع لدى حوراني في كتابه: الفكر العربي، الفصل الرابع، ولدى تشارلز سي. آدامز في كتابه: الإسلام والحداثة في مصر.
16. أرسلان في كتاب التأريخ 1 لرضا، ص400. تظهر نسخة مختلفة نوعاً ما لدى الشرباصي: شكيب أرسلان، ص24.
17. أرسلان في كتاب التأريخ 1 لرضا، ص401-400.
18. السيرة الذاتية لأرسلان، ص30.
19. المرجع نفسه، ص30، انظر أيضاً أرسلان في كتاب التأريخ 1 لرضا، ص402-404.
20. شكيب أرسلان، الباكورة، ص3.
21. السيرة الذاتية لأرسلان، ص32.
22. أوفى البيانات عن زيارة أرسلان الأولى إلى مصر يمكن الاطلاع عليها في كتابه: شوقي أو صداقة أربعين سنة، ص5-4، وفي كتاب الشرباصي: شكيب أرسلان، ص25-28.
23. السيرة الذاتية لأرسلان، ص32-33.
24. أتى أرسلان على ذكرها في كل ما كان على صلة بسيرته الذاتية مما كتبه. انظر، على وجه الخصوص، أرسلان، شوقي، ص10-14. أحمد شوقي (1868-1932)، اتفق له أن حظي بتكريم العالم الناطق بالعربية كله بوصفه « أمير الشعراء » وما زال يعد من قبل كثير من النقاد أعظم الشعراء العرب الحديثين. التقى شوقي بأرسلان عندما كان على وشك أن يختم دراساته القانونية التي استمرت أربع سنوات في فرنسا.
- ولدى عودته إلى مصر، تألق وبرز في ظل عهد عباس حلمي بوصفه «شاعراً فعلياً صاحب موهبة عزّ نظيرها». (م. م. بدوي، مقدمة نقدية للشعر العربي الحديث، ص29-42).
25. دُكرَ هذا في السيرة الذاتية لأرسلان، ص33.

26. بالنسبة لسنوات الأفغاني الأخيرة في اسطنبول، بحث فيها كيدي في كتابه الأفغاني، الفصل 13. وبالنسبة لتقدير أرسلان لأهمية الأفغاني بالنسبة للإسلام والإشارات العابرة إلى لقاءاتهما، انظر كتابه: **حاضر العالم الإسلامي**، 2، ص 289-303.
27. أرسلان، **حاضر العالم الإسلامي**، 2، ص 298.
28. المرجع نفسه، ص 301. عن الانطباع الذي تولد عن أرسلان عند الأفغاني، كتب أحد الباحثين: «اكتشف فيه سيده الروحي والنموذج المؤاتي للمستقبل». (توفيق توما، الفلاحون والمؤسسات الإقطاعية عند الدروز والموارنة في لبنان في القرن السابع عشر، الجزء الثاني، ص 721، سنة 1914).
29. الشرباصي، **أمير البيان**، 1، ص 134-135، انظر أيضاً سامي الدهان، **الأمير شكيب أرسلان: حياته وأثاره**، ص 70.
30. تطور الصحافة المصرية تبعاً لبحث استقصائي أجراه بي. دجي. فاتيكويتيس وأورده في كتاب تحت عنوان: **تاريخ مصر: من محمد علي إلى السادات**، الفصل التاسع. وبالنسبة لعللي يوسف، انظر كتاب عباس كيليدار، «الشيخ علي يوسف: صحفي مصري وقومي إسلامي»، وانظر **الحياة الفكرية في المشرق العربي لروان ر. البحيري** (محرر)، 1890-1939، ص 10-20.
31. للتمييز بين المثقفين المهنيين ومثقفي أوقات الفراغ، انظر الشرابي، **المثقفون العرب**، ص 4.
32. طبعت الدرة اليتيمة ونشرت أول مرة في بيروت في العام 1897، وأصدرت نسخة جديدة منها في القاهرة في العام 1910. ونشر كتاب: **المختار من رسائل أبي إسحاق الصابري** في العام 1898.
33. هذا التصوير الرومانسي لحب مستحيل بين فتاة إسبانية من طبقة النبلاء وآخر الناجين من عشيرة عربية متميزة يزخر بأوصاف جميلة، وإن كانت خيالية، لقصر الحمراء. نشرت ترجمة أرسلان في العام 1898، وأعيد إصدارها في العام 1925.
34. من مقدمة أرسلان **للدرة اليتيمة**، وفقاً لما ذكر في كتاب **الأمير شكيب للدهان**، ص 211.
35. يوجد مثال في سلسلة مقالاته التي نشرها في **المقتطف** وأدرجت بأوجه مختلفة تحت عناوين: «الإسلام في الصين»، و«مستقبل الصين» في 24، رقم 8 (1900)، و26، الأرقام 6، 7، 9، 10 (1901)، وقد أدت غرض إتاحة معلومات عن مجال مجهول، لكن قاربت الموضوع من خلال افتراضات إسلامية.
36. خليل مطران، «مقدمة» **لديوان أرسلان**.
37. مارون عبود، **رواد النهضة الحديثة**، ص 147 (صورة أدبية كاملة لشكيب، ص 141-147). وقد رأت ناقدة أكثر حداثة أن الأسلوب الشعري لأرسلان ومواضيعه محافظة جداً

إلى حد أنها تخلفت عن ركب التغييرات التي شهدها الزمن الذي عاصره أرسلان (سلمى خ. الجبوسي، اتجاهات وحركات في الشعر العربي الحديث 1، ص 244-246).

38. وتبقى المناقشة الأعمق تبصراً لسياسة عبد الحميد الإسلامية من حيث صلتها بالعرب هي تلك التي أجراها أنطونيوس تحت عنوان: اليقظة العربية، ص 68-75. ومن منظور اسطنبول، تميز نيازى بيركيس في رسم معالم تلك السياسة في كتاب عنوانه: تطور العلمانية في تركيا، الفصل التاسع.

39. ذكر هذا في كتاب: الأصول الفكرية للقومية المصرية، ص 60-61 للمؤلف جمال محمد أحمد. وأما النقاش الأوفى لروابط مصر العثمانية فيمكن الاطلاع عليه في كتاب عنوانه: العثمانية والعروبة في مصر لجيمس يانكوفسكي 1860-1914، والعالم الإسلامي، 120 (1980)، لاسيما ص 226-245.

40. عرف أرسلان الأول والثاني معرفة جيدة، ولطالما تواصل معهما طوال حياته. وتحدث الشرابي عن موقفهما من الاتجاهات السائدة في عصرهما في كتابه: المثقفون العرب، ص 24-25، و122-123، والحواراني في كتابه: الفكر العربي ص 223-224. كما بحث في أنشطة محمد كرد علي في حقبة ما قبل الحرب سمي صقلي في دراسته: «الحياة الفكرية الدمشقية في سنوات مطلع القرن العشرين: محمد كرد علي والمقتبس»، في الكتاب الذي حرره البحري، الحياة الفكرية، ص 125-153.

41. أرسلان، ديوان الأمير شكيب أرسلان، ص 90. وهذا مقتطف من قصيدة نظمت في العام 1892. وتوجد قصائد أخرى كرسيت لعبد الحميد، يمكن الاطلاع عليها في ص 91-93.

42. انظر سبانولو، لبنان العثماني، ص 235-237.

43. السيرة الذاتية لأرسلان، ص 36-39. ويوجد سجل تفصيلي لهذه المسألة، لا يفضل وفد الأعيان دوماً، بشارة الخوري، حقائق لبنانية 1، ص 55-58. وأعيد النظر في المسألة من قبل بعض الأعيان، وقرروا أن المتصرف كان على حق في تقويمه الأصلي للموقف. وبناء عليه، فإن جبل لبنان لم يرسل، في نهاية المطاف، مندوباً إلى اسطنبول. انظر سبانولو، لبنان العثماني، ص 250-254.

44. أرسلان، السيرة الذاتية، ص 39-40.

45. نوقش الحدث في السيرة الذاتية لأرسلان ص 79-80. الأجدد بالملاحظة من مفهوم البرنامج نفسه هو زعم أرسلان بأن فريقاً ممثلاً لبلده وصل بالفعل إلى درنة.

46. انظر إدmond بيرك 3، مقاومة الجامعة الإسلامية والمقاومة المغربية للاختراق الاستعماري الفرنسي، 1900-1912، مجلة التاريخ الأفريقي، 13 (1972)، 110-113.

47. المؤيد، 16 نوفمبر 1911.

48. رسالة إلى رشيد رضا، 1911، ذكرت في كتاب: شكيب أرسلان، للشرباصي، ص32.
49. المؤيد 16 نوفمبر 1911.
50. المرجع نفسه 11 يناير 1912.
51. المرجع نفسه 15 يناير 1912.
52. أتي آرثر غولد شميث على ذكر سيرة جاويش بإيجاز في كتابه: «الحزب القومي المصري، 1892-1919»، في بي. إم. هولت (المحرر)، التغيير السياسي والاجتماعي في مصر الحديثة، ص323-327، وللإطلاع على معارضته لتطبيق اللامركزية العثمانية، انظر المراجع المتعددة في كتاب توفيق علي برو: العرب والترك في العهد العثماني الدستوري، 1908-1914، الفصل التاسع: يعرب أرسلان عن تقديره العالي لجاويش، ويؤكد أن رؤاهما السياسية مشتركة في السيد رشيد رضا أو إخوان أربعين سنة، ص266-268.
53. عن القوة الخاصة، انظر فيليب إتش. ستودارد، «الحكم العثماني والعرب، 1911 إلى 1918: دراسة تمهيدية للتشكيلات المحسوسة»، بخاصة ص60-75.
54. للإطلاع على تفاصيل العضوية في هذه الجمعيات وبرامجها، انظر: اليقظة العربية لأنطونيوس، ص108-111، والسياسة البريطانية تجاه سوريا وفلسطين 1906-1914، في الفصلين الرابع والخامس، لمؤلفه رشيد إسماعيل خالدي. ويمكن الإطلاع على تحليل اجتماعي وسياسي لخلفية الاستياء العربي في كتاب: أعيان المدن والقومية العربية، الفصل الثالث للمؤلف فيليب إس. خوري.
55. يمكن الوقوف على الأدلة الإحصائية لهذه النقطة في كتاب: العثمانية والعروبة، الفصل السادس للكاتب سي. إرنست دون؛ وعلى سبيل المثال للإطلاع على فرد بعينه، انظر ويليام إل. كليفلاند، تشكيل القومي العربي، ص38-40.
56. السيرة الذاتية لأرسلان، ص106.
57. المؤيد، 27 يناير 1912.
58. أرسلان، «إن الله لا يصلح عمل المفسدين»، الرأي العام، 7 مايو 1913.
59. أرسلان، «هذه هي الاختلافات»، المرجع نفسه، 19 يونيو 1913.
60. السيرة الذاتية لأرسلان، ص108.
61. برو، العرب والترك، ص509.
62. أرسلان، «الرد هو رد المجتمع»، الرأي العام، 20 يونيو 1913.
63. على رياض الصلح، «قانون الولاية الجديد والأمير شكيب»، الإصلاح، 30 يونيو 1913. السيرة الذاتية لأرسلان، ص108.

64. محمد رشيد رضا، «الجامعة الإسلامية والسياسة»، المنار 17 (28 ديسمبر 1913)، 76.
- و«الجنسيات في المملكة العثمانية». المرجع نفسه، 17 (23 يونيو 1914)، ص 537-538.
65. سعد داغر، مذكراتي على هامش القضية العربية، ص 69.
66. سليمان موسى، الحركة العربية، سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة، 1908-1924، ص 67، رقم 1.

الفصل الثاني: الحرب والمنفى

1. السيد رشيد رضا، ص 361، رقم 1.
2. المرجع نفسه، ص 196-197.
3. زين ن. زين، ظهور القومية العربية.
4. لسيرة الذاتية لأرسلان، ص 119-121.
5. انظر بيسان - 2 لتوما، ص 729.
6. السيرة الذاتية لأرسلان، ص 135.
7. اليقظة العربية لأنطونيوس، ص 151.
8. السيرة الذاتية لأرسلان، ص 140-147، تؤكد مصادر ستودارد دور أرسلان، وتذكر فريق الدروز الممثل للطائفة الذي جهزه موفراً بذلك حلاً وسطاً بين 100 رجل و200 رجل. ("التشكيلات المحسوسة"، ص 105).
9. «نصيحة أرسلان للبنانيين»، أوراق لبنانية، 2 (1956)، 340. هذا مستمد من رسالة كتبها أرسلان إلى صديقه وهاب طليح.
10. وثيقة برقم FO371/7882/E2235، من أبيرنون (برلين) إلى وزارة الخارجية، 28 فبراير 1922، تتضمن إحالة "ملاحظات محادثة عن شؤون مشرقية" وصلت إلى السفير "من مصدر موثوق جداً"، 7 شباط 1927.
11. توما، بيسان - 2 ص 728، انظر أيضاً ص 720-740 للاطلاع على تقرير مسوغ منطقياً عن أعمال الأمير إبان الحرب. قدم كل من الدهان والشرباصي دفاعاً وجيزاً، إلا أنهما تجنباً، خلاف ذلك، الخوض في مناقشة هذه الحقبة الحرجة في حياة أرسلان. انظر الأمير شكيب للدهان، ص 74-77، ومحاضراته عن الأمير شكيب أرسلان ص 14-15، وأمير البيان 1 للشرباصي، ص 87-89، وشكيب أرسلان للشرباصي أيضاً ص 34-40. في هذا المثال، معالجة الدهان للموضوع هي المفضلة، على الرغم من جنوحها إلى تبسيط نتائج أنشطة أرسلان.

12. رواية أرسلان لهذه الحادثة متناغمة في مصدرين: السيرة الذاتية، ص 136-139، وفي «الكوارث السورية خلال سنوات الحرب»، المنار 23 (1922)، 125-126. الثناء عليه لتوسطه نيابة عن البطيريك المذكور في المقاطع التي أوردها الغريب عند محمد علي الطاهر (محرر)، ذكرى الأمير شكيب أرسلان، ص 161-162.
13. انظر توما، بيسانز 2، ص 705-709، وعارف أبو شقرا «يوم زيارة جمال باشا لمنطقة الشوف»، أوراق لبنانية 1 (1955)، 547-549.
14. أحمد جمال باشا، ذكريات رجل الدولة التركي، 1913-1919، ص 213.
15. الرقم بالنسبة للأناضول هو رقم أرسلان، وهو المدرج في السيرة الذاتية، ص 155. لم يعط أنطونيوس رقماً إجمالياً، لكن يتشكل انطباع لدى المرء بأنه تعامل مع الرقم 1000 بوصفه رقماً زائداً عن الحد. انظر أيضاً الحكيم، بيروت، ص 167-169، للاطلاع على قائمة بأسماء المنفيين من بين الأسر الكبيرة.
16. حجة جمال من أجل قرارات النفي والإبعاد مدرجة في مذكراته ص 202-203. ورواية أرسلان لهذا الموضوع مدرجة في السيرة الذاتية، ص 147-149، وفي «الكوارث السورية»، ص 126.
17. الخوري، حقائق لبنانية، 2، ص 96.
18. توما، بيسانز، 2، ص 731.
19. السيرة الذاتية لأرسلان، ص 154.
20. الوثائق، بما فيها رسائل من أشخاص محليين. تبدي تعاطفاً مع الأهداف الفرنسية وجرى إخفاؤها خلف ستار زائف من قبل القنصل جورج بيكو. عندما بدأت الأعمال العدائية. وعُهد بالسّر إلى مترجم بيكو الماروني، فيليب زلزل. وعندما أُبعدَ زلزل إلى دمشق، قابض المعلومات القيمة التي كان يتوفر عليها بحريته. انظر نيكولاس زد. آجاي الابن، «المؤامرات السياسية والقمع في لبنان خلال الحرب العالمية الأولى»، المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، 7 (1974)، 155.
21. مذكرات جمال باشا، ص 207.
22. للاطلاع على بيان لهذه التدابير وأجواء الخوف التي ولدتها، انظر آجاي، «المؤامرات السياسية»، ص 150-160، والنهضة العربية لأنطونيوس ص 185-190.
23. السيرة الذاتية لأرسلان، ص 170-183، و«الكوارث السورية»، ص 129-132.
24. انظر مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، لأحمد القادري، ص 53، وانظر أيضاً: روض الشقيق لأرسلان، ص 22-23، وذلك للوقوف على مرجع عن الدور الذي لعبته سمعة الأسرة في تحويل اتجاه الاستياء الرسمي من بعض المقالات التي كتبها نسيب، الأخ الأكبر لشكيب.

25. انظر اليقظة العربية لأنطونيوس. ص 203-204، وص 240-242.
26. روايته لهذه النقطة مدرجة بتفصيل كبير في السيرة الذاتية، ص 225-236، وفي مقدمة كتاب إي رابات: التطور السياسي لسوريا تحت الانتداب، ص 12-14. واتهامه الخاص به هو أن الحلفاء، برفضهم رفع الحصار حتى من أجل تسهيل مهام جهود الإغاثة الإنسانية، يجب أن يتحملوا المسؤولية عن إزهاق أرواح آلاف الناس في لبنان.
27. توما، بيسانز، 11، ص 739.
28. السيرة الذاتية لأرسلان، ص 157.
29. المرجع نفسه، ص 160.
30. المرجع نفسه، ص 180.
31. المرجع نفسه، ص 175-176.
32. اليقظة العربية لأنطونيوس، ص 255.
33. يمكن الاطلاع على ملخص موجز لأهداف صحيفة الشرق وموظفيها في كتاب الصحافة السورية لأديب خضر، ص 110-112. ووصف أرسلان لهذه المطبوعة مدرج في سيرته الذاتية، ص 169-170.
34. عن سُلَيْمَى، انظر أمير البيان للشرباصي ص 125-126، حيث جاء فيما كتبه عنها أنها كانت في العشرين من عمرها تقريباً حين تزوجت بأرسلان. وورد في تقرير محفوظ في سجل المحفوظات الاتحادية السويسرية يعود إلى العام 1940 أن سليمى مولودة في العام 1890.
35. انظر، على سبيل المثال، «الرجل الذي خدم لبنان» لأمين الغريب، وذكرى الأمير ص 161-164 للظاهر، والأمير شكيب للظاهر أيضاً، في المرجع نفسه، ص 15. وهناك إسهام آخر من قبل علي الغياياتي في هذا الإطار تحت عنوان: «الذكريات»، وهي عبارة عن سلسلة متعددة الأجزاء نشرها في صحيفة منبر الشرق. ونشر الأجزاء الأربعة الأولى منها في الثالث والعشرين والثلاثين من يناير، وفي السادس والثالث عشر من فبراير من العام 1953، وهي تتعامل مع أنشطة أرسلان في سوريا إبان زمن الحرب.
36. «الذكريات» للغياياتي، 23 يناير 1953.
37. أدرج وصف هذه المهام في السيرة الذاتية لأرسلان ص 221-226 و 261-262.
38. لطرحة القوي للإمبراطورية العثمانية بوصفها شريكاً جديراً بالعظمة الإمبراطورية، انظر الأمير شكيب أرسلان.

(يوليو 1918). 235-240. ويمكن الاطلاع على شجبه لمخططات الحلفاء، والتأكيد على الولاء العربي للنظام العثماني. وإعرايه المتكرر عن الامتثال لألمانيا في مقالين عنوانهما: "العرب والإنجليز"، و"المشرق الجديد"، 1 (أبريل-سبتمبر 1917) 263-266، وعدة مقالات أخرى في المرجع نفسه.

39. السيرة الذاتية لأرسلان، ص 264-265، تأسست هموم هؤلاء اللاجئين وشؤونهم بصورة جيدة. في الخامس من يوليو 1919، صدرت أحكام غيابية بالإعدام على القادة الأساسيين لجمعية الاتحاد والترقي من قبل حكومة السلطان. ووفقاً للوثائق السويسرية، كان أرسلان أحد المحكومين. انظر سجل المحفوظات السويسرية، وزارة شؤون المغتربين، و "jung türkische Revolutionäre Treiben in Der Schweiz," 1920-1918/8.A.43/sa/E2001(B)I

40. السيرة الذاتية لأرسلان ص 262.

41. الأسماء التي تكرر ذكرها في مناقشة أرسلان للسنين التي قضاها في برلين في السيرة الذاتية. ص 238-239، و 229، و 280. تضمنت الدكتور بهاء الدين صقر وهو عضو في اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي، ورئيس قسم التشكيلات المحسوسة [الاستخبارات]. الدكتور نظيم، وهو عضو أيضاً في اللجنة المركزية، وقد يكون هو الاتحادي الأشد نفوذاً وتأثيراً وراء محمد سيمال عزمي الذي شغل زمن الحرب منصب حاكم مقاطعة كونيا الحساسة، وبدرى بيه، مدير إدارة شرطة اسطنبول. وكان أرسلان وعبد العزيز جاويش العربيين اللذين عملا عن كُتب مع هذه المجموعة. وتستند هذه المعلومات على بيانات تتعلق بالسيرة. وأدرجت في ملحق فيروز أحمد، تركيا الفتاة: لجنة الاتحاد والترقي في السياسة التركية 1908-1914.

42. دي. إيه. روستو، «أنور باشا» في موسوعة الإسلام، الطبعة الثانية، انظر أيضاً إدوارد هالت كار، تاريخ روسيا السوفياتية: الثورة البلشفية، 1917-1923، 3، ص 246-247، و ص 551-550 Sevkett Sureyya Aydemir, En-ver pasa: Makedonya, dan 1914-1922, Ortaasya, ya, 3.

وذلك للوقوف على دليل على الدعم الروسي لأنور باشا ومن خلاله لأرسلان ولنفين آخرين من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي.

43. وقائع المؤتمر والصعوبات الجديرة بالملاحظة والمرتبطة بافتقار أنور باشا للتفويضات البروليتارية والديمقراطية جرى فحصها في كتاب التاريخ لمؤلفه كار، ص 260-270.

44. سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن، E8652/6473/FO371، دابنون (برلين) إلى كورزون، 20 يوليو 1921، مرفق طيه تقرير أعده الرئيس برين عن العلاقات

- الروسية التركية الأفغانية، 14 يوليو 1921، (المشار إليه فيما يأتي بوصفه تقرير برين).
انظر أيضاً السيرة الذاتية لأرسلان، ص270.
45. اختتم أرسلان السيرة الذاتية (ص236-292) بمقال مطول عنوانه: «الشهيد أنور باشا ورفاقه». والمقال نفسه أدرج في كتاب آخر على الأقل من كتب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، 4، ص364-395.
46. ذكر في كروكشانك، «تحدي جمعية تركيا الفتاة»، ص22، رقم10.
47. سجل وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن E8652/6473/FO371 تقرير برين، انظر السيرة الذاتية لأرسلان أيضاً، ص265.
48. النشاط السياسي، ص6-7.
49. أرسلان، روض الشقيق، ص26.
50. رسالة من أرسلان إلى رضا، 12 مايو 1924، في أمير البيان، 2، للشرباصي، ص648.
51. رسالة من أرسلان إلى رضا، 3 يوليو 1924، في الموضع نفسه، ص665.
52. ديسمبر 1924، أقامت الجالية السورية في برلين حفل استقبال لأرسلان حضره كل من ستريسمان وفون سيكت. انظر ليفي بروفنسال، «الأمير شكيب»، ص9، والشورى 5 مارس 1925.
53. أرسلان، روض الشقيق، ص26.

الفصل الثالث: تبني القضية العربية

1. شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، ص160.
2. محفوظات وزارة الشؤون الخارجية، باريس، السلسلة E سوريا لبنان 215، برقية من شكيب أرسلان إلى الرئيس ريمون بونيكايري، 6 ديسمبر 1928.
3. ستيفن همسلي لونغريغ، سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص117. معاملة لونغريغ لمؤسسة الانتداب في الفصل الرابع مدرجة إدراجاً تفصيلياً ومتوازناً.
4. أ. هـ. حوراني، سوريا ولبنان، مقال سياسي، ص170-179.
5. لونغريغ، الانتداب الفرنسي، ص104، ظل اسم أرسلان مدرجاً في قائمة سوداء خاصة حتى 1937.
6. المرجع نفسه، ص143.

7. شارك في كتابة الإعلان إحسان الجابري. ولخصه الشرباصي في أمير البيان، 2، ص 499.
8. شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، ص 161. استعمل كُتَّابُ سيرة أرسلان العرب هذه العبارة تعزيراً لزعمهم بأنه كان منخرطاً بشدة في القضية العربية في مرحلة من حياته تشير فيها الدلائل الأخرى إلى التزامه المستمر بإحياء الإمبراطورية العثمانية. انظر شكيب أرسلان للشرباصي، ص 41، والأمير شكيب أرسلان للدهان، ص 82-84.
9. الشورى، 27 أغسطس 1925.
10. شكيب أرسلان، «الدروز أو بنو معروف بأجمعهم عرب صراح»، الشورى، 1 أكتوبر 1925.
11. المرجع نفسه، وشكيب أرسلان، «لا تقل للذين يقولون لك سلاماً: إنكم كافرون»، الشورى، 31 ديسمبر 1925.
12. النشاط السياسي، ص 33.
13. أمير البيان، 1، للشرباصي، ص 74، تقويم توما أقل إشعاراً بالثقة واليقين، بيسانس، 2، ص 573-571.
14. لاستعراض العلاقة من العام 1895-1914، انظر شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، ص 144-155.
15. المرجع نفسه، ص 160.
16. للاطلاع على وصف للمؤتمر يستند، في المقام الأول، إلى محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية، باريس، انظر ماري رينية موتون، «المؤتمر السوري الفلسطيني المنعقد في جنيف (1921)»، العلاقات الدولية، رقم 19 (1979)، 313-328.
17. للاطلاع على رواية ماثعة وجذابة تصف الأسرة، انظر أؤفا السورية لروبرت دي بوبلان، ص 89-100. وانظر أيضاً فيليب إس. خوري، «الشقاق والخلافات الحزبية بين القوميين السوريين إبان الانتداب الفرنسي»، المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، 13 (1981)، 445.
18. دي بوبلان، السورية، ص 89.
19. شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، ص 157-158. في العام 1924. استعيض عن كنعان ضمن أعضاء الوفد برياض الصلح الذي خدم في جنيف ثلاث سنوات.
20. مجلة الأمة العربية (يناير-أبريل 1938)، 910. جرى توسيع أفق حياته السياسية-حيث صار يشغل إبان سنوات الحرب العالمية الثانية كرسي نائب في البرلمان السوري، وبات يتوفر على قدر من النفوذ في الحزب القومي.

21. انظر الشرق الحديث، 2، (يونيو 1922)، 14-15، المرجع نفسه (سبتمبر 1922)، 221-223، والسيرة الذاتية لأرسلان، ص284.
22. سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن 371/7779/E8540، غراهام (روما) إلى وزارة الخارجية، 20 أغسطس 1922. سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن 371/7882/E2235، دابرنون (برلين) إلى وزارة الخارجية، 24 فبراير 1922. وسجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن 371/7852/E12650، دابرنون إلى كورزون، 8 نوفمبر 1922.
23. انظر جويس لافرتي ميلر، «ثورة العام 1925 السورية»، المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، 8 (أكتوبر 1977)، 545-563، والانتداب الفرنسي للونفريغ، ص154-169.
24. الشورى، 29 أكتوبر 1925، للاطلاع على بيان أكثر حياداً للقصف. انظر الانتداب الفرنسي للونفريغ، ص159-160.
25. رسالة من رضا إلى أرسلان، 13 ذو الحجة 1343هـ، في: شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، ص339، وروض الشقيق لأرسلان، ص26.
26. أقام أرسلان في لوزان حتى العام 1930، حيث انتقل إلى جنيف.
27. «مقابلة مع الأمير شكيب»، الفتح، 16 مايو 1929.
28. الشورى، 8 أكتوبر 1925.
29. وقائع الدورة الثامنة (الاستثنائية) للجنة الانتداب الدائمة، روما، 16 فبراير-29 مارس 1926، ص157-160. ومثال على الحجم غير المتناسب للالتماسات التي تقدم بها الوفد السوري الفلسطيني من اللجنة، عشرة من الالتماسات الستة عشر التي تلقتها اللجنة الدائمة للانتداب كانت من الجابري وأرسلان (وقائع الدورة الحادية عشرة للجنة الدائمة للانتداب، جنيف، 20 يونيو-26 يوليو 1927).
30. الشورى، 26 نوفمبر 1925. جرت معالجة محتوى هذه المناقشات في موضع لاحق من هذا الفصل.
31. اللجنة الدائمة للانتداب، وقائع الدورة الثامنة (الاستثنائية)، ص157.
32. المرجع نفسه، ص168، نزاهة اللجنة المبالغ فيها حيال مسألة التمثيل تجلت واضحة عندما أثار أحد الأعضاء قضية أحد التماسات أرسلان السابقة: «هل يمكن للجنة أن تقبل التماساً مقدماً من عربي هو أحد رعايا الدولة التركية، ويسكن في بلد (مدينة مرسين التركية) ليس خاضعاً للانتداب؟» (محاضر الدورة الخامسة (الاستثنائية)، للجنة الدائمة للانتداب، التي انعقدت في جنيف، من 23 أكتوبر-6 نوفمبر 1924، ص115)، الظروف التي فرضت معايير

قومية من هذا القبيل على رجل كان جواز سفره العثماني ما يزال ساري المفعول لا تحتاج إلى تعليق.

33. اللجنة الدائمة للانتداب، محاضر الدورة الثامنة (الاستثنائية): تقرير اللجنة الدائمة للانتداب الذي رفعته إلى الجمعية العامة، ص 200-208.

34. للاطلاع على نقاش ممتاز لهذه القضية، انظر ميشيل إتش. فان دوسن، «سوريا: سقوط النخبة التقليدية»، في النخب السياسية والتنمية السياسية في الشرق الأوسط لفرانك تاشو (محرر)، ص 115-155.

35. انظر «النزاعات الحزبية بين القوميين السوريين»، خوري، ص 441-469.

36. سوريا والعهد الفيصلي، ص 28، يوسف الحكيم.

37. أدرج سرد يصف حياته العملية في مقدمة كتاب مذكرات الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، ص 5-6، وأدرج رسم لصورة مميزة في كتاب خوري: «النزاع الحزبي بين القوميين السوريين»، ص 445-446.

38. رسالة من أرسلان إلى رضا مؤرخة في التاسع من نوفمبر 1930، ومدرجة في كتاب: أمير البيان، 2، للشرباصي ص 723، ورسالة من أرسلان إلى رضا مؤرخة في الرابع عشر من مايو 1931، المرجع نفسه، ص 749-750.

39. نشرت مقترحات أرسلان في الشورى في الحادي عشر من شهر فبراير 1926، وفي التاسع عشر من يناير 1928، وهي مستنسخة من أحد الالتماسات التي تقدم بها من هيئة الانتداب الدائمة، محاضر الدورة الحادية عشرة 4-14 نوفمبر 1927، ص 165. ويمكن الاطلاع على تعليق دو جوفينال في محاضر الدورة التاسعة، ص 115. انظر أيضاً كتاب: الصليبية القومية في سوريا لإليزابيث مكالم، ص 174-175.

40. انظر «النزاعات الحزبية بين القوميين السوريين»، لخوري، ص 456-459.

41. اجتذب النزاع تغطية الصفحات الأولى على صعيد الصحافة العربية، واستمر حوالي ثلاث سنوات، انظر الشرق الحديث، 7 (نوفمبر 1927)، 264-267، المرجع نفسه، و 8 (يناير 1928)، 56-58. واستعرضت القضايا استعراضاً وجيزاً في مقال أعده أحمد زكي وإحسان الجابري اللذان التحقا بالحاج أمين الحسيني، للعمل بوصفهما وسيطين. انظر «بيان الوسيطين عن مساعي الصلح بين السوريين»، الشورى، 5 يناير 1928. الإرباك العام الذي تمخض عن مقترحات أرسلان إلى دو جوفينال واضح في رد رضا عليها. انظر، على سبيل المثال، رسالة من رضا إلى أرسلان، 15 جمادى الآخرة 1344هـ، في: شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، ص 419-424، ورضا إلى أرسلان، 25 جمادى الأولى 1344هـ، في: شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، ص 428-430.

42. الشورى، الأول من أكتوبر 1925.
43. مجلة الأمة العربية (مايو-يونيو 1931)، 8.
44. ثلاثون برقية تقريباً مؤرخة بين الثالث والسابع من شهر يوليو من العام 1927 كل منها تحمل اسم منظمة خاصة من المنظمات الداعمة لأرسلان في الولايات المتحدة. وهي واردة في ملف في الكاي أوراسي، وفي السلسلة إي من أرشيف الخارجية الفرنسية، في باريس، وفي سوريا-لبنان 399، عدد أبريل-ديسمبر 1927.
45. قارئ، «الأمير شكيب أرسلان وأحمد جمال باشا»، الشورى، 20 أكتوبر 1927، ومحمد إسماعيل، «أحمد جمال باشا والأمير شكيب أرسلان»، المرجع نفسه، 17 نوفمبر 1927. وقارئ، سرد تاريخي يبين عداة جمال باشا للأمير شكيب، المرجع نفسه، 2 أغسطس 1928. لم تتوقف هذه المهارات المتبادلة في الواقع على الإطلاق. وانضم عادل لاحقاً إلى دائرة المشاحنات مسهماً بنقد لاذع استهدف به مشاركة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في ثورة العام 1925، مشيراً إلى أنه أصغر حجماً مما كان يزعم (الشورى 7 و 14 يناير 1931).
46. أرسلان، «جعلوا الدين مصيدة»، الشورى، 26 نوفمبر 1925.
47. أرسلان. مقدمة د.إي. رابات. التقويم السياسي لسوريا تحت الانتداب، ص 6 و 19.
48. شكيب أرسلان، السيد رضا أو إخاء أربعين سنة، ص 161.
49. كان الطاهر ناشر الشورى (1924-1931)، والشباب (1936-1939)، وصحف ومجلات أخرى لم تعمر طويلاً. استعرض حياته وكتاباتاته على نحو مُرضٍ كل من نويهض الحوت وخيرية قاسمية في "موت فلسطينيين عظيمين"، في مجلة شؤون فلسطينية، عدد رقم 39 (نوفمبر 1974)، 150-163.
50. ظلام السجن لـ محمد علي الطاهر، ص 678. تتضمن هذه السيرة الذاتية القصصية إشارات كثيرة لصداقة الطاهر لأرسلان.
51. توجه الخطيب نحو التعاليم الجديدة لمذهب ابن تيمية الحنبلي مذكور في كتاب كامبفير: مصر وغرب آسيا، وفي مراجع أخرى. وصداقته مع حسن البنا والإخوان المسلمين موثقة في كتاب: جماعة الإخوان المسلمين لريتشارد بي. ميتشل، ص 185، و 322-323.
52. خوري، النزاعات الحزبية بين القوميين السوريين، ص 450، و 459. وشكري القوتلي (المولود في العام 1891)، والذي غدا لاحقاً أول رئيس لجمهورية سوريا بعد نيلها الاستقلال كان شديد الإعجاب بأرسلان وتعاون معه على صعيد المخططات المناهضة لفرنسا.
53. محاضر اجتماعات الدورة التاسعة للهيئة الدائمة للانتداب، ص 118.
54. محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية، باريس، السلسلة إي سوريا-لبنان، 212. تقرير المفوض الخاص في أنيماسي، من 15-27 يناير 1926.

55. المرجع نفسه، دو جوفينال (بيروت) إلى وزارة الخارجية، 23 يناير 1926. قابل إحسان الجابري مسؤولين من ألمانيا لطلب أسلحة والحصول على قرض لسوريا، ورفض طلباه كلاهما. انظر سجلات شرائط الأفلام المجرية لوزارة الخارجية الألمانية / رول 4900، مذكرة فون ريتشهوفن، 22 أبريل 1926، إطار L327744-L327745.
56. محفوظات وزارة الشؤون الخارجية، باريس، سلسلة E، سوريا لبنان، 210، هنسي (برن) إلى وزارة الخارجية، 23 فبراير 1926.
57. مجلة المناقشات، 20 فبراير 1926، مدرجة في المرجع السابق.
58. بخاصة البروفسور كامبفير، رئيس الجمعية الألمانية للدراسات الإسلامية. دعم كامبفير علناً قضية الاستقلال السوري، وأثار حنق وزارة الخارجية الألمانية عندما حمل السوريين الموجودين في برلين على الاعتقاد بأن ألمانيا ستمد لهم يد العون. سجلات الشرائط المجرية، رول 4900، مذكرات ديل، 22 يناير 1926، إطارات L327744-L327745. من أجل تقويم إنجاز أرسلان الأدبي، انظر دجي. فايدمر.
- Die Übertragungen aus der Neuaramischen Literatur-3
1. (1937) XIX-welt des Islams, 93-93.
وهو يتضمن صورة وصفية أدبية مقتضبة لسيرة أرسلان وترجمات من عمليين من أعماله.
59. الشورى، 5 مارس 1925. اقتباساً من خطاب أرسلان الذي ألقاه في 24 يناير.
60. مذكور في أمير البيان، 1، للشرباصي، ص 99.
61. كان الدكتور بيضا مستشاراً لأرسلان على صعيد حياته المالية على مدى خمسة وعشرين عاماً. بيضا، السوري الذي عاش في برلين، أدار مع أفراد آخرين من أسرته شركة تسجيلات وأسطوانات فونوغرافية عربية كانت توزع منتجاً عرف باسم «بيضافون». وافتتحت مكاتب لها في كل من بيروت، وبرلين، والقاهرة، ويافا، وطرابلس. وتاجرت الشركة، فيما يبدو، بمنتجات أخرى أيضاً. وكان الدكتور بيضا، بالنسبة لأرسلان، مصرفياً ووسيطاً ومقرض مال خاصاً. ما ليس معروفاً عن الدكتور بيضا مصدر لقبه وتوجهه السياسي. والشيء الوحيد الذي كان واضحاً وأكيداً هو أن الأمير كان دوماً مديناً له.
62. سجلات شرائط الأفلام المجرية لوزارة الخارجية الألمانية / رول 4900، رسالة من بيضا إلى ريتشهوفن، 13 مايو 1925، إطار L327728.
63. المرجع نفسه، رسالة من فون ريتشهوفن موجهة إلى أرسلان، 29 سبتمبر 1925، إطاران رقم L327734-L327735، ورسالة تقدير من أرسلان إلى فون ريتشهوفن في المرجع نفسه. إطاران رقم L327731-L327733.

64. تمويل منظمات المنفى السوري في أواسط عشرينيات القرن العشرين نوقش موضوعه من قبل خوري في كتابه: «النزاعات الحزبية بين القوميين السوريين»، ص458-462. وكانت الإسهامات الطوعية كبيرة، ولكن، كما يوضح خوري كانت المزاخمة عليها كثيفة، ولم يكن توزيع تلك الإسهامات المالية منتظماً دوماً.
65. تعتمد الدراسة على الشرح التفصيلي لعلاقة أرسلان المالية مع عباس، وهذا واضح في كتاب شكيب أرسلان: السيد رضا أو إخاء أربعين سنة، ص658-665.
66. انظر خلدون س. حصري، «الملك فيصل الأول والوحدة العربية 1930-1933»، مجلة التاريخ المعاصر، 10(1975)، 328، يستشهد في هذا المقام برسالة أرسلها أرسلان إلى ابن سعود.
67. رسالة من أرسلان إلى رضا، 2 أبريل 1931، في أمير البيان، 2، للشرباصي، ص738.
68. الشخص الذي عمل بمهنة كبير مترجمي ابن سعود سنوات عديدة، جاء في ما كتبه أن الملك قدم «دعماً ومساعدة» لأرسلان ولشخصيات قومية عربية بارزة أخرى (محمد المانع، العربية المتحدة: صورة ابن سعود، ص245).
69. محفوظات وزارة الشؤون الخارجية، باريس، السلسلة E، سوريا-لبنان، 211، قنصلية وزارة الخارجية في لوزان، 14 أكتوبر 1926.
70. المحفوظات الاتحادية السويسرية برن، «إعلان الأمير شكيب أرسلان»، 16 يونيو 1930.
71. توما، بيسانس، 2، ص743.

الفصل الرابع: المدافع عن القومية الإسلامية: المشرق العربي

1. ذكر عند توما، بيسانس، 2، ص745.
2. شكيب أرسلان، «بين الآلام رحم ماسة: واحسرتاه على أحمد باشا تيمور»، الفتح، 22 مايو 1930.
3. شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون؟ ص48.
4. شارل أندريه جولييان: شمال أفريقيا تمضي قدماً.
5. محمد علي علوبة، في كتاب: ذكرى الأمير للظاهر، ص22.
6. بالإضافة إلى الفتح والشورى، نشر أرسلان في مجلات مصرية إسلامية التوجه مثل المنار، وكوكب الشرق، وفي جريدة الإخوان المسلمين أحياناً. ونشر كثير من مقالاته في صحيفة ألف باء التي كانت تصدر في دمشق، والجمعية العربية التي كانت تصدر في القدس.

7. مجلة الأمة العربية (مارس 1930) 1-2. لتقويم مجلة الأمة العربية التي كان المؤلف الراهن يتوافق معها، انظر أنطوان فلوري، "الحركة القومية العربية في جنيف في حقبة ما بين الحربين"، العلاقات الدولية، رقم 19 (1979)، ص 345-353.
8. ذكر في الأرشيف السياسي، ص 15.
9. سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن، FO371/19983/E3334، "الدعاية الإيطالية في الشرق الأدنى"، تقرير ورد في مراسلات مايلز لامبسون [من القاهرة] إلى أنتوني إيدن، 29 مايو 1936.
10. أفضل وصف لموقف السلالة المصرية الحاكمة من الحكم، يمكن الاطلاع عليه من خلال كتاب مصر والخلافة للكاتب إيلي قدوري، ص 177-212.
11. انظر مولد العربية السعودية: بريطانيا وصعود نجم آل سعود لغاري ترولر.
12. يوجد ملخص مفيد للصراع العربي الداخلي من منظور شبه الجزيرة العربية بين دفتي كتاب: شبه الجزيرة العربية في السياسة العربية وسياسة السلطة للكاتب إيه. آر. كيليدار. وكذلك في كتاب: شبه الجزيرة العربية، المجتمع والسياسة، وهو كتاب أعده المحرر ديريل هو بوود، بخاصة، ص 149-145.
13. انظر قدوري، مصر والخلافة، ص 185-195، استنسخت مداولات التجمع في كتاب أخيل الصقلي: "المؤتمران العامان للعام 1926"، مراجعة للعالم الإسلامي، 64، رقم 2 (1926) 29-122.
14. المرجع نفسه، ص 125-219، والمؤتمر الإسلامي في القدس في ديسمبر 1931 للكاتب إنش. آيه. آر. جيب، وكتاب دراسة استقصائية للشؤون الدولية، إعداد (المحرر) آرولد دجي. توينبي، 1934، ص 99-100.
15. انظر كتاب شكيب أرسلان: رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، ص 184، لأن ابن سعود لم ينل من المؤتمر ما كان يتوخاه، فالهيئة لم تبصر النور مطلقاً، وفكرة المؤتمر طواها النسيان إلى أن أحيائها الحاج أمين الحسيني في العام 1931.
16. سيلفيا دجي. حايم، «إلغاء الخلافة»، الفصل الختامي في كتاب الخلافة لتوماس دبليو. آرنولد، الخلافة، ص 229، انظر أيضاً الفكر العربي لهوراني ص 239-244، والإصلاح الإسلامي لكير ص 166-168.
17. حايم، الإلغاء، ص 231.
18. رسالة من أرسلان إلى رضا، 12 مايو 1924، في أمير البيان، 2، الشرباصي، ص 658. ترجم حايم أجزاء من هذه الرسالة وعلق عليها في الإلغاء، ص 231-233.
19. رسالة من أرسلان إلى رضا، 12 مايو 1924، في أمير البيان، 2، للشرباصي، ص 660.

20. رسالة من أرسلان إلى رضا، 3 يوليو 1924، في المرجع نفسه، ص 669.
21. أرسلان: «أزفت ساعة الاتحاد أيها العرب!»، الشورى، 27 أغسطس 1925.
22. رسالة من رضا إلى أرسلان، 18 أبريل 1929، في كتاب أرسلان: السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، ص 529. ويمكن الاطلاع على مزيد من المصادر فيما يتعلق بهذا الجزء من حج أرسلان من خلال وصف رضا للموضوع في المرجع نفسه ص 181-187، ومن خلال رسائل إلى رضا المدرجة في كتاب أمير البيان، 26، للشرباصي، ص 696-700. وللإطلاع على أمثلة عن تعزيز الشعبية والدعاية التي أحاطت بالرحلة، انظر الشورى، 24 أبريل، والأول من مايو 1929، والفتح، 2 مايو 1929.
23. رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة لشكيب أرسلان ص 183. أعضاء الوفود المختلفة ومنهم أصدقاء أرسلان القدامى، عبد الرحمن عزام وأحمد زكي، والمحررون الذين ينشرون كتاباته، محمد علي الطاهر ومحب الدين الخطيب وأحمد حافظ عواد، وزميله المنظم عبد الحميد سعيد، رئيس اتحاد الشباب المسلم، وأحمد شفيق، رئيس الجمعية المصرية. ويمكن الاطلاع على البيان الأوفى المتعلق بهذه المناسبة في الفتح، وفي العدد الصادر في 16 مايو 1929. وانظر أيضاً الشورى، 15 مايو 1929.
24. رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، ص 184، لشكيب أرسلان.
25. أرسلان، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، ص 12. مفكرة اليوميات، دليل السفر، ونبذة تاريخية. يتضمن هذا العمل إحدى إشارات أرسلان بآبن سعود. ويتضمن أيضاً مقدمة مثيرة حُطَّها رشيد رضا تشهد بنبل شكيب أرسلان في أدائه فريضة الحج.
26. موقف ابن سعود من أرسلان موثق في سجلات وزارة الخارجية-مكتب السجل العام (لندن) بالرقم المرجعي E3707/13740/FO371، وثيقة (جدة) إلى القاهرة، 28 يونيو 1929، وبالرقم المرجعي: E5146/13740/FO371 وثيقة إلى القاهرة، 18 سبتمبر 1929، رواية أرسلان لعرض الموقف في رسالة مرسلة إلى رضا، 27 المحرم 1348هـ. في أمير البيان، 2، للشرباصي، ص 705.
27. أرسلان، الارتسامات، ص 10.
28. المرجع نفسه، ص 11.
29. رسالة من أرسلان إلى رضا، 3 المحرم 1348هـ، ص 702-703. انظر أيضاً الارتسامات لأرسلان، ص 12، و"محاولة اغتيال الملك عبد العزيز آل سعود"، مجلة الأمة العربية (مارس-أبريل 1935)، 225-226.

30. في «محاولة الاغتيال»، ص225، أُشِيرَ إلى العاهل الحجازي بوصفه «الفارس الذي لا يعرف الخوف»، وفي مقطع آخر، لاحظ أرسلان بكثير من الفخر أن ابن سعود خاض غمار أكثر من مئتي معركة فردية («انتصار ابن سعود»، مجلة الأمة العربية مارس 1930، 31).
31. أرسلان، «كيف أن العرب غرباء في بلادهم»، الفتح، 6 فبراير 1930.
32. سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن E5146/13740/FO371، وثيقة إلى القاهرة، 18 سبتمبر 1929.
33. أرسلان، شوقي، ص82، لم يُلبَّ الدعوة مطلقاً، ومات شوقي في العام 1932 من دون أن يرى أرسلان مجدداً على الإطلاق.
34. «مرور الأمير شكيب بالقطر المصري»، الشورى، 9 أكتوبر 1929.
35. أرسلان، «كيف أن العرب غرباء في بلادهم»، الفتح، 6 فبراير 1930.
36. نشرت تقارير عن المؤتمر في ديترويت الإخبارية، 17 يناير 1927، وفي ديترويت للصحافة الحرة، 17 يناير 1927.
37. ديترويت للصحافة الحرة، 18 يناير 1927. على الرغم من أن ناشر «السائح»، عبد المسيح حداد، له تحفظات واضحة على أرسلان تتعلق بمظالم طائفية الطابع، فإن تعليقاته، على أجواء الترويج للذات التي أحاطت برحلة الأمير الأمريكية والتي لا هواده فيها، بدت صائبة وفي محلها. ويمكن العثور على ملاحظات لاذعة بحق أرسلان في العمود الذي كان يكتبه حداد تحت عنوان: «ما بين السطور»، وتحديدًا في الأعداد التي صدرت في 10 يناير، و7 و17 و21 فبراير، و10 و17 و21 مارس 1927.
38. نشرت تقارير صحفية أسبوعية في مطبوعة الشورى من 3 فبراير حتى 27 مايو 1927.
39. سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن E2935/13740/FO371، القاهرة إلى جدة، 28 مايو 1929. لقد كان تحديداً ملائماً للأنشطة المناهضة للإمبريالية جميعها، وفي عددها الذي صدر في 20 فبراير 1926، زعمت المجلة الباريسية، مناقشات، أن أرسلان ترأس لجاناً وهيئات سورية كانت تتلقى الأوامر من موسكو.
40. تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا والجزائر والبحر المتوسط، محاولات لإظهار مدى اتساع رقعة التأثير العربي الذي لم يقتصر على إسبانيا، بل تعداها ليشمل أجزاء أخرى من أوروبا أيضاً. وفضلاً عن هذا الكتاب، قدم أرسلان عملاً مؤلفاً من ثلاثة مجلدات عنوانه: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية. وعلى الرغم من الوقت الذي بذله أرسلان والجهد الذي كرسه لكتابة هذه المجلدات، فقد كانت عقيمة وقائمة على الحذقة وضئيلة الإسهام لجهة طرح معلومات جديدة عن إسبانيا الإسلامية. واعتمدت هذه المجلدات، في

حقيقة الأمر بشدة، على أعمال عالمين أوروبيين في التاريخ، وهي التي كتبت أصلاً لغرض دحض مزاعمهم.

41. زعم الأمريكي لبناني الأصل، أمين الريحاني أنه عثر على بقايا الروح العربية في إسبانيا، ورأى محمد كرد علي فيها بذرة صالحة لإحياء معاصر لعظمة العرب. انظر أنور شيني: «أمين الريحاني والأندلس: رحلة في التاريخ»، الرابعة، 9 (1976)، 9-18.

42. أرسلان، تاريخ الغزوات، ص5-6.

43. رسالة من أرسلان إلى رضا، الأول من سبتمبر 1932، في أمير البيان، 2، للشرباصي، ص796-798. أدى أرسلان ما عليه بنشره سلسلة من المقالات عن الإسلام في منطقة البلقان كتبها إسماعيل آغا دتشيماوفيتش، الذي عرفه أرسلان بقوله "مراسلنا في منطقة البلقان". انظر مجلة الأمة العربية (أبريل-يونيو 1933)، 38-48، "المسلمون في رومانيا"، المرجع نفسه (يناير-فبراير 1935)، 218-222، "المسلمون في يوغوسلافيا"، المرجع نفسه (مارس-أبريل 1935)، 268-276.

44. جهوده وبواعث قلقه مدرجة وموصوفة في رسالة بعث بها إلى رضا في الثامن من ربيع الثاني من العام 1352هـ، ويمكن الاطلاع عليها في كتاب: أمير البيان، 2، للشرباصي، ص815-818.

45. البيان الأوفى عن محاضر الجلسات قدمه مروج آخر من المروجين للمؤتمر هو علي الغاياتي في مقال نشر في: منبر الشرق، 31 أكتوبر 1935. ويمكن العثور على نسخة الجاهري من محاضر الجلسات نفسها في مجلة الأمة العربية (يوليو-سبتمبر 1935)، 369-385. وللإطلاع على التهم التي كالتها الصحافة العربية وزعمت فيها أن المؤتمر كان مغامرة دعائية إيطالية، انظر الشرق الحديث، 15 (أكتوبر 1935)، 501-504، والمرجع نفسه، 15 (نوفمبر 1935)، 563-567.

46. مقال بقلم «مندوب» في مجلة: بريطانيا العظمى والشرق (26 سبتمبر 1935)، 396-397. محفوظ في ملف لدى سجلات وزارة الخارجية-مكتب السجل العام لندن برقم: E5821/18925/FO371 وأعرب مسؤول في وزارة الخارجية عن سعادته لأن مشاعر أرسلان تنير شيئاً من المعارضة.

47. للإطلاع على أمثلة على الالتماسات التي تقدم بها الوفد السوري الفلسطيني، انظر مجلة الأمة العربية، «فلسطين الضحية» (سبتمبر-أكتوبر 1934)، 1-23، والمرجع نفسه (إصدار خاص مايو-أغسطس 1936) 561-574. جرى تطوير الالتماسات بعناية، وصارت، في معظم الأحيان تورد نَقْطاً عن الممارسات الإدارية البريطانية في فلسطين الخاضعة لانتدابها.

48. قدم كل طرف نسخة من المحادثات، «زيارة بن غوريون للوفد السوري الفلسطيني في جنيف»، مجلة الأمة العربية (نوفمبر-ديسمبر 1934) 144-146، ديفيد بن غوريون: محادثاتي مع قادة عرب، ترجمة: إيه روبنشتاين وإم لوفيش، ص35-40.

49. كان موقف أرسلان الأساسي قد عرض في سلسلة من المقالات تحت عنوان عام هو: «الصهيونية من أصلها اعتداء محض» الشورى في أعدادها التي صدرت في 16 و23 أكتوبر، وفي 6 نوفمبر 1929.

50. أرسلان، «لماذا تصر إنكلترا على تأسيس مملكة يهودية في الشرق»، الشباب، 17 نوفمبر 1937.

51. سجلات شرائط الأفلام المجهزية، رول L1279. رسالة من أرسلان إلى بروفير، 3 أكتوبر 1933. الإطاران: L332805-L332806.

52. الخطيب، «يوم المسجد الأقصى»، الفتح، 12 سبتمبر 1929. كان الخطيب مصرأ على هذه النقطة شأنه في ذلك شأن أي كاتب في عصره. انظر في المرجع نفسه ما كتبه تحت عنوان: «اليهود ينتهكون حرّامات الأماكن الإسلامية المقدسة»، 3 أكتوبر 1928. و«دم الهراطقة في القدس»، المرجع نفسه 29 أغسطس 1929، و«تهويد فلسطين»، المرجع نفسه، 17 جمادى الأولى 1352هـ. يمكن الاطلاع على تحليل متميز للمبادرة التي أطلقتها مجموعات مصرية ذات توجه ديني في طرح فلسطين بوصفها جزءاً من قضية أكبر منها للكاتب جمس يانكوفسكي. في مقال له عنوانه: «الردود المصرية على المشكلة الفلسطينية في حقبة ما بين الحربين»، ونشر في المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، 12 (1980). وعلى وجه الخصوص ص20-28.

53. منذ تعيينه مفتياً للقدس في العام 1921 وحتى قيام «دولة إسرائيل» في العام 1948، كان الحسيني (1897-1974) القائد العربي الفلسطيني الأبرز في عصره في الساحة الدولية. وبوصفه رئيساً للجنة العربية العليا ورئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين، كان يتمتع بسلطة ويحظى بهيبة استخدمهما ضد معارضيّه السياسيين المحليين بقدر ما استخدمهما ضد البريطانيين والصهاينة. الحسيني، وهو الشخص البارز المثير للجدل، تشوّهت سمعته بسبب ارتباطه مع النازيين أثناء الحرب العالمية الثانية. واستعمل المفتي الدين بوصفه سلاحاً سياسياً على نحو يشبه إلى حد كبير أسلوب أرسلان في استعمال الدين. وكانت تربط بين الرجلين صداقة شخصية فضلاً عن كونهما متحالفين سياسياً. وجرى بحث أهدافه وأنشطته عن كثب من قبل واي، بوراث، في بحث عنوانه: ظهور الحركة القومية العربية الفلسطينية، 1، 1918-1929، والحركة القومية العربية الفلسطينية، 2، 1929-1939.

54. أرسلان، «جامعة المسجد الأقصى»، الفتح، 22 رمضان 1351هـ.

55. الجابري، «مؤتمر عموم المسلمين»، مجلة الأمة العربية، (نوفمبر-ديسمبر 1931)، 1.

56. أرسلان، «جامعة المسجد الأقصى».

57. أرسلان، «إن عجزت الأمة العربية، الشباب، 5 أكتوبر 1938. وانظر أيضاً أرسلان: "قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواءاً"، المرجع نفسه، 7 ديسمبر 1938. بعد اندلاع الثورة بوقت قصير، كتب حسن البنا، زعيم جماعة الإخوان المسلمين، في سياق مماثل: "أيها الإخوة! لا ينتهي وطنكم عند حدود مصر، بل يمتد إلى كل أرض فيها مسلم يقول: لا إله إلا الله". ورد هذا في "الردود المصرية"، ص12 ليانكوفسكي.
58. أرسلان، «فلسطينكم أيها العرب»، الشباب، 4 يناير 1939.
59. سمات نظام حكم الإمام يحيى حللها روبرت دبليو. ستوكي في اليمن: سياسة الجمهورية العربية اليمنية، ص185-212. كما حللها ما نغرد دبليو. وينير في اليمن الحديث: 1918-1966.
60. كشف النقاب عن أصول دعوة أرسلان في رسائل أرسلها رضا إليه، 23 ذو الحجة 1352هـ والرابع من الشهر المحرم 1353هـ وفي السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة لأرسلان، ص736-739، و740-741، وانظر أيضاً "وقد الأمل والسلام" لرشيد رضا، وقد أعيد طبعه في المرجع نفسه، ص188-193. وكان عضوا الوفد الآخرا هما هاشم بك الأتاسي، زعيم الكتلة الوطنية السورية، ورجل السياسة المصري، محمد علي علوبة.
61. فينير، اليمن الحديث، ص142. للاطلاع على تفاصيل المفاوضات التي انعقدت بين ابن سعود والإمام يحيى، انظر الشرق الحديث، 14 (مايو 1934) 231-247.
62. أرسلان، «السلام الأخوي بين الحكام العرب»، مجلة الأمة العربية (سبتمبر-أكتوبر 1934)، 47.
63. رسالة من رضا إلى أرسلان، 3 ربيع الثاني 1353هـ، في كتاب السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة لأرسلان ص742.
64. سجلات وزارة الخارجية-مكتب السجل العام، لندن E4384 و E3847/17831/FO371 (1934) يتضمن هذا الملف المراسلات وبرقيات عن هذه المسألة.
65. رسالة من دو مارتيل، 3 أغسطس 1934، ورد ذكرها في الأرشيف السياسي، ص19. نسخة أرسلان الخاصة من روايته التي يصف فيها رحيله السريع من فلسطين متساوقة مع هذه الوثيقة (انظر السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة لأرسلان، ص-744 رقم 1).
66. رسالة من أرسلان إلى رضا، 9 نوفمبر 1930، في أمير البيان، 2، للشرباصي، ص720.
67. أرسلت رسائل عديدة إلى أرسلان من عملائه اللبنانيين في إدارة المحفوظات الاتحادية السويسرية في برن، في العام 1928، تعلمه أنهم ينتظرون أوامره أو يحاولون اتباع تعليماته حيال جمع المحاصيل أو تشييد مبنى وما شابه.
68. رسالة من أرسلان إلى رضا، 21 ديسمبر 1930 في أمير البيان، 2، للشرباصي، ص733.

69. رسالة من أرسلان إلى رضا، 18 ذو الحجة 1352هـ، المرجع السابق نفسه، ص 820.
70. شكيب أرسلان للشرباصي، ص 287.
71. رسالة من أرسلان إلى رضا، 10 ربيع الثاني 1354هـ، المرجع السابق نفسه ص 836-837.
72. نسخة أرسلان من كتاب: السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة لشكيب أرسلان، ص 262-263، و 272، ورضا في المرجع نفسه ص 189-190.
73. سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن: E3847/17831/FO371، أرسلان إلى أكهوب، 1 مارس 1934.
74. محفوظات وزارة الشؤون الخارجية، باريس، سلسلة E، الحجاز العربي 36، رسالة من أرسلان إلى مراسلة خاطبها قائلاً: "عزيزتي السيدة المحترمة"، 21 ديسمبر 1928.
75. تستند مناقشة أحداث سوريا اللاحقة إلى الفصلين السادس والسابع من كتاب لونغريغ: سوريا ولبنان.
76. «الأمير شكيب» للكاتب ليفي بروفنسال، ص 16. لقد كان هذا مؤثراً، كتب الجابري هذا عقب اجتماعه مع مفوضين سوريين، ولم ينشر هو ولا أرسلان أي شيء كان يمكن أن يسبب لهما صعوبات (الجابري، "الانفراج"، مجلة الأمة العربية (يناير-أبريل 1936)، ص 468.
77. «الأمير شكيب» بقلم ليفي بروفنسال، ص 16، الشرق الحديث 17 (مارس 1937)، 139-140.
78. أرسلان، «المعاهدة الفرنسية السورية»، مجلة الأمة العربية (سبتمبر-نوفمبر 1936)، 641-648. ويلاحظ لونغريغ أنه كان يمكن التوصل للمعاهدة بين الأطراف ذاتها على المنوال نفسه قبل عشر سنوات (سوريا ولبنان، ص 222). وعلى قضايا حساسة من قبيل الفصل بين سوريا ولبنان، وجود بعثات عسكرية فرنسية، والاعتماد الحصري على فنيين ومستشارين مدنيين فرنسيين، والمدة المؤثرة الفاعلة للمعاهدة (خمسة وعشرون عاماً)، فإن مشروع معاهدة العام 1936، في كل ما ذكر، عكس مقترحات أرسلان الأصلية. وأعيد نشر نسخة عن مشروع المعاهدة في كتاب سوريا ولبنان للهوراني، ص 314-320.
79. أرسلان، «هل عدو فرنسا هو أنا؟» مجلة الأمة العربية (يناير-أبريل 1938)، 797-801.
80. ورد ذكر الرسالة في: النشاط السياسي، ص 28. ومن هنا سرت الإشاعة، التي جرى بحثها في الفصل السابع من هذا الكتاب: الإشاعة، التي زعمت أن فينوت دفع لأرسلان 500,000 فرنك فرنسي لقاء تعاونه.
81. النشاط السياسي، توفر هذه الوثيقة التقرير الأكثر اكتمالاً عن وصول أرسلان إلى سوريا وتصرفاته فيها. يمكن الاطلاع أيضاً على التفاصيل في: الشرق الحديث، 17 (يوليو 1937)، 329-332.

82. ما قاله ديسبارمت عن وجود عشرين ألفاً حاضرين في بيروت من أجل استقبالهم يعد قولاً مبالغاً فيه للغاية. فتقديرات السلطات الفرنسية المعقولة التي تشير إلى أن ثلاثة آلاف كانوا في استقبالهم في المبنى البلدي في دمشق كانت تصف مناسبة مؤثرة وجياشة بالعواطف تدليلاً على أن العشرين ألف أنفة الذكر عدد مبالغ فيه. انظر على التعاقب: دجي ديسبارمت، «عموم شمال أفريقيا مساندة للعرب. شمال أفريقيا تتطلع إلى دمشق»، وأفريقيا الفرنسية، 68 (فبراير 1938)، 57، والنشاط السياسي، ص32.
83. «شكيب وإحسان في الوطن»، الشباب، 16 يونيو 1937. بذل الطاهر قسارى جهده، مغطياً الصفحة الرئيسية بصور الاحتفالات المتنوعة وعناوينها (انظر الشباب 3 و9 و23 يونيو 1937).
84. النشاط السياسي، ص31.
85. مقتطفات من الخطاب وتقارير عن رد الفعل المسيحي يمكن الاطلاع عليها في المرجع نفسه. ص33-34. وفي الشرق الحديث، 17 (يوليو 1937)، 331-332 وقدم أرسلان نسخة غير مكتملة من تصريحاته، مجلة الأمة العربية (يناير-أبريل 1938) 853-855.
86. إيلي قدوري، «مؤتمر بلودان الخاص بفلسطين»، الدراسات الشرق أوسطية، 17 (يناير 1981)، ص107. استنسخ هذا المقال تقارير وزارة الخارجية البريطانية عن المؤتمر كان قد قدمها القنصل البريطاني المقتدر في دمشق. انظر أيضاً بوراث: الحركة الفلسطينية القومية العربية، 2، ص231-232.
87. مذكور في: النشاط السياسي، ص31.
88. روبرت مونتاني، «ردود الفعل العربية المناهضة للصهيونية. مؤتمر بلودان»، محادثات بشأن التطور الحضاري في الوطن العربي، 3 (1939)، 46.
89. مذكور لدى قدوري «بلودان»، ص117.
90. النشاط السياسي، ص36.

الفصل الخامس: معلم جيل: شمال أفريقيا

1. رسالة من أرسلان إلى رضا. 26 أغسطس 1930. في أمير البيان، 2. للشرياصي. ص714.
2. دجي ديسبارمت، «شمال أفريقيا والعروبة جمعاء: شمال أفريقيا تتطلع إلى دمشق». أفريقيا الفرنسية، 68 (فبراير 1938)، 56.
3. جوليان، شمال أفريقيا تمضي قدماً، ص25.

4. قضية المغربي عموماً قبل الحرب (نسبة إلى المغرب العربي) والمغربي، بخاصة (نسبة إلى المملكة المغربية) المتعلقة باتصالاته مع الشرق الأوسط تناولها بالبحث على نحو مقنع إدmond بيرك 3. ويستند هذا القسم من الكتاب إلى أعماله "المقاومة المغربية، والجامعة الإسلامية، واستراتيجية الحرب الألمانية، 1914-1918"، فرنسية (ميونخ)، 3 (1975)، 434-464، "الجامعة الإسلامية، والمقاومة المغربية، والاختراق الاستعماري الفرنسي، 1900-1912"، مجلة التاريخ الأفريقي، 13 (1972)، 97-118، وتمهيد للمحمية في المغرب: الاحتجاج والمقاومة في حقبة ما قبل الاستعمار، 1860-1912، وأخص بالذكر الفصلين 6 و9.
5. مذكور عند نقولا إيه. زيادة، أصول القومية في تونس، ص80.
6. المرجع نفسه، ص86.
7. كان بينهم البروفسور كمبفير. الذي مر ذكره في الفصل الثالث من هذا الكتاب، وماكس فون أوبنهايم الذي بحث في علاقته مع أرسلان في الفصل السابع من هذا الكتاب، وانظر «استراتيجية الحرب الألمانية لبيرك»، ص440.
8. التقويم هو تقويم أرسلان الوارد في سيرته الذاتية، ص269. انظر أيضاً "شمال أفريقيا تتحرك" لجوليان، ص25.
9. إدmond بيرك 3، "الجامعة الإسلامية ومقاومة شمال أفريقيا، 1890-1918: نماذج الرد"، بحث لم يجد طريقه إلى النشر.
10. إحياء أمة، الفصل السابع لجون بي. هالستيد.
11. منذ مطلع العشرينيات، حين كانوا تحت وصاية أرسلان، وحتى تشكيل حزب الاستقلال في العام 1944، كان هؤلاء الرجال دائمي المشاركة في الحركة الوطنية المغربية، بل وفي القلب منها. وشأنهم شأن أرسلان نفسه، لم يمكثوا طويلاً في مكان بعينه. ولأنهم كانوا يتابعون دراسات جامعية، ما لم يكونوا في كل الحالات حاصلين على درجات وإجازات جامعية، كانوا يتنقلون دوماً جيئة وذهاباً بين كل من باريس، والمغرب، وجنيف، ينظمون جمعيات، ويحررون مجلات، ويقودون أحياناً مظاهرات. وكان الوزاني (1910-1978) من أسرة الفاسي هو القوة المهيمنة حتى العام 1937، عندما دب الخلاف بينه وبين علال الفاسي على خلفية نزاع على زعامة الحزب الوطني. وكان الفريخ (المولود في العام 1907؟) أيضاً في قلب الحركة منذ بدايتها عندما برز بوصفه المدير الفعلي للاستقلال من موقعه حيث كان سكرتيراً عاماً للحزب. وينحدر الناصري (المولود في العام 1904) من الرباط، وتلقى علومه في جامع الأزهر الشريف، وفي جامعة السوربون، وفي جنيف في أوقات كان فيها منخرطاً في أنشطة مناهضة للفرنسيين، وغالباً ما كانت هذه الأنشطة تنعقد في ظل تعاون وثيق بينه وبين أرسلان. وفي العام 1937، أسس حزب الوحدة المغربية في تطوان وظل يتزعمه إلى أن تم استيعابه في بوتقة الاستقلال. ولعب محمد الفاسي دوراً مهماً في تنظيم المغاربة في أوروبا، وأصبح عضواً مؤسساً في تحقيق الاستقلال. لقد جرى تجميع معلومات عن هؤلاء الأشخاص

من مراجع مختلفة تتعلق بهم من هالستيد، وريبرث، وروبرت ريزيت. الأحزاب السياسية المغربية.

12. روجر لوترنو، التطور السياسي عند مسلمي شمال أفريقيا، 1961-1920، 194. 466-465. هالستيد، ريبيرث، ص171-172.

13. هالستيد، ريبيرث، ص161. انظر أيضاً ريزيت، أحزاب، ص6

14. هالستيد، ريبيرث، ص132.

15. المرجع نفسه، ص129، معالجة هالستيد لدور أرسلان في الحركة الوطنية المغربية مستمدة إلى حد بعيد من مقابلات مع مشاركين مغاربة، وهي أفضل وأجدر اعتماداً مما جاء في بحث جوليت بسيس عن الموضوع نفسه تحت عنوان: "شكيب أرسلان وحركات المغرب الوطنية"، مراجعة تاريخية، 259 (1978)، 467-489.

16. ليفي بروفنسال، «الأمير شكيب»، ص12.

17. البيان الأكثر اكتمالاً عن زيارة أرسلان لمحمد بينونة يمكن الوقوف عليه تحت عنوان: «الأمير المجل شكيب أرسلان في المغرب»، الفتح، 24 جمادى الأولى 1349 هـ. كما يقدم كتاب: "الأمير شكيب" للمؤلف ليفي بروفنسال، ص11-12، بعض التفاصيل عن هذه الرحلة التي أدرجت أحداثها في كتب معظم المؤلفين اللاحقين. وأورد أرسلان ذكريات مختارة في كتابه: عروة الاتحاد بيان أهل الجهاد، ص143-146.

18. ريزيت، الأحزاب ص72. حيث زُعم أيضاً أن عبد السلام قابل أرسلان في المشرق، وكانت هذه المقابلة مناسبة جعلته يغدو عميل الأمير في المغرب. ويبدو هذا الأمر غير مرجح. وقد أُعرب عن تقدير أرسلان العالي لبينونة من خلال مقال النعي والتأبين المفعم بالثناء والذي نشر في مجلة الأمة العربية (يناير-فبراير 1935)، 209-210.

19. أحمد بلغريج، «شكيب أرسلان في المغرب»، الفتح، 17 جمادى الأولى 1349. وبعد سنوات قليلة أخبر أرسلان تجمعا للاتحاد العالمي للشباب المسلم في باريس أنهم حافظوا على "دينهم وروحهم العربية" على نحو أفضل مما فعل العرب المشاركة (دجي ديسبارمت، "شمال أفريقيا والعروبة جمعاء"، ص56).

20. بينونة، «أرسلان في المغرب» أن تظهر هذه البيانات المختلفة جميعها عبر صحيفة الفتح التي كانت تتخذ من القاهرة مقراً ومنطلقاً لها لهو أمر يشير إلى أن أرسلان كان ناجحاً جزئياً على الأقل في تحقيق هدفه المتمثل في نشر القضية المغربية في المشرق.

21. المرجع نفسه.

22. التحليل الأفضل للظهير وعلاقته بالسياسة الفرنسية الخاصة بالبربر على وجه الإجمال يمكن الاطلاع عليه في: «السياسة البربرية في المحمية المغربية بين العامين 1913-1934»، للكاتب تشارلز روبرت أغيرون، وفي كتابه: التاريخ الحديث والمعاصر، 18 (يناير-مارس 1971)، 50-90. وللإطلاع على تأثيره على النزعة الوطنية المغربية، انظر هالستيد، الإحياء، ص68-

- 74، جوليان، شمال أفريقيا تمضي قدماً، ص131-135، ولوتونو، التطور السياسي، ص180-185. أعيد نشر الظهير في كتاب الإحياء لهالستيد في ص276-277.
23. أسس الكاردينال لافيغري مقرأ في قرطاج لرهينة دينية كاثوليكية خاصة تحت اسم الآباء البيض مرتبطة بالسياسات الفرنسية في شمال أفريقيا. وعقد في مقر هذه الكاتدرائية مؤتمر أفخارستي (نسبة إلى سر القربان المقدس) بعد شهر من صدور مرسوم الظهير البربري. بالنسبة للمسلمين، عُدَّت هذه التصرفات التي كشفت عن إصرار مسيحي عملاً استفزازياً. انظر: شمال أفريقيا الفرنسية: المغرب بين الحربين العالميتين، لمؤلفه جاك بيرك، ترجمة جان ستوارت، ص217-224.
24. "المحاكم البربرية"، مجلة الأمة العربية (أغسطس-سبتمبر 1930)، 28. ظهرت التباينات حيال هذا الموضوع في مقالات عديدة لأرسلان نشرت في مجلة الأمة العربية. انظر، على سبيل المثال، "لسنا موتى" (نوفمبر 1930)، 1-3. و"تعليق على تعسف الرأي العام في فرنسا" (فبراير 1930)، 6، و"رد على قديس المغرب" (مايو-يونيو 1931)، 5-8. عبر أيضاً عن هذه الآراء بصورة شخصية. انظر رسائل من أرسلان إلى رضا، 26 أغسطس، و9 نوفمبر 1930، في كتاب أمير البيان، 2، للشرياصي، ص712-714، و721.
25. أرسلان، «المحاكم البربرية»، ص27.
26. أرسلان، «القضية البربرية»، مجلة الأمة العربية (نوفمبر 1930)، 25.
27. أرسلان، «مسألة إخراج البربر من الإسلام»، الفتح، 17 جمادى الأولى 1349. الاقتباسات فيما تبقى من الفقرة مستمدة من هذا المقال.
28. أرسلان، «الاحتجاج على فرنسا من أجل مسألة البربر»، الفتح، 29 جمادى الآخرة 1349هـ. وفي هذا الوقت، دعا أرسلان أيضاً إلى مقاطعة البضائع الفرنسية من قبل جماهير المسلمين. ولاقت دعوته بعض الاستجابة الإيجابية من قبل المسلمين الهنود. ولكن لم ترق هذه الفكرة للتجار المصريين، ولم تكتسب زخماً قط (انظر أفريقيا الشمالية تمضي قدماً لجوليان، ص133).
29. ظهر تقويم أرسلان لقوة الاحتجاج في: «القضية البربرية»، ص21-30. كما نشر تحت عنوان: "أصداء القضية البربرية" في مجلة الأمة العربية، فبراير 1931، 5. وظهر دليل تأييدي يعزز ما ذكر في: "السياسة البربرية"، لأريغون، ص82-84، وفي حركات الاستقلال في شمال أفريقيا العربي بقلم علال الفاسي، وترجمة حازم زكي نسيبة، ص124-125، وفي "التطور السياسي والثقافي لمصر المعاصرة". محادثات بشأن تطور الحضارة العربية، رقم 3 (1937)، 70. وثورة المغرب لروبرت مونتاني، ص184-186. وكان ينظر إلى مجلة الأمة العربية من قبل السلطات الحمائية بوصفها أداة تخريبية، وحظرت في المغرب في شهر أغسطس من العام 1930، على الرغم من أنه استمر تهريب نسخ منها إلى داخل البلد. (هالستيد، الإحياء، ص127).

30. القرار الذي أرسل إلى عصبة الأمم، نشرت نسخة منه في مجلة الأمة العربية (مايو - يونيو 1932)، 33، 34.
31. مر ذكره في: المغرب في مواجهة الإمبريالية لتشارلز أندريه جوليان 1415-1956، ص161.
32. كان هذا نصراً حقيقياً، ولكن كما يلاحظ هالستيد، لم يؤد ذلك إلى تخلي الفرنسيين عن السياسة البربرية الفرنسية التي تعد الأراضي البربرية مناطق مميزة (الإحياء، ص186-187).
33. في اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة في العامين 1952 و 1953، قالت وفود إسلامية من بلاد شرق أوسطية لأحد المراسلين إنها أحيطت علماً، لأول مرة، بالمشكلة المغربية من خلال الاحتجاج على الظهير (روم لاندو، الدراما المغربية، 1900-1955، ص147-148).
34. التطور السياسي، ص185.
35. أثرت اعتراضات أرسلان خلال المرحلة الأخيرة من إعادة احتلال ليبيا عندما تبنى الجنرال غراتسياني في العامين 1930 و 1931 تقنيات حرب مكافحة التمرد لإخضاع المقاومة في منطقة الجبل الأخضر من برقة. ويشير السجل التاريخي إلى أن الاحتجاج لم يكن يفتقر إلى أساس يرتكز عليه (انظر إي. إي. إيفاس-بريتشارد، سنوسي برقة).
36. رسالة من أرسلان إلى رضا، 22 مايو 1931، في أمير البيان، 2، للشرباصي، ص754.
37. أرسلان، «فضائح الطليان في طرابلس الغرب»، الفتح، 21 ذو القعدة 1349، و «عمليات حروب العصور الوسطى عادت إلى الحياة لدى الفاشيين الإيطاليين»، مجلة الأمة العربية (أبريل 1931) 8، وظهرت بلاغة مماثلة في بيانات أرسلان التي كتبها عن إعادة الاحتلال. انظر، على سبيل المثال، مقالاً آخر عنوانه: «فضائح إيطالية في طرابلس الغرب»، الفتح، 19 ذو الحجة (1349)، واحتلال الكفرة، مجلة الأمة العربية فبراير 1931، 13-16. مقال أنثولوجي (خاص بالعروق والأجناس البشرية) تاريخي مدرج في: حاضر العالم الإسلامي، 2، ص64-128.
38. أرسلان، «عمر المختار»، مجلة الأمة العربية (سبتمبر - أكتوبر 1931)، 6.
39. أرسلان، «فضائح الطليان»، 21 ذو القعدة، وفي مقاله وعنوانه: «مصر والاستعمار اللاتيني في شمال أفريقية»، الفتح، 10 جمادى الآخرة 1350، كان أرسلان في هذا المقال رافضاً للتيارات الفكرية المتوسطة والفرعونية التي كانت تلاقي رواجاً في أوساط قطاع معين من أهل الفكر والنخبة المصرية المثقفة في حينه.
40. الأرشيف التاريخي لوزارة الشؤون الخارجية، روما، ليبيا، مغلف 7. 1933. A.P.3.Pos.1.1، "مظاهرات إسلامية مناهضة لإيطاليا. شكيب أرسلان"، قنصلية وزارة الشؤون الخارجية، جدة. برقيات من 23 أبريل و18 مايو 1931، والقنصل العام (بيروت) إلى وزارة الشؤون الخارجية، 16 يونيو 1931. انظر أيضاً الوثائق الدبلوماسية الإيطالية السلسلة السابعة.

- 1922-1935، مجلد رقم 10، روما، 1978، من مفوضية القاهرة إلى وزارة الشؤون الخارجية، 8 مايو 1931، ص 389-390، ويشار إليها فيما يأتي بالرمز DDI.
41. DDI، 10، وزير الخارجية إلى مختلف القناصل في شمال أفريقيا والشرق الأوسط، 20 أبريل 1931، ص 326-327.
42. الأرشيف التاريخي لوزارة الشؤون الخارجية، روما ليبيا، مغلف 7، 1933، Pos 1-1، دو بونو (وزير المستعمرات) إلى وزير الشؤون الخارجية، 20 يوليو 1931.
43. أرسلان، «رد قديس المغرب»، ص 5-6.
44. هالستيد، إحياء، ص 130.
45. المرجع نفسه، ص 146-147، جوليان، شمال أفريقيا تمضي قدماً، ص 148.
46. المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، رسالة من أرسلان إلى بلفيرج، 19 فبراير 1938. وأيضاً 3 مارس 1938. من الواضح أن بلفيرج كان أثراً جداً عند أرسلان. ولدى سؤاله من قبل السلطات السويسرية عن 500 فرنك سويسري تقريباً كان قد أرسلها له إلى مصحح كان يستشفى فيه، أجاب أرسلان قائلاً إنه فعل ذلك لأنه يعد بلفيرج ابنه الثاني بعد غالب (المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، "تحقيق أولي في محضر رسمي"، 15 أكتوبر 1938).
47. بسيس، «شكيب أرسلان»، ص 484.
48. ريزيت، الأطراف، ص 84. أكد ذلك الباحث الفلسطيني أكرم زعتر، الذي أشار إلى "المهمة المغربية في نابلس" ووصف تأثيرها على الشباب الفلسطينيين خلال الحملة المناهضة للظهير البربري، وذلك فيما كتبه تحت عنوان: "رسالة تاريخية من الأمير شكيب أرسلان تتعلق بجهود فرنسا لإخراج البربر من الإسلام"، تهامة (جدة)، 16 سبتمبر 1983. أنا مدين للبروفسور فرحات ج. زيادة لإمدادي بهذا المرجع.
49. شمال أفريقيا تمضي قدماً، ص 151، لجوليان.
50. في معرض نعي مثير للمشاعر ويجيش بالعاطفة، دعا أرسلان لونغ بالصديق رفيع المكانة وعطر السمعة على مدى عمر الصداقة التي دامت عشرين سنة، مجلة الأمة العربية (سبتمبر-ديسمبر 1938)، 1192-1193. ولونغ، وهو حفيد لكارل ماركس، كان مشرفاً على تحرير مطبوعة: الشعب، وهو من أوائل أعضاء الحزب الذين أثاروا القضية الاستعمارية. وبين الدراسات والمطبوعات واسعة النطاق التي تناولت موضوع الاشتراكية الفرنسية بين الحربين، والكتاب الأوثق صلة بهذه الدراسة هو ذاك الذي كتبه مانويلا ساميدي تحت عنوان: "الاشتراكيون الفرنسيون والمشكلة الاستعمارية بين الحربين (1919-1939)"، المجلة الفرنسية للعلوم السياسية، 18 (1968)، 1115-1153.
51. أرسلان، «تعليق على تعسف الرأي العام في فرنسا»، ص 6.
52. هالستيد، الإحياء، ص 206-208.

53. انظر عينات من الإسهامات الفرنسية عند سامدي تحت عنوان: «الاشتراكيون الفرنسيون»، ص 1136-1137، و1139، و1141. وأعرب أرسلان عن سروره بهذا الجهد الذي بذله الاشتراكيون الفرنسيون لجسر الهوة في الضمير الفرنسي، وتمنى "للمراجعة التي قامت بها شقيقته" النجاح الذي تستحقه الكاتبة، صاحبة المبادئ النبيلة (أرسلان، "استعراض المغرب"، مجلة الأمة العربية مايو-يونيو 1932، 34-38).
54. بسيس، «شكيب أرسلان»، ص 480.
55. علي مراد، الإصلاح الإسلامي في الجزائر من 1925-1940، ص 383. هذا الكتاب الغني والودي هو دراسة متميزة لأنشطة الاتحاد وتعاليمه وعقائده. وأما بيان السيرة الأوفى لابن باديس فيمكن الاطلاع عليها في ابن باديس المفسر على القرآن الكريم، ص 23-51 لميراد.
56. ميراد، إصلاح المسلمين، ص 80.
57. إصلاح المسلمين لميراد، ص 147. شعر مراقبون فرنسيون معاصرون للسياسة في شمال أفريقيا أن أرسلان هو من كان يقرر الموقف السياسي في الاتحاد. انظر روبرت مونتاني، "قلق الأطراف السياسية في الجزائر"، السياسة الخارجية، 2 (أبريل 1937). 129، وديسبارمت، "العلماء الجزائريون والدعاية الإيطالية (1931-1938)"، أفريقيا الفرنسية، 68 (مايو 1938) 211.
58. ميراد، إصلاح المسلمين، ص 362 ووفقاً للمؤلف نفسه (ص 123-124)، كانت الشهاب محاكاةً للمنار واعيةً لذاتها ولها طابعها الخاص.
59. للاطلاع على قائمة بعناوين هذه المقالات، انظر ميراد إصلاح المسلمين، ص 366. رقم 3.
60. المرجع ذاته، ص 365.
61. المرجع ذاته، ص 218-219. انظر أيضاً ص 164.
62. ذكر ذلك أيضاً في: صعود حركة مصالي الحاج في الجزائر وانحدارها، 1924-1954، ص 101 لجانيت دورش زاغوريا.
63. ولد مصالي الحاج في تلمسان في العام 1898. وبعد خدمته لدى الجيش الفرنسي، تنقل في الأعمال من واحد إلى آخر في باريس قبل أن يغدو مرتبطاً بالنجم (الإتوال). وبعد حله في العام 1937، أسس حزب الشعب الجزائري (PPA) ومن ثم، بعد إطلاق سراحه من سجن طال أمد مكوثه فيه أسس إبان الحرب: الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية في العام 1947.
64. زاغوريا، الصعود والهبوط، ص 96-97، 108. نحت التقارير الفرنسية التي رصدت أنشطة أرسلان منحى المبالغة فيها، ولكن أرسلان مرر فعلاً بعض الأموال التي توفرت له إلى قضايا عُدّها محتاجةً ومستحقة.
65. جوليان، شمال أفريقيا تمضي قدماً.
66. قد يطرح سؤال عما إذا ما كان أتيج لمصالي أن يظهر على مسرح الحياة السياسية لو لم يكن في سويسرا مطلع العام 1936 هرباً من إجراءات قضائية جديدة كانت تتعقبه. والتقى هناك

بشكيب أرسلان الذي ألهب فيه شعلة الإسلام، وجعله يؤمن بفكره المساندة للعرب (لوتورنو). التطور السياسي، ص313). وذكر كلام مطابق لهذا القول تقريباً من قبل جان كلود فاتان في: الجزائر السياسية، ص212، ملاحظة 161. وعند جوليان في: شمال أفريقيا تمضي قدماً، ص25. وعند ليفي بروفنسال في: "الأمير شكيب"، ص14-15. وكل ذلك يعزز النسخة الأولى التي أوردتها أنفاً عن إقامة مصالي في جنيف. وسجل أرسلان انطباعاته عن سمات مصالي الشخصية، لكن لم يدون شيئاً عن الحادثات التي كانت تدور بينهما، وذلك في عروة الاتحاد، ص149.

67. ذكر ذلك في الصفحات 163، و180-181 من: الصعود والانحدار لزاغوريا.
68. فاتان، الجزائر، ص212-213، زاغوريا، الصعود والانحدار، ص162.
69. ذكر فاتان بيان مصالي في كتابه: الجزائر، ص211، وأما المقتطف من بيان الاتحاد ذائع الصيت فيمكن الاطلاع عليه في إصلاح المسلمين لميراد، ص399.
70. أرسلان، «الدسيصة الأجنبية على الجامعة الإسلامية»، الفتاح، 8 شوال 1349.
71. عبد العزيز الثعالبي (1875-1944)، غالباً ما كانت تنعقد مقارنات غير مؤاتية بينه وبين بورقيبة تتكشف عن تباينات شديدة بينهما. فقد كان الرجل (الثعالبي)، شأنه شأن أرسلان، صاحب شخصية فريدة في نوعها زواج بين معتقداته (الدينية) وبين عزمه على إعادة تشكيل المجتمع الإسلامي، مع استعداده للنضال من أجل تحقيق هذا المجتمع. ويمكن الاطلاع على تقدير أرسلان العالي له في: الشورى، 7 يناير 1925. وللإطلاع على تقرير عن فحوى حركة الثعالبي وما الذي كانت تعنيه بالنسبة لتونس في عشرينيات القرن العشرين، إل. كارل براون، مراحل في عملية التغيير. وانظر كذلك، تونس: سياسة الحداثة، ص38-66 لتشارلز ميكود (محرر).
72. براون، مراحل في عملية التغيير. عند ميكود، تونس، ص61-63.
73. الحبيب بورقيبة، «مخضرم في النضال ضد الاستعمار: الأمير شكيب أرسلان»، العمل التونسي، 3 يونيو 1973، أعيد طبعه في الدستور الجديد والجهة الشعبية في فرنسا، 1، الحوار، 1936-1938، ص349-362.
74. فيليكس جارس، بورقيبة ونهضة الأمة، ص111. ويزعم المؤلف أن هذا صحيح على الرغم من كل ما كتب خلافاً له. وكتب ذلك من قبل جوليان في شمال أفريقيا تمضي قدماً، ص25، 64.
75. للاطلاع على تقويم هؤلاء «الشهود المشاركين»، انظر ميراد. إصلاح المسلمين ص14-15.
76. دجي ديسبارمت، «مقاومة الغرب». أفريقيا الفرنسية (سأرمزها لاحقاً بالحرفين الألف والفاء)، 63 (مايو 1933) 265. وأدرج فيما يأتي قائمة كاملة بأسماء وعناوين مؤلفات نسبت إلى أرسلان دوراً هائلاً على صعيد العمل الدعائي، وهي مدرجة هنا وفقاً لتسلسل ظهورها الزمني: لويس إرمون، "شمال أفريقيا والشرق الأدنى"، أفريقيا الفرنسية 63

(أبريل 1933). 203. ولويس جوفيليه، "تطور البلاد العربية الاجتماعي والسياسي (1930-1933)"، و"مراجعة دراسات إسلامية"، 7 (1933)، 628-640. و"العروبة الجامعة والجزائر"، ألف فاء. 56 (يونيو 1936)، 312-317 لدجي ديسبارمت، ولديسبارمت أيضاً: "شمال أفريقيا والعروبة الجامعة"، ص 56-58. ولروبرت مونتاني، "أزمة العروبة السياسية (يونيو-1937 يونيو 1938)"، فرنسا المتوسطية والأفريقية، 61 رقم 2 (1938)، 13. ولويس غلبرت، "اضطرابات إسلام العرب"، دراسات، 20 يناير 1938. 173.

77. دجي. ديسبارمت، العلماء الجزائريون، ص 211، وعُرفَ أرسلان أيضاً في هذا الكتاب بوصفه "رئيس جهاز الاستخبارات المشرقي".

78. لويس غلبرت، «المغرب الذي يشهد حراكاً. الجزء الثاني»، دراسات، 5 مايو 1938، 536.

79. أرسلان، «الإسلام السياسي وشمال أفريقيا»، مجلة الأمة العربية (يناير-فبراير 1935)، 185.

80. مجلة الأمة العربية (سبتمبر-ديسمبر 1938)، 1233-1237.

81. انظر ديسبارمت، «شمال أفريقيا والعروبة الجامعة»، ص 56. استنكار أرسلان الشديد وعلى أوسع نطاق لهذه التهمة يمكن الاطلاع عليه في مقاله المعنون: "هل عدو فرنسا هو أنا؟" وذلك في مجلة الأمة العربية (يناير-أبريل 1938)، 797-814. وفي مقال تحت عنوان: "ملاحظة فرنسية تتعلق بإسلامكم السياسي" (المرجع نفسه، مايو-يونيو 1935)، ص 341-346. ونشر أرسلان أيضاً كتيباً من ست وثلاثين صفحة رداً على الاتهامات التي وجهت إليه بوصفه محرضاً متعنناً. ويميل المنشور المعنون بـ: "لا يمكن لدعاية في العالم أن تشوه صورة رجل" إلى أن يكون تكراراً للمقالات التي نشرها أرسلان في مجلة الأمة العربية.

82. أرسلان «عدو لفرنسا»، ص 805.

83. المرجع نفسه، ص 800.

84. المرجع نفسه، ص 803.

85. المرجع نفسه، ص 804. انظر أيضاً مقالاً له بعنوان: "الافتراء الأبدى"، مجلة الأمة العربية (يناير-فبراير 1935)، 171-173، "تلقي أموال من برلين، وموسكو، وروما، كل شيء هو معجزة حقاً!" مجلة الأمة العربية (يناير-أبريل 1936)، 509-510 وعروة الاتحاد، ص 147-152.

86. «عدو فرنسا»، ص 814. انظر أيضاً: "القمع الفرنسي لتونس"، مجلة الأمة العربية (يناير-فبراير 1935)، 182-183.

87. أرسلان، «كيف يكتب التاريخ»، مجلة الأمة العربية (نوفمبر 1930)، 37.

88. ديسبارمت، «شمال أفريقيا والعروبة الجامعة»، ص 56.

89. روبرت مونتاني، السياسة الإسلامية لفرنسا، ص 10.

90. بورقيبة، «مخضرم»، ص351.
91. محمد المكي الناصري، «شكيب أرسلان»، الفتح، 9 ربيع الثاني 1351هـ، السيد رشيد رضا أو إحياء أربعين سنة، ص184.

الفصل السادس: سلامة التقليد

1. فؤاد عجمي، «نهاية العروبة»، الشؤون الخارجية 62 (1978-1979)، 355.
2. أرسلان، «الدسيصة الأجنبية على الجامعة الإسلامية»، الفتح، 8 شوال 1349.
3. لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ يوضح تاريخ نشر الكتاب مكانة أرسلان بوصفه معلقاً دولياً على القضايا الإسلامية. ويتألف الكتاب من سلسلة من المقالات، نشرت أول مرة في المنار، وجرى تأليفها رداً على استفسارات طرحها شيخ إندونيسي يدعى محمد بسيوني عمران استعلاماً عن ضعف المسلمين الراهن. والترجمة الإنجليزية الأولى لـ (انحدارنا وأسبابه، لاهور، 1944) كانت من اللغة المالايالامية وهي إحدى لغات شبه القارة الهندية. فعندما ترجمت العربية إلى تلك اللغة أثارت موجة من الحماس الوطني، وأثارت قلوب أبناء الموبيل الهنود المسلمين (مقدمة المترجم إم. إس. شكور للطبعة الجديدة من الكتاب، ص8). وملاحظة المترجم التحذيرية من أن الطبعة الإنجليزية منقولة مرتين من الأصل العربي مسوغة وتستحق الأخذ بها. وذلك لأن النسخة مضللة، وحذفت مقاطع من أصلها العربي عند ترجمتها. وما استشهد به منها في هذا البحث مستمد من طبعة الكتاب الثالثة باللغة العربية (القاهرة، 1358هـ).
4. من بين الأبحاث العديدة التي تناولت هذا الموضوع، انظر بصورة خاصة إتش. آر. جيب. الاتجاهات الحديثة في الإسلام. وهوراني: الفكر العربي، في فصليه السابع والتاسع، وكير: الإصلاح الإسلامي. وهنري لاوست: «إصلاح العقيدة السلفية والخطوط العامة لاتجاهاتها الراهنة»، مراجعة دراسات إسلامية، 6 (1932) 175-224، ونداف سافران، مصر، بحثاً عن المجتمع السياسي، الفصل الخامس، وويلفرد كانتويل سميث: الإسلام في التاريخ الحديث.
5. أرسلان، لماذا، ص11، ما لم يرد ذكر خلاف ذلك، تشير مراجع هذا الفصل إلى كتب ومواد كتبها أرسلان.
6. المرجع نفسه، ص60.
7. المرجع نفسه، ص63.
8. المرجع نفسه، ص96.
9. المرجع نفسه، ص104.

10. المرجع نفسه، ص98.
11. المرجع نفسه، ص96.
12. المرجع نفسه، ص18-19، وص100-101.
13. «مقدمة» لعبد القادر المغربي، البيئات في الدين والاجتماع والأدب والتاريخ، 1، الفقرة: تاء.
14. لماذا، ص105، ذكر محمد عبده عند سافران، مصر في البحث، ص68.
15. لماذا، ص64.
16. المرجع نفسه، ص133. لا يوجد ما يدعو إلى الاستغراب في أن يكون رضا، الذي حرر الكتاب، قد أقيم حاشية على هذا البيان تؤكد للقراء أن ما عناه أرسلان هو يقظة المسلمين بوصفهم مسلمين.
17. «هل عدو فرنسا هو أنا؟» مجلة الأمة العربية (يناير- أبريل 1938) 804.
18. سورة 11:13، استشهد بها في: لماذا، ص14.
19. «مقدمة» للبيئات، الفقرة: واو.
20. لماذا، ص166، حوراني، الفكر العربي، ص228-229، ورودولف ببيتز، الإسلام والاستعمار: عقيدة الجهاد في التاريخ الحديث، الفصل الرابع.
21. «مقدمة» للبيئات، الفقرة تاء، لماذا ص166.
22. «الدسيصة الأجنبية على الجامعة الإسلامية»، الفتح، 8 شوال 1349هـ.
23. «مقدمة» للبيئات، فقرة زاي.
24. حدد أرسلان القومية والتفرنج على حد سواء بوصفهما شكلين من أشكال الردة. انظر: «أصبح التجدد عبارة عن السعي في قتل الروح الإسلامي»، الفتح، 29 ذو القعدة، 1352هـ و«الإلحاد في الدين والنقص في التناسل توأمان»، الفتح، 21 نوفمبر 1929. وطه حسين (1889-1974) وهو روائي، وكاتب مقالات، ومصلح ثقافي، أثار جدلاً حامي الوطيس بنشره في العام 1926 كتاباً شكك فيه في أصالة قسم كبير من شعر ما قبل الإسلام (الشعر الجاهلي). وكان هيك (1889-1956) أيضاً مؤلفاً متفرنجاً غزير الإنتاج. وشغل منصب رئيس تحرير السياسة الإصلاحية الناطقة باسم الحزب الدستوري، كما شغل في نهاية المطاف منصب رئيس مجلس الشيوخ المصري.
25. تشارلز دو. سميث، «أزمة الاتجاه: تحول المثقفين المصريين إلى الموضوعات الإسلامية في حقبة ثلاثينيات القرن العشرين»، المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، 4 (1973)، 391. انظر أيضاً سافران، مصر في البحث، الفصلان التاسع، والعاشر.
26. «اللباس الصحي والغطاء الصحي للرأس»، الشورى، 26 أغسطس 1926.
27. «مقدمة» للبيئات، الفقرتان ياء وياء / باء.

28. «مركز المرأة»، الشورى، 23 أبريل 1930. أعيد طبع المقال، ربما بسبب إقرار موقف أرسلان، وذلك عبر مجلة الشهاب الناطقة باسم رابطة العلماء الجزائريين. انظر ميراد، إصلاح المسلمين، ص 329. رقم 2.

29. لماذا، ص 77-78.

30. تفنيدات أرسلان الأكثر مثابرة لمؤلفات طه حسين الأقدم عهداً هي: «الأمر أكثر تعقيداً مما يبدو للوهلة الأولى». في كتاب، تحت راية القرآن: معركة بين القديم والجديد ص 31-39 لمصطفى صادق الرافعي (محرر)، وفي «التاريخ لا يقوم على الافتراضات»، في المرجع نفسه، ص 87-96. ووجهت تهمة الانتحال في رسالة بعث بها أرسلان إلى رضا، 21 ربيع الأول 1352 هـ، وأدرجها الشرباصي في أمير البيان، 2، ص 808-809.

31. «الفلسفة والحضارة العربية»، مجلة الزهراء، 3، رقم 5 (1345 هـ) 289-293. موسى، وهو قبطني مصري غالباً ما كان يسمى مؤسس الاشتراكية العربية، شاطر أرسلان مناهضته للإمبريالية، بيد أنه كان صاحب رؤية علمانية متفرجة للمجتمع، وهذا الأمر هو ما لا يعجب أرسلان فيه.

32. «المحاكم المحلية البربرية»، مجلة الأمة العربية (أكتوبر 1930)، 7. بين الإصلاحات ذات الصيغة العلمانية التي نفذت إبان سنوات رئاسة مصطفى كمال أتاتورك لتركيا (1923-1938) كان إلغاء الخلافة، وإلغاء العمل بأحكام الشريعة، واعتماد الأبجدية اللاتينية، وترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة التركية، وإغلاق المدارس الدينية المتخصصة والمنفصلة والقائمة بذاتها، وحظر اعتماد الطربوش. وللإطلاع على نقاش وافٍ لهذه السياسات، انظر لويس: الانبثاق، واطلع على بيركس: تطور العلمانية.

33. «أنقرة بإزاء المؤتمر الإسلامي»، الفتح، 6 رمضان 1350 هـ. وفي المرجع نفسه: «الأترك في حالة ثورة»، في 9 محرم 1352: «بات التجديد يعني بذل الجهد لقتل روح الإسلام».

34. «الأترك في حالة ثورة».

35. المرجع نفسه.

36. «أنقرة بإزاء المؤتمر الإسلامي».

37. فضلاً عن الكلمات المذكورة في الملاحظة رقم 33، انظر «موقف الكماليين»، الفتح، 18 - أغسطس 1927، «رد على فريد وجدي»، المرجع نفسه، غرة شهر جمادى الآخرة 1352 هـ، وانظر حاضري العالم الإسلامي، 1، ص 205-212، 3، ص 351-364.

38. رسالة من رضا إلى أرسلان في الثامن من يناير من العام 1928، وردت في كتاب شكيب أرسلان: السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، ص 507، ويمكن الإطلاع على تفسيرات أرسلان في المرجع نفسه، ص 510، ملاحظة رقم 1. لقد عدَّ أرسلان أمان الله حدثاً مخرباً على منوال الكماليين، وانتقده لمحاكاته سياسات أنقرة («ثورة الأفغان»، الفتح، 24 يناير، 1929).

39. «مهيّن عند قومه، مكرم عند الناس». الشورى. 31 مارس 1927.
40. «الأزمة الحقيقية الحاضرة في الإسلام»، الفتح 17 أبريل 1930.
41. المسألة أكثر تعقيداً... ص43.
42. انظر لماذا، ص55-57، و87-95. وانظر أيضاً «فصل الدين عن السياسة»، الفتح. 9 فبراير 1928، «صلوات وابتهالات في الكنائس الإنكليزية جميعها من أجل صحة الملك»، المرجع نفسه. 27 ديسمبر 1928. و«هل يقولون إن ألمانيا رجعية؟» المرجع نفسه، 28 شوال 1351هـ. وانظر «الدين والدولة يعملان يداً بيد»، المرجع نفسه. 6 ذو الحجة 1352هـ. و«حكوماتهم اللادينية!» الشورى، 28 يناير 1931.
43. «اتفاق البابا مع إيطاليا»، الفتح. 7 مارس 1929. و«الأزمة الحقيقية الحاضرة في الإسلام».
44. لماذا، ص64. انظر أيضاً النهضة العربية في العصر الحاضر. ص40.
45. «الأثر في حالة ثورة».
46. حاضر العالم الإسلامي، 3. ص253.
47. «أنقرة بإزاء المؤتمر الإسلامي»، و«رد على فريد وجدي»، و«الأزمة الحقيقية الحاضرة في الإسلام». في نعيه المعبر عن احترامه لأتاتورك. أسقط أرسلان قدراً كبيراً من عدائه الصريح. ولكنه أصر على أن شرف المقاومة المبدئية للمعاهدة سيفر يجب أن ينتقل إلى كاظم قره بكير والعلماء الأتراك الذين ألهبوا حماس الجماهير في الدعوة إلى خوض غمار حرب مقدسة. وعليه فإن رجال الدين كانوا هم «المنفذين الرئيسيين لتركيا». («موت كمال أتاتورك». مجلة الأمة العربية سبتمبر-ديسمبر 1938، 1077-1078).
48. سافران. مصر في البحث، ص152.
49. تشارلز دي. سميث. «الثقافة والحدثة: تعريفات ومراجعات: التجربة المصرية»، دراسات مقارنة في المجتمع والتاريخ، 22 (1980)، 518.
50. «أنقرة بإزاء المؤتمر الإسلامي».
51. «مقدمة» إلى البينات، الفقرة هاء.
52. «الأزمة الحقيقية الحاضرة في الإسلام».
53. المرجع نفسه، و«اليقظة الشرقية الراهنة»، المقتطف (فبراير 1927)، 136-137.
54. «استعراض المغرب»، مجلة الأمة العربية (مايو-يونيو 1932)، 38.
55. ذكر في كتاب الإصلاح الإسلامي لمؤلفه كبر، ص127. ملاحظة 67. وورد ذكره في الفكر العربي، تأليف: حوراني، ص231-232.

56. انظر ميراد: إصلاح المسلمين، ص218-219. أعجب هذا المصلح الذكي أيضاً ببعض سياسات أتاتورك، وأشار إلى أن الهجمات التي كانت تستهدف الرئيس التركي عقيمة وغير مثمرة (المرجع نفسه، ص374-376).
57. النهضة العربية، ص30-31، «من آثار ملوك المغرب»، الشورى، 9 أبريل 1930، و«أخبار الحجاز ونجد»، مجلة الأمة العربية (مايو 1930)، 143. و«الإصلاحات داخل دولة ابن سعود»، المرجع نفسه (سبتمبر-أكتوبر 1931)، 46.
58. «الموضوع واحد»، الفتح، 22 أغسطس 1929.
59. التحالف بين الدول العربية الثلاث المستقلة، مجلة الأمة العربية (يناير-أبريل 1936)، 471.
60. رسالة من أرسلان إلى رضا، 17 ربيع الثاني 1350، في أمير البيان، 2، ص789.
61. انظر، على وجه الخصوص «المقدمة» للشرباصي، شكيب أرسلان: من رواد الوحدة العربية، وانظر أيضاً شكيب أرسلان للكاتب نفسه، ص11-155. والبيئة التي استعملها الشرباصي تدليلاً على أن أرسلان قومي عربي يمكن أن تنسحب أيضاً على الأمير برهاناً على أنه داع لتحقيق الوحدة الإسلامية الجامعة. وعلى الرغم من أن الدهان، أيضاً، أكد على دور أرسلان بوصفه متحدتاً باسم العروبة، فقد أشار إلى أن أرسلان كان يخلط في كثير من الأحيان بين مفاهيم الدين والقومية، وكان ميالاً إلى طرح الإسلام بوصفه قومية (الأمير شكيب أرسلان، ص331).
62. الدكتور زكي بك علي، «حاج الشرق في الغرب»، الشباب، 24 مارس 1937.
63. الوحدة العربية، ص8. يمكن الحصول على ملخصات تدرج تحت هذا العنوان عند دجي ديسبارمت في كتابه: شمال أفريقيا والعروبة الجامعة، ص56-57. ولدى إنريكونوني: «فكرة الوحدة العربية التي طرحت في المناقشات التي انعقدت مؤخراً عبر صحافة الشرق الأدنى»، الشرق الحديث، 18، رقم 8 (أغسطس 1938) 403-405.
64. الوحدة العربية، ص11-12.
65. «يحصلون على رغبتهم من الواقع»، مجلة الأمة العربية (مايو-أغسطس 1938)، 933. للاطلاع على فكرة الحصري عن الأمة العربية الموجودة بصورة طبيعية، انظر كليفلاند، تكوين القومي العربي، ص116-127.
66. «الدسيية الأجنبية على الجامعة الإسلامية».
67. المرجع نفسه.
68. هذه العبارة الملائمة هي عنوان كتاب نيكى آر. كيني: الرد الإسلامي على الإمبريالية: كتابات جمال الدين «الأفغاني» السياسية والدينية.
69. للاطلاع على سياق الخطاب والسخط الذي سببه، انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

70. رسالة من أرسلان إلى رضا، 3 يوليو 1924، في أمير البيان، 2، للشرباصي، ص 667. وفي الرسالة ذاتها (ص 666) عقب أرسلان بقوله بما أن أسرة يونانية أرثوذكسية مثل عائلة سرقس تبدي التزاماً بهذه القوة تجاه فرنسا، فللمرء أن يتخيل وضع الكاثوليك.
71. يمكن الاطلاع على موقفه من الآشوريين في: «المعاهدة الفرنسية السورية: هل هي معاهدة أم قصاصة من الورق؟» مجلة الأمة العربية (مايو-أغسطس 1938)، 914. وأما شكاواه بشأن مسائل أخرى فيمكن الاطلاع عليها عبر الاطلاع على رسائله إلى رضا، 2 مايو 1929، في أمير البيان، 2، للشرباصي، ص 700، وفي ربيع الثاني من العام 1350هـ، في المرجع نفسه، ص 787.
72. «العروبة، المجتمع الشامل»، في شكيب أرسلان للشرباصي، ص 161-188. كُتِبَ المقالُ في شهر يوليو من العام 1940.
73. المذكرات، 2، لحمد كرد علي، ص 419. صديق وليس متملقاً، وأشار كرد علي أيضاً إلى أغلاط أرسلان السياسية.
74. «مسألة الأمير شكيب أرسلان»، الشباب، 12 مايو 1937.
75. مقابلة مع مي جنبلاط، نوفمبر 1975. راجع شكيب أرسلان للشرباصي ص 312-313.
76. مقابلة مع إحسان الجابري، 5 يناير 1975.
77. بن غوريون، محادثات مع قادة عرب، ص 35.
78. سجلات مكتب شرائط الأفلام الألمانية (الميكرو فيلم) رول 4900، وزارة الخارجية-مذكرة داخلية، 12 ديسمبر 1934، إطار L327722.
79. منبر الشرق، 9 مايو 1932، لقاءات أرسلان الصيفية مع فيصل بدأت في مدينة أنتيب (الفرنسية) في العام 1930 واستمرت بصورة منتظمة، وكانت تنعقد عادة في برن، إلى ما قبل موت ملك العراق بأسابيع قليلة. وهذه اللقاءات مدرجة ومؤرخة وفقاً لتسلسلها الزمني في رسائل أرسلان إلى رضا. ويمكن الاطلاع عليها كاملة في أمير البيان، 2، للشرباصي في الصفحة 169 في (23 يوليو 1931)، وفي الصفحة 785 (13 ربيع الثاني 1350هـ)، وفي الصفحة 812 (8 ربيع الثاني 1352هـ).
80. لويس جوفيليه، «التطور الاجتماعي والسياسي للبلدان العربية (1930-1933)»، استعراض دراسات إسلامية، 7 (1933)، بخاصة الصفحات: 454-455، و 460، 590، 627، 639.
81. الإسلام المعاصر، ص 65. لروجر لوتورنو. والثلاثة الآخرون هم فيصل والحاج أمين الحسيني وعبد الرحمن عزام.
82. باريس سوار، 21 ديسمبر 1939. مقال ألارد محفوظ ومصنف في المحفوظات الاتحادية السويسرية، 1939.

الفصل السابع: نحو المحور

1. أرسلان، «حملة الزور والبهتان»، مجلة الأمة العربية (سبتمبر-أكتوبر 1931)، 36.
2. MPF، تقرير 3 أكتوبر 1939.
3. بخاصة، لوкас هيرزوفيتش، الرايخ الثالث والمشرق العربي. وأضافت أعمال لاحقة إلى ذلك تفصيلاً أرشيفياً، غير أنها لم تعدل جوهرياً تفسيرات هيرزوفيتش. انظر روبرت لويس ملكا، «المحور والشرق الأوسط العربي، 1930-1945»، إم. دجي. تشوردر، «روابط قوى المحور مع العالم العربي»، في: الحرب في منطقة البحر الأبيض المتوسط (1930-1945) ص 607-626؛ وفرانسيس نيقوسيا، «القومية العربية وألمانيا الاشتراكية الوطنية، 1933-1939: عدم التوافق الأيديولوجي والاستراتيجي»، المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، 12 (1980)، 351-372.
4. هيرزوفيتش، الرايخ الثالث، ص 30؛ وآر. إل. ملكا، «ألمانيا النازية وفلسطين»، دراسات شرق أوسطية 5 (أكتوبر 1969)، 221-233. يبين ملكا أن هذه الأنشطة نفذت من قبل الجهاز النازي، ولم تكن جزءاً من توصيات وزارة الخارجية العادية.
5. الفحص الأكثر شمولاً ودقة لسياسة إيطاليا حيال العرب في حقبة ما بين الحربين العالميتين يمكن الاطلاع عليه في كتاب: روما بين لندن وباريس. الفصل الرابع تأليف روزاريا كوارتارارو.
6. نوقشت أساليب الدعاية الإيطالية ومحتواها في: كوارتارارو، روما، ص 211-218؛ ومن قبل ماريو تيدتشيني لالي في: «الدعاية العربية للفاشية ومصر»، التاريخ المعاصر، 7 (ديسمبر 1976)، 717-749. وكالوم إيه. مكدونالد في: «راديو باري: الدعاية الإيطالية اللاسلكية في الشرق الأوسط والتدابير المضادة البريطانية 1934-1938»، دراسات شرق أوسطية، 13 (مايو 1977)، 195-207.
7. العبارة هي: «المحور» لملكا، ص 249.
8. جرى استعراض هذه الاتصالات من قبل هيرزوفيتش في كتابه: الرايخ الثالث، الفصلان الثاني والثالث.
9. كوارتارارو، روما، ص 214.
10. رسالة من أرسلان إلى فون أوبنهايم، 18 يونيو 1942، كما وردت تلخيصاً لدى فريتز غروبا في: الطريقة والإنجاز في المشرق، ص 270.
11. لقد كانوا استثناء من القاعدة، لا لجهة قَدَمِ عهدهم في وظائفهم فحسب، بل لجهة خبرتهم المباشرة في شؤون الشرق الأوسط. باشر فون هنتيغ في محاكاة أسلوب تي. إي. لورنس في

تنفيذ المهام لتحريض السكان الأفغان ضد البريطانيين في الحرب العالمية الأولى. وعلى الرغم من استغراقه في المشاركة في تنفيذ سياسة الرايخ الثالث في الشرق الأدنى بوصفه رئيساً للشعبة السياسية السابعة أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، وبوصفه صار لاحقاً المسؤول رفيع المستوى عن الشؤون المتعلقة بكل من إيران، وتركيا، والخبديوي السابق كان أحد أعضاء مجموعة موظفي الخدمة المدنية الأرستقراطيين، وكانوا «يحتقرون في سرهم سادة النازيين الذين كانوا يخدمونهم في العلن» (آر. إل. ملكا، «ماكس فريهر فون أوبنهايم: ستنون عاماً من البحث والدساتير في الشرق الأوسط»، دراسات شرق أوسطية، 9 (يناير 1973)، 82. بدأ بروفير عمله الديبلوماسي بوصفه مترجماً متمرنًا في السفارة في القاهرة في العام 1907. وتخصص باللغات السامية قبل أن ينتقل إلى اسطنبول حيث التقى بأرسلان إبان الحرب العالمية الأولى. وفي العام 1942، عاد من البرازيل، حيث كان يشغل منصب سفير ألمانيا فيها، لرأس القسم العربي في وزارة الخارجية الألمانية (هيرزوفيتش، الرايخ الثالث، ص 268). وفون ريتشهوفن، موظف آخر في وزارة الخارجية في حقبة ما قبل الحرب. وكان يشغل منصب نائب رئيس شعبة الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الألمانية في عشرينيات القرن العشرين، وكان بحكم عمله يجري اتصالات متكررة مع أرسلان. للاطلاع على التنويه به، وعلى تحليل إدامته للتقليد الأرستقراطي في السلك الديبلوماسي الألماني في أعقاب الحرب العالمية الأولى، انظر بول سيبري، مقر وزارة الخارجية في وسط برلين: دراسة للديبلوماسيين الألمان في ظل النظام النازي، الفصل الأول.

12. المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، «محضر رسمي»، 6 أكتوبر 1938. انظر أيضاً دفاع أرسلان القوي عن شخصية فيلهلم في: «هل تريد أن تقول إن رجلاً من الحكومة الفرنسية يقول: دي غيوم، 2، ... مجلة الأمة العربية (مارس-أبريل 1935)، 236-255.

13. يعتمد هذا العرض المقتضب للسيرة الذاتية على ملكا، «فون أوبنهايم»، ص 81-82.

14. سجلات شرائط الأفلام المجهريّة، رول 4900، مذكرة فون كرامون، من دون تاريخ (ديسمبر 1927)، إطار L327793.

15. المرجع نفسه، إيه إيه مذكرة داخلية، 14 ديسمبر 1927، إطار L327790. وثائق وزارة الخارجية الألمانية أكدت باستمرار ترحيب أرسلان بالألمان، وكانت تشير إليها غالباً بوصفه نصير الألمان. انظر، على سبيل المثال، المرجع نفسه، إيه إيه لكورناد جيزال، 17 فبراير 1925، إطار L327727، وبارون فون ريتشهوفن إلى أرسلان، 29 سبتمبر 1925، الإطاران L327734-L327735.

16. رسائل متبادلة مختلفة بين فون أوبنهايم، وفون ريتشهوفن والقنصلية في جنيف عثر عليها في المرجع السابق، 13-16 ديسمبر 1926، الإطاران L327758-L327762، ورسائل من فون ريتشهوفن إلى أرسلان، 26 أبريل 1926، إطاره L327740-L327742.

17. فون أوبنهايم بدأ إحدى ملاحظاته التوضيحية المتضمنة في رسالة مرسلة إلى ضابط اتصاله في وزارة الخارجية الألمانية في حينه، فون ريتشهوفن، بكلمات جاء فيها: «بحسب ما جرى الاتفاق عليه، أرسل إليكم رسالة الأمير شكيب أرسلان الأخيرة مرفقة بطلبي الرد بحيث أغدو قادراً على الكتابة إليه بنفسى». (المرجع نفسه، 14 ديسمبر، 1928، إطار L327807، و13 ديسمبر 1926، إطار L327758).
18. عين السلطان عبد الحميد أرسلان مرافقاً للقيصر في دمشق (الطاهر، ذكرى الأمير، ص55). فأرسل أرسلان بيان القيصر في العام 1935 - مدعياً أنه بسبب ذلك، ظفر الحاكم الألماني بتعاطفات دائمة من العالم الإسلامي (أرسلان، «غيوم الثاني»، ص252-255، انظر أيضاً برنار فرنيه، سياسة ألمانيا الإسلامية ص54-55).
19. سجلات شرائط الأفلام المجرية، رول 4900، مذكرة من فون ريتشهوفن إلى أرسلان، 22 أبريل 1926، إطار L327744-L327745، ومذكرة من فون ريتشهوفن إلى أرسلان، 26 أبريل 1926، إطار L327740-L327742.
20. سجلات شرائط الأفلام المجرية، إطار 2904، مذكرة بروفنر، 7 نوفمبر 1934، إطار 461986-E461989.
21. دانيال غيران، في مصالح المستعمرات، ص20.
22. الأرشيف التاريخي لوزارة الشؤون الخارجية، روما، إيطاليا، مغلف رقم 85، ترجمة مقتبسة من رسالة مرسلة من أرسلان إلى الحسيني، 7 نوفمبر 1942.
23. سجلات شرائط الأفلام المجرية، رول 726، رسالة من أرسلان إلى سليمان آغا، 2 أكتوبر 1941، إطار 325933-325938.
24. أرسلان، «السياسة الاستعمارية، لا علاقة له بمعاداة السامية»، مجلة الأمة العربية (سبتمبر-ديسمبر 1938)، 1200-1203: «حرب الأمواج»، مجلة الأمة العربية (يناير-أبريل 1938)، 876-877، و«اختلافهم رحمة»، الشباب، 14 ديسمبر 1938، و«المسلمون المستقلون»، الشباب، 19 مايو 1937.
25. أرسلان، «سخط اليهود الشديد على مفتي القدس»، مجلة الأمة العربية، (سبتمبر-ديسمبر 1938)، 1221.
26. أرسلان، «قضية العرق»، مجلة الأمة العربية (مايو-أغسطس 1938)، 981. كان أرسلان أكثر تشدداً في الصحافة العربية، طارحاً الرأي القائل إن السياسات الصهيونية في فلسطين أضفت مصداقية على نظرية المؤامرة اليهودية العالمية. انظر مقالاً له في الشباب تحت عنوان: «إن عجزت الأمة»، الشباب، 5 أكتوبر 1938، وأيضاً: «اختلافهم رحمة».

27. سجلات وزارة الخارجية-مكتب السجل العام، لندن FO371/2460/214، "مركز استخبارات الشرق الأوسط"، خلاصة رقم: 9، 26 ديسمبر 1939-2 يناير 1940، رسالة من أرسلان إلى طاهر، FO371/24546/E41، ورسالة من أرسلان إلى السعيد، 17 نوفمبر 1939، في: نيوتن (بغداد) إلى هاليفاكس، 27 ديسمبر 1939.
28. الأرشيف التاريخي لوزارة الخارجية، روما، مجموعة 1573، سوريا 1923، حزمة 7174، 26 ديسمبر 1922، والأرشيف التاريخي لوزارة الخارجية، روما، مجموعة 1672، تركيا 1922، حزمة 7797.
29. إيفانز بريشارد، السفنوسي، ص 202. يطرح الفصل السابع من هذا الكتاب ملخصاً عن الممارسات الاستعمارية الإيطالية بعد العام 1931م.
30. الأرشيف التاريخي لوزارة الشؤون الخارجية، روما: ليبيا، مغلف 1، 7، 1933-1، "موقف الحملة الإسلامية المناهض لإيطاليا لشكيب أرسلان"، وزير الشؤون الخارجية إلى وزراء المستعمرات، 23 يونيو 1933. يتضح من نغمة المفاجأة في هذه الوثيقة أن مقال أرسلان نشر دون معرفة وزارة الخارجية في روما سابقاً بالأمر.
31. الجمعية العربية، 9 مايو 1935، بحسب إعادة النشر في: الشرق الحديث، 15 (مايو 1935)، 197.
32. الجمعية العربية، 9 مايو 1935، بحسب إعادة النشر في: الشرق الحديث، 15 (يونيو 1935) 252-253. زعم أرسلان أنه مرتاح الضمير وموقفه سليم حيال اتفاقه مع موسوليني، بيد أنه لم يواظب على الضغط على الحكومة الإيطالية من أجل تنفيذ إصلاحات محددة إضافية في ليبيا (شكيب أرسلان: السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، ص 746، الأرشيف التاريخي لوزارة الشؤون الخارجية، روما، إيطاليا، آفور، رقم 105، ملخص عن اجتماع البرفسور إندرل مع شكيب أرسلان، 31 أكتوبر 1935).
33. أرسلان، «المعاهدة الفرنسية السورية»، مجلة الأمة العربية (سبتمبر-نوفمبر 1936) 647، و«المشكلة الأثيوبية»، المرجع نفسه (يناير-أبريل 1936)، 516.
34. أرسلان، «اقتراح لإثيوبيا»، المرجع نفسه (سبتمبر-نوفمبر 1936)، 680-692. (اقتطع هذا الاقتباس من الصفحة 680)، وأما المقالات الأخرى التي نشرت في مجلة الأمة العربية وعالجت هذه القضية فهي تتضمن: "إيطاليا في إثيوبيا" (سبتمبر-أكتوبر 1934)، 48-51، و"مسلمو الحبشة" (يناير-فبراير 1935)، 177-178، و"الصراع الإيطالي الإثيوبي والعرب" (مايو-يونيو 1935)، 307-311، و"المقالة الخبيثة" (سبتمبر-نوفمبر 1936)، 653-655. وكتب أرسلان مقالات متطابقة تقريباً مع التي ورد ذكرها في هذه الفقرة للصحافة العربية-وعلى سبيل المثال، نشر مقالين في صحيفة الشباب في 14 أبريل و19 مايو من العام 1937. انظر أيضاً الحواشي التفصيلية المطولة التي أدرجت في كتاب شكيب

أرسلان: السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، الصفحات: 760-762، و764-766، و791-792، وانظر أيضاً تعليقاته في: بورقيبة: "محارب قديم شارك في النضال ضد الاستعمار"، ص361.

35. رسالة من رضا إلى أرسلان، 6 صفر 1354هـ، في: رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة لشكيب أرسلان، ص783.

36. أرسلان، عروة الاتحاد، ص237، 241، ودجي، دبليو. رينديل، مخضرم أكثر من زملائه الذين عملوا مع الحكومة البريطانية، وكانوا يرون مؤامرة فاشية كامنة وراء كل مظاهرة فلسطينية، أبدى هذا الرجل ملاحظة عن أرسلان جاء فيها: «شأنه شأن كثير من المثقفين العرب الآخرين ربما لا يحب الإيطاليين على هذا النحو- لكن لا شك في أنه يعتمد على قدرته على الحيلولة دون أن تحل إيطاليا فعلياً محلنا ومحل الفرنسيين في الشرق الأوسط إذا ما تم التخلص منا، وعندما يتحقق ذلك»، (FO371/19983/E3334) "الدعاية الإيطالية في الشرق الأدنى"، تقرير ورد في مراسلات مايلز لامبسون [من القاهرة] إلى أنتوني إيدن، 29 مايو 1936، تعليقات رينديل مرفقة.

37. رسالة من أرسلان إلى رضا، 12 صفر 1354هـ، في أمير البيان، 2، للشرباصي، ص829.

38. أرسلان، «إيطاليا والعالم العربي»، مجلة الأمة العربية (أبريل-يونيو 1933)، 24.

39. أرسلان، «غدر لا يصدق»، ص279.

40. أرسلان، «الصراع الإيطالي الإثيوبي والعرب»، ص309.

41. المقالات، وردة الفعل العدائية حيالها ملخصة في مجلة الشرق الحديث، 15 (مايو 1935)، 198-195.

42. للاطلاع على الخلفية السياسية المحلية لهذه الحادثة، انظر بوراث: الحركة الوطنية العربية الفلسطينية، 2، ص62-66. ويوجد ترجمة كاملة للرسالة عرضت من قبل مؤسسة إيسكو، فلسطين: دراسة للسياسات اليهودية، والعربية، والبريطانية، 2، ص774-775، وفي مجلة الشرق الحديث، 15 (مايو 1935)، 199.

43. مؤسسة إيسكو، فلسطين، 2، ص775.

44. المرجع نفسه، ص825-827؛ ورسالة من أرسلان إلى رضا، 12 صفر 1354هـ في المرجع نفسه، ص828-834. للاطلاع على عرض أرسلان الحضور إلى فلسطين من أجل الدفاع عن نفسه، انظر مقال أرسلان نفسه الذي نشر في مجلة الأمة العربية في عددها الصادر في (مايو-أغسطس 1938)، تحت عنوان: «الباريسي الصغير هو أداة للدعاية الصهيونية الكاذبة»، ص1053-1062، وانظر مراسلاته مع المندوب السامي أكهوب، سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن: FO371/18958/E4300.

45. «الباريسي الصغير»، ص1056.
46. رسالة من رضا إلى أرسلان، 6 صفر 1354، في السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، ص784-785. وكان الشرباصي أيضاً مقتنعاً بأن الرسالة مزورة. انظر معالجته للحادثة في أمير البيان، 1، ص103-106.
47. رسالة من أرسلان إلى رضا، 12 صفر 1354هـ، في أمير البيان، 2، للشرباصي، ص829.
48. رسالة من رضا إلى أرسلان، 6 صفر 1354هـ، في: السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة لشكيب أرسلان، ص784.
49. مؤسسة إيسكو، فلسطين، 2، ص774.
50. سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن، FO371/19983/E3334. "الدعاية الإيطالية في الشرق الأدنى"، تقرير ورد في مراسلات مايلز لامبسون [من القاهرة] إلى أنتوني إيدن، 29 مايو 1936. وأكد تقرير سابق أن سبب موقف المفتي المساند لإيطاليا "يمكن أن يعزى إلى إحسان الجابري (كذا) وشكيب أرسلان" سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام لندن (FO371/18960/E2639)، ملخص استخبارات سلاح الجو الملكي، فلسطين وشرق الأردن، مارس (1935).
51. عُرِفَ أحدهم باسم محمد علي الطاهر، وهو الذي كان مسجوناً في شهر سبتمبر من العام 1940، جزئياً، بسبب ترأسه مع أرسلان، سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن (FO371/19983/E3334)، "الدعاية الإيطالية في الشرق الأدنى"، والطاهر، ظلام السجن ص371، سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن E5638/18908/FO371، "الدعاية الإيطالية في فلسطين"، تقرير أدرجه أكهوب في بريد أرسله إلى إم ماكdonald، 10 أغسطس (1935).
52. ملكا، المحور، ص347.
53. يضاف إلى الهجمات التي استهدفتها من أعدائه القدامى صوت ليبيا التخيوني المتمثل باسم المتحدث الدائم باسم ليبيا، سليمان الباروني، وقد اتهم أرسلان باستبعاد ليبيا من مخططاته الرامية إلى تحقيق الوحدة العربية تزلفاً إلى موسوليني، وهي تهمة دحضها أرسلان بالقوة ذاتها التي كرسها للمقال الذي قُندَ فيه المزاعم المتعلقة بالرسالة المزورة. واستمر دفاعه عبر سلسلة من المقالات التي اختار لها العنوان الآتي: «رد الأمير على الباروني باشا»، وما برحت مقالاته تلك تنشر أسبوعياً في صحيفة الشباب ابتداءً من شهر ديسمبر من العام 1937 ولغاية شهر أبريل 1938، انظر أيضاً لمحمد فؤاد الشكري: ميلاد دولة ليبيا الحديثة، 2، ص655-659، و955-964، للاطلاع على مزيد من الاتهامات التي استهدفت أرسلان كونه يعمل على تبديل ولاءاته.

54. سجلات شرائط الأفلام الجهرية (الميكرو فيلم)، وزارة الخارجية الألمانية، رول K879، مذكرة بروفر، 17 يونيو 1943، إطار K221519، والمحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، رسالة من اتحاد جنيف المدني، 14 يناير 1935.
55. تقارير المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن في 16 أكتوبر 1938، و29 يناير 1946، ومحضر جلسة استماع، 6 أكتوبر 1938. وبدا هذا منافياً للعقل، ولكن جوليتت بسيس، وهي تعمل في مجال توثيق مختلف، تزعم أنه يوجد دليل لا يمكن دحضه (تذكره بطبيعة الحال) هذا الدليل قائم ويثبت قبول أرسلان تلقي مبالغ كبيرة من الأموال من فينو (انظر كتابها: شكيب أرسلان، ص468).
56. سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن E2639/18960/FO371، ملخص استخبارات القوى الجوية الملكية، مارس 1935، وفي وقت لاحق من تلك السنة، تأكد أن الجابري ورفاقه الذين لم تعلن أسماؤهم تلقوا مبلغ ثلاثين ألف جنيه، ووضع تحت تصرفهم (E5638/18958/FO371)، "الدعاية الإيطالية في فلسطين"، تقرير من أكهوب إلى ماكدونالد، 10 أغسطس 1935). وفي معرض دراسته لدعاية المحور، زعم روبرت إل. بيكر أن أرسلان تلقى ستين ألف جنيه من الإعانات المالية من إيطاليا (النفط، والدم، والرمال، ص122).
57. سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن، E1488/20786/FO371، "الأنشطة الإيطالية المناهضة للبريطانيين في الشرق الأوسط"، مذكرة وزارة الخارجية، 13 مارس 1939. الأرقام البريطانية تقديرات مستقاة من دليل غير مباشر. وملخص المخابرات الفرنسية الذي زعم وأضعه أنه استند إلى تقرير من امرأة بارزة حسنة الاطلاع على شؤون العالم العربي على نحو خاص ليس أقل إثارة للشك والريبة. وقد ذكر في هذا التقرير أن الأمير كان يتلقى معونة مالية سنوية مقدارها ألفان وخمسة مئة لير (130 دولاراً أمريكياً) من روما (النشاط السياسي ص24). وأما المعلومات الأكثر دقة فقد قدمها كوارتارارو الذي اكتشف أمراً صادراً في العام 1934 قضى بتحويل مبلغ خمسة عشر ألف لير من البنك التجاري الإيطالي إلى حساب أرسلان في جنيف (روما ص246 و270، ملاحظة رقم 201). وبينما يؤكد هذا استلام أرسلان أموالاً إيطالية، فإن هذه المعلومات، وفقاً لإشارة كوارتارارو الواضحة، لا تثبت أن العملاء الإيطاليين المأجورين لعبوا دوراً حاسماً في الثورة الفلسطينية التي نشبت بين العامين 1936-1939.
58. أرسلان، «السياسة الإسلامية»، ص185.
59. رسالة من أرسلان إلى مجدي ناصيف، 13 ديسمبر 1939، بحسب ورودها مترجمة في سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن، J214/24640/FO371 "مركز استخبارات الشرق الأوسط"، خلاصة رقم 9، 26 ديسمبر -1939 2 يناير 1940.

60. «العدو لفرنسا»، ص804.
61. زعمت وزارة الخارجية البريطانية أن مجلة الأمة العربية كانت تتمول بصورة غير مباشرة من قبل روما وذلك على صورة أموال تسدد بوصفها بدل اشتراك وترسل من قبل مواطنين إيطاليين يقيمون في بلاد متوسطية مختلفة (E3334/19983/FO371)، "الدعاية الإيطالية في الشرق الأدنى" ورد في مراسلات مايلز لامبسون [من القاهرة] إلى أنتوني إيدن، 29 مايو (1936).
62. المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، «محضر جلسة استماع»، 6 أكتوبر 1938.
63. المرجع نفسه، لاحظت الحكومة الإيطالية، بصورة خاصة، أن عدوها، أحمد الشريف السنوسي، كان بين هؤلاء المسهمين (الأرشفيف التاريخي لوزارة الشؤون الخارجية روما، العربية السعودية، مغلف 11، POS1.1933، بيغناتي (باريس) إلى وزير الشؤون الخارجية، 19 أغسطس 1933).
64. رسالة من أرسلان إلى رضا، 18 ذو الحجة 1352، في أمير البيان، 2، ص821 للشرباصي.
65. منذ العام 1939 وحتى هزيمتها في العام 1940، منعت فرنسا إخراج أي أموال من سوريا ولبنان وإرسالها إلى الخارج، فحرمت بذلك أرسلان من تلك الحصة من دخله التي كان يحصل عليها من ممتلكات عائلته في لبنان (J381/24640/FO371)، "مركز استخبارات الشرق الأوسط"، خلاصة معلومات، 10-16 يناير 1940). وكما أشار في رسائل مؤرخة في العام 1939 وأوائل العام 1940 بعث بها إلى مراسلين عرب فقد كانت هذه ضربة مالية رهيبة وجهت إليه. وهي تشير إلى أن الدخل الذي كان يتلقاه من لبنان كان بالنسبة إليه أكثر أهمية مما كان يعتقد البريطانيون والفرنسيون. وأعيد نشر تلك الرسائل في كتاب النشاط السياسي، ص48. وعقب احتلال الحلفاء لمناطق فيتشي الواقعة تحت الانتداب في العام 1941، صودرت ممتلكات أرسلان رسمياً (كراسات معهد الشرق المعاصر للدراسات والأبحاث، 3، 1946، 641).
66. استجاب البارون بصورة إيجابية، وبدأ أنه تم إنهاء العملية (سجلات شرائط الأفلام المجهريّة، رول 726، فون أوبنهايم لورمان، 10 أبريل 1941، إطار من 326008-326009، وفون أوبنهايم إلى فون هنتيغ، الأول من شهر أغسطس 1941، من أرسلان إلى فون أوبنهايم. الثاني من سبتمبر 1941، إطار من 325952-325960).
67. المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، تقرير مؤرخ في الثاني والعشرين من فبراير 1946.
68. يتضمن هذا مبلغ الـ 1200 فرنك سويسري الذي كان حساب أرسلان مكشوفاً عليه طوال شهر يوليو، وهو أمر كان عادياً ومألوفاً بالنسبة إليه. ومتوسط إنفاقه الشهري الذي كان يبلغ 2,967 فرنكاً سويسرياً. وبذلك كان مصروفه السنوي يبلغ 36.000 فرنك سويسري تقريباً (8.280 دولاراً أمريكياً). وكان هذا المبلغ يتوافق مع الحد الأدنى الذي كان يحتاجه

أرسلان ليتدبر أمر معيشتة، ومع ذلك فقد بدأ أنه يتجاوز حدود موارد دخله المعروفة. وفي العام 1930، زعم أنه حصل على تبرعات حصرية من أجل القضية بلغت 5,346 دولاراً أمريكياً. ولكن إذا ما كان الرقم الذي أوردته عن العام 1938 والبالغ 8.280 دولاراً أمريكياً يتضمن الإيداعات والنفقات المرتبطة بمسؤولياته العامة إلى جانب مسؤولياته الشخصية الخاصة، فإن الرقم يُعدُّ في غاية التواضع. شعر السويسريون أنه من المؤكد أن أرسلان يتوفر على حساب مصرفي آخر يوجه من خلاله أموال التبرعات السرية، إلا أنه لا يوجد شيء من هذا القبيل بحسب تأكيدات أرسلان. وبيانه المصري الأصلي محفوظ لدى المحفوظات الاتحادية السويسرية، وهو مرفق بالتقرير المؤرخ في 16 أكتوبر 1938. والتحويلات إلى دولارات الولايات المتحدة استمدت تقاريرها من جداول مدونات البيانات السنوية لعصبة الأمم.

69. المحفوظات الاتحادية السويسرية. رسائل من أرسلان إلى هاني، 4 أغسطس، و 30 نوفمبر. و 23 ديسمبر 1942. أسست جمعية مصر للطلبة المصريين في جامعة جنيف في العام 1937. وكانت منظمة سياسية أكثر منها مجرد تنظيم طلابي وكانت ذات ميول موالية للمحور على نحو قاطع.

70. سجلات شرائط الأفلام المجهرية، رول 726، فون أوبنهايم إلى فون هنتيغ، 30 يوليو 1940، إطار 326014-326015.

71. دُكر المسهمون الألمان من شهادة نورمبورغ في كتاب: المحور ملكا، ص 384. والأرقام الإيطالية محفوظة في الأرشيف التاريخي لوزارة الشؤون الخارجية-روما-إيطاليا، مغلف رقم 84. 1942، مذكرتان حكوميتان، غير مؤرختين، صادرتان عن وزارة الشؤون الخارجية.

72. أرسلان، «الافتراء الأبدي»، مجلة الأمة العربية (يناير-فبراير 1935)، 172. حتى في وقت كتابة أرسلان لهذا الكلام، كان وضعه الاقتصادي محفوظاً بالمخاطر.

73. في العام 1943، اضطر إلى رهن عدة قطع من المجوهرات. وحتى بعد استلامه مبلغ ثلاثة آلاف فرنك سويسري لقاء هذا العمل المخزي المذل، ظل مديناً لمصرفه في جنيف بمبلغ ألف فرنك سويسري. وهذه مبالغ صغيرة، ولكنها كانت كافية لتسبب له شعوراً بالضيق الشديد (المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن. رسالة من أرسلان إلى يوسف هيبه. 17 فبراير 1943). كان يوسف هيبه عضواً آخر من أعضاء جمعية مصر.

74. المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن. رسائل إلى أرسلان من فارس الخوري وعارف (اسم العائلة غير مقروء) في شهري يناير وفبراير من العام 1939 تبدي تشجيعاً قوياً له في موضوع ترشيحه. وبمجرد تعيينه استفاد كذلك من منحه علاوة كبيرة في الراتب إلى جانب الوضع المتعلق بالمنصب الذي شغله (الشرق الحديث. 18 ديسمبر 1938، 658).

75. راجع مقالات كتبها كل من محمد علي الطاهر وأرسلان ونشرت في صحيفة الشباب، 8 فبراير 1939.

76. هذه الأنشطة مقترنة بصور متعددة عرضت في صحيفة الشباب في الثامن والخامس عشر من مارس من العام 1939، انظر أيضاً الشرق الحديث، 19 (أبريل 1939)، 215: والنشاط السياسي، ص 41-43، الذي يؤكد الاستقبال «الحار جداً» الذي حظي به أرسلان في مصر.

77. تلقت الاستخبارات الفرنسية معلومات من القاهرة عن المناسبة، وقالت إنه كان أُعلن عنها من راديو برلين، وتم أدائها في حفل ترأسه فون أوبنهايم (النشاط السياسي، ص 47). ووفقاً لمصادر بريطانية، دافع راديو برلين في وقت لاحق عن أرسلان بخصوص «هذه التهم الفرنسية» التي وجهت إليه، وكان من شأن ذلك أن أضفى على تلك الاتهامات شيئاً من المصداقية («مركز استخبارات الشرق الأوسط»، 26 ديسمبر 1932-2 يناير 1940). كما أنكر أرسلان المسألة برمتها، لكن، في حين أنه لا يوجد ولا حتى مصدر واحد من المصادر موثوق ويمكن الاعتماد عليه كلياً، يمكن بالتأكيد أن يكون ذلك قد حصل فعلاً. (انظر عروة الاتحاد، ص 24، وسجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن 24546/FO371/E41، من أرسلان إلى نوري السعيد).

78. توثيق المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، لهذه القضية مؤرخ في 6 يناير 1938، و3 أكتوبر 1939، و27 فبراير 1940، و17 و30 أبريل 1940، و3 أكتوبر 1941. وتظهر هذه المواد أن شعوراً بالضيق كان ينتاب السويسريين من جراء وجود أرسلان في سويسرا حتى قبل اندلاع الحرب، وأنه، خلافاً لهرزوفيتش، كانت جهودهم لتقييد تحركاته تنفذ بصورة مستقلة وبمعزل عن النكسات الألمانية في أواخر العام 1942 (الرايخ الثالث، ص 309). وريزيت في كتابه: الأحزاب، ص 16، و199 جانب الصواب بقوله إن أرسلان قضى زمن آخر مراحل الحرب في البرازيل ومات فيها.

79. المحفوظات الاتحادية السويسرية، تقرير الثالث من شهر أكتوبر من العام 1939. وسجلات شرائط الأفلام المجرية، رول 726، من فون أوبنهايم إلى أرسلان، 7، 19 يونيو 1941، إطار 325972-325974، و3 ديسمبر 1941، إطار 325921-325923. ومن أرسلان إلى فون أوبنهايم، 2 و10 سبتمبر 1941، إطار من 325952-325960، 325947-325948.

80. سجلات شرائط الأفلام المجرية، رول 726، فون هنتيغ إلى فون أوبنهايم، 11 أكتوبر 1941، إطار 325943-325945.

81. المرجع نفسه، من أرسلان إلى فون أوبنهايم، 2 سبتمبر 1941، إطار 325952-325960.

82. المرجع نفسه، من أرسلان إلى فون أوبنهايم، 3 أكتوبر 1941، إطار 325932.

83. ملخصات وترجمة لمشورات أرسلان القليلة في تطوان طرحت عبر مجلة الشرق الحديث، 20 (أغسطس 1940)، 376-382؛ وفي 21 (أغسطس 1941)، 394؛ وفي 21 (سبتمبر 1941)، 499. ونشرت صحيفة العالم العربي مجموعة من المقالات التي سبق لأرسلان أن نشرها بين العامين 1939 و1941 في المطبوعة التي سبق ذكرها: عروة الاتحاد.

84. سجلات شرائط الأفلام المجهزية، رول 726، أرسلان إلى فون أوبنهايم، 10 أبريل 1941، إطار 326003-325996.
85. المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، تقارير في الأول من أبريل والخامس من نوفمبر من العام 1940، السابع عشر من يونيو 1943، والثاني من مارس من العام 1944. كان فؤاد حمزة في ذلك الوقت السفير السعودي لدى حكومة فيتنشي.
86. المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، مراسلة في الأول من أبريل من العام 1942، وتقرير في العشرين من يوليو من العام 1942.
87. سجلات شرائط الأفلام المجهزية، رول K880، من بروفر إلى أرسلان، 11 يناير 1943؛ ومن أرسلان إلى بروفر، 27 يناير 1943.
88. استشهد به تشارلز روبرت أغيرون: «شمال أفريقيا والدعاية الألمانية»، في الجزائر الجزائرية من نابليون الثالث إلى ديغول، ص 192.
89. المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، تقارير في 9، و11، و14، و15، و18، و19، و22 فبراير 1946.
90. الطاهر، ظلام السجن، ص 677-687.
91. المرجع نفسه، ص 678، والطاهر، ذكريات الأمير، ص 486.

الفصل الثامن: الخاتمة

1. آرنولد، الخلافة، ص 183.
2. من خطاب وجهه شكيب أرسلان إلى اتحاد طلاب شمال أفريقيا المسلمين، باريس، 1937؛ ذكر في النشاط السياسي، ص 30.
3. محفوظات وزارة الشؤون الخارجية، باريس، السلسلة E، سوريا-لبنان، 213، تقرير استخبارات في الثاني عشر من يوليو 1927.
4. دُكر في النشاط السياسي، ص 30.
5. دُكر في المرجع نفسه، ص 30.

تَبَتُّ المراجع المختارة

1- المصادر الأرشيفية

فرنسا:

- محفوظات وزارة الشؤون الخارجية، باريس. ملفات مختارة من إدارة الشؤون السياسية والتجارية، سلسلة إي، سوريا ولبنان، 1922-1929.
- محفوظات ما وراء البحار الفرنسية-بوابة أيكس أون بروفانس. مسرح عمليات شمال أفريقيا، المكتب السياسي، إسهام في دراسة النشاط السياسي للأمير شكيب أرسلان، 4 يونيو 1940، 29H35.

ألمانيا:

- سجلات وزارة الخارجية الألمانية التي تلقتها وزارة الخارجية في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي محفوظة في سجلات المحفوظات القومية للولايات المتحدة الأمريكية، واشنطن، العاصمة، نسخة مطبوعة مضغوطة رقم: k879-k880,L1279,869-T-120, Roll63,726,4900,k868.

بريطانيا العظمى:

- سجلات وزارة الخارجية، مكتب السجل العام، لندن.

مجلدات في السلسلة FO371

- للحقبة الممتدة بين العامين 1921-1943.

إيطاليا:

- الأرشيف التاريخي لوزارة الشؤون الخارجية، روما. مصنفات عديدة مصنفة بحسب الدول، تغطي حقبة ممتدة بين العامين 1921-1945.

عصبة الأمم:

- محاضر هيئة الانتداب الدائمة. جلسات انعقاد الهيئة من 1-25 (1921-1934).

سويسرا:

- المحفوظات الاتحادية السويسرية، برن، 4320E، أرسلان.

2- الوثائق المنشورة:

- الوثائق الدبلوماسية الإيطالية، السلسلة السابعة، 1922-1935. مجلد رقم 10، روما، 1978.
- وثائق تتعلق بالسياسة الخارجية الألمانية عن الحقبة الممتدة بين العامين 1918-1945. السلسلة: D المجلد رقم 10: سنوات الحرب، 1940. واشنطن العاصمة، 1957.

3- صحف ومجلات:

- الإصلاح، بيروت، 1912-1914.
- الأمة العربية، جنيف، 1930-1938.
- ديترويت فري برس، يناير 1927.
- ديترويت فري نيوز، يناير 1927.

- دير نوي أورينت (المشرق الجديد)، برلين، 1917-1918.
- الرأي العام، بيروت، 1913-1914.
- السائح، نيويورك، 3 يناير 5- مايو 1927.
- الشباب، القاهرة، 1936-1939.
- الشرق الحديث، روما، 1922-1942.
- الشورى، القاهرة، 1923-1930.
- الفتح، القاهرة، 1926-1936.
- لا تريبيون دولوريت (منبر الشرق)، جنيف، 1922-1937.
- لوتون (مستعمرية)، باريس، 1930-1931.
- مجلة الزهراء، القاهرة، 1924-1929.
- المقتطف، القاهرة، 1900-1902.
- المنار، القاهرة، 1912-1914.
- منبر الشرق، القاهرة، يناير-مارس 1953.
- المؤيد، القاهرة، 1911-1912.

4- مؤلفات لشكيب أرسلان استعملت في هذه الدراسات بوصفها مراجع، ويمكن الاطلاع على قائمة كاملة بمؤلفاته في: أمير البيان، 2، للشرباصي.

أ- كتب:

- الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف. القاهرة 1350.
- الباكورة. بيروت، 1886.
- تاريخ ابن خلدون. القاهرة، 1355/1936. مع تعليق من قبل أرسلان. مجلد 3.
- تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط. القاهرة، 1352/1933.

- حاضر العالم الإسلامي. طبعة ثالثة. أربعة مجلدات. بيروت 1971-1973.
- كتبه الكاتب الأمريكي لوثر روب ستوارد، وترجمه إلى العربية عجاج نويهض، وعلق عليه الأمير شكيب أرسلان. التعليقات أطول إسهاباً وتظنيماً من الترجمة. وبذلك غدا هذا العمل خاصاً بأرسلان.
- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية. مجلد 1. بيروت، 1966، نسخة مطابقة لطبعة عام 1936.
- ديوان الأمير شكيب أرسلان (مجموعة شعرية). حررها وأعدّها للنشر رشيد رضا. القاهرة 1354 / 1935.
- روض الشقيق في الجزل الرقيق. دمشق 1925. ديوان نسيب أرسلان الشعري، حرره وقدم له شكيب أرسلان.
- السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة. دمشق 1356 / 1937.
- السيرة الذاتية. بيروت 1969.
- شوقي أو صداقة أربعين سنة. القاهرة، 1355 / 1936.
- عروة الاتحاد بين أهل الجهاد. بوينس آيرس، 1941.
- لا يمكن لأي دعاية في العالم أن تشوه صورة رجل. جنيف 1936.
- لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ الطبعة الثالثة، القاهرة 1358 / 1939. ترجمه إم. اس. شكور مثل: تراجعنا وأسبابه، أعيد طبعه في لاهور، في العام 1962.
- النهضة العربية في العصر الحاضر. القاهرة من دون تاريخ. كتاب تم جمعه من محاضرات ألقيت في دمشق في العام 1937.
- الوحدة العربية. دمشق، 1937.

ب- المقالات التي لم تظهر في البند 3 أعلاه:

- "الإمبراطورية العثمانية". النشرة الشهرية الألمانية (يوليو 1918)، 235-240.
- "كوارث سوريا في سنوات الحرب". المنار، 23 (1922)، 121-134.
- "ما وراء الأكمة" (الأمور أكثر تعقيداً مما تبدو للوهلة الأولى، والتاريخ لا يكون بالافتراض ولا بالتحكم). تحت راية القرآن: المعركة بين القديم والجديد. حررها مصطفى صادق الرافعي. الطبعة الرابعة، القاهرة، 1956.
- "المعارضة السورية للحكم الفرنسي". التاريخ الراهن والمنتدى (مايو 1924)، 239-247.
- "المقدمة"، إي راباث، التطور السياسي لسوريا تحت الانتداب. باريس، 1928.
- "مقدمة"، عبد القادر المغربي، البيئات في الدين والاجتماع والأدب والتاريخ، مجلد، 1، القاهرة، 1344.
- "النهضة الشرقية الحديثة"، المقتطف (فبراير 1937)، 136-143.

5- أطروحات، لم تنشر، لنيل درجة الدكتوراه:

- زاغوريا، جانيت دورش "صعود حركة مصالي الحاج وهبوطها في الجزائر، 1924-1954". جامعة كولومبيا، 1974.
- ستودارد، فيليب إتش. "الحكم العثماني والعرب، 1911 إلى 1918: دراسة أولية للتشكيلات المحسوسة". برينستون، 1963.
- ملكا، روبرت لويس. "المحور والشرق الأوسط العربي، 1930-1945". جامعة مينيسوتا، 1966.

6 - مصادر أخرى وجدت طريقها إلى النشر:

- "وصية الأمير شكيب أرسلان للبنانيين". أوراق لبنانية، 2 (1956)، 337-342.
- أبو شقرا، عارف. "يوم زارَ جمال باشا منطقة الشوف". أوراق لبنانية، 1 (1955)، 549-547.
- آجاي، نيكولاس زِدُّ، الابن. "المكائد السياسية والقمع في لبنان خلال الحرب العالمية الأولى". المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، 5 (1974)، 140-160.
- أحمد، جمال محمد. الأصول الفكرية للقومية المصرية. لندن، 1960.
- أحمد، فيروز. تركيا الفتاة: لجنة الاتحاد والترقي في السياسة التركية، 1908-1914. أكسفورد، 1969.
- آدامز، تشارلز سي. الإسلام والحداثة في مصر. لندن، 1933.
- أرسلان، عادل. ذكريات الأمير عادل أرسلان. بيروت، 1962.
- إرمونت، لويس. "شمال أفريقيا والشرق الأدنى". أفريقيا الفرنسية، 63 (أبريل 1933)، 197-205.
- _____ "شمال أفريقيا والشرق الأدنى". أفريقيا الفرنسية، 62 (سبتمبر 1932)، 505-512.
- آرnod، توماس دبليو. الخلافة. نيويورك 1966. طباعة جديدة لنسخة العام 1924 مع فصل ختامي من قِبَل سيلفيا دجي. حاييم.
- إسبوسيتو، جون إل. (محرر). الإسلام والتنمية: الدين والتغيير الاجتماعي السياسي. سيراكيوز، 1980.
- آغرون، تشارلز-روبرت. "الجزائر الجزائرية" من زمن نابليون إلى عهد ديغول. باريس، 1980.
- _____ تاريخ الجزائر المعاصر. المجلد 2. اندلاع ثورة العام 1871 من حرب التحرير (1954). باريس، 1979.

- _____ "السياسة البربرية في المحمية المغربية من العام 1913 وحتى العام 1934". استعراض التاريخ الحديث والمعاصر، 18 (1971)، 50-90.
- أنطونينوس، جورج. البقطة العربية. نيويورك، كابريكون للكتب، 1965.
- إيدمير، شوكت سوريا. أنور باشا: من مقدونيا إلى آسيا الوسطى المجلد 3. 1914-1922. اسطنبول، 1972.
- إيفانز-بريتشارد، إي. إي. سنوسي برقة. أكسفورد 1949.
- بحيري، مروان راء. (محرر). الحياة الفكرية في المشرق العربي، 1890-1939. بيروت، 1981.
- بدوي، م. م. أ. مقدمة نقدية للشعر العربي الحديث. كمبريدج، 1975.
- براير، ديفيد. "أصول دين الدروز". الإسلام، 52 (1975)، 47-84، و52 (1976)، 4-27.
- برو، توفيق علي. العرب والأترك في العهد الدستوري العثماني، 1908-1914. القاهرة 1960.
- بسيس، جوليت. "شكيب أرسلان والحركات الوطنية في المغرب". استعراض تاريخي، 259 (1978)، 467-489.
- بن غوريون، ديفيد. محادثاتي مع قادة عرب. ترجمة كل من إيه. روبنشتاين وإم لوفيش. نيويورك 1973.
- بوارث، واي. ظهور الحركة الوطنية العربية الفلسطينية: 1918-1929. لندن، 1974.
- _____ الحركة الوطنية العربية الفلسطينية: من أعمال الشغب إلى الثورة. مجلد 2. 1929-1939. لندن، 1977.
- بوبلان، روبرت دي. أين تذهب سوريا. باريس، 1929.
- بورقية، حبيب. "مناضل مخضرم ضد الاستعمار: الأمير شكيب أرسلان". الدستور الجديد والجهة الشعبية في فرنسا. مجلد 1. الحوار، 1936-1938. تونس 1969.

- بيزرز رودولف. الإسلام والاستعمار: عقيدة الجهاد في التاريخ الحديث. لاهاي، 1979.
- بيرك، إدموند 3. "المقاومة المغربية، الجامعة الإسلامية واستراتيجية الحرب الألمانية، 1914-1918". فرنسا (ميونخ)، 3 (1975)، 434-464.
- _____ "الجامعة الإسلامية والمقاومة المغربية للاختراق الفرنسي الاستعماري، 1900-1912". مجلة التاريخ الأفريقي، 13 (1972)، 79-118.
- _____ "الجامعة الإسلامية والمقاومة الشمال أفريقية، 1890-1918: أنماط الاستجابة." بحث لم ينشر.
- _____ تمهيد لمحمية في المغرب: الاحتجاجات والمقاومة في حقبة ما قبل الاستعمار، 1860-1912. شيكاغو، 1976.
- بيرك، جاك. مصر: الإمبريالية والثورة. ترجمة جان سيتوارت. نيويورك، 1972.
- _____ شمال أفريقيا الفرنسي: المغرب بين الحربين العالميتين. ترجمة جان سيتوارت. لندن، 1967.
- بيركس، نيازي. تطور العلمانية في تركيا. مونتريال، 1964.
- بيكر، روبرت إل. النفط والدم والرمال. نيويورك، 1942.
- تباي رفايل. "شكيب أرسلان". الكتاب، 3 (فبراير، 1947)، 566-574.
- ترولر، غاري. ولادة المملكة العربية السعودية: بريطانيا وآل سعود. لندن، 1976.
- توما، توفيق. الفلاحون والمؤسسات الإقطاعية عند دروز وموارنة لبنان من القرن السابع عشر وحتى العام 1914. المجلد الثاني، بيروت، 1972.
- جاراس، فيليكس. بوريقية وولادة أمة. باريس، 1956.
- جبور، جبرائيل. "الأمير شكيب أرسلان بمناسبة مرور سبع سنوات على وفاته". الأبحاث، 7 (1954)، 33-38.
- جمال باشا، أحمد. مذكرات رجل الدولة التركي، 1913-1919. لندن، 1922.

- جوفلت، لويس. "التطور الاجتماعي والسياسي للبلاد العربية (1930-1933)". استعراض الدراسات الإسلامية، 7 (1933)، 425-644.
- جوليان، شارل-أندريه. شمال أفريقيا تتحرك: القومية الإسلامية والسيادة الفرنسية. الطبعة الثالثة، باريس 1972.
- _____ المغرب في مواجهة الإمبريالية. 1415-1956. باريس، 1978.
- جيوسي، سلمى ك. الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث. مجلد 1. لندن، 1972.
- حايم، سيلفيا دجي. القومية العربية: مقتطفات مختارة. بيركلي ولوس أنجلوس، 1964.
- حَيَّي، فيليب ك. أصول الدرور ودينهم. نيويورك، 1928.
- حريق، إيليا ف. السياسة والتغير في المجتمع التقليدي: لبنان، 1711-1845. برينستون، 1968.
- الحصري، خلدون س. "الملك فيصل الأول والوحدة العربية، 1930-1933". مجلة التاريخ المعاصر، 10 (1975)، 323-340.
- الحكيم، يوسف. بيروت ولبنان في العهد العثماني. بيروت، 1964.
- _____ سوريا والعهد الفيصلي. بيروت، 1966.
- الحوت، ب. نويهض وخيرية قاسمية. "فقيدان فلسطينيان كبيران: عبد الحميد شومان ومحمد علي الطاهر". شؤون فلسطينية، 39 (نوفمبر 1974)، 143-163.
- حوراني، ألبرت. الفكر العربي في العصر الليبرالي، 1798-1939. لندن.
- _____ ظهور الشرق الأوسط الحديث. لندن، 1981.
- سوريا ولبنان: مقال سياسي. لندن، 1946.
- خالدي، رشيد إسماعيل. السياسة البريطانية تجاه سوريا وفلسطين، 1906-1914. دراسة للعناصر الشرطية في مراسلات الحسين مكماهون، واتفاقية سايكس-بيكو، ووعد بلفور. لندن، 1980.

- خدوري، مجيد. الاتجاهات السياسية في العالم العربي: دور الفكر والمثل في السياسة. بالتيمور، 1970.
- خضور، أديب. الصحافة السورية. دمشق، 1972.
- الخوري، بشارة. حقائق لبنانية. مجلد 1، بيروت، 1960.
- خوري، فيليب س. "النزاعات الحزبية بين القوميين السوريين أثناء الانتداب الفرنسي". المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، 13 (1981)، 441-469.
- _____ وجهاء المدن والقومية العربية: سياسة دمشق 186-1920، كمبريدج، 1983.
- داغر، يوسف أسعد. مصادر الدراسة الأدبية: الفكر العربي الحديث في سير أعلامه. المجلد الثاني، الجزء الأول. 1800-1855. بيروت، 1955.
- _____ مذكراتي على هامش القضية العربية. القاهرة 1959.
- دجيب، إتش. إيه. آر. "المؤتمر الإسلامي في القدس في شهر ديسمبر من العام 1931". استعراض الشؤون الدولية، 1934. (المحرر) آرنولد دجي. توينبي. لندن، 1935.
- _____ الاتجاهات الحديثة في الإسلام. نيويورك، 1972. طبعة جديدة بعد الطبعة الأصلية في العام 1947.
- _____ (محرر) الإسلام إلى أين؟ دراسة استقصائية للحركات الحديثة في العالم الإسلامي. لندن، 1932.
- الدهان، سامي. الأمير شكيب أرسلان: حياته وآثاره. القاهرة، 1960.
- _____ محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان. القاهرة، 1958.
- _____ قدامى ومعاصرون. القاهرة، 1961.
- دون، سي. أرنست. من العثمانية إلى العروبة: مقالات عن أصول القومية العربية. أوريانا وشيكاغو، 1973.
- ديسبارمت، دجي. "شمال أفريقيا والعروبة الجامعة: 1، من شمال أفريقيا إلى دمشق". أفريقيا الفرنسية، 68 (فبراير 1938)، 56-58.

- _____ "العلماء الجزائريون الدعاية الإيطالية (1931-1938)". أفريقيا الفرنسية، 68 (مايو 1938)، 210-214.
- _____ "العروبة والجزائر". أفريقيا الفرنسية، 68 (يونيو 1936)، 312-317.
- _____ "مقاومة الغرب". أفريقيا الفرنسية، 63 (مايو 1933)، 265-269.
- رضا، محمد رشيد. تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده. المجلد 1، القاهرة، 1931.
- ريد، دونالد إم. "الفكر العربي في العصر الليبرالي بعد عشرين سنة". المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، 14 (1982) 541-557.
- ريزيت، روبرت. الأحزاب السياسية المغربية. باريس، 1955.
- زعتر، أكرم. "رسالة تاريخية للأمير شكيب أرسلان حول محاولات فرنسا إخراج البربر من الإسلام". تهامة (جدة)، 16 سبتمبر 1983.
- زيادة، نقولا أ. أصول القومية في تونس. بيروت، 1962.
- زين، زين ن. ظهور القومية العربية. طبعة منقحة. بيروت، 1966.
- سافران، نذاف. مصر: بحثاً عن المجتمع السياسي: تحليل للتطور الفكري والسياسي في مصر. 1804-1953. كمبريدج - ماساشوستس، 1961.
- ساميدي، مانويلا. "الاشتراكيون الفرنسيون والمشكلة الاستعمارية ما بين الحربين (1919-1939)". مراجعة فرنسية للعلوم السياسية، 18 (1968)، 115-1153.
- سبانولو، جون بي. فرنسا ولبنان العثماني: 1861-1914. لندن، 1977.
- ستودارد، لوثر وب. حاضر العالم الإسلامي. نيويورك، 1922.
- ستوكي، روبرت دبليو. اليمن: سياسة الجمهورية العربية اليمنية. بولدر، 1978.
- سكاللي أكيل. "المؤتمران العامان في العام 1926". استعراض العالم الإسلامي، 64، رقم 2 (1926)، 3-219.

- سميث، تشارلز دي. "أزمة الاتجاه: تحول المثقفين المصريين إلى المواضيع الإسلامية في ثلاثينيات القرن العشرين". المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، 4 (1973)، 382-410.
- _____ "المثقف والحداثة: تعريفات وإعادة نظر: التجربة المصرية". دراسات مقارنة في المجتمع والتاريخ، 22 (1980)، 513-533.
- سميث، ويلفرد كانتويل. الإسلام في التاريخ الحديث. نيويورك، 1959.
- سيبري، بول. المجمع الحكومي الألماني: دراسة الدبلوماسيين الألمان في ظل النظام النازي. بيركلي ولوس أنجلوس، 1954.
- شجنبي، أنور. "أمير الريحاني والأندلس: رحلة في التاريخ". العربية، 9 (1976)، 9-18.
- شراي، هشام. المثقفون العرب والغرب: السنوات التأسيسية. 1875-1914. بالتيمور، 1970.
- الشرباصي، أحمد. أدب أمير البيان. القاهرة، 1964.
- _____ أمير البيان: شكيب أرسلان. مجلدان. القاهرة، 1963.
- _____ شكيب أرسلان: داعية العروبة والإسلام. القاهرة، من دون تاريخ (1963).
- _____ شكيب أرسلان: من رواد الوحدة العربية. القاهرة، 1963.
- شروود، إم. دجي. "تقارير دول المحور مع العالم العربي". في الحرب في منطقة البحر الأبيض المتوسط (1930-1945). باريس، 1971.
- شكري، محمد فؤاد. ميلاد دولة ليبيا الحديثة: وثائق تحريرها واستقلالها. الجزء الأول، المجلد الثاني، القاهرة، 1957.
- صليبي، كمال س. تاريخ لبنان الحديث. لندن، 1965.
- الطاهر، محمد علي. ظلام السجن. القاهرة، 1951.
- _____ (محرر) في ذكرى الأمير شكيب أرسلان. القاهرة، 1947.
- طياوي، أ. ل. المصالح الأمريكية في سوريا، 1800-1901. أكسفورد، 1966.

- عبود، مارون. رواد النهضة الحديثة. بيروت، 1966.
- عجمي، فؤاد. "نهاية الموالاة للعروبة". الشؤون الخارجية، 57 (1978-1979)، 373-355.
- غلبرت، لويس. "في المغرب الذي يتحرك". دراسات (20 أبريل 1938)، 342-360.
- _____ "اضطرابات الإسلام العربي". دراسات (20 يناير 1938)، 184-170.
- غوردون، ديفيد سي. نهاية الجزائر الفرنسية. لندن، 1966.
- غوردون، فريتز. أسلوب الشرق وتكوينه. جوتنجن، 1967.
- غيران، دانيال. خدمة المستعمرات، 1930-1935. باريس، 1954.
- فاتان، جان كلود. الجزائر السياسية: التاريخ والمجتمع. باريس، 1974.
- فاتيكويتس، بي. دجي. تاريخ مصر: من محمد علي إلى السادات. الطبعة الثانية. لندن، 1980.
- الفاسي، علّال. حركات الاستقلال في شمال أفريقيا العربي. ترجمة حازم زكي نسبية. نيويورك 1970.
- فان دوسان، مايكل إتش. "سوريا: سقوط النخبة التقليدية". النخب السياسية والتطور السياسي في الشرق الأوسط. محرر الكتاب: فرانك تاشو. نيويورك، 1975.
- فرنه، برنارد. السياسة الإسلامية لألمانيا. باريس، 1939.
- فريمان-غرينفيل، دجي. إس. بي. التقويم الإسلامي والمسيحي. لندن، 1963.
- فلوري، أنطوان. "الحركة القومية العربية في جنيف في حقبة ما بين الحربين العالميتين". العلاقات الدولية، رقم 19 (1979)، 354-329.
- فول، جون أوبرت. الإسلام: الاستمرارية والتغير في العالم الحديث. بولدر، 1982.

- فيدمر، دجي. "نشر الأدب العربي الجديد 3-: الأمير شكيب أرسلان". العالم الإسلامي، 19 (1973)، 1-93.
- فينر، مانفريد دبليو. اليمن الحديث، 1918-1966. بالتيمور، 1967.
- القادري، أحمد. مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى. دمشق، 1956.
- قدوري، إيلي. "مؤتمر بلودان بشأن فلسطين". دراسات شرق أوسطية، 17 (يناير 1981)، 107-125.
- _____ نسخة تشاثام هاوس ودراسات شرق أوسطية أخرى. لندن، 1970.
- كار، إدوارد هاليت. تاريخ روسيا السوفياتية: الثورة البلشفية، 1917-1923. مجلد 3. لندن، 1953.
- كرد علي، محمد. المذكرات. ثلاثة مجلدات. دمشق، 1948-1949. ترجمها بوصفها مذكرات خليل طوطح. واشنطن العاصمة، 1954.
- كروكشانك، إيه. إيه. "تحدي تركيا الفتاة في تركيا ما بعد الحرب". مجلة الشرق الأوسط، 22 (1968)، 17-28.
- كليدار، إيه. آر. شبه الجزيرة العربية في السياسة العربية وسياسة السلطة، المجتمع والسياسة. (تحرير) ديريك هو بوود. لندن، 1972.
- كليفلاند، ويليام إل. "أنا تورك من وجهات نظر معاصريه من العرب: رأي كل من ساطع الحصري وشكيب أرسلان". المجلة الدولية للدراسات التركية، 2 (1983)، 15-23.
- _____ تشكيل القومي العربي: العشائنية والعروبة في حياة ساطع الحصري وفكره. برينستون، 1971.
- _____ "مصادر القومية العربية: نظرة عامة". استعراض الشرق الأوسط، 11 (1979)، 25-33.
- كوارتارو، روزاريا. روما بين لندن وبرلين: السياسة الخارجية الفاشية من العام 1930 حتى العام 1940. روما، 1980.

- كيدي، نيكي آر. الرد الإسلامي على الإمبريالية: كتابات سياسية ودينية للسيد جمال الدين "الأفغاني". بيركلي ولوس أنجلوس، 1972.
- كير، مالكوم إتش. الإصلاح الإسلامي: نظريات محمد عبده ورشيد رضا السياسية والشرعية. بيركلي ولوس أنجلوس، 1966.
- لالي، ماريو تيدتشيني. "الدعاية العربية الفاشية ومصر". التاريخ المعاصر، 7 (ديسمبر 1976)، 717-749.
- لاندوا، روم. الدراما المغربية، 1900-1955. لندن، 1956.
- لاووست، هنري. "التطور السياسي والثقافي لمصر المعاصرة". مقابلات عن تطور بلاد الحضارة العربية، رقم 3 (1937)، 68-94.
- _____ "إصلاح عقيدة "السلفية" والشخصيات العامة ذات التوجه الراهن". استعراض دراسات إسلامية، 6 (1932)، 175-224.
- لوتورنو، روجر. التطور السياسي لشمال أفريقيا الإسلامي، 1920-1961. باريس، 1962.
- _____ الإسلام المعاصر. طبعة ثانية. باريس، 1950.
- لونغريغ، ستيفن همسلي. سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي. لندن، 1958.
- لويس، برنارد. ظهور تركيا الحديثة. الطبعة الثانية، لندن، 1968.
- ليفي-بروفنسال، إي. "الأمير شكيب أرسلان (1869-1946)". كراسات عن الشرق المعاصر، 9-10 (1947)، 5-19.
- ماكدونالد، كالوم إيه. "راديو باري: الدعاية الإيطالية اللاسلكية في الشرق الأوسط والتدابير المضادة البريطانية 1934-1938". دراسات شرق أوسطية، 13 (مايو 1977)، 195-207.
- مالكوم، إليزابيث. الحملة الصليبية القومية في سوريا، نيويورك، 1928.
- المانع، محمد. شبه الجزيرة العربية الموحدة: صورة لابن سعود. لندن، 1980.
- مراد، علي. ابن باديس: مفسر القرآن الكريم. باريس، 1971.

- _____ الإصلاح الإسلامي في الجزائر من 1925-1940: اختبار التاريخ الديني والاجتماعي. باريس ولاهاي، 1967.
- مكارم، سامي نسيب. معتقد الدروز. ديلمار، نيويورك، 1974.
- ملكا، آر. إل. "ماكس فريهر فون أوبنهايم: ستون عاماً من البحث والتلاعب في الشرق الأوسط". دراسات شرق أوسطية، 9 (يناير 1973)، 81-93.
- _____ "ألمانيا النازية وفلسطين". دراسات شرق أوسطية، 5 (أكتوبر 1969)، 221-223.
- موتون، ماري-رينيه. "المؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف (1921)". العلاقات الدولية، رقم 19 (1979)، 313-328.
- مؤسسة إيسكو. فلسطين: دراسة السياسات اليهودية، والعربية، والبريطانية. المجلد 2. نيوهافن، 1947.
- موسوعة الإسلام، الطبعة الثانية. ليدن، -1954.
- موسى، سليمان. الحركة العربية: المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة، 1908-1924. بيروت، 1970.
- مونتاني، روبرت. "الأزمة السياسية والعروبة (يونيو -1937 يونيو 1938)". فرنسا المتوسطية والأفريقية، 1 (1938)، 7-39.
- _____ "قلق الأحزاب السياسية في الجزائر". السياسة الخارجية، 2 (أبريل 1937)، 124-147. _____ السياسة الإسلامية لفرنسا. باريس، 1939.
- _____ "ردود الأفعال العربية المناهضة للصهيونية: مؤتمر بلودان". مقابلات بشأن تطور حضارة بلاد الحضارة العربية، 3 (1939)، 42-61.
- _____ ثورة المغرب، باريس، 1953.
- ميتشل، ريتشارد بي. جماعة الإخوان المسلمين. لندن، 1969.
- ميكود، تشارلز (محرر). تونس: سياسة الحداثة. نيويورك، 1964.

- ميلر، جويس لافرتي. "ثورة العام 1925 السورية". المجلة الدولية للدراسات الشرق أوسطية، 8 (أكتوبر 1977)، 545-563.
- نيقوسيا، فرانسيس. "القومية العربية وألمانيا القومية الاشتراكية، 1933-1939: التناقض الأيديولوجي والاستراتيجي". المجلة الدولية للدراسات الشرق أوسطية، 12 (1980)، 351-372.
- هالستيد، جون بي. نهضة أمة: أصول القومية المغربية وصعودها، 1912-1944. كمبريدج، ماساشوستس، 1967.
- هولت، بي. إم. (محرر). التغيير السياسي والاجتماعي في مصر الحديثة. لندن، 1968.
- هومت، مارسيل. التاريخ السري للمعاهدة الفرنسية السورية. باريس، 1938.
- هيرزوفيتش، لوكاز. الرايخ الثالث والمشرق العربي. لندن، 1966.
- يانكوفسكي، جيمس. "الاستجابات المصرية للمشكلة الفلسطينية في فترة ما بين الحربين". المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، 12 (1980)، 1-38.
- _____ "العثمانية والعروبة في مصر، 1860-1914". العالم الإسلامي، 10 (1980)، 226-259.

7 - مقابلات:

- إحسان الجابري، القاهرة، 5 يناير 1975.
- الحبيب بورقيبة، قرطاج، 7 أبريل 1975.
- مي جنبلاط، بيروت 5، 3، و17، و24 ديسمبر 1974.

الفهرس

130، 146، 168، 208-209، 210؛ والأسفار 74-105.
 148-150، 159؛ والحج 153-155؛ والحزب الاشتراكي
 الفرنسي 198؛ والردود على التدابير الإيطالية التي اتخذت في ليبيا
 71-73، 193-194؛ والعلاقات الأسرية 53، 59، 70-71،
 141، 172؛ ورئاسة المجمع العلمي العربي في دمشق 272، 274؛
 وسمعته ونفوذه 42-43، 56، 96-100، 122-123، 180،
 196، 205-208، 239-240، 241-242، 261-264،
 268، 281-282؛ وصورته العامة بوصفه مجاهداً 42، 122،
 133، 148، 168، 241، 284؛ وعلاقاته مع ألمانيا 101، 136-
 137، 138، 250-254، 270، 274-275، 276؛ وعلاقاته
 مع إيطاليا 193-194، 258-260، 262-264، 267؛ ومصر
 140-141، 153، 273.
 فِكْرُهُ ومواقفه: آراءه المناهضة للإمبريالية 74، 104، 110،
 145، 193، 233-234؛ بشأن أولوية الروابط الدينية على
 الروابط القومية 146، 192، 194، 235-237؛ بشأن إسبانيا
 الإسلامية 63، 160، 193، 194، 311؛ بشأن الأصالة الثقافية
 224-226؛ بشأن التوافق بين الدين والحداثة 227-229،
 231-232؛ بشأن الخلافة 67، 68، 152-153، 161؛ بشأن
 العلاقات الفرنسية-السورية 108-109، 169-170؛ بشأن
 رفض النماذج الأوروبية 60، 228-229، 238، 257؛ حيال
 فلسطين بوصفها قضية إسلامية 165-166؛ سبل معالجة التجديد

1.

أتاتورك، مصطفى كمال 107، 108، 115، 149، 232، 282؛
 وانتقادات أرسلان 222-226، 229-226
 الاتحاد المغاربي (منظمة إسلامية جامعة) 72، 181
 اتحاد طلاب شمال أفريقيا المسلمين 184، 203، 207، 211
 إثيوبيا: دفاع أرسلان عن السياسة الإيطالية في 259-260
 الإخوان المسلمون 135، 238، 283
 أرسلان، الأمير حمود (والد) 50، 58
 أرسلان، الأمير شكيب:
 حياته: أنشطته إبان الحرب العالمية الثانية 268-270؛ أنشطته
 في عصبة الأمم 115-116؛ الأنشطة الأدبية 53، 55؛ التحول
 من الولاء إلى العثمانيين إلى الولاءات العربية 75، 77، 79، 82،
 102، 104، 110؛ التعليم 52-53؛ الظروف المالية 138-
 140، 140، 169، 264-268، 271؛ الولاءات العثمانية 30، 31،
 50، 69، 72، 75-79، 87-88؛ بوصفه داعية لمعوم
 المسلمين 67، 117-118، 183-184، 192، 194؛ بوصفه
 مسؤولاً حكومياً رسمياً في منطقة الشوف 51، 70، 82؛ بوصفه
 مشاركاً في السياسة السورية في المنفى 158-159؛ سلوك مثير
 للجدل إبان الحرب العالمية الأولى 64-69؛ شخصيته 54،
 239-241؛ ملاحظات بريطانية على 82، 90، 106-107،
 137، 146، 241، 273؛ ملاحظات فرنسية على 67، 120،

إيطاليا: والشرق الأوسط العربي 245-247. انظر أيضًا أرسلان.

الأمير شكيب؛ إثيوبيا؛ موسوليني، بنيتو

جيد-

باش حانبه. علي 183

باش حانبه. محمد 183

الباكورة (كتاب) 54، 58

بروفر 332

بروفر، دكتور كورت ماكس 250، 254، 265، 276

بلغريج، أحمد 184، 197، 198؛ وأرسلان 185، 186، 189.

276، 269، 196

بن باديس. عبد الحميد 182، 200-202، 231

بن سعود، الملك عبد العزيز 150-151، 160، 166، 167،

208، 238، 245، 247؛ وأرسلان 140، 153، 155، 162.

202، 231-232، 240، 275؛ والحرب مع اليمن 155، 158

بن غوريون، ديفيد 163، 239

بنونة، حاج عبد السلام 186، 197

بورقية، الحبيب 206؛ وأرسلان 207، 211، 213

بولين، روبرت 208

بونسو، هنري (مندوب سامي فرنسي) 140

بيري، غابرييل 198

بيضا، دكتور ميشيل 138-139، 170، 307

بق-

التشكيلات المحسوسة (قوة أمنية عثمانية) 76، 181

توما، توفيق 91، 97، 141

الإسلامي 223-227؛ فيما يتعلق بالحاجة إلى نظام إسلامي

اجتماعي وأخلاقي 146، 152، 223، 225. انظر أيضًا ما أُدرج

تحت عناوين الموضوعات

أرسلان، الأمير عادل (أخ) 51، 87، 96، 126، 135

أرسلان، الأمير مصطفى (عم) 49، 51، 65، 70

أرسلان، الأمير نسيب (أخ) 51، 52، 87

الارمنازي، نجيب 125

أسرة أرسلان 34-35، 49-51، 57، 58، 70، 93، 129

أسرة النشاشيبي 261

الأسرة الهاشمية 149، 150

الإسلام بوصفه أيديولوجية سياسية في حقبة ما بين الحربين 40-

41

الإسلام: بوصفه أيديولوجية المقاومة فيما بين الحربين العالميتين

236-237، 237-238، 239، 259

الإصلاح الإسلامي 30، 55. انظر أيضًا عبده، محمد؛ أرسلان،

الأمير شكيب؛ والسلفية

أفريقيا الفرنسية، صحيفة: آراء في أرسلان 208، 209

الأفغاني، جمال الدين 35، 38، 55، 56؛ تشابه أرسلان ل 38،

81، 149، 216؛ وأرسلان 39، 40، 43، 61

أكهوب، آرثر (مندوب سامي بريطاني) 172

ألمانيا: والشرق الأوسط العربي 244-245، 247، 248. انظر

أيضًا أرسلان، الأمير شكيب

أم كلثوم 157

أنطونينوس، جورج 88

أنور باشا 69، 75، 76، 96، 181، 250؛ وأرسلان 72، 83،

88، 98، 101، 102، 106، 156، 183

حسين، الشريف 99، 118، 149، 150، 165
 حسين، طه 221، 222، 224
 الحسيني، الحاج أمين 164، 167، 176، 245، 247، 264،
 276، 309؛ وأرسلان 168، 176، 261، 262، 275، 278
 الحصري، ساطع 115، 234، 282، 284
 حويك، إلياس (بطيريك ماروني) 91، 93

-خ-

الخطيب، محب الدين 135، 164، 310
 الخلافة، استعادة: ال 150، 151-152. انظر أيضًا أرسلان، الأمير
 شكيب؛ عبد الحميد الثاني، سلطان
 الخوري، بشارة 15
 الخوري، خليل 15

-ط-

داغر، أسعد 82، 119
 السدروز 47-49، 51، 52، 58، 81-83، 89، 90، 92، 121،
 136؛ أرسلان يقطع صلته وينأى بنفسه عن ممارسات 116-117
 الدهان، سامي 233
 دو جوفينال، هنري (المنذوب السامي الفرنسي) 125، 129،
 130، 172، 174، 240
 دو مارنيل، كونت دامين (المنذوب السامي الفرنسي) 168، 173،
 174

-ز-

رابطة الشباب المسلمين 135، 238، 283
 رضا، محمد رشيد 109، 117، 119، 133، 151، 154، 191،
 200، 208، 217، 220، 231؛ عن الخلافة 152، 166؛ وانتقاد

-ث-

الثعالبي، عبد العزيز 182، 206، 207، 323
 ثورة الشباب الأتراك (1908) 65، 69، 70
 الثورة العربية 95، 99، 102، 113، 132، 235

-ج-

الجابري، إحسان 119-120، 124، 125، 126، 147، 162،
 163، 168، 174، 175، 198، 239، 262، 266، 285؛ وعن
 أرسلان 254
 الجامعة الإسلامية 67، 192. انظر أيضًا أرسلان، الأمير شكيب
 جاويش، عبد العزيز 75، 102، 183، 301
 الجزائري، طاهر 67
 جمال باشا، أحمد 86، 87، 98؛ وأرسلان 88-90، 92-97، 99،
 110، 131، 136
 جمعية الاتحاد والترقي 51، 75، 76، 86، 87، 102، 105،
 108، 128؛ وحركة إحياء 104، 105-107؛ وعلاقات أرسلان
 مع 79، 81، 104، 115، 117، 127، 183
 جمعية العلماء الجزائريين 199، 202، 205، 239؛ وأرسلان
 200-201
 جمعية اللامركزية العثمانية 79، 80، 81
 جوفيلي، لويس 240
 جوليان، شارل-أندريه 145، 180، 204، 241

-ح-

الحاج، مصالي 199، 202، 220، 239، 322؛ وأرسلان 202-
 203، 213، 285
 حزب الدستور الجديد 206، 207، 211

شوقي، أحمد 63، 67، 68، 160، 185، 222؛ وأرسلان 60.
156، 83

-ص-

الصلح، رياض 126، 146، 168
الصهيونية 163، 165، 166، 177، 233، 243

-ط-

الطاهر، محمد علي؛ وصدائته مع أرسلان 134-135، 175،
257، 273، 278، 310
طلعت باشا 69، 96، 104، 106، 108
طوسون، الأمير عمر 191

-ظ-

الظهير البربري 188، 212؛ أرسلان والحملة المناهضة ل 164،
188-190، 191، 192، 194، 195، 198، 199، 242

-ع-

عائلة جنبلاط 49، 65
عباس حلمي الثاني، خديوي مصر 139؛ وأرسلان 30، 72،
153، 154، 182

عبد الحميد الثاني، سلطان 32، 49، 60، 62، 66، 67، 68، 69،
71، 113، 238، 285؛ وأرسلان 35، 156؛ والخلافة 60

عبد الرازق، علي 283

عبد الله، الأمير (ابن الإمام يحيى) 278

عبد الناصر، جمال 285

عبد، محمد 55-57، 64، 81، 185، 200، 219؛ وأرسلان
57-58، 62، 116، 187، 216، 237، 282

عبود، مارون 63

أرسلان الباكر 81-82؛ وعلاقات أرسلان الفكرية والشخصية
117، 122، 140، 154، 157، 168، 171، 185، 194،

212، 216، 237، 260، 262، 282

رينوديل، بير 198

-ز-

زغلول، سعد 59، 146

زكي، أحمد 59، 310

-س-

سان لوسيان (المقيم العام في المغرب) 188، 196

سعيد، عبد الحميد 191، 310

السلفية 184، 185، 200-201، 212؛ أرسلان في تقليد ال 41،
216، 217

سوريا: علاقات أرسلان السياسية 97، 169-170؛ وثورة العام

1925-1926، 122، 124، 126، 127، 128، 179، 254؛

وزيارة أرسلان عام (1937) إلى 174-175؛ وسياسيات جمال

باشا في 87-92؛ انظر أيضًا أرسلان، الأمير شكيب؛ فرنسا

-ش-

الشباب الأتراك: انظر جمعية الاتحاد والترقي

الشرابي، أحمد 117، 170، 233، 236

الشرق (صحيفة) 99، 100

الشهاب (مجلة) 200، 201، 202

الشهبندر، الدكتور عبد الرحمن 128؛ وأرسلان 128، 130،

135، 262

الشورى (صحيفة) 122، 123، 125، 157، 159

- المعمانية 31. انظر أيضًا أرسلان، الأمير شكيب
عزام، عبد الرحمن 310، 157
عصبة الأمم: الهيئة الدائمة للانتداب 115-116، 118، 119،
120، 123، 129، 133، 139، 162، 191
علي يوسف، الشيخ 62، 67، 72، 181
غ-
غرانتسياني، الجنرال رودولفو 193، 195
ف-
فانتان، جان-كلود 204
فاروق، الملك 140، 273
الفاسي، علال 146، 197
الفاسي، محمد 184، 185، 189
الفتح (صحيفة) 135، 164، 185، 189، 190، 195، 201،
208، 282
فرنسا: السياسات تجاه سوريا ولبنان 112-113، 124، 129،
209-210، 253. انظر أيضًا أرسلان، الأمير شكيب؛ الظهير
البربري
فلسطين: أرسلان وقضية 141، 144، 145، 162، 163،
165؛ أرسلان وسياسة 261. انظر أيضًا أرسلان، الأمير شكيب؛
الحسيني، الحاج أمين
فؤاد، الملك 140، 150، 154
فون أوبنهايم، بارون ماكس 250؛ وأرسلان 252، 268، 270،
275، 276
فون ريشتهوفن، بارون هريبرت 139، 250، 252، 254، 332
فون، هنتيغ، فرنر أوتو 250، 270، 275، 331
فيصل، الملك 86، 102، 104، 112، 113، 118، 120، 128،
140، 150، 160؛ وأرسلان 99، 115، 233، 240، 269
فينو، بير 173، 265
ق-
القوتلي، شكري 135
القومية العربية 235-238
ك-
كرد علي، محمد 67، 100، 115، 237، 242
الكمالية، الكماليون: انظر أتا تورك، مصطفى كمال
كتعان، سليمان بيه 119، 236
كوارتارارو، روزاريا 249
الكيلاي، رشيد عالي 271، 276
ل-
لافيجري، كاردينال 189، 319
لطف الله، الأمير ميشيل 118، 128، 130، 139
لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ (كتاب) 41، 216، 283،
308
لوتورنو، روجر 193، 241
لوزان، معاهدة 108، 141
لونغيه، روبرت 198
ليبيا: انظر أرسلان، الأمير شكيب
م-
متصرفية جبل لبنان: التنظيمات الإدارية 47، 86؛ تشكيل أرسلان
السياسي في 64-66

- مجلة الأمة العربية 30، 147-148، 164، 189، 196، 211، 262، 267، 268، 275
- المختار. عمر 194
- المسيحيون العرب 32-33، 46، 47، 52؛ وأرسلان 36، 73، 90، 158. انظر أيضًا الموارنة
- مطران، خليل 63
- مظفر باشا (متصرف) 65
- المعاهدة الفرنسية السورية (1936) 173-174، 209، 220، 253، 272
- المعوشي. سليم بك 93
- المغرب (مجلة) 197، 198-199
- المغرب: تأثير أرسلان في نخبة 189، 192-193، 212؛ زيارة أرسلان 186-188. انظر أيضًا الظهير البربري
- المغربي، عبد القادر 67-68، 100-101
- المنار (مجلة) 185، 189، 191، 200، 208
- الموارنة 46، 47، 48، 49، 52، 89، 92، 236. انظر أيضًا المسيحيون العرب
- المؤتمر الإسلامي في القدس (1931) 164، 167، 192
- المؤتمر الإسلامي في أوروبا (1935) 161
- مؤتمر العالم الإسلامي (1926) 151
- المؤتمر القومي العربي في بلودان (1937) 176، 177، 197
- مؤتمر باريس العربي (1913) 80، 82، 135
- مؤتمر بشأن الخلافة (1926) 151
- موسوليني، بنيتو 246، 248، 258، 261، 267، 277؛ وأرسلان 149، 193، 258، 260، 263
- موسى، سلامة 225-226
- المؤيد (صحيفة) 59، 62، 72، 74، 181
- ن-
ناصر، مكّي 184، 325؛ وأرسلان 189، 212
- النهضة العربية 33، 54؛ أرسلان بوصفه جزءاً من 34-35، 52، 68
- هـ-
الهاشمي، ياسين 86، 115
- هالسيد، جون بي 185، 196، 199، 212
- هان، عبد القادر 269-270
- هتلر، أدولف 253، 257، 267، 277
- هيكل، محمد حسين 221، 222، 229
- و-
الوزاني، محمد حسن 184، 189، 192، 317؛ وأرسلان 196، 212
- ي-
اليابان: بوصفها نموذجاً يحتذى بالنسبة لأرسلان 217، 223، 227، 228
- يحيى (إمام اليمن) 152، 160، 166، 167، 168، 240، 275
- يوسف فرانكو باشا (متصرف) 70